الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثامن

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الخامس عشر

عطیہ
برائے دار العلوم محمدیہ سیالکوٹ
از
برادرم محمد امین صاحب وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ
حال مقیم قصر مقام العین ابوظبی
محرم ۱۴۰۳ ہجری

اعادت طبعه بالأوفست
دار احياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

فهـــرس الجـــزء الخـــامس عشر

تفســـير ســـورة « يس »

صفحة

القول بمكيتها . الترغيب فى تلاوتها على الموتى . الأحاديث الواردة فى فضل قراءتها واستماعها ١

قوله تعـالى : « يس . والقـرآن الحكيم ... » الآيات . بيـان أوجه القراءات فى « يس » وتفسيرها ٣

قوله تعـالى : « إنا نحن نحيي الموتى ... » الآية . سبب نزولها . فضل المشى إلى المسـاجد ١١

قوله تعـالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ... » الآيات . القرية هى أنطاكية . ما حكاه المفسرون فى قصـة أصحابها ١٣

قوله تعـالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ... » الآيات . بيان منازل الشمس ٢٥

قوله تعـالى : « والقمر قدرناه منازل ... » الآية . بيان منازل القمر ٢٩

قوله تعـالى : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ... » الآيات . الفلك سفينة نوح أو المراد الجنس ٣٤

قوله تعـالى : « ونفخ فى الصور ... » الآيات . الكلام على عدد النفخ ومعنى الصور ٣٩

قوله تعـالى : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ... » الآيات . الأقوال فى شغل أهل الجنة ٤٣

قوله تعـالى : « اليوم نختم على أفواههم ... » الآيات . الأحاديث الواردة فى شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة ٤٨

قوله تعـالى : « وما علمناه الشعر ... » الآية . الرد على من قال من الكفار إن النبى صلى الله عليه وسلم شاعر . إصابته الوزن لا يوجب أنه يعلم الشعر ٥١

قوله تعـالى : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ... » الآيات ٥٥

قوله تعـالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ... » الآية . دلالتها على صحة القياس وأن فى العظام حياة، وأنها تنجس بالموت ٥٨

قوله تعـالى : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ... » الآيات ٥٩

Marfat.com

سورة الصافات

صفحة

قوله تعالى : « والصافات صفا ... » الآيات . الكلام على قذف الشياطين بالشهب . هل كان القذف قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده لأجل المبعث . كيفية آستراق الشياطين السمع ٦١

قوله تعالى : « فآستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ... » الآيات ٦٨

قوله تعالى : « آحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ... » الآيات ٧٢

قوله تعالى : « و يقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ... » الآيات ٧٦

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ... » الآيات ٨١

قوله تعالى : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ... » الآيات . معنى النزل فى اللغة وآشتقاقه . شجرة الزقوم وآشتقاقها وما قيل فيها ٨٥

قوله تعالى : « ولقد نادانا نوح ... » الآيات . هل الناس كلهم من ولد نوح أم كان لغيره نسل ؟ ٨٩

قوله تعالى : « و إن من شيعته لإبراهيم ... » الآيات . الكلام على نظر سيدنا إبراهيم عليه السلام فى النجوم . اختلافهم فى سقمه هل كان حقيقة، أو تورية وتعريضا . كان أول من هاجر من بلده إلى حيث يتمكن من عبادة ربه . طلبه الولد الصالح... .. .. ٩١

قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى ... » الآيات . آختلاف العلماء فى المأمور بذبحه . رؤيا الأنبياء وحى . فى قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل . وأيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمنها . وهل هى سنة أو واجبة . ما يضحى به الأزواج الثمانية . ماذا يتقى من الضحايا . حكم من نذر ذبح آبنه... ... ... ٩٨

قوله تعالى : « ولقد مننا على موسى وهرون ... » الآيات... ... ... ١١٤

قوله تعالى : « و إن إلياس لمن المرسلين ... » الآيات . قصة إلياس ولوط عليهما السلام ١١٥

قوله تعالى : « و إن يونس لمن المرسلين ... » الآيات . يونس هو ذو النون . ما حكى فى قصته عليه السلام . حكم القرعة فى الشرع . الأقتراع على القاء الآدمى فى البحر لا يجوز . محامل « أو » فى قوله تعالى : « أو يزيدون » ... ١٢١

Marfat.com

صفحة
قوله تعالى : « فآستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ... » الآيات ١٣٣
قوله تعالى : « فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين ... » الآيات . فيها ردّ على القدرية ١٣٥
قوله تعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون ... » الايات . معنى « سبحان ربك » و « رب العزة » . وفضل قول هذه الآيات فى ختام المجلس ١٤٠

سورة ص

قوله تعالى : « ص والقرآن ذى الذكر ... » الآيات . القراءات فى « ص » وأقوال العلماء فى معناها . معنى « ولات حين مناص » وإعرابها ١٤٢
قوله تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ... » الآيات . سبب نزولها إلى قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح » ١٤٩
قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات ١٥٤
قوله تعالى : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ... » الآية . معنى تسبيح الجبال والطير . صلاة الإشراق هى صلاة الضحى . حكم صلاة الضحى . أجرمن صلاها ١٥٩
قوله تعالى : « والطير محشورة ... » الآيات . الكلام على معنى « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . علم القضاء نوع من العلم غير المعرفة بالأحكام ١٦١
قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم ... » الآيات . قصة داود عليه السلام مع الملكين اللذين تسوروا عليه المحراب وسبب محنته . ليس على الحاكم أن يجلس للفصل كل يوم . لا يقضى القاضى حتى يسمع حجة كل واحد من الخصمين حكم القضاء فى المساجد . كان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأول من آستقضى معاوية . آختلاف العلماء فى سجدة « ص » ١٦٤
قوله تعالى : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ... » الآية . هى أصل فى الأقضية . الحكم بين الناس بالعدل واجب . الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ١٨٨
قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ... » الآيات ١٩١
قوله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان ... » الآيات . حكم سباق الخيل ١٩٢
قوله تعالى : « ولقد فتنا سليمان ... » الآيات . ما حكى فى سبب فتنة سليمان عليه السلام . صفة كرسيه ١٩٨

Marfat.com

صفحة

قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب ... » الايات . ما قيل فى سبب بلاء أيوب عليه السلام ، وما أصابه من البلاء ومدته ٢٠٧

قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثا ... » الآية . حلف أيوب وسببه . دلالة الآية على جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا . اختلاف العلماء فى هذا الحكم ؛ هل هو عام أو خاص بأيوب . قوله تعالى : «ولا تحنث» دليل على أن الاستثناء فى اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراخيا . قوله تعالى : « اركض برجلك » لا يدل على جواز الرقص خلافا لجهلة المتصوفة ٢١٢

قوله تعالى : « واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ... » الآيات ٢١٧

قوله تعالى : « واذكر إسمعيل واليسع وذا الكفل ... » الآيات ٢١٨

قوله تعالى : « هـذا وإن للطاغين لشر مآب ... » الآيات ٢٢٠

قوله تعالى : « وقالوا ما لنا لا نرى رجالا ... » الآيات ٢٢٤

قوله تعالى : « قل إنما أنا منذر ... » الايات ٢٢٥

قوله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا ... » الآيات ٢٢٧

سـورة الزمـر

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ... » الآيات فى قوله تعالى : « فاعبد الله مخلصا » دليل على وجوب النية فى كل عمل خلافا للحنفية فى الوضوء . ٢٣٢

قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق ... » الآيات ٢٣٤

قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه ... » الآيات... ... ... ٢٣٧

قوله تعالى : « قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم... » . فى قوله تعالى : «وأرض الله واسعة » أمر بالهجرة من مكة ، ومن الأرض الغالية إلى الأرض الراخية . ٢٤٠

قوله تعالى : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا ... » الآيات ٢٤٢

قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ... » الآية ٢٤٥

قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث ... » الآية . أحسن الحديث القرآن . كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرئ عليهم القرآن تقشعر جلودهم ... ٢٤٨

قوله تعالى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب ... » الآيات ٢٥١

قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله ... » الآيات ٢٥٥

Marfat.com

صفحة

قوله تعالى : « ولئن سألتهم [illegible] خلق السموات والأرض ... » الآيات ٢٥٨

قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ... » الآية . النوم أخو الموت . اختلاف الناس [illegible] النفس والروح . ما يقوله الإنسان إذا أراد أن ينام . وإذا استيقظ ٢٦٠

قوله تعالى : [illegible] اتخذوا من دون الله شفعاء ... » الآيات ٢٦٣

قوله تعالى : [illegible] اللهم فاطر السموات والأرض ... » الآيات ٢٦٤

قوله تعالى : « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ... » الآيات ٢٦٦

قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أ[illegible] » الآيات ، سبب نزولها ٢٦٧

قوله تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا [illegible] وجوههم مسودة ... » الآيات ٢٧٣

قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره [illegible] » الآيات ٢٧٧

قوله تعالى : « وسيق الذين كفروا [illegible] زمرا ... » الآيات ٢٨٣

سورة غافر

القول بمكيتها إلا آيتين . [illegible] فضل الحواميم . كيفية جمعها ٢٨٨

قوله تعالى : « حم [illegible] الكتاب من الله ... » الآيات . الأقوال فى معنى « حم » ٢٨٩

قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات ٢٩٢

قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينادون ... » الآيات ٢٩٦

قوله تعالى : « هو الذى يريكم آياته ... » الآيات ٢٩٨

قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة ... » الآيات ٣٠١

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ... » الآيات ٣٠٤

قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون » الآية . الكلام على مؤمن آل فرعون . الإنسان لا يكون مؤمنا بقلبه حتى يتلفظ بلسانه . دفاع أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ٣٠٦

قوله تعالى : « يا قوم لكم الملك اليوم ... » الآيات ٣٠٩

قوله تعالى : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ... » الآيات ٣١٢

قوله تعالى : « وإذ يتحاجون فى النار ... » الآيات ٣٢٠

Marfat.com

صفحة

قوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا ... » الآيات ٣٢٢

قوله تعالى : « وقال ربكم آدعونى أستجب لكم ... » الآيات ٣٢٦

قوله تعالى : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ... » الآيات . ٣٢٩

قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض ... » الآيات ٣٣٥

ســورة فصلت

قوله تعالى : « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ... » الآيات . ما روى من سماع عتبة بن ربيعة ســورة « فصلت » إلى قوله : « مثـل صاعقة عاد وثمود » وإنذاره قومه ٣٣٧

قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ... » الآيات . خلق السموات والأرض فى ستة أيام ٣٤٢

قوله تعالى : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار ... » الآيات ٣٤٩

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم آستقاموا ... » الآيات . سبب نزولها . ٣٥٧

قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار ... » الآيات . اختلافهم فى موضع سجود من آية السجدة . الآية تضمنت صـلاة كسوف القمر والشمس ٣٦٣

قوله تعالى : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفـون علينا . » الآيات . الكلام على أن القرآن عربى، وأنه إذا نقل عنه إلى غيره لم يكن قرآنا ٣٦٦

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . » الآيات ٣٧٠

قوله تعالى : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخـير . » الآيات ٣٧٢

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عنـد الله ثم كفرتم به . » الآيات ٣٧٤

اســـتدراك

أورد القرطبى " ثلاث مسائل " فى تفسير قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث » — الآية — وسقط منها لفظ " الثالثة "، وموضعها فى أول السطر الثالث من صفحة ٢٥٠

محمد محمد حسنين

المصحح بالقسم الأدبى

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

وهى مكية بإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية ؛ إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» نزلت فى بنى سَلِمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ما يأتى . وفى كتاب أبى داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آقرءوا يس على موتاكم" . وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء (١) عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ميت يُقرأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه" . وفى مسند الدارِمىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة يس فى ليلة آبتغاء وجهِ الله غُفِر له فى تلك الليلة" خرجه أبو نعيم الحافظ أيضا . وروى الترمذىّ عن أنس قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : "إن لكل شىء قلبًا وقلبُ القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءةَ القرآن عشر مرات" قال : هذا حديث غريب، وفى إسناده هرون أبو محمد شيخ مجهول؛ وفى الباب عن أبى بكر الصدّيق ، ولا يصح حديث أبى بكر من قبل إسناده ، وإسناده ضعيف . وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى القرآن لسورةً تَشفع لقارئها ويُغفر لمستمعها . ألا وهى سورة يس تُدعى فى التوراة المعِمّة" قيل : يا رسول الله وما المعِمّة ؟ قال : "تعمّ صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية" قيل : يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال : "تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدّق بها فى سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدًى ونُزِع

(١) كذا فى نسخ الأصل والذى فى الدر المنثور : أبى الدرداء .

Marfat.com

عنه كُلّ داء وغِلّ". ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه مسندا. وفي مسند الدارِميّ عن شَهْر بن حَوْشَب قال قال ابن عباس : من قرأ «يسٓ» حين يُصبِح أُعطى يُسْر يومه حتى يُمسى ومن قرأها في صدر ليلته أعطى يُسْر ليلته حتى يُصبِح . وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : لكل شيء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهارا كُفِى همه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه . وقال شهر ابن حَوْشَب : يقرأ أهل الجنة « طه » و « يسٓ » فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردىّ فقال : روى الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء قلبا و إن قلبَ القرآن يسٓ ومن قرأها في ليلة اعطى يُسْر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أعطى يسر ذلك اليوم و إن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا إلا طه و يسٓ". وقال يحيى بن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة «يسٓ» ليلا لم يزل في فرح حتى يُصبِح، ومن قرأها حين يُصبِح لم يزل في فرح حتى يُمسِى؛ وقد حدّثنى من جرّبها ؛ ذكره الثعلبي وابن عطية . قال ابن عطية : و يصدّق ذلك التجربة . وذكر الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال حدّثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال : من وجد في قلبه قساوة فليكتب « يسٓ » في جام بزعفران ثم يشربه ؛ حدّثني أبي رحمه الله، قال حدّثنا أَصْرَم بن حَوْشَب ،عن بقيّة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد ابن على ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقّر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقّر القرآن لم يوقر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده القرآن شافع مشفَّع وماحِلٌ (١) مصدّق فمن شَفَع له القرآنُ شفِّع ومن مَحَل به القرآن صُدِّق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبَّسون نور الله المعلَّمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى يا حملة القرآن

(١) قال ابن الأثير : ما حل أى خصم مجادل مصدّق .

Marfat.com

آستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبًا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالي القرآن][1] بلوى الآخرة ومن آستمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التُّخُوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس". وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ سورة يسٓ ليلة الجمعة أصبح مغفورا له". وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دخل المقابر فقرأ سورة يسٓ خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات".

قوله تعالى: يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿ يسٓ ﴾ في «يس» أوجه من القراءات؛ قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿ يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ بإدغام النون في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة «يسِنْ» بإظهار النون. وقرأ عيسى بن عمر «يسِنَ» بنصب النون. وقرأ آبن عباس وآبن أبي إسحق ونصر بن عاصم «يسِنِ» بالكسر. وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع «يسِنُ» بضم النون؛ فهذه خمس قراءات. القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأن النون تدغم في الواو. ومن بيّن قال سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنما يكون الإدغام في الإدراج. وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين: إحداهما أن يكون مفعولا ولا يصرفه؛ لأنه عنده آسم أعجمي بمنزلة هابيل والتقدير آذكر يسين. وجعله سيبويه آسما للسورة. وقوله الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيفَ وأينَ. وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل؛ فعلى هذا يكون «يسِنِ» قسما. وقاله آبن عباس. وقيل: مشبّه بأمسِ وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ. وأما الضم فشبّه بمنذُ وحيثُ وقطُّ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ، لمن يقف عليه. قال آبن السَّميقع وهرون: وقد جاء في تفسيرها

(١) الزيادة من «نوادر الأصول» للترمذي الحكيم.

Marfat.com

... ل بها الضم ... قال ... ابن الأنباري : «يس» وقف حسن لمن قال هو آفتتاح للسورة.
... قال ... معنى «يس» يا رجل لم يقف عليه . وروى عن آبن عباس وآبن مسعود
... هما أن معناه يا إنسان، وقالوا في قوله تعالى: «سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ» أي على آل محمد.
وقال ... بن جبير: هو آسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم؛ ودليله «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».
... السيد الحميري:

يا نفس لا تمحضي بالنُّصح جاهدةً ... على المودة إلا آلَ ياسينِ

وقال أبو ... الوراق: معناه يا سيد البشر. وقيل: إنه آسم من أسماء الله؛ قاله مالك.
روى عنه أشهب قال: سألته هل ينبغي لأحد أن يتسمّى بياسين؟ قال: ما أراه ينبغي
لقول الله «يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» يقول هذا آسمي يس. قال آبن العربي هذا كلام بديع،
وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى بآسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله عالم وقادر ومريد
ومتكلم. وإنما منع مالك من التسمية بـ«يسين»؛ لأنه آسم من أسماء الله لا يُدرَى معناه؛
فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبد. فإن قيل فقد قال الله تعالى
«سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ» قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس
بمتهجّى هو الذي تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم. وقال بعض العلماء:
آفتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير، ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب
أمير على الجسد؛ وكذلك «يس» أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن. ثم آختلفوا
فيه أيضا؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو بلغة الحبشة. وقال الشعبي: هو بلغة طيّ.
الحسن: بلغة كلب. الكلبي: هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم. وقد
مضى هذا المعنى في «طه» وفي مقدمة الكتاب مستوفى. وقد سرد القاضي عياض أقوال
المفسرين في معنى «يس» فحكى أبو محمد مكيّ أنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال:
"لي عند ربي عشرة أسماء" ذكر أن منها طه ويس آسمان له.

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. وجـ ١ ص ٦٧ وما بعدها طبعة ثانية.

قلت : وذكر الماوردي عن علي رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله " قاله القاضي . وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد، مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : « يس » يا إنسان أراد محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه . وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان. وعن ابن الحنفية : «يس» يا محمد. وعن كعب : «يس» قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام [قال](١) يا محمد « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » ثم قال «وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ». فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه. وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه؛ أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه ياسيد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم" انتهى كلامه . وحكى القشيري قال ابن عباس : قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين . « والحكيم » المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » . وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل . وقد يكون « الحكيم » في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام . وقال الزجاج : على طريق الأنبياء الذين تقدموك ؛ [و] قال : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » خبر إن و « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » خبر ثان ؛ أي إنك لمن المرسلين ، و إنك على صراط مستقيم . وقيل : المعنى لمن المرسلين على استقامة ؛ فيكون قوله : « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » من صلة المرسلين ؛ أي إنك لمن المرسلين

---

(١) زيادة يقتضيها المقام، و يدل عليها ما ورد في « الدر المنثور » للسيوطي عن كعب .

Marfat.com

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • صِرَاطِ اللهِ » أى الصراط الذى أمر الله به .

قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف « تَنزِيلَ » بنصب اللام على المصدر؛ أى نزّل الله ذلك تنزيلا . وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » أى فضربا للرقاب . الباقون « تَنزِيلُ » بالرفع على خبر ابتـداء محذوف أى هو تنزيل ، أو الذى أنزل إليك تنزيل العـزيز الرحيم . هذا وقرئ « تنزيلِ » بالجر على البدل من « القرآن » والتنزيل يرجع إلى القرآن . وقيل : إلى النبي صلى الله عليه وسـلم أى إنك لمن المرسـلين ، وإنك « تَنزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى : « قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو » ويقال : أرسل الله المطر وأنزله بمعنى . ومحمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله أنزلها من السماء . ومن نصب قال : إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم . و « العزيز » المنتقم ممن خالفه « الرحيم » بأهل طاعته .

قوله تعالى : لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ « ما » لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير منهم قتادة؛ لأنها نفى والمعنى : لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير . وقيل: هى بمعنى الذى فالمعنى : لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا . وقيل : إن « ما » والفعل مصدر ؛ أى لتنذر قوما إنذار آبائهم . ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء ؛ فالمعنى لم ينذروا برسول من أنفسهم . ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا . ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبيّ ، وقد قال الله : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ »

Marfat.com

وقال : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا ما أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى لم يأتهم نبيّ . وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء ، فالمعنى فهم معرضون الآنَ متغافلون عن ذلك ، ويقال للعرض عن الشيء إنه غافل عنه . وقيل : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن عقاب الله .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ أى وجب العذاب على أكثرهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بإنذارك . وهذا فيمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره . ثم بيّن سبب تركهم الإيمان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ . قيل : نزلت فى أبى جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلّى ليرضخنّ رأسه بحجر ؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه ، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه ، والتصق الحجر بيده ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ؛ فهو على هذا تمثيل أى هو بمنزلة من غُلّت يدُه إلى عنقه فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثانى وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه . فأتاه وهو يصلى على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال : والله ما رأيته ولقد سمعت صوته . فقال الثالث : والله لأشدخنّ أنا رأسه . ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشيّا عليه . فقيل له : ما شأنك ؟ قال شأنى عظيم ! رأيت الرجل فلما دنوت منه ، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بينى و بينه ، فواللّاتِ والعُزّى لو دنوت منه لأكلنى . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ . وقرأ ابن عباس « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ » . وقال الزجاج: وقرئ « إنا جعلنا فى أيديهم » . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . وفى الكلام حذف على قراءة الجماعة ؛ التقدير : إنا جعلنا فى أعناقهم وفى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان ، فهى كناية عن الأيدى لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا . ونظيره « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف ؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد ؛ لأن الغُلّ إذا كان فى العنق فلا بد أن يكون فى اليد ، ولا سيما

وقد قال الله عز وجل : «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ» فقد علم أنه يراد به الأيدى . «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» أى رافعو رءوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلّت يده إلى ذَقَنه آرتفع رأسه . روى عبد الله بن يحيى أن على بن أبى طالب عليه السلام أراهم الإقماح ، فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما و رفع رأسه . قال النحاس : وهذا أجل ما روى فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعى . قال : يقال أقمحت الدابةُ إذا جذبت لجامها لترفع رأسها . قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها . كما يقال : قَهَرته وكَهَرته . قال الأصمعى : يقال أكمحتُ الدابةَ إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها . ومنه قول الشاعر :

* ... والرأسُ مُكْمَحُ[1] *

و يقال : أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعى. وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً إذا رفع رأسه عند الحوض وآمتنع من الشرب ، فهو بعير قامِحٌ وقَمِحٌ ؛ يقال : شَرِب فتقمّح وآنقمح بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا . وقد قامحت إبلُك إذا وردت ولم تشرب ، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو بَرْد . وهى إبل مُقامحة و بعير مقامح وناقة مقامح أيضا ، والجمع قِماح على غير قياس ؛ قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جَوانبها قُعــودٌ * نَغُضّ الطرفَ كالإبل القِماح

والإقماح رفع الرأس وغضّ البصر؛ يقال: أَقْمَحه الغُلُّ إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه. وشهرا قماح أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك ؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فتقامحت رءوسها ؛ ومنه قَمِحتُ[2] السويقَ . وقيل : هو مثل ضربه الله تعالى لهم فى آمتناعهم من الهدى كامتناع المغلول ؛ قاله يحيى بن سلاّم وأبو عبيدة . وكما يقال فلان حمار ؛ أى لا يبصر الهدى . وكما قال :

* لهم عن الرشدِ أغلالٌ وأقيادُ *

---

(١) البيت لذى الرمة وتمامه :

تمــور بضبعيها وترمى بجــوزها * حذارا من الإيعاد والرأس مكمح

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) إذا آستفه .

وفى الخبر : إن أبا ذؤيب كان يهوى آمرأة فى الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول :

فليس كعهدِ الدارِ يا أم مَالِكٍ * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ * سِوى العدلِ شيئًا فآستراح العواذلُ (١)

أراد مُنِعْنا بموانع الإسلام عن تعاطى الزنى والفسق؛ وقال الفراء أيضا : هـذا ضرب مثل؛ أى حبسناهم عن الإنفاق فى سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ» وقاله الضحاك . وقيل : إن هؤلاء صاروا فى الآستكبار عن الحق كمن جُعل فى يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه، فبقى رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضًّا بصره لا يفتحه . والمتكبر يوصف بآنتصاب العنق . وقال الأزهرى : إن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صُعُدا كالإبل ترفع رءوسها . وهذا المنع بخلق الكفر فى قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم . وقيل : الآية إشارة إلى ما يُفعَل بأقوام غدًا فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى : «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ» وأخبر عنه بلفظ الماضى . «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» تقدّم تفسيره . وقال مجاهد : «مُقْمَحُونَ» مُغلُّون عن كل خير .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل : لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسقط الحجر من يده، أخذ

(١) يقول : رجع الفتى عما كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهل، فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه . سوى العدل : أى سوى الحق .

Marfat.com

الحجر رجل آخر من بنى مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر . فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم طمس الله على بصره، فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية . وقال محمد بن إسحق فى روايته : جلس عُتبة وشيبة آبنا ربيعة، وأبو جهل وأمّية بن خلف، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه، نخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ «يس» وفى يده تراب فرماهم به وقرأ «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام . وقد مضى هذا فى سورة «سبحان»(١) ومضى فى «الكهف»(٢) الكلام فى «سدا» بضم السين وفتحها وهما لغتان . ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أى غطينا أبصارهم : وقدمضى فى أول «البقرة»(٣) . وقرأ آبن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر «فأعشيناهم» بالعين غير معجمة من العَشاء فى العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

* مَتَى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ(٤) *

وقال تعالى: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» الآية . والمعنى متقارب والمعنى أعميناهم؛ كما قال:

ومن الحوادثِ لا أبالكَ أنّنى * ضُرِبتْ علىّ الأرضُ بالأسْدَادِ

لا أهتدى فيها لموضع تَلْعَةٍ * بينَ العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرادِ

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أى الهدى؛ قاله قتادة . وقيل : محمدا حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدى . وقال الضحاك : «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» أى الدنيا «وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» أى الآخرة؛ أى عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع فى الدنيا؛ قال الله تعالى: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» أى زينوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة . وقيل : على هذا «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» أى غرورا بالدنيا «وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» أى تكذيبا بالآخرة. وقيل : «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الدنيا . ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدم فى «البقرة»(٥) والآية رد على القدرية وغيرهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) هو الحطيئة، وتمام البيت :

* تجد خير نار عندها خير موقد *

(٥) راجع جـ ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القَدَرِي فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقَدَر ؛ فقال : يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » فقال : اقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» فقال اقرأ فقال : «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» فقال : والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أنّ هذا في كتاب الله قط . فقال له : ياغيلان اقرأ أوّل سورة « يس » فقرأ حتى بلغ « وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين كأني لم أرها قط قبل اليوم ؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب . فقال عمر : اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذبا فسلّط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين ؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه . وقال ابن عون : فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق . فقلنا : ما شأنك يا غيلان ؟ فقال : أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن وعمل به . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره ؛ قاله قتادة . وقيل : أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذنبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردا على الكفرة . وقال الضحاك والحسن : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل . والأوّل أظهر أي نحييهم بالبعث للجزاء . ثم توعدهم بذكره كَتْبَ الآثار وهي :

الثانيـة — وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان . قال قتادة : معناه من عمل . وقاله مجاهد وابن زيد . ونظيره قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » وقوله : « يُنَبَّأُ

Marfat.com

الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وقال : « ٱتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها : من أثر حسن ؛ كعلم علّموه ، أو كتاب صنّفوه ، أو حبيس احتبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك ؛ أو سيّء كوظيفة وظفها بعض الظلّام على المسلمين ، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملّاه ، وكذلك كل سنة حسنة . أو سيئة يستنّ بها . وقيل : هي آثار المشّائين إلى المساجد . وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا أن معنى « وَآثَارَهُمْ » خُطاهم إلى المساجد . قال النحاس : وهذا أولى ما قيل فيه ؛ لأنه قال : إن الآية نزلت في ذلك ؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد . وفي الحديث مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُكتبُ له برِجلٍ حسنة وتُحطُّ عنه برِجل سيئة ذاهبا وراجعا إذا خرج إلى المسجد".

قلت : وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلِمة (١) في ناحية المدينة فأرادوا النُّقلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن آثاركم تُكتَب" فلم ينتقلوا . قال : هذا حديث [حسن] (٢) غريب من حديث الثوري . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سَلِمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد ؛ قال : والبقاع خالية ؛ قال : فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا بني سَلِمة ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم" فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحوّلنا . وقال ثابت البُنَاني : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : مشيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال "أما علمت أن الآثار تُكتَب" فهذا احتجاج بالآية . وقال قتادة ومجاهد أيضا والحسن : الآثار في هذه الآية الخُطَا . وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الآثار هي الخُطَا إلى الجمعة . وواحد الآثار أثَر ويقال أثْر .

(١) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار .
(٢) الزيادة من صحيح الترمذي

Marfat.com

الثالثــة — فى هــذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسـجد أفضل ، فلو كان بجوار مسجد ، فهل له أن يجاوزه الى الأبعد ؟ آختلف فيه ؛ فروى عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم . وروى عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرا . وكره الحسن وغيره هــذا ؛ وقال : لا يدع مسجدا قربَه ويأتى غيره . وهذا مذهب مالك . وفى تخطى مسجده إلى مسجده الأعظم قولان . وخرج آبن ماجه من حديث أنس آبن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "صلاة الرجل فى بيته بصلاة وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةً وصلاته فى المسجد الذى يُجَمَّع(١) فيه بخمسمائة صلاة".

الرابعــة — "ديارَكم" منصوب على الإغراء أى آلزموا و"تكتب" جزم على جواب ذلك الأمر . « وكُلَّ » نصب بفعل مضمر يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » كأنه قال وأحصينا كل شىء أحصيناه . ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى ، ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل . وهو قول الخليل وسيبويه . والإمام الكتاب المقتدَى به الذى هو حجة . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ . وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

(١) يجمع (بالتشديد) من التجمع ، أى يصلى فيه الجمعة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية[1]] هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردي . نسبت إلى أهل أنطبيس وهو اسم الذي بناها ثم غيّر لما عُرِّب . ذكره السهيلي . ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام . ذكره المهدوي وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب . فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق ، وصدوق ، وشلوم هو الثالث . هذا قول الطبري . وقال غيره : شمعون ويوحنا . وحكى النقاش : شمعان ويحيي ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا . ويجوز أن يكون « مَثَلًا » و « أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ » مفعولين لاضرب ، أو « أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ » بدلا من « مَثَلًا » أي اضرب لهم مثل أصحاب القرية فحذف المضاف . أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل . قيل : رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه ؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء . ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما . ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي فقوّينا وشدّدنا الرسالة « بِثَالِثٍ » . وقرأ أبو بكر عن عاصم « فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ » بالتخفيف وشدّد الباقون . قال الجوهري : وقوله تعالى : « فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » يخفّف ويشدّد ، أي قوّينا وشدّدنا . قال الأصمعي : أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للتلمّس :

أُجُدٌ إذا رَحَلَتْ[2] تَعَزَّزَ لَحْمُها * وإذا تُشَدّ بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ

أي لا ترغو ؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ومنه « وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ » . والتشديد بمعنى قوّينا وكثّرنا . وفي القصة أن عيسى أرسل

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي .

(٢) وفي اللسان : أجد إذا ضمرت . ويروى في غيره : عنس إذا ضمرت .

Marfat.com

إليهم رسولين، فلقيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب «يسٓ» فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا : نحن نشفي المرضى. وكان له ابن مجنون . وقيـل : مريض على الفراش فمسحاه ، فقام بإذن الله صحيحا ، فآمن الرجل بالله . وقيل : هو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ففشا أمرهما ، وشـفيا كثيرا من المرضى ، فأرسل الملك إليهما — وكان يعبد الأصنام — يستخبرهما فقالا : نحن رسولا عيسى . فقـال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المـريض بإذن الله ، وندعوك إلى عبادة الله وحده . فهمّ الملكُ بضربهما . وقال وهب : حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة ، فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا . قيل : شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما ؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم ، واستأنسوا به ، ورفعوا حديثـه إلى الملك فأنس به ، وأظهر موافقته فى دينه ، فرضى الملك طريقته ؛ ثم قال يوما للملك : بلغنى أنك حبست رجلين دعواك إلى الله ، فلو سألت عنهما ما وراءهما . فقال : إن الغضب حال بينى وبين سـؤالهما . قال : فلو أحضرتهما . فأمر بذلك ؛ فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدّعيان ؟ فقالا : نبرئ الأكمه والأبرص . فجىء بغلام ممسوح العينين ؛ موضـع عينيه كالجبهة ، فدعوا ربهما فانشق موضـع البصر ، فأخذا بنـدقتين طينا فوضعاها فى خديه ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ؛ فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاما مات منذ سـبعة أيام ولم أدفنه حتى يجىء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ، ودعاه شمعون سرا ، فقام الميت حيا، فقال للناس : إنى متّ منذ سبعة أيام، فوُجدت مشركا، فأدخلتُ فى سبعة أودية من النار، فأحذّركم ما أنتم فيـه فآمنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه ، حتى أحيانى الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله. فقالوا له : وهذا شمعون أيضا معهم ؟ فقال : نعم وهو أفضلهم . فأعلمهم شمعون أنه رسـول المسيح إليهـم ، فأثر قوله فى الملك ، فدعاه إلى الله ، فآمن الملك فى قوم كثير وكفـر آخرون . وحكى القشيرى أن الملك آمن ولم يؤمن قومه ، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقى منهـم من الكفار .

Marfat.com

وروى أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا : يا نبىّ الله إنا لا نعرف أن نتكلم بألسنتهم ولغاتهم . فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » فقالوا جميعا ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون فى الأسواق ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأمر به ولا [من شىء](١) ينهى عنه ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فى دعواكم الرسالة ؛ فقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ فى أن الله واحد ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى تشاءمنا بكم . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم . ويقال إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال الفراء : لنقتلنكم . قال : وعامة ما فى القرآن من الرجم معناه القتل . وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة . وقيل : لنشتمنكم ؛ وقد تقدّم جميعه .(٢) ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل : هو القتل . وقيل : هو التعذيب المؤلم . وقيل : هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب . فقالت الرسل : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى شؤمكم معكم أى حظكم من الخير والشر معكم ولازم فى أعناقكم وليس هو من شؤمنا . قال معناه الضحاك . وقال قتادة : أعمالكم معكم . ابن عباس : معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم . الفراء : « طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ » رزقكم وعملكم ؛ والمعنى واحد . وقرأ الحسن . « اطَّيرُكُمْ » أى تطيركم .(٣) ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ قال قتادة : إن ذكرتم تطيرتم . وفيه تسعة أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة « أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ » بتخفيف الهمزة الثانية . وقرأ أهل الكوفة «أَئِنْ» بتحقيق الهمزتين . والوجه الثالث « أَاإِنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين . والوجه الرابع «اايْن» بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة . والقراءة الخامسة « أَاأَنْ » بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف . والوجه السادس «أَأَنْ» بهمزتين محققتين مفتوحتين . وحكى الفراء : أن هذه القراءة قراءة أبى رُزَين .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٣) قال أبو حيان فى هذه القراءة : «اطّيركم» مصدر اطّير الذى أصله تطير فادغمت التاء فى الطاء، فاجتلبت همزة الوصل فى الماضى والمصدر.

Marfat.com

قلت : وحكاه الثعلبي عن زر بن حبيش وابن السميقع . وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري « قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ » بمعنى حيث . وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة « ذُكِرْتُمْ » بالتخفيف . ذكر جميعه النحاس . وذكر المهدوي عن طلحة بن مصرف وعيسى الهمذاني « آنْ ذُكِّرْتُمْ » بالمد على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة . الماجشون : « أَنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزة واحدة مفتوحة . فهذه تسع قراءات . وقرأ ابن هرمز « طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ » . « أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ » أي لإن وعظتم ؛ وهو كلام مستأنف أي إن وعظتم تطيرتم . وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ قال قتادة : مسرفون في تطيركم . يحيى بن سلام : مسرفون في كفركم . وقال ابن بحر : السرف هاهنا الفساد ومعناه بل أنتم قوم مفسدون . وقيل : مسرفون مشركون، والإسراف مجاوزة الحد والمشرك يجاوز الحد .

قوله تعالى : وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ هو حبيب بن مري وكان نجارا . وقيل : إسكافا . وقيل : قصارا . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب

Marfat.com

آبن إسرائيل النجار وكان يَنْحَت الأصنام، وهو ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و بينهما سمائة سنة، كما آمن به تُبَّع الأكبر وورَقة بن نوفل وغيرهما . ولم يؤمن بنبي أحدٌ إلا بعد ظهوره . قال وهب : وكان حبيب مجذوما، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يَعكُف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه و يكشفون ضُرّه فما آستجابوا له، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع، [فكيف](1) يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر . فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس، فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدّق بكسبه، فأطعم عياله نصفا وتصدّق بنصف، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم فـ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية . وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجرا ؟ قالوا : لا، ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية : فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه فـ« قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى لو كانوا متّهَمين لطلبوا منكم المال ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فاهتدوا بهم . ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ ! فقال : « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» أى خلقنى . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا آحتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم : لأن ذلك وعيد يقتضى الزجر؛ فكانت إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا، و إضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا. ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعنى أصناما . ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ ﴾ يعنى ما أصابه من السقم . ﴿ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ يخلصونى مما أنا فيه من البلاء. ﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ يعنى إن فعلت ذلك ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى خسران ظاهر . ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال آبن مسعود : خاطب الرسل بأنه

(١) الزيادة من تفسير الألوسى .

Marfat.com

مؤمن بالله ربهم؛ ومعنى « فَٱسْمَعُونِ » أى فٱشهدوا أى كونوا شهودى بالإيمان . وقال كعب ووهب : إنما قال ذلك لقومه إنى آمنت بربكم الذى كفرتم به . وقيل : إنه لما قال لقومه « ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . ٱتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً » رفعوه إلى الملك وقالوا : قد تبعت عدوّنا ، فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال : « إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ » فوثبوا عليه فقتلوه . قال آبن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه[(١)] من دبره ، وألقى فى بئر وهى الرَّسّ وهم أصحابَ الرّس . وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة . وقال السدى رموه بالحجارة وهو يقول اللهم آهد قومى حتى قتلوه . وقال الكلبي : حفروا حفرة وجعلوه فيها ، وردموا فوقه التراب فمات ردما . وقال الحسن : حرقوه حرقا ، وعلّقوه من سور المدينة وقبره فى سور أنطاكية ؛ حكاه الثعلبى . وقال القشيرى : وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو فى الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة ، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها . وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ، فوالله ما خرجت روحه إلا فى الجنة فدخلها؛ فذلك قوله : « قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ » فلما شاهدها « قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى » أى بغفران ربى لى؛ فما مع الفعل بمنزلة المصدر . وقيل : بمعنى الذى والعائد من الصلة محذوف . ويجوز أن تكون آستفهاما فيه معنى التعجب ، كأنه قال : ليت قومى يعلمون بأى شىء غفرلى ربى ؛ قاله الفرّاء . وٱعترضه الكسائى فقال : لو صح هذا لقال بِمَ من غير ألف . وقال الفرّاء : يجوز أن يقال بما بالألف وهو آستفهام وأنشد فيه أبياتا . الزمخشرى : « بِمَ غَفَرَلِى » بطرح الألف أجود ، وإن كان إثباتها جائزا؛ يقال : قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت . المهدوى : وإثبات الألف فى الآستفهام قليل . فيوقف على هذا على « يَعْلَمُونَ » . وقال جماعة : معنى قِيل « ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ » وجبت لك الجنة ؛ فهو خبر بأنه قد آستحق دخول الجنة : لأن دخولها يستحق بعد البعث .

---

(١) القصب المعى .

Marfat.com

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له ٱدخل الجنــة . قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حىّ يرزق ؛ أراد قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » على ما تقدم فى « آل عمران » بيانه (١) . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذى هو ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وقرئ « مِنَ الْمُكَرَّمِينَ » وفى معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته . الثانى تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله . قال ابن عباس : نصح قومه حيا وميتا . رفعه القشيرى فقال : وفى الخبر أنه عليه السلام قال فى هــذه الآية "إنه نصح لهم فى حياته و بعد موته" وقال ٱبن أبى ليلى : سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين؛ على بن أبى طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصدّيقون . ذكره الزمخشرى مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهــل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهــل البغى ، والتشمر فى تخليصه ، والتلطف فى ٱفتــدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أى ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبىّ بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن . قال الحسن : الجند الملائكة النــازلون بالوحى على الأنبياء . وقيل : الجند العساكر ؛ أى لم أحتج فى هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة . قال معناه ابن مسعود وغيره . فقوله : « وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » تصغير لأمرهم؛ أى أهلكناهم بصيحة واحدة من بعــد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء . وقيل : « وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » على من كان قبلهم .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الزمخشري : فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ فقال : « وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » وقال : « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

قلت : إنما كان يكفي مَلَك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلا عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز مالم يوله أحدا؛فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء، وكأنه أشار بقوله : « وَمَا أَنْزَلْنَا » . « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعل لغيرك . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قراءة العامة « واحدةً » بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع وشيبة والأعرج « صَيْحَةٌ » بالرفع هنا وفي قوله « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ » جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث ، فكأنه قال : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف ؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند . قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال إن كان إلا صيحةٌ . قال النحاس : لا يمتنع شيء من هذا ، يقال : ما جاءتني إلا جاريتُك بمعنى ما جاءتني امرأةٌ أو جارية إلا جاريتك . والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق ، قال : المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة ، وقدره غيره ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب . وقرأ عبد الرحمن بن الأسود — ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك — « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً » . وهذا مخالفٌ للمصحف . وأيضا فإن اللغة المعروفة زَقَا يَزْقُو إذا صاح ، ومنه المثل : أثقلُ من الزَّوَاقي ؛ فكان يجب على هذا أن يكون زَقْوة . ذكره النحاس .

Marfat.com

قات : وقال الجوهري الزَّقْو والزَّقْي مصـدر ، وقد زَقَا الصـدا يَزْقو زُقاءً أى صاح ، وكل صائح زاقٍ ، والزَّقْية الصّيحة .

قات : وعلى هذا يقال زَقْوة وزَقْية لغتان فالقراءة صحيحة لا ٱعتراض عليها . والله أعلم .

﴿ فَإِذَا هُـمْ خَامِدُونَ ﴾ أى ميتون هامدون تشبيها بالرماد الخامد . وقال قتـادة : هلكى . والمعنى واحد .

قوله تعـالى : يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ منصوب ؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيـه غير النصب عند البصريين . وفى حرف أبىّ « يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ » على الإضافة . وحقيقة الحسرة فى اللغة أن يلحق الأنسان من الندم ما يصير به حسيرا . وزعم الفراء أن الٱختيار النصب ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا . وٱستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب : يا مُهتَمٌّ بأمرنا لا تهتمّ . وأنشد :

* يا دارُ غَيَّرها البِـلَى تَغْييرا[(١)] *

قال النحاس : وفى هـذا إبطال باب النـداء أو أكثره ؛ لأنه يرفع النـكرة المحضة ، ويرفـع ما هو بمنزلة المضاف فى طوله ، ويحـذف التنوين متوسطا ، ويرفع ما هو فى المعنى مفعول بغير علّة أوجبت ذلك . فأما ما حكاه عن العرب فلا يشـبه ما أجازه ؛ لأن تقدير يا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير ، والمعنى يأيها المهتم لا تهتم بأمرنا . وتقدير البيت يأيتهـا الدار ثم حول المخاطبة ؛ أى ياهؤلاء غيرهذه الدار البلى ؛ كما قال الله جل وعز : «حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم» ف « حسرةً » منصوب على النداء كما تقول يا رجلًا أقبل ، ومعنى النداء

(١) البيت للأحوص ؛ وتمـامه :

* وسفت عليها الريح بعدك مورا *

Marfat.com

هـذا موضع حضور الحسرة . الطبري : المعنى ياحسرة من العباد على أنفسهم وتندما وتلهفا في ٱستهزائهم برسل الله عليهم السلام. ٱبن عباس : «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» أى يا ويلا على العباد. وعنه أيضا : حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم. وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا : «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان؛ وقاله مجاهد. وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل . وقيل : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله . وقيل : إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وحلّ بالقوم العذاب يا حسرة على هؤلاء ، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا . وقيل : هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل ، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة ، على ٱختلاف الروايات : يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هـذا الرجل ، ليتنا آمنا بهم فى الوقت الذى ينفع الإيمان . وتم الكلام على هـذا، ثم ٱبتدأ فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ . وقرأ ٱبن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدب وعكرمة « يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ » بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى فى النفس ؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك فى مثله ، وإن لم يكن موضعا للوقف . ومن ذلك ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقطع قراءته حرفا حرفا ؛ حرصا على البيان والإفهام . ويجوز أن يكون « على العِبادِ » متعلقا بالحسرة . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة، فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء ، ثم قال « على العبادِ » أى أتحسر على العباد . وعن ٱبن عباس والضحاك وغيرهما « يا حسرةَ العِبادِ » مضاف بحذف على . وهو خلاف المصحف . وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا، فهو كقولك يا قيام زيد . ويجوز أن يكون من باب الإضافة إلى المفعول ، فيكون العباد مفعولين؛ فكأن العباد يتحسّر عليهم من يشفق لهم . وقراءة من قرأ « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » مقوية لهذا المعنى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال سيبويه : أنّ بدل من كم، ومعنى كم هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : « كم » في موضع نصب من وجهين؛ أحدهما بـ « يَرَوْا » واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود « أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا » . والوجه الآخر أن يكون « كم » في موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » . قال النحاس : القول الأول محال ؛ لأن « كم » لا يعمل فيها ما قبلها ؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل الاستفهام في خبر ما قبله . وكذا حكمها إذا كانت خبرا، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل « أَنَّهُمْ » بدلا من كم . وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ، وقال : « كم » في موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » و « أَنَّهُمْ » في موضع نصب والمعنى عنده بأنهم أي « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » بالاستئصال . قال : والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله « مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » . وقرأ الحسن « إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » بكسر الهمزة على الاستئناف . وهذه الآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت . ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتشديد لما . وخفف الباقون . فإن مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء ، وما بعده الخبر . و بطل عملها حين تغير لفظها . ولزمت اللام في الخبر فرقا بينها وبين إن التي بمعنى ما . وما عند أبي عبيدة زائدة . والتقدير عنده و إن كل لجميع . قال الفراء : ومن شدّد جعل « لما » بمعنى إلا و « إن » بمعنى ما أي ما كل إلا لجميع ؛ كقوله : « إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ » . وحكى سيبويه : في قوله سألتك بالله لمّا فعلت . وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا . وقد مضى هذا المعنى في « هود »(١) . وفي حرف أبيّ « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكّرهم توحيده وكمال قدرته ، وهى الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحبّ منها . ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أى من الحبّ ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ وبه يتغذّون . وشدّد أهل المدينة « المَيِّتَةُ » وخفف الباقون . وقد تقدّم[(1)] . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض . ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وخصصهما بالذكر ؛ لأنهما أعلى الثمار . ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ ﴾ أى فى البساتين . ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ الهاء فى « ثَمَرِهِ » تعود على ماء العيون ؛ لأن الثمر منه آندرج . قاله الجرجانى والمهدوى وغيرهما . وقيل : أى ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا ؛ كما قال : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ » . وقرأ حمزة والكسائى « مِنْ ثُمُرِهِ » بضم الثاء والميم . وفتحهما الباقون . وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام »[(2)] . ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع خفض على العطف على « مِنْ ثَمَرِهِ » أى ومما عملته أيديهم . وقرأ الكوفيون « وَمَا عَمِلَتْ » بغير هاء . الباقون « عَمِلَتْه » على الأصل من غير حذف . وحذف الصلة أيضا فى الكلام كثير لطول الآسم . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع . أى ولم تعمله أيديهم من الزرع الذى أنبته الله لهم . وهذا قول آبن عباس والضحاك ومقاتل . وقال غيرهم : المعنى ومن الذى عملته أيديهم أى من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

آتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون . وقيل : يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس . روى معناه عن آبن عباس أيضا . ﴿ أفلا يشكرون ﴾ نعمه .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ نزّه نفسه سبحانه عن قول الكفار، إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته . وفيه تقدير الأمر؛ أي سبّحوه ونزّهوه عما لا يليق به . وقيل : فيه معنى التعجب؛ أي عجبا لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات ؛ ومن تعجب من شيء قال سبحان الله . والأزواج الأنواع والأصناف ، فكل زوج صنف ؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو آزدواجها . وقال قتادة : يعني الذكر والأنثى . ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ يعني من النبات ؛ لأنه أصناف . ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا و إناثا . ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض . ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة . و يجوز ألا يعلمه مخلوق . ووجه الآستدلال في هذه الآية أنه إذا آنفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به .

قوله تعالى : وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أي وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته و وجوب إلاهيته . والسلخ الكشط والنزع يقال سلخه الله من دينه ، ثم تستعمل بمعنى الإخراج . وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهي آستعارة . و ﴿ مُظْلِمُونَ ﴾ داخلون في الظلام ؛ يقال : أظلمنا أي دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا . وقيل : « منه » بمعنى عنه ، والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار . « فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » أي في ظلمة ؛ لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس. ويجوز أن يكون الشمس مرفوعا بإضمار فعل يفسره الثانى. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ﴿ تجرى ﴾ فى موضع الخبر أى جارية . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل: « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » قال "مستقرّها تحت العرش" . وفيه عن أبى ذرّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوما : " أتدرون أين تذهب هـذه الشمس " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لهـا ٱرتفعى ٱرجعى من حيث جئتِ فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدةً ولا تزال كذلك حتى يقال لها ٱرتفعى ٱرجعى من حيث جئتِ فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهىَ الى مستقرّها ذاك تحت العرش فيقال لها ٱرتفعى أصبحى طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها " فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: " أتدرون متى ذلكم ذاك حين « لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا »" . ولفظ البخارى عن أبى ذرّ قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ حين غربت الشمس : " تدرى أين تذهب " قلت الله ورسوله أعلم ، قال: " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذنَ فيؤذنُ لها و يوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذنَ فلا يؤذنُ لها يقال لها ٱرجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »". ولفظ الترمذى عن أبى ذرّ قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبيّ صلى الله عليه وسلم جالس. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: " يا أبا ذرّ أتدرى أين تذهب هـذه " قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها تذهب فتستأذنُ فى السجود فيؤذنُ لها وكأنها قد قيل لها ٱطلعى من حيث جئت فتطلع من مغربها" قال: ثم قرأ « ذَٰلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا »[1] قال وذلك قراءة عبدالله . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) كذا فى الأصول وفى صحيح الترمذى ولعله تحريف ، إذ لا تعرف قراءة بهـذا النص ؛ وقراءة عبد الله بن مسعود « والشمس تجرى لا مستقر لها » كما سيأتى .

Marfat.com

وقال عكرمة : إن الشمس إذا غربت دخلت محرابا تحت العرش تسبّح الله حتى تصبح ، فإذا أصبحت آستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب : ولم ذاك ؟ قالت : إنى إذا خرجت عُبِدت من دونك . فيقول الرب تبارك وتعالى : آخرجى فليس عليك من ذاك شيء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها . وقال الكلبي وغيره : المعنى تجرى إلى أبعد منازلها فى الغروب ، ثم ترجع إلى أدنى منازلها، فستقرها بلوغها الموضع الذى لا تتجاوزه بل ترجع منه ؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضى وَطَره ، ثم يرجع إلى منزله الأوّل الذى آبتدأ منه سفره . وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها ، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة ، وذلك اليوم أطول الأيام فى السنة ، وتلك الليلة أقصر الليالى ، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات ، ثم يأخذ فى النقصان وترجع الشمس ، فإذا طلعت الثريا آستوى الليل والنهار ، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة ، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النَّعائم ، وذلك اليوم أقصر الأيام ، والليل خمس عشرة ساعة ، حتى إذا طلع فَرْغ الدَّلو المؤخّر آستوى الليل والنهار ، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة ، وكل عشرة أيام ثلث ساعة ، وكل شهر ساعة تامة ، حتى يستويا و يأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة ، و يأخذ النهار من الليل كذلك . وقال الحسن : إن للشمس فى السنة ثلثمائة وستين مطلعا ، تنزل فى كل يوم مطلعا ، ثم لا تنزله إلى الحول ، فهى تجرى فى تلك المنازل وهى مستقرها . وهو معنى الذى قبله سواء . وقال ابن عباس : إنها إذا غربت وآنتهت إلى الموضع الذى لا تتجاوزه آستقرت تحت العرش إلى أن تطلع .

قلت : ما قاله آبن عباس يجمع الأقوال فتأمله . وقيل : إلى آنتهاء أمدها عند آنقضاء الدنيا . وقرأ آبن مسعود وآبن عباس « والشَّمْسُ تَجْرِى لامُسْتَقَرَّ لَهَا » أى إنها تجرى فى الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار ، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة . وقد آحتج من خالف المصحف فقال : أنا أقرأ بقراءة آبن مسعود وآبن عباس . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن آبن عباس ، وآبن كثير روى

Marfat.com

عن مجـاهد عن آبن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » فهذان السندان عن آبن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع ، يبطلان ما روى بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة ، وما آتفقت عليه الأمة .

قلت : والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله فما أجرأه على كتاب الله قاتله الله . وقوله : « لِمستقرٍّ لها » أي إلى مستقرها والمستقر موضع القرار . ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿ العزيزِ العليم ﴾ .

قوله تعالى : وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرُ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ . ويجوز أن يكون « وَالْقَمَرُ » مرفوعا بالابتداء . وقرأ الكوفيون « وَالْقَمَرَ » بالنصب على إضمار فعل وهو آختيار أبي عبيد . قال : لأن قبله فعلا وبعده فعلا ؛ قبله « نَسْلَخُ » و بعده « قَدَّرْنَاهُ » . النحاس : وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إلىّ وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ . وقوله : إن قبله « نَسْلَخُ » فقبله ما هو أقرب منه وهو « تَجْرِى » وقبله « وَالشَّمْسُ » بالرفع . والذى ذكره بعده وهو « قَدَّرْنَاهُ » قد عمل في الهاء . قال أبو حاتم : الرفع أولى ؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء . ويقال : القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ففي هذا جوابان : أحدهما قدرناه ذا منازل مثل « وَآسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . والتقدير الآخر قدرنا له منازل ثم حذفت اللام ، وكان حذفها حسنا لتعدى الفعل إلى مفعولين مثل « وَآخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً » . والمنازل ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ؛ وهي : الشَّرَطان . البُطَيْن . الثُّرَيَّا . الدَّبَران . الهَقْعَة . الهنعة . الذِّراع . النَّثْرة . الطَّرْف . الجَبْهة . الخَرَاتان . الصَّرْفة . العَوَّاء . السِّمَاك . الغَفْر . الزُّبَانَيان .

Marfat.com

الإِكْلِيل . القَلْب . الشَّوْلة . النَّعائِم . البَلْدة . سَعْد الذَّابح . سَعْد بُلَع . سَعْد السُّعود . سَعْد الاخْبِية . الفَرْغ المقدَّم . الفَرْغ المؤَخَّر . بطن الحوت . فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك فى ثمان وعشرين ليلة . ثم يستتر ثم يطلع هلالا ، فيعود فى قطع الفلك على المنازل ، وهى منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث . فللحمَل الشَّرَطان والبُطَين وثلث الثريا ، وللثور ثلثا الثريا والدَّبَران وثلثا الهَقْعة ، ثم كذلك إلى سائرها . وقد مضى فى « الحِجْـر »(1) تسمية البروج والحمد لله . وقيل : إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نارٍ ثم كُسِيا النورَ عند الطلوع ، فأما نور الشمس فمن نور العرش ، وأما نور القمر فمن نور الكرسى ، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة . فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق ، وأما القمر فأمَرَّ الروحُ الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح ، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء . فبقى ذلك المحو على ما يراه الخلق ، ثم جعل فى غلاف من ماء ، ثم جعل له مجرى ، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمراً بمقدار ما يقمرلهم حتى ينتهى بدؤه ، ويراه الخلق بكماله واستدارته . ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شىء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد فى البدء . ويبتدئ فى النقصان من الناحية التى لا تراه الشمس وهى ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم ، وهو العِذْق المتقوِّس ليبسه ودقّته . وإنما قيل القمر ، لأنه يُقمِر أى يبيض الجو ببياضه إلى أن يَسْتَسِرّ .

الثانيــة — ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ قال الزجاج : هو عود العِذْق الذى عليه الشماريخ ، وهو فُعْلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار فى منازله ، فإذا كان فى آخرها دقّ واستقوس وضاق حتى صار كالعُرجون . وعلى هذا فالنون زائدة . وقال قتادة : هو العِذْق اليابس المنحنى من النخلة . ثعلب : « كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » قال : « العرجون » الذى يبقى من الكباسة فى النخلة إذا قطعت ، و « القديم » البالى . الخليل : فى باب الرباعى : « العرجون » أصل العِذق وهو أصفر عريض يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى . الجوهرى :

(1) راجع جـ ١٠ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

« العرجون » أصل العِذْق الذى يعوجّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا؛ وعَرْجَنه ضربه بالعرجون . فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بنى قيس :

شرق المسك والعبير بها(١) * فهى صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عتق ويبس وتقوّس شبّه القمرُ فى دقّته وصفرته به . ويقال له أيضا الإهان والكِبَاسة والقنو ، وأهل مصر يسمونه الإسباطة . وقرئ « العِرْجَوْن » بوزن الفِرْجَون وهما لغتان كالبُزْيون والبِزْيَون(٢)؛ ذكره الزمخشري وقال : هو عود العِذْق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . وٱعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول ، لكل فصل سبعة منازل : فأولها الربيع ، وأوله خمسة عشر يوما من أذار ، وعدد أيامه ٱثنان وتسعون يوما . تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : الحَمَل، والثور، والجوزاء ، وسبعة منازل : الشَّرطان والبُطين والثُّريا والدَّبَران والهَقْعة والهَنْعة والذِّراع . ثم يدخل فصل الصيف فى خمسة عشر يوما من حَزِيران، وعدد أيامه ٱثنان وتسعون يوما ؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج : الشَّرطان ، والأسد ، والسُّنْبلة ، وسبعة منازل : وهى النثرة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتان والصَّرفة والعوّاء والسِّماك . ثم يدخل فصل الخريف فى خمسة عشر يوما من أيلول ، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج ؛ وهى الميزان ، والعقرب ، والقوس ، وسبعة منازل الغَفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة . ثم يدخل فصل الشتاء فى خمسة عشر يوما من كانون الأول، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : وهى الجَدى والدَّلْو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السّعود وسعد الأَخبِية والفَرْغ المقدّم ، والفَرْغ المؤخَّر وبطنُ الحوت . وهذه قسمة السريانيين لشهورها : تشرين الأول، تشرين الثانى، كانون الأول، كانون الثانى، أشباط، آذار ، نيسان ، أيّار ، حَزِيران ، تَمُّوز ، آب ، أيلول، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثانى ونيسان وحزِيران وأيلول ، فهى ثلاثون ، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم .

(١) كذا فى الأصل ولم نعثر عليه فى ديوانه ، ويحتمل أن يكون : شرق العنبر والمسك بها .
(٢) البزيون : السندس . وقيل هو رقيق الديباج .

Marfat.com

وإنما أردنا بهذا أن تنظر فى قدرة الله تعالى فذلك قوله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » فإذا كانت الشمس فى منزل أهلّ الهلالُ بالمنزل الذى بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله ، فإذا كانت الشمس بالثريا فى خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ الهلال بالدبران، ثم يكون له فى كل ليلة منزلة حتى يقطع فى ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة . وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما ، ثم يطلع فى المنزلة التى بعد منزلة الشمس فـ « ذلِكَ تقديرُ العزيزِ العليم » .

الثالثة — قوله تعالى : « الْقَدِيم » قال الزمخشرى : القديم المحول وإذا قَدُم دَقّ وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقلّ عِدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلا قال : كل مملوك لى قديم فهو حر ، أو كتب ذلك فى وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر .

قلت : قد مضى فى « البقرة » (١) ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله .

قوله تعالى : لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ رفعت الشمس بالابتداء ، ولا يجوز أن تعمل «لا» فى معرفة. وقد تكلم العلماء فى معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها إن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه . أى لكل واحد منهما سلطان على حياله ، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله مادبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم فى آخر سورة « الأنعام » (٢) بيانه . وقيل : إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . روى معناه عن ابن عباس والضحاك. وقال مجاهد : أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر . وقال قتادة : لكل حدّ وعَلَم لا يعدوه

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا . وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة . أي لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر . يحيى بن سلّام : لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة ؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها . وقيل : معناه إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها ؛ قاله ابن عباس أيضا . وقيل : القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة فهي لا تدركه . ذكره النحاس والمهدوي . قال النحاس : وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يُدفَع أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه في السير . ذكره المهدوي أيضا . فأما قوله سبحانه : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه في آخر « الأنعام »(١) ويأتي في سورة « القيامة » أيضا . وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يجرون . وقيل : يدورون . ولم يقل تسبح؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل . وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصَقة ولو كانت ملصقة ما جرت ؛ ذكره الثعلبي والماوردي . واستدل بعضهم بقوله تعالى : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بخلق . وقيل : كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة ؛ كما قال : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » ويكون الليل للإجمام والاستراحة، والنهار للتصرف؛ كما قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » وقال : « وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أي راحة لأبدانكم من عمل النهار. فقوله : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أي غالب النهار؛ يقال: سبق فلان فلانا أي غلبه. وذكر المبرّد قال: سمعت عمارة يقرأ «وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابقٌ النهارَ فحذفت التنوين؛ لأنه أخفّ. قال النحاس: يجوز أن يكون « النهارَ » منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم ؛ لأن فى الآيات آعتبارا . الثانى نعمة عليهم ؛ لأن فى الآيات إنعاما . الثالث إنذار لهم ؛ لأن فى الايات إنذارا . ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ[1] فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ من أشكل ما فى السورة ؛ لأنهم هم المحمولون . فقيل المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضيه «فى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» فالضميران مختلفان ؛ ذكره المهدوى . وحكاه النحاس عن علىّ بن سليمان أنه سمعه يقوله . وقيل : الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم ؛ فالفلك على القول الأول سفينة نوح . وعلى الثانى يكون آسما للجنس ؛ خبّر جل وعز بلطفه وآمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشى والركوب من الذرية والضعفاء ، فيكون الضميران على هذا متفقين . وقيل : الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام ، فالآباء ذرية والأبناء ذرية ؛ بدليل هذه الآية ؛ قاله أبو عثمان . وسمى الآباء ذرية ؛ لأن منهم ذرأ الأبناء . وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى فى بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ ذكره الماوردى . وقد مضى فى « البقرة »[2] آشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى . و « المشحون » المملوء الموقَر و « الفلك » يكون واحدا وجمعا . وقد تقدّم فى « يونس »[3] القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الأسم[4] وأنه رأس آية . وفى معناه ثلاثة أقوال : مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير

---

(١) « ذرياتهم » بالجمع قراءة نافع .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) كذا فى كل نسخ الأصل وفى إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

وروى عن ابن عباس أن معنى « مِن مِثْلِهِ » للإبل خلقها لهم للركوب فى البر مثـل السفن المركوبة فى البحر؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن . قال طَرَفة :

كأنّ حُـدُوجَ المـالكيةِ غُدوةً * خَلاَيَا سفينٍ بالنواصِف من دَدِ (١)

جمع خليّة وهى السفينة العظيمة . والقول الثانى أنه للإبل والدواب وكل ما يركب . والقول الثالث أنه للسفن؛ النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسـناد عن ابن عباس . « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » قال : خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها . وقال أبو مالك : إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروى عن ابن عباس والحسن . وقال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قال المـاوردى : ويجىء على مقتضى تأويل على رضى الله عنه فى أن الذرية فى الفلك المشحون هى النطف فى بطون النساء قول خامس فى قوله : « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ» أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُـمْ ﴾ أى فى البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية ، أو إلى الجميع، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال إن المراد « مِنْ مِثْلِهِ » السفن لا الإبل . ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة . وروى شيبان عنه فلا منعـة لهم ومعناهما متقاربان . و « صَرِيخَ » بمعنى مُصرِخ فعيـل بمعنى فاعل . ويجوز « فلا صريخٌ لهم » ؛ لأن بعده مالا يجوز فيه إلا الرفع ؛ لأنه معرفة وهو ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ والنحويون يختارون لا رجل فى الدار ولا زيد . ومعنى « يُنْقَذُونَ » يخلصون من الغرق . وقيل : من العـذاب . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ قال الكسائى : هو نصب على الاستثناء . وقال الزجاج : نصب مفعولٍ من أجله ؛ أى للرحمة ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ معطوف عليه . ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة . يحيى بن سلّام : إلى القيامة أى إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وأخر عذاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوه إلى الموت والقيامة .

(١) الحدوج جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء . والمـالكية منسوبة إلى مالك بن سـعد بن ضبيعة . والنواصف جمع ناصفة وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى . ودد موضع .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال قتادة : يعنى « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم « وَمَا خَلْفَكُمْ » من الآخرة . ابن عباس وابن جبير ومجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من الذنوب « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما يأتى من الذنوب . الحسن : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من أجلكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما بقى منه . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من الدنيا « وَمَا خَلْفَكُمْ » من عذاب الآخرة ؛ قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس . قال : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من أمر الآخرة وما عملوا لها « وَمَا خَلْفَكُمْ » من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما ظهر لكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما خفى عنكم . والجواب محذوف والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دليله قوله بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى تصدّقوا على الفقراء . قال الحسن : يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقيل هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله . وذلك قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

Marfat.com

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا » فحرموهم وقالوا : لو شاء الله أطعمكم — استهزاء — فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا . قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ أى أنرزق ﴿ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين أن الرازق هو الله . فقالوا هزءا أنرزق من لو يشاء الله أغناه . وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن . وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء الله لأعز ولو شاء الله لكان كذا . فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين ، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى . وقيل : قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا ؟ . وكان هذا الاحتجاج باطلا ؛ لأن الله تعالى إذا ملك عبدا مالا ثم أوجب عليه فيه حقا فكأنه انتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض . وقد صدقوا فى قولهم لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا فى الاحتجاج . ومثله قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا » وقوله : « قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قيل : هو من قول الكفار للمؤمنين ، أى فى سؤال المال وفى اتباعكم محمدا . قال معناه مقاتل وغيره . وقيل : هو من قول أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لهم . وقيل : من قول الله تعالى للكفار حين ردوا بهذا الجواب . وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : فما باله لم يطعمهم؟ قال : ابتلى قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء . فقال : والله يا أبا بكر ما أنت إلا فى ضلال ؛ أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت ؛ فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » الآيات . وقيل : نزلت الآية فى قوم من الزنادقة ، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، واستهزءوا بالمسلمين بهذا القول . ذكره القشيرى والماوردى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ لما قيل لهم « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ » قالوا « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وكان هذا ٱستهزاء منهم أيضا أى لا تحقيق لهذا الوعيد، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهى نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى يختصمون فى أمور دنياهم فيموتون فى مكانهم ؛ وهذه نفخة الصَّعْق . وفى « يَخِصِّمُونَ » خمس قراءات : قرأ أبو عمرو وٱبن كثير « وَهُمْ يَخَصِّمُونَ » بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد . وكذا روى ورش عن نافع . فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه « يَخْصِّمُونَ » بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « وهم يَخْصِمُونَ » بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه . وقرأ عاصم والكسائى « وهم يَخِصِّمُونَ » بكسر الخاء وتشديد الصاد ومعناه يخصم بعضهم بعضا . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون فى الحجة أنهم لا يبعثون . وقد روى ٱبن جبير عن أبى بكر عن عاصم وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد . قال النحاس : القراءة الأولى أبينها والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء — وفى حرف أبىّ « وهم يختصمون » — وإسكان الخاء لا يجوز ؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولين . وقيل : أسكنوا الخاء على أصلها ، والمعنى يخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف ، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول ؛ قال الثعلبى : وهى قراءة أبىّ بن كعب . قال النحاس : فأما « يَخِصِّمُون » فالأصل فيه أيضا يختصمون ، فأدغمت التاء فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وزعم الفراء أن هذه القراءة أجود وأكثر ؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء وٱجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة ، وزعم أنه أجود وأكثر . وكيف يكون أكثر و بالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة ! وما روى عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع . وقد مضى هذا فى « البقرة »(1) فى « يَخْطَفُ

---

(1) انظر ج ١ ص ١٩٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

أَبْصَارَهُم » وفى «يونس» فى « يَهِدِّى »[1] . وقال عِكرمة فى قوله جل وعز «إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» قال : هى النفخة الأولى فى الصور . وقال أبو هريرة : يُنفخ فى الصّور والناس فى أسواقهم ؛ فمن حالبٍ لقحة ، ومن ذارعٍ ثوبا ، ومن مارّ فى حاجة . وروى نعيم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة والرجل يَلِيط[2] حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبلّعها حتى تقوم الساعة" . وفى حديث عبد الله بن عمرو "وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط حوضَ إبله — قال — فيصعق ويصعَق الناس" الحديث . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا لما فى يده من حق . وقيل : لا يستطيع أن يوصى بعضهم بعضا بالتوبة والإقلاع بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم . ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا ماتوا . وقيل : إن معنى « وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » لا يرجعون إليهم قولا . وقال قتادة : « وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى إلى منازلهم، لأنهم قد أعجلوا عن ذلك .

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة . وقد بينا فى سورة « النمل »[3] أنهما نفختان لا ثلاث . وهذه الآية دالة على ذلك . وروى المبارك بن

(١) راجع جـ٨ ص ٣٤١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) يليط حوضه وفى رواية يلوط حوضه أى يطينه .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فَضَالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كلّ حيّ والأخرى يحيي الله بها كلّ ميت " . وقال قتادة : الصُّور جمع صُورَة ؛ أى نفخ فى الصور الأرواح . وصُورَة وصُور مثل سُورَة البناء وسُور ؛ قال العَجّاج:

ورُبَّ ذِى سُرَادِقٍ مَحْجُـورِ * سِرْتُ إليهِ فى أَعالِى السُّورِ

وقد روى عن أبى هريرة أنه قرأ « وَنُفِخَ فِي الصُّوَرِ » . النحاس : والصحيح أن « الصور » بإسكان الواو . القَرْن ؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك معروف فى كلام العرب . أنشد أهل اللغة :

نحنُ نَطَحْناهُمْ غداةَ الغُورَيْن * بالضَّابِحاتِ فى غُبارِ النَّقْعَيْن

* نَطْحًا شَديدًا لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن *

وقد مضى هذا فى « الأنعام »(١) مستوفى . ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور . وقرئ بالفاء « مِن الأجدافِ » ذكره الزمخشرى . يقال جَدَثٌ وجَدَفٌ . واللغة الفصيحة الجدَث بالثاء والجمع أَجْدُث وأجداث ؛ قال المتنخّل الهُذَلىّ :

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ * عَلَاماتٍ كتَحْبِيرِ النِّمَاطِ

واجتدثَ أى اتخذ جَدَثا . ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أى يخرجون ؛ قاله ابن عباس وقتادة . ومنه قول امرئ القيس :

* فَسُلِّي ثِيابِى مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلِ *

ومنه قيل للولد نَسْل، لأنه يخرج من بطن أمه . وقيل : يسرعون، والنَّسَلان والعَسَلان الإسراع فى السير ، ومنه مشية الذئب ؛ قال(٢) :

عَسَلانَ الذِّئبِ أَمْسَى قَارِبًا * بَرَدَ الليلُ عليه فنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ ونَسَل يَعْسِل ويَنْسِل من باب ضرب يضرب، ويقال: يَنْسُل بالضم أيضا وهو الإسراع فى المشى ، فالمعنى يخرجون مسرعين . وفى التنزيل : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت للبيد ، وقيل هو للنابغة الجعدى .

Marfat.com

إلّا كنفسٍ واحدةٍ» وقال: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ» وفى «سال سائل»: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» أى يسرعون . وفى الخبر: شكونا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الضعف فقال "عليكم بالنَّسْل" أى بالإسراع فى المشى فإنه ينشط .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنبارى : « يا ويلنا » وقف حسن ثم تبتدئ ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ . وروى عن بعض القراء « يَاوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا » بكسر من والثاء من البعث . روى ذلك عن علىّ رضى الله عنه ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله « يَا وَيْلَنَا » حتى يقول ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ . وفى قراءة أبىّ بن كعب « مَنْ هَبَّنَا » بالوصل « مِنْ مَرْقَدِنَا » فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوى : قرأ ابن أبى ليلى « قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا» بزيادة تاء وهو تأنيث الويل ومثله « يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » . وقرأ علىّ رضى الله عنه « يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعْثِنَا » فـ « مِن » متعلقة بالويل أو حال من « ويلنا » فتتعلق بمحذوف ، كأنه قال : ياويلنا كائنا من بعثنا ؛ وكما يجوز أن يكون خبرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه . و« مِن » من قوله « مِنْ مَرْقَدِنَا » متعلقة بنفس البعث . ثم قيل : كيف قالوا هذا وهم من المعذَّبين فى قبورهم ؟ فالجواب أن أبىّ بن كعب قال : ينامون نومة . وفى رواية فيقولون : ياويلنا من أَهَبَّنَا من مرقدنا . قال أبو بكر الأنبارى : لا يحمل هذا الحديث على أن « أَهبّنا » من لفظ القرآن كما قاله من طعن فى القرآن ، ولكنه تفسير « بعثنا » أو معبر عن بعض معانيه . قال أبو بكر : وكذا حفظته « مَن هبَّنَا » بغير ألف فى أهبنا مع تسكين نون مَن . والصواب فيه على طريق اللغة «مَنَ اهَبَّنَا» بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون « من » وأسقطت الهمزة ؛ كما قالت العرب : منَ اخبرك منَ اعلمك ؟ وهم يريدون من أخبرك . ويقال : أهببتُ النائمَ فهبَّ النائمُ . أنشدنا أحمد بن يحيى النحوى :

وعاذلةٍ هبَّتْ بليـــلٍ تلومُنى * ولم يعتمرْنى قبلَ ذاكَ عذولُ

وقال أبو صالح : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجموا هجمة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة ؛ فذلك قولهم : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » وقاله ابن

Marfat.com

عباس وقتادة . وقال أهل المعانى : إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به فى قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم . قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون ﴿ هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . قال قتادة : فقال لهم من هـدى الله « هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . وقال الفـراء : فقال لهم الملائكة « هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هـدى الله عز وجل . وعلى هـذا يتأول قول الله عز وجل « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » وكذا الحديث : "المؤمن عند الله خير من كل ما خلق" . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : « هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . وقيـل : إن الكفار لمـا قال بعضهم لبعض « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » صدقوا الرسل لمـا عاينوا ما أخبروهم به ، ثم قالوا « هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » فكذبنا به ؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار . وكان حفص يقف على « مِنْ مَرْقَدِنَا » ثم يبتدئ فيقول « هَذَا » . قال أبو بكر بن الأنبارى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » وقف حسن ؛ ثم تبتدئ «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» ويجوز أن تقف على «مَرْقَدِنَا هَذَا» فتخفض هذا على الإتباع للرقد ، وتبتدئ « مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » على معنى بَعَثَكم ما وعد الرحمن ، أى بَعَثَكم وعد الرحمن . النحاس : التمام على « مِنْ مَرْقَدِنَا » و « هَذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره «مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على النعت لـ «مَرْقَدِنَا» فيكون التمام « مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا » . « مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » فى موضع رفع من ثلاث جهات . ذكر أبو إسحق منهـا اثنتين قال : يكون بإضمار هذا . والجهة الثانيـة أن يكون بمعنى حقٌّ ما وعد الرحمن بَعْثُكم . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بَعْثُكم ما وعد الرحمن . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعنى إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهى قول إسرافيل : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والشعور المتمزقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وهـذا معنى قوله الحق : « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » . وقال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » على ما يأتى . وفى قراءة ابن مسعود إن صح عنه « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً

واحدةً » والزِقية الصيحة؛ وقد تقدم هذا . ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ « فإذا هُمْ » مبتدأ وخبره « جَمِيعٌ » نكرة و « مُحْضَرُونَ » من صفته . ومعنى « مُحْضَرُونَ » مجموعون أحضروا موقف الحساب . وهو كقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ » . قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي لا تنقص من ثواب عمل . ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ « ما » في محل نصب من وجهين : الأول أنه مفعول ثانٍ لما لم يسمّ فاعله . والثاني بنزع حرف الصفة ؛ تقديره : إلا بما كنتم تعملون ؛ أي تعملونه لحذف .

قوله تعالى : إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العَذارى . وذكر الترمذيّ الحكيم في كتاب مشكل القرآن له : حدثنا محمد بن حميد الرازي ، حدثنا يعقوب القُمّي ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود في قوله « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ » قال : شغلهم افتضاض العَذارى . حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا هرون بن المغيرة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس بمثله . وقال أبو قِلابة : بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلي مشغول ؛ فيقال تحوّل أيضا إلى أهلك . وقيل : أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم ؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره . وقال وَكيع : يعني في السماع . وقال ابن كيسان : « في شغل » أي في زيارة بعضهم بعضا . وقيل : في ضيافة الله تعالى . وروى أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين عبادي الذين

Marfat.com

أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرى ، ركبانا على نجب من نور أزمتها من الياقوت ، تطير بهم على رءوس الخلائق ، حتى يقوموا بين يدى العرش ، فيقول الله جل وعز لهم : السلام على عبادى الذين أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم وأنا اخترتكم ، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب ف«لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» . فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها . ثم إن الخلق فى المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : يا قوم أين فلان وفلان ؟ وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادى منادٍ «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ» . و «شُغُل» و «شُغْل» لغتان قرئ بهما مثل الرُّعُب والرُّعْب ، والسُّحُت والسُّحْت ؛ وقد تقدم[1] . ﴿ فَاكِهُونَ ﴾ قال الحسن : مسرورون . وقال ابن عباس : فرحون . مجاهد والضحاك : معجبون . السدى : ناعمون . والمعنى متقارب . والفكاهة المزاح والكلام الطيب . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج «فَكِهُونَ» بغير ألف وهما لغتان كالفاره والفَرِه والحاذر والحَذِر ؛ قاله الفراء . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكه ذو الفاكهة مثل شاحم ولاحم وتامر ولابن ، والفكه المتفكه والمتنعم . و « فَكِهون » بغير ألف فى قول قتادة معجبون . وقال أبو زيد : يقال رجل فَكِه إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « فاكِهِين » نصبه على الحال . ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ مبتدأ وخبره . ويجوز أن يكون « هُمْ » توكيدا « وَأَزْوَاجُهُمْ » عطف على المضمر و«مُتَّكِئُونَ» نعت لقوله « فَاكِهُونَ » . وقراءة العامة «فِي ظِلَالٍ» بكسر الظاء والألف . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف « فِي ظُلَلٍ » بضم الظاء من غير ألف ؛ فالظلال جمع ظِلّ وظُلَل جمع ظُلّة . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ يعنى السرر فى الحجال واحدها أريكة مثل سفينة وسفائن ؛ قال الشاعر :

كأنّ احمرارَ الوردِ فوق غُصُونه * بوقتِ الضحى فى روضة المتضاحك

خُدودُ عذارَى قد خَجِلن من الحَيَا * تَهادَيْنَ بالريحان فوق الأرائك

(1) راجع جـ ٦ ص ١٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدْن أبكارا " . وقال ابن عباس : إنّ الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكرا ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، فيجامعها بقوة سبعين رجلا ، لا يكون بينهما منيّ ؛ يأتى من غير منيّ منه ولا منها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء ، لأنه يفتعلون من دعا أى من دعا بشيء أعطيه . قاله أبو عبيدة . فمعنى « يَدَّعُونَ » يتمنون من الدعاء . وقيل : المعنى أن من ادعى منهم شيئا فهو له ؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعى منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه . وقال يحيى بن سلام : « يَدَّعونَ » يشتهون . ابن عباس . يسألون . والمعنى متقارب . قال ابن الأنبارى : « ولهم ما يَدَّعُونَ » وقف حسن ، ثم تبتدئ « سَلَامٌ » على معنى ذلك لهم سلام . ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « ما يَدَّعُونَ » . وقال الزجاج : « سلام » مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلّم الله عليهم ، وهذا مُنَى أهل الجنة . وروى من حديث جرير بن عبدالله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رءوسهم فإذا الربّ تعالى قد آطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ » فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم فى ديارهم " ذكره الثعلبي والقشيرى . ومعناه ثابت فى صحيح مسلم وقد بيناه فى « يونس » عند قوله تعالى: « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (١) . ويجوز أن تكون « ما » نكرة و « سَلَامٌ » نعتا لها ، أى ولهم ما يدعون مسلّم . ويجوز أن تكون « ما » رفع بالابتداء و « سلام » خبرعنها . وعلى هذه الوجوه لا يوقف على « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » . وفى قراءة ابن مسعود « سلامًا » يكون مصدرا ، وإن شئت فى موضع الحال ؛ أى ولهم

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلّما . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » .
وقرأ محمد بن كعب القُرَظى « سِلْمٌ » على الاستئناف كأنه قال : ذلك سِلم لهم لا يتنازعون فيه
ويكون « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » تاما . ويجوز أن يكون « سلام » بدلا من قوله « وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ »
وخبر « مَا يَدَّعُونَ » لهـم . ويجوز أن يكون « سَـلَامٌ » خبرا آخر و يكون معنى الكلام
أنه لهم خالص من غير منازع فيه . ﴿ قَوْلًا ﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولا . أو يقوله
قولا ودل على الفعل المحذوف لفظ مصـدره . ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولا
أى عدة من الله . فعلى هـذا المذهب الثانى لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » . وقال
السجستانى : الوقف على قـوله « سـَلَامٌ » تام ؛ وهـذا خطأ لأن القـول خارج
ممـا قبـله .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ و يقال تميّزوا وٱمّازوا وٱمتازوا بمعنى ؛
ومِزته فٱنماز وٱمتاز، وميّزته فتميّز . أى يقال لهم هـذا عند الوقوف للسـؤال حين يؤمر
بأهل الجنة إلى الجنـة ؛ أى اخرجوا من جملتهم . قال قتادة : عُزِلوا عن كل خير . وقال
الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس
فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبـدة الأوثان فرقة . وعنـه أيضا : إن لكل فرقة فى النار بيتا
تدخل فيه و يردّ بابه ، فتكون فيه أبدا لا تَرى ولا تُرى . وقال داود بن الجراح : فيمتاز المسلمون
من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية ، أى ألم أوصكم وأبلغتكم على ألسنة الرسل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطيعوه فى معصيتى . قال الكسائى : لا للنهى ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصل، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادتى دين قويم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أى أغوى ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أى خلقا كثيرا ؛ قاله مجاهد . قتادة : جموعا كثيرة . الكلبي أمما كثيرة؛ والمعنى واحد . وقرأ أهل المدينة وعاصم « جِبِلًّا » بكسر الجيم والباء ، وأبو عمرو وابن عامر « جُبْلًا » بضم الجيم و إسكان الباء ، الباقون « جُبُلًا » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، وشدّدها الحسن وابن أبى إسحق وعيسى ابن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس . وقرأ أبو يحيي والأشهب العقيلى « جِبْلًا » بكسر الجيم و إسكان الباء وتخفيف اللام . فهذه خمس قراءات . قال المهدوى والثعلبي : وكلها لغات بمعنى الخلق . النحاس : أبينها القراءة الأولى . والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا « والجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ » فيكون « جِبِلًّا » جمع جِبِلَّةٍ والاشتقاق فيه كله واحد و إنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أى خلقهم . وقد ذكرت قراءة سادسة وهى : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِيلًا كَثِيراً » بالياء . وحكى عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل؛ ذكره الماوردى . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله . ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التى وعدتم فكذبتم بها . وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم أشرف عُنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادى منادٍ « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون ممّ أضحك — قلنا الله و رسوله أعلم قال — من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجِرنى من الظُّلم قال يقول بلى فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلّا شاهدا منّى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا و بالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقى قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلّى بينه و بين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسُحقاً فعنكنّ كنت أناضل" خرجه أيضا من حديث أبى هريرة . وفيه "ثم يقال له الآن نبعث شاهدَنا عليك و يتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيختم على فيه و يقال لفخذه [ولحمه وعظامه][(1)] انطقى فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" . وخرّج الترمذى عن معاوية بن حَيْدَة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله و إن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى "فخذه وكفّه" الفِدام مِصْفاة الكوز والإبريق؛ قاله الليث . قال أبو عبيد : يعنى أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذى يجعل على الإبريق . ثم قيل فى سبب الختم أربعة أوجه : أحدها — لأنهم قالوا

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

«وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » ختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم ؛ قاله أبو موسى الأشعرى. الثانى — ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم ؛ قاله ابن زياد. الثالث — لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق ؛ لخروجه مخرج الإعجاز، وإن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز. الرابع — ليعلم أن أعضاءه التى كانت أعوانا فى حق نفسه صارت عليه شهودا فى حق ربه . فإن قيل لم قال «وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ» فجعل ما كان من اليد كلاما وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل ؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدى بالقول ، وعما صدر من الأرجل بالشهادة . وقد روى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى " ذكره الماوردى والمهدوى . وقال أبو موسى الأشعرى : إنى لأحسب ان أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ؛ ذكره المهدوى أيضا . قال الماوردى : فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التى هى فى الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم فى الشهادة عليها. قال: وتقدمت اليسرى؛ لأن الشهوة فى ميامن الأعضاء أقوى منها فى مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قلت : أو بالعكس لغلبة الشهوة ، أو كلاهما معًا والكفّ ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ حكى الكسائى : طَمَس يَطمِس ويَطمُس . والمطموس والطَّمِيس عند أهل اللغة الأعمى الذى ليس فى عينيه شقّ . قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحقّ . وقال الحسن والسدى : المعنى لتركناهم عميًا يتردّدون . فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . وهذا اختيار الطبرى . وقوله : «فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ» أى استبقوا الطريق ليجوزوا «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» أى فمن أين يبصرون . وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم ،

Marfat.com

وأعميناهم عن غَيِّهم ، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ، فاهتدوا وأبصروا رشدَهم ، وتبادروا إلى طريق الآخرة . ثم قال « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » ولم نفعل ذلك بهم ؛ أى فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة ، على الضلال باقية . وقد روى عن عبد الله بن سلام فى تأويل هذه الآية غير ما تقدّم، وتأولها على أنها فى يوم القيامة . وقال : إذا كان يوم القيامة ومُدّ الصراط، نادى منادٍ ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط ، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّارهم ، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم ينادى منادٍ ليقم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمته فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل ، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام . ذكره النحاس وقد كتبناه فى التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك فى رقائقه . وذكره القشيرى . وقال ابن عباس رضى الله عنه : أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بنى مخزوم ليطرحه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فطمس الله على بصره ، وألصق الحجر بيده ، فما أبصره ولا آهتدى ، ونزلت الآية فيه . والمطموس هو الذى لا يكون بين جفنيه شَقّ ، مأخوذ من طَمَس الريحُ الأثرَ ؛ قاله الأخفش والقتبى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ المسخ تبديل الخلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة . قال الحسن : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم . وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة ، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعا تقصده فتتحيّر ، فلا تُقبِل ولا تُدبِر . آبن عباس رضى الله عنه : المعنى لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم . وقيل : المعنى لو نشاء لمسخناهم فى المكان الذى اجترءوا فيه على المعصية . آبن سَلَام : هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط . وقرأ الحسن والسُّلَمى وزِرّ بن حُبَيش وعاصم فى رواية أبى بكر « مَكَانَاتِهِم» على الجمع : الباقون بالتوحيد : وقرأ أبو حَيْوة « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مَضِيًّا » بفتح الميم . والمضى بضم الميم مصدر مضى يَمضى مُضيًّا إذا ذهب .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحمزة « نُنَكِّسْهُ» بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس . الباقون « نَنْكُسْهُ » بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أنكسُه نكْسًا قلبته على رأسه فانتكس. قال قتادة: المعنى أنه يصير إلى حال الهرَم الذى يشبه حال الصبا . وقال سفيان فى قوله تعالى « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوّته . قال الشاعر :

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ * وخانه ثِقَتاه السَّمْعُ والبصرُ

فطول العمر يصيرّ الشباب هَرَما، والقوّة ضعفا، والزيادة نقصا ، وهذا هو الغالب . وقد تعوّذ صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر . وقد مضى فى « النحل » بيانه[1] .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنّ من فعل هذا بكم قادر على بعثكم . وقرأ نافع وآبن ذكوان « تعقلون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — أخبر تعالى عن حال نبيه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعانى فقط صلى الله عليه وسلم. من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة :

ستُبدِى لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلًا * ويأتيكَ من لم تزوّده بالأخبار

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول :

ألم تريانى كلّما جئتُ طارقًا * وجدتُ بها وإن لم تطيّب طِيبًا

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وأنشد يوما :

أتجعلُ نَهبي ونَهبَ العبـ * ـيدِ بين الأقرعِ وعُيَيْنَة

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم فى النادر . روى أنه أنشد بيت [عبد الله بن رَوَاحة] :

يَبيتُ يُجافى جَنْبَهُ عن فراشـه * إذا آستثقلت بالمشركين المضاجعُ

وقال الحسن بن أبى الحسن أنشد النبي عليه السلام :

* كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهيا *

فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرةَ ودِّعْ إن تجهزتَ غاديًا * كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء نَاهيًا

فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ » . وعن الخليل بن أحمد : كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ولكن لا يتأتى له .

الثانيـة — إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتى أحيانا من نثر كلامه ما يدخل فى وزن ، كقوله يوم حنين وغيره :

" هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ * وفى سبيلِ اللهِ ما لَقيتِ "

وقوله :

" أنَا النبيُّ لا كَذِبْ * أنا آبن عبد المطلبْ "

فقد يأتى مثل ذلك فى آيات القرآن ، وفى كل كلام وليس ذلك شعرا ولا فى معناه ؛ كقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقوله : « نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » . وقوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكر آبن العربى منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال فى قوله : " أنا النبيّ لا كَذِبْ " ليس بشعر . وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . وروى عنه أنه من منهوك الرجز . وقد قيل :

Marfat.com

لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على البـاء من قوله : " لا كذب " . ومن قوله : " عبد المطلب " . ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم . قال آبن العربي : والأظهر من حاله أنه قال " لا كَذِبُ " الباء مرفوعة و بخفض الباء من عبد المطلِبِ على الإضافة . وقال النحاس قال بعضهم : إنمـا الرواية بالإعراب ، و إذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا ؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأوّل أو ضمها أو نوّنها ، وكسر الباء من البيت الثانى خرج عن وزن الشعر . وقال بعضهم : ليس هذا الوزن من الشعر . وهذا مكابرة العيان ؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره . وأما قوله : " هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ " فقيل إنه من بحر السريع، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت، فإن سكن لا يكون شعرا بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعولْ، ولا مدخل لفعول فى بحر السريع . ولعل النبي صلى الله عليـه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع . والمعوّل عليه فى الأنفصال على تسليم أن هــذا شعر ، ويسقط الأعتراض، ولا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالمـا بالشعر ولا شاعرا أن التمثـل بالبيت النزر و إصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلها عالمـا بالشعر، ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا . قال أبو إسحق الزجاج : معنى « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » وما علمناه أن يشعر أى ما جعلناه شاعرا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى هــذا . وقــد قيل : إنمـا خبّر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ، ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا، وهذا ظاهر الكلام . وقيل فيه قول بيِّن؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغــة، وذلك أنهم قالوا : كل من قال قولا موزونا لا يقصد به إلى شـعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر . وهذا قول بيّن . قالوا : و إنما الذى نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العـلم بالشعر وأصنافه ، وأعاريضه وقوافيه والأتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفا بذلك بالأتفاق، ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم ، فقال بعضهم : نقول إنه شاعر . فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب ، فإنهم يعرفون

Marfat.com

أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئا منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر(١) فلم يلتئم أنه شعر . أخرجه مسلم وكان أنيس من أشعر العرب . وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه : والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر . على ما يأتي بيانه من خبره في سورة «فصلت» إن شاء الله تعالى . وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسن البلغاء . ثم إن ما يجرى على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعرا، وإنما يعدّ منه ما يجرى على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل : حدّثنا شيخ لنا وينادى ياصاحب الكسائى ، ولا يعدّ هذا شعرا . وقد كان رجل ينادى فى مرضه وهو من عرض العامة العقلاء : آذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد آكتوى .

الثالثة — روى آبن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال : لا تكثرن منه فمن عيبه أن الله يقول «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» قال : ولقد بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى : أن آجمع الشعراء قبلك ؛ وسلهم عن الشعر، وهل بقى معهم معرفة ؛ وأحضر لبيدا ذلك؛ قال : فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله . وسأل لبيدا فقال : ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله عز وجل يقول : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » قال آبن العربى : هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » من عيب الكتابة ، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط ، كذلك لا يكون نفى النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر . روى أن المأمون قال لأبى علىّ المِنْقرى : بلغنى أنك أمىّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال يا أمير المؤمنين : أما اللحن فربما سبق لسانى منه بشىء ، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقيم الشعر . فقال له سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتنى رابعا وهو الجهل ، يا جاهل ! إن ذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة ، وهو فيك وفى أمثالك نقيصة . وإنما منع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لنفى الظنة عنه ، لا لعيب فى الشعر والكتابة .

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده .

Marfat.com

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى وما ينبغي له أن يقوله ، وجعل الله جلّ وعزّ ذلك علَما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه ، فيظن أنه قوِي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر . ولا اعتراض للملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر، ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا؛ على ما تقدّم بيانه . وقال الزجاج : معنى « وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أى ما يتسهّل له قول الشعر لا الإنشاء . ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى هذا الذى يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أى حيّ القلب ؛ قاله قتادة . الضحاك : عاقلا . وقيل : المعنى لتنذر من كان مؤمنا فى علم الله . هذا على قراءة التاء خطابا للنبيّ عليه السلام، وهى قراءة نافع وابن عامر . وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عزّ وجل، أو لينذر محمد صلى الله عليه وسلم، أو لينذر القرآنُ . وروى عن ابن السَّمَيْقَع « لِيَنْذَر » بفتح الياء والذال . ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة .

قوله تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب . أى أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا . ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أى مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة . و « ما » بمعنى الذى وحذفت الهاء لطول الاسم ، وإن جعلت « ما » مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء . ﴿أَنْعَامًا﴾ جمع نعم والنعم مذكر . ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون . ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أى سخرناها لهم حتى يقود الصبيّ الجمل العظيم ويضربه ويصرّفه كيف شاء لا يخرج من طاعته . ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء ؛ أى مركوبهم ، كما يقال ناقة

Marfat.com

حَلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن وآبن السَّمَيْقَع « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء على المصدر . وروى عن عائشة أنها قرأت « فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ » وكذا فى مصحفها والرَّكوب والرَّكوبة واحد مثل الحَلوب والحَلوبة والحَمول والحَمولة . وحكى النحويون الكوفيون : أن العرب تقول آمرأة صَبور وشَكور بغير هاء . ويقولون شاة حَلوبة وناقة رَكوبة ؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه، فحذفوا الهاء مما كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا ؛ كما قال[1] :

فيها آثنتانِ وأربعون حَلُوبَةً * سودًا كخافيةِ الغرابِ الأَسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم . فأما البصريون فيقولون حذفت الهاء على النسب . والحجة للقول الأول ما رواه الجرمى عن أبى عبيدة قال : الرَّكوبة تكون للواحد والجماعة والرَّكوب لا يكون إلا للجماعة . فعلى هذا يكون لتذكير الجمع . وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز «فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ» بضم الراء لأنه مصدر ؛ والرَّكوب ما يركب . وأجاز الفراء « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ من لحمانها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعنى ألبانها؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التى لا نظير لها فى الواحد . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

قوله تعالى : وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً ﴾ أى قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم آتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل . ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى لما يرجون من نصرتها

(١) هو عنترة بن شداد .

Marfat.com

لهم إن نزل بهم عذاب . ومن العرب من يقول لعله أن يفعل . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى الآلهة . وجمعوا بالواو والنون ؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعنى الكفار ﴿ لَهُمْ ﴾ أي، للآلهة، ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم. وقال قتادة: أى يغضبون لهم فى الدنيا . وقيل : المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها، فهم لها بمنزلة الجند وهى لا تستطيع أن تنصرهم . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وقيل : إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم فى النـار، فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيـل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جنـد الله عليهم فى جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرءون من عبادتهـم . وقيـل : الآلهة جند لهم محضرون يوم القيـامة لإعانتهم فى ظنونهم . وفى الخبر : إنه يمثّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه فى الدنيـا من دون الله فيتبعونه إلى النـار ، فهم لهم جنـد محضرون .

قلت : وبمعنى هذا الخبر ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة،وفى الترمذىّ عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجمع اللهُ الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ثم يَطّلِـع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ ألَا لِيتبعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمثَّل لصاحب الصّليب صليبهُ ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النـار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون " وذكر الحديث بطوله . ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ هذه اللغة الفصيحة . ومن العرب من يقول يُحزِنك . والمراد تسلية نبيه عليه السـلام أى لا يحـزنك قولهم شاعر ساحر . وتم الكلام ثم آستأنف فقال : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَـةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ ﴾ قال آبن عباس : الإنسان هو عبد الله بن أُبَىّ . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السّهمىّ . وقال الحسن : هو أُبَىّ بن خلف الجُمَحىّ .

Marfat.com

وقاله ابن إسحق، ورواه ابن وهب عن مالك. ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أى مجادل فى الخصومة مبين للحجة. يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا. وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يامحمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمَّ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أى ونسى أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة. أى جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه السلام: "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" ففى هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى. «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» أى بالية. رَمَّ العظمُ فهو رَميمٌ ورِمام. وإنما قال رميم ولم يقل رميمة؛ لأنها معدولة عن فاعلة، وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن إعرابه؛ كقوله: «وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا» أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية. وقيل: إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن سحقتها وأذريتها فى الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى من غير شيء فهو قادر على إعادتها فى النشأة الثانية من شيء وهو عَجْم الذَّنَب. ويقال عَجْب الذَّنَب بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أى كيف يبدئ ويعيد.

Marfat.com

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن فى العظام حياة وأنها تنجس بالموت . وهو قول أبى حنيفة[(١)] و بعض أصحاب الشافعى . وقال الشافعى رضى الله عنه : لاحياة فيها . وقد تقدّم هـذا فى « النحل » . فإن قيل أراد بقوله : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ » أصحاب العظام، وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير فى اللغة، موجود فى الشريعة . قلنا : إنمـا يكون إذا ٱحتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذ البارى سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له ؛ فإن الإحساس الذى هو علامة الحياة موجود فيه ؛ قاله ٱبن العربى .

قوله تعـالى : ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته فى إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندىّ الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة تخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة. فأنزل الله تعالى: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا » أى إن الشجر الأخضر من المـاء والمـاء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار فهو القادر على إخراج الضّد من الضّد ، وهو على كل شىء قدير. ويعنى بالآية

(١) هـذا يخالف مذهب الحنفية وما تقدّم للؤلف فى جـ ١٠ ص ١٥٥ من أن أبا حنيفـة يقول بطهارة عظم الميتـــة .

Marfat.com

ما فى المَرْخ والعَفار، وهى زنادة العرب؛ ومنه قولهم: فى كل شجر نار وآستمجد المَرْخُ والعَفار[1]، فالعَفار الزَّنْد وهو الأعلى، والمَرْخ الزَّنْدة وهى الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحكّ بعضُهما إلى بعض فتخرج منهما النار . وقال : « مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ » ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ . ومن العرب من يقول : الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل : « مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » . ثم قال تعالى محتجا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أى أمثال المنكرين للبعث . وقرأ سلّام أبو المنذر و يعقوب الحضرمى « يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » على أنه فعل . ﴿ بَلَى ﴾ أى إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذى خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم . ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ وقرأ الحسن بآختلاف عنه « الخَالِقُ » .

قوله تعالى . ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ ﴾ قرأ الكسائى « فَيَكُونَ » بالنصب عطفا على «يقول» أى إذا أراد خلق شىء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة . وقد مضى هذا فى غير موضع . ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك . وملكوتُ وملكوتَى فى كلام العرب بمعنى ملك . والعرب تقول : جَبَرُوتَى خيرٌ من رَحَمُوتَى . وقال سعيد عن قتادة : « مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » مفاتح كل شىء . وقرأ طلحة بن مصرِّف و إبراهيم التيمى والأعمش « مَلَكَةُ » وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى تردّون وتصيرون بعد مماتكم . وقراءة العامة بالتاء على الخطاب . وقرأ السُّلَمىّ و زرّ بن حُبَيش وأصحاب عبد الله « يَرْجِعُونَ » بالياء على الخبر .

---

(١) آستمجد المرخ والعفار : أى آستكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما . وهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

Marfat.com

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءة أكثر القراء . وقرأ حمزة بالإدغام فيهن . وهذه القراءة التي نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها . النحاس : وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات ؛ إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، وإنما أختاها الطاء والدال ، وأخت الزاي الصاد والسين ، وأخت الذال الظاء والثاء . والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى . والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابة وشابة . ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف . « والصَّافَّاتِ » قسم ؛ الواو بدل من الباء . والمعنى برب الصافات « وَالزَّاجِرَاتِ » عطف عليه . ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم . وأجاز الكسائي فتح إن في القسم والمراد بـ « الصافاتِ » وما بعدها إلى قوله : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . تصف في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة . وقيل : تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد . وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفا . وقال الحسن : « صَفًّا » لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم . وقيل : هي الطير ؛ دليله قوله

Marfat.com

تعـالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ » . والصفّ ترتيب الجمع على خط كالصف في الصلاة . « والصَّافَّاتِ » جمـع الجمع ، يقال : جماعة صافة ثم يجمع صافّات . وقيـل : الصافّات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفّا في الصلاة أو في الجهاد ؛ ذكره القشيري . « فَالزَّاجِرَاتِ » الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه . إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السـدّى . وإما لأنهـا تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح . وقال قتـادة : هي زواجر القرآن . « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسـدى . وقيل : المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع . وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله تعـالى وكتبه . وقيل : هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعـالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليـات ؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضا ؛ ذكره القشيري . وذكر المـاوردى أن المـراد بالتاليات الأنبيـاء يتلون الذكر على أممهم . فإن قيـل : ما حكم الفـاء إذا جاءت عاطفـة في الصفات، قيل له : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود ؛ كقوله(١) :

يَالَهْفَ زَيَّابَةَ(١) لِلحارِثِ الصَّـ ✽ ـابِحِ فالغَـانِمِ فالآيِبِ

كأنه قال : الذى صَبّح فغَنِم فآب . وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله : رحم الله المحلِّقين فالمقصِّرين . فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات؛ قاله الزمخشري . « إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ » جواب القسم . قال مقاتل : وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلها واحدا، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفا .

(١) هو سلمة بن ذهل و يعرف بابن زيابة و زيابة أبوه، وقيل اسم أمه . يقول يالهف أبي على الحرث إذ صبح قومي بالغارة فغنم وآب سالما ألا أكون لقيته فقتلته . و يريد بالهف نفسى . والحرث هو الحرث بن همام الشيبانى كما في شرح أشعار الحماسة . و بعد هذا البيت :

والله لو لاقيتـه خاليـا ✽ لآب سـيفانا مع الغالب

Marfat.com

ونزلت الآية . قال ابن الأنبارى : وهو وقف حسن، ثم تبتدئ ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات . النحاس : ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ» خبرا بعد خبر، ويجوز أن يكون بدلا من « وَاحِدٌ » .

قلت : وعلى هذين الوجهين لا يوقف على «لَوَاحِدٌ». وحكى الأخفش «رَبَّ السَّمٰوَاتِ وَرَبَّ الْمَشَارِقِ » بالنصب على النعت لاسم إن . بيّن سبحانه معنى وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه « رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما ومالكهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى مالك مطالع الشمس . ابن عباس : للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوّة فى مطالعها، ومثلها فى مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع فى كل يوم فى كوّة منها، وتغيب فى كوّة، لا تطلع فى تلك الكوّة إلا فى ذلك اليوم من العام المقبل . ولا تطلع إلا وهى كارهة فتقول : ربّ لا تطلعنى على عبادك فانى أراهم يعصونك . ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد ، وابن الأنبارى فى كتاب الرد عن عكرمة ؛ قال : قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أميّة بن أبى الصّلت "آمن شعره وكفر قلبه" قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ قلت : أنكرنا قوله :

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ * حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتورّدُ
ليست بطالعةٍ لهم فى رِسْلِها * إلّا مُعذَّبةً وإلّا تُجْلَدُ

ما بال الشمس تُجلَد؟ فقال: والذى نفسى بيده ما طلعت شمس قط حتى يَنخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها اطلُعى اطلُعى، فتقول لا أطلُع على قوم يعبدوننى من دون الله، فيأتيها ملك فيستقلّ لضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع فتطلعُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما طلعت إلا بين قرنى شيطان ولا غربت إلا بين قرنى شيطان وما غربت قط إلا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغربُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها" لفظ ابن الأنبارى . وذكر

Marfat.com

عن عِكرمة عن ابن عباس قال : صدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبي الصّلت في هذا الشعر :

زُحَلٌ وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمِينِه * والنّسر للأُخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُع كلَّ آخِرِ ليلةٍ * حمراءَ يصبِحُ لونُها يتَوَرَّدُ
ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها * إلّا مُعذَّبةً وإلّا تُجلَدُ

قال عكرمة : فقلت لابن عباس يامولاى أتجلد الشمس؟ فقال : إنما اضطره الروىّ إلى الجلد لكنها تخاف العقاب . ودلّ بذكر المطالع على المغارب ؛ فلهذا لم يذكر المغارب ، وهو كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » . وخصَّ المشارق بالذكر ؛ لأن الشروق قبل الغروب . وقال في سورة « الرحمن » « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلُع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار على ما تقدّم في « يس »(١) والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة : خلقت النجوم ثلاثا؛ رجوما للشياطين، ونورا يهتدى بها ، وزينة لسماء الدنيا . وقرأ مسروق والأعمش والنّخعي وعاصم وحمزة « بِزِينَـةٍ » مخفوض منوّن « الْكَوَاكِبِ » خفض على البدل من « زينة » لأنها هي . وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب « الكواكب » بالمصدر الذي هو زينة . والمعنى بأن زينا الكواكب فيها . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ؛ كأنه قال : إنا زيناها « بِزِينة » أعنى « الكواكبَ » . وقيل : هي بدل من زينة على الموضع .

(١) راجع ص ٢٧ وما بعدها من هذا الجزء .

Marfat.com

ويجوز « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبُ » بمعنى بأن زينتها الكواكبُ . أو بمعنى هي الكواكبُ . الباقون « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » على الإضافة . والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب . أي بحسن الكواكب . ويجوز أن يكون كقراءة من نوّن إلا أنه حذف التنوين ٱستخفافا . ﴿ وَحِفْظًا ﴾ مصدر أي حفظناها حفظا . ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن ٱستراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب . والمارد العاتي من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطانا .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ قال أبو حاتم : أي لئلا يسمعوا ثم حذف أن فرفع الفعل . الملأ الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملإ الأرض . الضمير في « يَسَّمَّعُونَ » للشياطين . وقرأ جمهور الناس « يَسْمَعُونَ » بسكون السين وتخفيف الميم . وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص « لا يَسَّمَّعُونَ » بتشديد السين والميم من التسميع . فينتفي على القراءة الأولى سماعهم، وإن كانوا يستمعون وهو المعنى الصحيح . ويعضده قوله تعالى: « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » . وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع منهم ٱستماع أو سماع . قال مجاهد : كانوا يتسمّعون ولكن لا يسمعون . وروى عن ٱبن عباس « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ » قال : هم لا يسمّعون ولا يتسمعون . وأصل «يَسَّمَّعُونَ» يتسمّعون فأدغمت التاء في السين لقربها منها . وٱختارها أبو عبيد؛ لأن العرب لا تكاد تقول سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه . ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي يُرمَون من كل جانب؛ أي بالشهب . ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر ؛ لأن معنى « يُقْذَفُونَ » يُدحَرون . دحرته دَحْرا ودُحُورا أي طردته . وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحضرمي « دَحُورًا » بفتح الدال يكون مصدرا على فَعول . وأما الفرّاء فإنه قدره على أنه ٱسم الفاعل . أي ويقذفون بما يدحرهم أي بدحور ثم حذف الباء ؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيرا [كما أنشدوا[1]] .

* تَمُرُّونَ الديارَ ولَمْ تَعوجُوا *

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . والبيت لجرير وتمامه :

* كلامكم على إذن حرام *

Marfat.com

وآختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؛ على قولين . وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتى من ذكرها فى سورة «الجن» عن آبن عباس . وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرمَى بالنجوم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم رميت؛ أى لم تكن تُرمَى رميا يقطعها عن السمع ، ولكنها كانت تُرمَى وقتا ولا تُرمَى وقتا، وتُرمَى من جانب ولا تُرمَى من جانب . ولعل الإشارة بقوله تعالى: « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » إلى هـذا المعنى ، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصبا . و إنمـا كانوا من قبـل كالمتجسسة من الإنس ، يبلـغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويَسلَم واحد ولا يَسـلَم غيره ، بل يقبض عليه و يعاقب و ينكل . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زِيد فى حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا فى مقعد من المقاعد التى كانت لهم منها، فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجرى فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفّـة حركته خطفة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه ؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة . فإن قيل : إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فلم دام بعد النبي صلى الله عليه وسـلم ؟ فالجواب أنه دام بدوام النبوّة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر ببطلان الكهانة فقال : " ليس منا من تكهّن " فلو لم تحرس بعـد موته لعادت الجنّ إلى تسمّعها ، وعادت الكهانة . ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنمـا عادت لتناهى النبوّة، فصح أن الحكمة تقتضى دوام الحراسة فى حياة النبي عليه السلام، و بعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله .﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أى دائم ؛ عن مجاهـد وقتادة . وقال آبن عباس : شـديد . الكلبي والسدّى وأبو صالح : موجع؛ أى الذى يصل وجعه إلى القلب؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ آستثناء من قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » . وقيل : الاستثناء يرجع الى غير

Marfat.com

الوحى ؛ لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » فيسترق الواحد منهم شيئا مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ . وروى فى هذا الباب أحاديث صحاح ، مضمّنها أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذى يليه ثم الذى يليه، فيقضى الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذى تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيناه فى « الأنعام »(١) . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع بتة . والكواكب الراجمة هى التى يراها الناس تنقضّ . قال النقاش ومكى : وليست بالكواكب الجارية فى السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها ؛ لأنها قريبة منا . وقد مضى فى هذا الباب فى سورة « الحجر »(٢) من البيان ما فيه كفاية . وذكرنا فى « سبإ »(٣) حديث أبى هريرة . وفيه "والشياطين بعضهم فوق بعض" وقال فيه الترمذى حديث حسن صحيح . وفيه عن ابن عباس : "ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرفونه ويزيدون" . قال هذا حديث حسن صحيح . والخطف أخذ الشيء بسرعة؛ [يقال](٤) خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّفَ . والأصل فى المشددات اختطف فأدغم التاء فى الطاء ؛ لأنها أختها وفتحت الخاء ؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها . ومن كسرها فلالتقاء الساكنين . ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى مضىء ؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما . وقيل : المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم فى البحر . وقال ابن عباس فى الشهب : تحرقهم من غير موت . وليست الشهب التى يرجم الناس بها

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع ١٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٤) زيادة يقتضيها السياق، ويدل عليها ما فى إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

من الكواكب الثوابت . يدل على ذلك رؤية حركاتها ، والثابتة تجرى ولا ترى حركاتها لبعدها . وقد مضى هذا . وجمع شهاب شهب والقياس فى القليل أشهبة و إن لم يسمع من العرب . و « ثَاقِبٌ » معناه مضىء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز . ومنه قوله :

* وزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها *

أى أضوأ . وحكى الأخفش فى الجمع : شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثِقاب . وحكى الكسائى : ثَقَبَتِ النارُ تَثْقُب ثَقابةً وثُقوبا إذا آتقدت وأثقبتها أنا . وقال زيد بن أسلم فى الثاقب : إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك أى آستوقد نارَك . وقاله الأخفش . وأنشد قول الشاعر:

بينما المــرءُ شِهابٌ ثاقبٌ * ضَربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمَدْ

قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى سلهم يعنى أهل مكة ؛ مأخوذ من آســتفتاء المفتى . ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ قال مجاهد : أى من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار. وقيل : يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم المـاضية . يدل على ذلك أنه أخبر عنهم « بمن » قال سعيد بن جبير : الملائكة . وقال غيره : « مَنْ » الأمم المـاضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقا منهم . نزلت فى أبى الأشد بن كَلَدَة ، سمى بأبى الأشد لشدّة بطشه وقوته . وسيأتى فى « البلد » ذكره . ونظير هذه « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ » . ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ أى لاصق ؛ قاله آبن عباس . ومنه قول علىّ رضى الله عنه :

تعــلّمْ فإنّ اللهَ زادكَ بَسطةً * وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لازِبُ

Marfat.com

وقال قتادة وآبن زيد : معنى « لَازِبٍ » لازق . الماوردى : والفرق بين اللاصق واللّازق أن اللّاصق هو الذى قد لصق بعضه ببعض ، واللّازق هو الذى يلتزق بما أصابه . وقال عِكرمة : « لَازِبٍ » لزج . سعيد بن جبير : أى جيد حرّ يلصق باليد . مجاهد « لازب » لازم . والعرب تقول : طينٌ لازِب ولازِم ، تبدل الباء من الميم . ومثله قولهم لاتِب ولازِم . على إبدال الباء بالميم . واللازب الثابت ؛ تقول : صار الشيءُ ضربةَ لازِبٍ، وهو أفصح من لازم . قال النابغة :

ولا تَحْسَبونَ الخيرَ لا شرّ بعدَهُ * ولا تَحْسَبونَ الشرّ ضربةَ لَازِبِ

وحكى الفرّاء عن العرب : طين لاتِب بمعنى لازِم . واللاتِب الثابت؛ تقول منه : لَتَبَ يَلْتُبُ لَتْبًا ولُتُوبا، مثل لَزَب يَلْزُب بالضم لزوبا؛ وأنشد أبو الجرّاح فى اللّاتِب :

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شَرِبْتُهُ * فإنّى من شُرْبِ النَّبيذِ لَتَائِبُ

صُدَاعٌ وتَوْصِيمُ العِظَامِ وفَتْرَةٌ * وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ فى الجَوْفِ لَاتِبُ (١)

واللّاتب أيضا اللّاصق مثل اللّازب ، عن الأصمعى حكاه الجوهرى . وقال السدّى والكلبى فى اللّازب : إنه الخالص . مجاهد والضحاك : إنه المنتن .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم؛ أى بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به . وهى قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال :] (٢) إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم . وقيل : المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء، وآختارها أبو عبيد والفرّاء وهى مروية عن علىّ وآبن مسعود ؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « بَلْ عَجِبْتُ » بضم التاء . ويروى عن آبن عباس . قال الفرّاء فى قوله سبحانه : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » قرأها الناس بنصب

(١) قوله : وغم مع الإشراق كرواية اللسان . ورواية الطبرى : وغثى مع الإشراق .
(٢) الزيادة من تفسير الألوسى .

Marfat.com

التاء ورفعها والرفع أحبّ إلىّ؛ لأنها عن علىّ وعبد الله وآبن عباس. وقال أبو زكريا الفرّاء: العجب إن أسند إلى الله عزّ وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفى هـذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها. روى جرير والأعمش عن أبى وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعنى آبن مسعود «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» قال شريح: إن الله لا يعجب من شىء إنما يعجب من لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إن شُرَيْحًا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيْح وكان يقرؤها عبد الله «بَلْ عَجِبْتُ». قال الهَرَوِىّ: وقال بعض الأئمة معنى قوله: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على عجبهم؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال: «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» وقال: «إِنَّ هَـذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ». «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ» فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على التعجب.

قلت: وهذا تمام معنى قول الفرّاء وآختاره البيهقى. وقال علىّ بن سليمان: معنى القراءتين واحد التقدير قل يا محمد بل عجبت؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن. النحاس: وهـذا قول حسن وإضمار القول كثير. البيهقى: والأول أصح. المهدوى: ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولا على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه — على ما جاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم — على أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازا وآتساعا. قال الهروىّ: ويقال معنى "عَجِبَ رَبُّكُمْ" أى رضى وأثاب فسماه عجبا وليس بعجب فى الحقيقة؛ كما قال تعالى: «وَيَمْكُرُ اللَّهُ» معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله فى الحديث "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنُوطكم". وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيما. فيكون معنى قوله: «بل عجبت» أى بل عظم فعلهم عندى. قال البيهقى: ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال:

Marfat.com

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "عجب ربك من شاب ليست له صبوة" وكذلك ما خرجه البخاري عن [أبي هريرة[1] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل"] قال البيهقي : وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة . وقيل : معنى « بَلْ عَجِبْتُ » بل أنكرت . حكاه النقاش . وقال الحسين بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه وهو لغة العرب . وقد جاء في الخبر "عجب ربكم من إلّكم وقنوطكم" . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قيل : الواو واو الحال أي عجبت منهم في حال سخريتهم . وقيل : تم الكلام عند قوله : « بَلْ عَجِبْتَ » ثم آستأنف فقال : « وَيَسْخَرُونَ » أي مما جئت به إذا تلوته عليهم . وقيل : يسخرون منك إذا دعوتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أي وعظوا بالقرآن في قول قتادة . ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا ينتفعون به . وقال سعيد بن جبير . أي إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي معجزة ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يسخرون في قول قتادة، ويقولون إنها سحر . وآستسخر وسخر بمعنًى مثل آستقر وقر وآستعجب وعجب . وقيل: « يَسْتَسْخِرُونَ » أي يستدعون السخرى من غيرهم . وقال مجاهد : يستهزئون . وقيل : أي يظنون أن تلك الآية سخرية . ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أي أنبعث إذا متنا . فهو آستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي أو تبعث آباؤنا . دخلت ألف الآستفهام على حرف العطف . وقرأ نافع «أَوْ آبَاؤُنَا» بسكون الواو . وقد مضى هذا في سورة «الأعراف»[2]. في قوله تعالى : « أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى » .

(١) الزيادة من البخاري وفي الأصل بياض .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أى نعم تبعثون . ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى صاغرون أذلاء؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون . وقيل: أى ستقوم القيامة وإن كرهتم، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى صيحة واحدة؛ قاله الحسن وهى النفخة الثانية . وسميت الصيحة زجرة؛ لأن مقصودها الزجر؛ أى يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السّوق . ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قيام ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى ينظر بعضهم إلى بعض . وقيل : المعنى ينتظرون ما يفعل بهم . وقيل : هى مثل قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » . وقيل : أى ينظرون إلى البعث الذى أنكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهم . وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين . وزعم الفرّاء أن تقديره ياوَىْ لَنَا ووَىْ بمعنى حُزْن . النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلا وهو فى المصحف متصل، ولا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا . و « يَوْمُ الدِّينِ » يوم الحساب . وقيل : يوم الجزاء . ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض، أى هذا اليوم الذى كذّبنا به . وقيل : هو من قول الله تعالى لهم . وقيل : من قول الملائكة؛ أى هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل . فـ« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

قوله تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

Marfat.com

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة : « ٱحْشُرُوا » المشركين « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشياعهم فى الشرك ، والشرك الظلم ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فيحشر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر ابن الخطاب فى قول الله عز وجل : « ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » قال : الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقال ابن عباس : « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشباههم . وهذا يرجع إلى قول عمر . وقيل : « وَأَزْوَاجَهُمْ » نساؤهم المرافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب. وقال الضحاك : « وَأَزْوَاجَهُمْ » قرناؤهم من الشياطين . وهذا قول مقاتل أيضا : يحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللهِ ﴾ أى من الأصنام والشياطين وإبليس . ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أى سوقوهم إلى النار . وقيل : « فَٱهْدُوهُمْ » أى دُلّوهم . يقال هديته إلى الطريق وهديته الطريق؛ أى دللته عليه . وأهديتُ الهدية وهَديتُ العروسَ ، و يقال أهديتها . أى جعلتها بمنزلة الهديّة .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ وحكى عيسى بن عمر « أَنَّهُمْ » بفتح الهمزة. قال الكسائى : أى لأنهم وبأنهم . يقال : وَقفتُ الدابةَ أقفها وَقْفا فوقفت هى وقوفا يتعدى ولا يتعدى ؛ أى ٱحبسوهم . وهذا يكون قبل السَّوق إلى الجحيم وفيه تقديم وتأخير،

Marfat.com

أى قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار . وقيل : يساقون إلى النار أولا ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار « إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ؛ قاله القرظى والكلبي . الضحاك : عن خطاياهم . آبن عباس : عن لا إله إلا الله . وعنه أيضا : عن ظلم الخلق . وفى هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب . وقد مضى فى « الحجر »[1] الكلام فيه . وقيل سؤالهم أن يقال لهم « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ » إقامة للحجة . و يقال لهم ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ ؛ أى ينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله . وقيل : هو إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » . وأصله تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا ، وشدّد البزّى التاء فى الوصل .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال قتادة : مستسلمون فى عذاب الله عز وجل . آبن عباس : خاضعون ذليلون . الحسن : منقادون . الأخفش : ملقون بأيديهم . والمعنى متقارب . ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعنى الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتخاصمون . ويقال لا يتساءلون فسقطت لا . النحاس : وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم أسألك بالرحم الذى بينى و بينك لما نفعتنى أو أسقطت لى حقا لك علىّ أو وهبت لى حسنة . وهذا بيّن ؛ لأن قبله « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » أى ليس ينتفعون بالأنساب التى بينهم كما جاء فى الحديث " إن الرجل ليسر بأن يصح له على أبيه أو على آبنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات " . وفى حديث آخر " رحم الله آمرءا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فآستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب" . و « يَتَسَاءَلُونَ » هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا و يوبخه فى أنه أضله أو فتح له بابا من المعصية ؛ يبين ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين . قتادة : هو قول الإنس للجن . وقيل : هو من قول

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الأتباع للتبوعين : دليله قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » الآية . قال سعيد عن قتادة : أى تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها . وعن ابن عباس نحو منه . وقيل : تأتوننا عن اليمين التى نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح . والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح . وقيل : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدّقناه . وقيل : تأتوننا من قبل الدّين فتهوّنون علينا أمر الشريعة وتنفّروننا عنها .

قلت : وهذا القول حسن جدا ؛ لأن من جهة الدّين يكون الخير والشر ، واليمين بمعنى الدّين . أى كنتم تزينون لنا الضلالة . وقيل : اليمين بمعنى القوّة . أى تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر ؛ قال الله تعالى : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ » أى بالقوّة وقوّة الرجل فى يمينه ؛ وقال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ * تلقّاها عَرابةُ باليمين

أى بالقوّة والقدرة . وهذا قول ابن عباس . وقال مجاهد : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قبل الحق أنه معكم . وكله متقارب المعنى . ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا قول الشياطين لهم . وقيل : من قول الرؤساء ؛ أى لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة فى ترك الحق . ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ أى ضالين متجاوزين الحد . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ هو أيضا من قول المتبوعين ؛ أى وجب علينا وعليكم قول ربنا ، فكلنا ذائقو العذاب ، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . وهذا موافق للحديث " إن الله جلّ وعزّ كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم " . ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أى زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ بالوسوسة والاستدعاء . ثم قال خبرا عنهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ الضال والمضل . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أى مثل هذا الفعل ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول .

Marfat.com

و « يستكبرون » فى موضع نصب على خبر كان . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر إنّ وكان ملغاة . ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى طالب عند موته وآجتماع قريش "قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم" أبوا وأنفوا من ذلك . وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أنزل الله تعالى فى كتابه فذكر قوما آستكبروا فقال « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ »" وقال تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » وهى (لا إله الا الله محمد رسول الله) آستكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدّة . ذكر هذا الخبر البيهقى والذى قبله القشيرى .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أى لقول شاعر مجنون، فردّ الله جل وعز عليهم فقال : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد . ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون آستخفافا وخفضت للإضافة . ويجوز النصب كما أنشد سيبويه :

فألفيتُهُ غيرَ مُستَعتِبٍ * ولا ذاكرِ اللهَ إلّا قليلا

وأجاز سيبويه « والمقيمى الصّلاةَ » على هذا . ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا بما عملتم من الشرك ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ آستثناء ممن يذوق العذاب . وقراءة أهل المدينة والكوفة « المخلَصين » بفتح اللام يعنى الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته . الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لله العبادة . وقيل : هو آستثناء منقطع ؛ أى إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

Marfat.com

قوله تعالى : أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ يعنى المخلصين ؛ أى لهم عطية معلومة لا تنقطع . قال قتادة : يعنى الجنة . وقال غيره : يعنى رزق الجنة . وقيل : هى الفواكه التى ذكر . قال مقاتل : حين يشتهونه . وقال ابن السائب : إنه بمقدار الغداة والعشى ؛ قال الله تعالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » . ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ جمع فاكهة ؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ » وهى الثمار كلها رطبها و يابسها ؛ قاله ابن عباس . ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ أى ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه . ﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى فى بساتين يتنعمون فيها . وقد تقدّم أن الجنان سبع فى سورة « يونس »(١) منها النعيم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قال عكرمة ومجاهد : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض تواصلا وتحابا . وقيل : الأسرة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد . وقال ابن عباس : على سرر مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة . وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم . والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه ، فإن كان فارغا فليس بكأس . قال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح . النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أو أولى ثانية .

Marfat.com

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة . قال أبو الحسن ابن كيسان : ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة . وقال الزجاج : « بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » أى من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض . والمعين الماء الجارى الظاهر . ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ صفة للكأس . وقيل : للخمر . ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ قال الحسن : خمر الجنة أشد بياضا من اللبن . « لذة » قال الزجاج : أى ذات لذة فحذف المضاف . وقيل : هو مصدر جعل آسما أى بيضاء لذيذة ؛ يقال شراب لذٌّ ولذيذ مثل نبات غَضٌّ وغضيض .

فأما قول القائل[1] :

وَلَذٍ كَطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُهُ * بأرضِ العِدَا مِنْ خَشْيَةِ الحَدَثَانِ

فإنه يريد النوم . وقيل : « بيضاء » أى لم يعتصرها الرجال بأقدامهم . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أى لا تغتال عقولهم ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع . ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أى لا تذهب عقولهم بشربها، يقال : الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس؛ أى تذهب بها .

ويقال : نُزِفَ الرجلُ يُنْزَف فهو منزوف ونزيف إذا سكر . قال آمرؤ القيس :

وإذ هى تَمْشِى كمشى النَّزِيـ * ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البَهَرْ[2]

وقال أيضا :

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تَمايَلَتْ * تُرَاشِى الفؤادَ الرَّخْصَ أَلَّا تَخَتَّرَا[3]

وقال آخر[4] :

فلثمتُ فَاهَا آخِذًا بقرونها * شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

---

(١) هو الراعى . ويروى :

ولذ كطعم الصرخدى طرحته * عشية خمس القوم والعين عاشقه

والصرخد موضع ينسب اليه الشراب . أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذارا لهم .

(٢) البهر : الكلال وانقطاع النفس . (٣) الختر : ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم . يقول : هى سكرى من الشراب ، اذا قامت به لوجه وجدت فتورا فى عظامها وكسلا ، فهى تدارى فؤادها وتراشيه ألا يعذبها فى مشيتها .

(٤) هو جميل بن معمر . وقيل البيت : لعمر بن أبى ربيعة . والحشرج نقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

Marfat.com

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف القومُ إذا حان منهم النَّزْف وهو السّكر. يقال: أَحصـدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه ، وأَقطفَ الكَرمُ إذا حان قِطـافُه ، وأَركَبَ المهرُ إذا حان ركوبه . وقيل : المعنى لا ينفدون شرابهم ؛ لأنه دأبهم ؛ يقال : أَنْزَف الرجلُ فهو منزوف إذا فنيت خمره . قال الحطيئة (١) :

لَعَمْـــرِي لئن أَنزفتمُ أو صَحَوْتمُ * لبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرَا

النحاس : والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى ؛ لأن معنى « يُنْزَفُونَ » عنـد جِلّة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم ، فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر . ومعنى « يُنْزِفُونَ » الصحيح فيه أنه يقال : أنزف الرجل إذا نفد شرابه ، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة ؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبدا . وقيل : «لَايُنْزِفُونَ» بكسرالزاي لا يسكرون؛ ذكره الزجاج وأبو علي ماذكره القشيري . المهدوي : ولا يكون معناه يسكرون ؛ لأن قبله « لَا فِيهَا غَوْلٌ » أي لا تغتال عقولهم فيكون تكرارا ؛ ويسوغ ذلك في « الواقعة » . ويجوز أن يكون معنى «لَافِيهَا غَوْلٌ» لا يمرضون فيكون معنى « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » لا يسكرون أو لا ينفد شرابهم . قال قتادة : الغول وجع البطن . وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد « لَا فِيهَا غَوْلٌ » قال لا فيها وجع بطن . الحسن : صداع . وهو قول ابن عباس « لَا فِيهَا غَوْلٌ » لا فيها صـداع . وحكى الضحاك عنه أنه قال : في الخمر أربع خصال ؛ السكر والصـداع والقيء والبول ؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . مجاهد : داء . ابن كيسان : مغص . وهـذه الأقوال متقاربة . وقال الكلبي : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » أي إثم ؛ نظيره « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » . وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة : لا تغتال عقولهم فتذهب بها . ومنه قول الشاعر :

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا * وتَذهبُ بالأولِ الأولِ

(١) نسبه الجوهري إلى الأبيردي . وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانيا .

Marfat.com

أى تصرع واحدا واحدا . وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم . وقال أهل المعانى : الغول فساد يلحق فى خفاء . يقال : اغتاله اغتيالا إذا أفسد عليه أمره فى خفية . ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء قد قَصَرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم . عكرمة : « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى محبوسات على أزواجهنّ . والتفسير الأوّل أبين؛ لأنه ليس فى الآية مقصورات ولكن فى موضع آخر « مقصورات » يأتى بيانه، و « قاصرات » مأخوذ من قولهم : قد اقتصر على كذا إذا اقتنع به وعدل عن غيره؛ قال امرؤ القيس :

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ منها لأَثَّرا

ويروى : فوق الخد . والأوّل أبلغ . والإتب القميص ، والمحول الصغير من الذر . وقال مجاهد أيضا : معناه لا يَغَرْن . ﴿ عِينٌ ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء؛ وقاله السدى . مجاهد : « عِينٌ » حسان العيون . الحسن : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها . والأوّل أشهر فى اللغة . يقال : رجل أعين واسع العين بيِّن العَيَن والجمع عِين . وأصله فُعل بالضم فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء . ومنه قيل لبقر الوحش عِين والثور أعين والبقرة عيناء . ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ أى مصون . قال الحسن وابن زيد : شبهن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة وهو أحسن ألوان النساء . وقال ابن عباس وابن جبير والسدى : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى . وقال عطاء : شبهن بالسِّحاء الذى يكون بين القشرة العليا ولباب البيض . وسَحَاة كل شىء قشره والجمع سَحًا . قاله الجوهرى . ونحوه قول الطبرى؛ قال : هو القشر الرقيق الذى على البيضة بين ذلك . وروى نحوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها و بياضها . قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدرٍ لا يُرامُ خِباؤُها * تمتعتَ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

Marfat.com

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطّى بالريش . وقيـل : المكنون المصون عن الكسر أي إنهن عذارى . وقيـل : المراد بالبيض اللؤلؤ ؛ كقوله تعـالى : « وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ » أي في أصـدافه . قاله آبن عباس أيضا . ومنه قول الشاعر :

وهي بيضـاءُ مِثـلُ لُـؤْلُؤةِ الغـ * ـوّاصِ مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ

وإنمـا ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ .

قوله تعـالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا . وهو من تمـام الأنس في الجنة . وهو معطوف على معنى « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » المعنى يشربون فيتحادثون على الشّراب كعادة الشُّراب . قال بعضهم :

وما بَقِيتْ من اللّذاتِ إلّا * أحاديثُ الكِرامِ على المُـدامِ

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا ؛ إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ منهمْ ﴾ أى من أهل الجنة ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِين ﴾ أى صديق ملازم ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى بالبعث والجزاء . وقال سعيد بن جبير : قرينه شريكه . وقد مضى فى « الكهف » ذكرهما وقصتهما والاختلاف فى آسميهما مستوفى عند قوله تعالى : « وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ »(١) وفيهما أنزل الله جل وعز « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ» إلى «مِنَ الْمُحْضَرِينَ» وقيل : أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث . وقرئ « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد . رواه علىّ بن كيسة عن سليم عن حمزة . قال النحاس : ولا يجوز « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » لأنه لا معنى للصدقة هاهنا . وقال القشيرى : وفى قراءة عن حمزة « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد وٱعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق والاعتراض باطل؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا مجال للطعن فيها . فالمعنى « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بالمال طلبا فى ثواب الآخرة . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى مجزيون محاسبون بعد الموت فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ . وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين . وقيل : هو من قول الملائكة . وليس « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ » بٱستفهام، إنما هو بمعنى الأمر أى ٱطلعوا؛ قاله ٱبن الأعرابى وغيره . ومنه لما نزلت آية الخمر، قام عمر قائما بين يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : يا رب بيانا أشفى من هذا فى الخمر . فنزلت «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» قال : فنادى عمر ٱنتهينا يا ربنا ٱنتهينا يا ربنا . وقرأ ٱبن عباس : «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ» بإسكان الطاء خفيفة « فَأُطْلِعَ » بقطع الألف مخفّفة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل . قال النحاس : « فَأُطْلِعَ فَرَآهُ » فيه قولان : أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا معناه فأطلع أنا ، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام . والقول الثانى أن يكون فعلا ماضيا ويكون ٱطّلعَ وأُطلِعَ واحدا . قال الزجاج : يقال طَلَع وأَطْلَع وٱطّلعَ بمعنى واحد . وقد حكى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

«هـل أنتم مُطلِعونِ» بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره . النحاس : وهو لحن لا يجوز ؛ لأنه جمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافا لكان هـل أنتم مُطْلِعيّ ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله . وأنشدا :

هُمُ القـائلونَ الخـيرَ والآمِرونَهُ * إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما

وأنشد الفراء : والفاعلونه . وأنشد سيبويه وحده :

* ولم يَرْتفِق والناسُ محتضِرونهُ (١) *

وهذا شاذ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هـذا لم يحتجّ به فى كتاب الله عز وجل ، ولا يدخل فى الفصيح . وقد قيل فى توجيهه : إنه أجرى آسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه ، بجرى «مُطْلِعونِ» مجرى يطلعون . ذكره أبو الفتح عثمان بن جني وأنشد :

أرايتَ إن جئتُ به أُمْلُودَا * مُرَجَّـلاً ويَلْبَسُ الـبُرُودَا

* أقائِلُنَّ أَحضِروا الشُّهودَا (٢) *

فأجرى أقائلُنّ مجرى أَتقولُن . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ فى الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها . وكذلك قال كعب فيما ذكر آبن المبارك ؛ قال : إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا آطلع من بعض الكُوَى . قال الله تعـالى : «فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَـوَاءِ الْجَحِيمِ» أى فى وسط النار والحَسَكُ حواليه ؛ قاله آبن مسعود . ويقال : تعبت حتى آنقطع سَوَائى . أى وسطى . وعن أبي عبيدة : قال لى عيسى بن عمر كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائى . وعن قتادة قال قال بعض العلماء : لولا أن الله جل وعز عرّفه إياه لمـا عرفه ، لقد تغيّر حِبْرُه وسِبْرُه (٣) . فعند ذلك يقول : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَـتُرْدِينِ ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

(١) تمـامه :

* جميعا وأيدى المعتفين رواهقه *

يقول : غشيه المعتفون وهم السائلون ، واحتضره الناس جميعا للعطاء ، بجلس لهم جلوس متصرف متبذل غير مرتفق .

(٢) وروى : أحضرى ؛ خطاب لامرأة ، وهو الوجه ، على ما أورده الرضى فى خزانة الأدب حيث قال : ورواه العينى أحضروا بواو الجمع ولا وجه له . والرجز أورده السكرى فى أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ : أقائلون أعجلى الشهودا .

(٣) الحبر والسبر : اللون والهيئة .

Marfat.com

تدخل على كان . ونحوه «إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا» واللام هى الفارقة بينها و بين النافية . ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فى النار . وقال الكسائى : «لَـتُرْدِينِ» أى لتهلكنى والردى الهلاك . وقال المبرد : لو قيل « لترْدِينِ» لتوقعنى فى النار لكان جائزا . «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى» أى عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسـلام والبراءة من القرين السـوء . وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف . «لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» قال الفراء : أى لكنت معك فى النار محضرا . وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا فى الشر، قاله المـاوردى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ وقرئ « بِمائِتِين » والهمزة فى « أَفَمَا » للاستفهام دخلت على فاء العطف، والمعطوف محـذوف معناه أنحن مخلّدون منعّمون فما نحن بميّتين ولا معذّبين. ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ يكون آستثناء ليس من الأول ويكون مصدرا؛ لأنه منعوت . وهو من قول أهـل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت و يقال : ياأهـل الجنة خلود ولا موت و ياأهل النـار خلود ولا موت . وقيـل : هو من قول المؤمن على جهـة الحديث بنعمة الله فى أنهم لا يموتون ولا يعذّبون . أى هذه حالنا وصفتنا . وقيل : هو من قول المؤمن تو بيخا للكافر لمـا كان ينكره من البعث ، وأنه ليس إلا الموت فى الدنيا . ثم قال المؤمن مشيرا إلى ما هو فيه ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يكون «هو» مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إنّ. ويجوز أن يكون «هو» فاصلا . ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لمـا رأى ما أعدّ الله له فى الجنـة وما أعطاه قال « لِمِثْلِ هَـذَا » العطاء والفضـل « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » نظـير ما قال له الكافر « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَـرًا » . ويحتمل أن يكون من قول الملائكة . وقيل : هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا . أى قد سمعتم ما فى الجنة من الخيرات والجزاء و « لِمِثْلِ هَـذَا » الجزاء « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . النحاس : وتقدير الكلام — والله أعلم — فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل : الفاء فى العربية تدل على أن الثانى بعد الأول ، فكيف صار ما بعدها يُنْوى به التقديم ؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة .

Marfat.com

قوله تعالى : أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ مبتدأ وخبر وهو من قول الله جل وعز . ﴿ نُزُلًا ﴾ على البيان؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلا ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ خير نزلا . والنُّزُل في اللغة الرزق الذي له سعة ــ النحاس ــ وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل باسكان الزاى لغة، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل ومنه أقيم للقوم نُزُلهم وآشتقاقه أنه الغِذاء الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه . وقد مضى هذا في آخر سورة « آل عمران[(1)] » وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها . قال المفسرون : وهي في الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء؛ فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل . وآختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين ــ أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا آختلفوا فيها؛ فقال قطرب : إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل . القول الثاني : إنها لا تعرف في شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قالت كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزُّبد والتمر . فقال ابن الزِّبَعْرى : أكثر الله في بيوتنا الزقوم . فقال أبو جهل لجاريته : زَقِّمينا ؛ فأتته بزبد وتمر . ثم قال لأصحابه : تزقَّموا؛ هذا الذي يخوّفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر .

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَـةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين ، وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة وهى تحرق الشجر ؟ وقد مضى هـذا المعنى فى « سبحان »(١) وٱستخفافهم فى هذا كقولهم فى قوله تعالى : «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» . ما الذى يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم : أنا أكفيكم منهم كذا فٱكفونى الباقين . فقال الله تعـالى : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » والفتنة الآختبار ، وكان هـذا القول منهم جهلا ، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار . وقيل : هـذا الآستبعاد الذى وقع للكفار هو الذى وقع الآن للملحدة ، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح ، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقـلم على معانى زوروها فى أنفسهم ، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع ، وإذا ورد خبر الصادق بشىء موهوم فى العقل ، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل فى موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشـياء من غير مصير الى علم الباطن . وقيل إنها فتنة أى عقوبة للظالمين، كما قال : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى قعر النار ومنها منشؤها ثم هى متفرعة فى جهـنم . ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أى ثمرها ؛ سمى طلعا لطلوعه . ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ قيل : يعنى الشياطين بأعيانهم شبهها برءوسهم لقبحهم، ورءوس الشياطين متصوَّر فى النفوس وإن كان غير مرئى . ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة هو كصورة مَلَك. ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف: « مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » وهذا تشبيه تخييل؛ روى معناه عن ٱبن عباس والقُرَظى. ومنه قول ٱمرئ القيس:

* ومَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنيـابِ أغْوالِ *(٢)

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أراد بالمسنونة الزرق سهاما محددة الأزجة صافية . وصدر البيت :

* أيقتلـنى والمشرفىّ مضاجعى *

Marfat.com

وإن كانت الغول لا تعرف؛ ولكن لمـا تصوّر من قبحها في النفوس . وقد قال الله تعالى : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فـردة الإنس شياطين مرئية . وفي الحديث الصحيح " ولكأن نخلها رءوس الشياطين " وقد ادعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان . وقال الزجاج والفراء : الشياطين حيات لهـا رءوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما . قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف :

عَنْجَـرِدٌ تَحْلِفُ حينَ أحلِفُ * كمِثْـلِ شيطانِ الحَماطِ أعْرَفُ

الواحدة حَماطة والأعرف الذي له عُرْف . وقال الشاعر يصف ناقته :

تُلاعِبُ مَثْـنَى حَضْرَمِيٍّ كأنه * تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوِعٍ قَفْرِ

التَّعَمُّج الأعوجاج في السير، وسهم عَمُوج يتلوى في ذهابه، وتعمّجت الحية إذا تلوت في سيرها . وقال يصف زمام الناقة[(١)] :

تُلاعِبُ مَثْـنَى حَضْرَمِيٍّ كأنه * تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوِعٍ قَفْرِ

وقيل : إنمـا شَبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان . قال النحاس : وليس ذلك معروفا عند العرب . الزمخشري : هو شجر خشن منتن مر منكر الصورة يسمى ثمـره رءوس الشياطين . النحاس : وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهـذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنـة . وقال في « الغاشيـة » « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وسيأتي . ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد الأكل من الشجرة ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشَّوب الخلط، والشَّوْب والشُّوب لغتان كالفَقْر والفُقْر والفتح أشهر . قال الفراء : شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة . فأخبر أنه يشاب لهم . والحميم المـاء الحار ليكون أشنع . قال الله تعالى : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . السدى : يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم؛ تغليظا لعذابهم وتجديدا

(١) كذا في الأصـل ولعل العبارة والبيت هنا تكرار مع ما سبق ، وصواب العبارة الأولى « قال الشاعر يصف زمام ناقته » بزيادة لفظ زمام .

Marfat.com

لبلائهم . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ قيل : إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ثم يردّون إليها . وقال مقاتل : الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ؛ لقوله تعالى : « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وقرأ ابن مسعود « ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون « ثم » بمعنى الواو . القشيري : ولعل الحميم في موضع من جهنم على طرف منها .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أي صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم . ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أي يسرعون ؛ عن قتادة . وقال مجاهد : كهيئة الهرولة . قال الفراء : الإهراع الإسراع برعدة . وقال أبو عبيدة : « يُهْرَعُونَ » يُستحثون من خلفهم . ونحوه قول المبرّد . قال : المُهرَع المستحثّ ؛ يقال : جاء فلان يُهرَع إلى النار إذا استحثه البرد إليها . وقيل : يُزعَجون من شدّة الإسراع ؛ قاله الفضل . الزجاج : يقال هُرِع وأُهرِع إذا استحث وأزعج .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي من الأمم الماضية . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي رسلا أنذروهم العذاب فكفروا . ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي آخر أمرهم . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين استخلصهم الله من الكفر. وقد تقدّم[(1)] . ثم قيل : هو استثناء من « المنذرين » . وقيل هو من قوله تعالى : « وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ من النداء الذى هو الاستغاثة ؛ ودعا قيل بمسئلة هلاك قومه . فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً » . ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ قال الكسائى : أى « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » له كنا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يعنى أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين على ما تقدّم[(١)] . ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الغرق . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ؛ فذلك قوله : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . وقال سعيد بن المسيّب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح ؛ فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ، ويافث أبو الصقالبة والترك [واللان][(٢)] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك . وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ؛ بدليل قوله : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ » . وقوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » فعلى هذا معنى الآية « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى الأصول : «والأبر» ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم والذي ذكره المسعودي وغيره واللان من ولد يافث .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي تركنا عليه ثناء حسنا في كل امة ، فإنه محبّب إلى الجميع؛ حتى إن في المجوس من يقول إنه أفريدون . روى معناه عن مجاهد وغيره. وزعم الكسائي أن فيه تقديرين : أحدهما « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» يقال «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أي تركنا عليه هذا الثناء الحسن . وهذا مذهب أبي العباس المبرّد . أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني يسلمون عليه تسليما و يدعون له ؛ وهو من الكلام المحكى؛ كقوله تعالى : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا » . والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه ؛ وتم الكلام ثم ابتدأ فقال : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أي سلامة له من أن يذكر بسوء « فِي الْآخِرِينَ » . قال الكسائي : وفي قراءة ابن مسعود « سلاما » منصوب بـ « تركنا » . أي تركنا عليه ثناء حسنا سلاما . وقيل : « فِي الآخِرِين » أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا أمر بالاقتداء به ؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا » . وقال سعيد ابن المسيّب : و بلغني أنه من قال حين يمسي «سلامٌ على نوحٍ فِي العالمين» لم تلدغه عقرب . ذكره أبو عمر في التمهيد . وفي الموطأ عن خَوْلة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من نزل منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامّاتِ من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل" . وفيه عن أبي هريرة أن رجلا من أسلم قال : ما نمت هذه الليلة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أي شيء" فقال: لدغتني عقرب؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرّك" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي نبقي عليهم الثناء الحسن . والكاف في موضع نصب . أي جزاء كذلك . ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا بيان إحسانه . قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي من كفر . وجمعه أُخر . والأصل فيه أن يكون معه «مِن» إلا أنها حذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخرا إلا وقبله شيء من جنسه . و « ثمّ » ليس للتراخي ها هنا بل هو لتعديد النعم؛ كقوله : «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أى من أهل دينه . وقال مجاهد : أى على منهاجه وسنته . قال الأصمعى : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد . وقال الكلبي والفراء : المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم . فالهاء فى «شيعته» على هذا لمحمد عليه السلام . وعلى الأول لنوح وهو أظهر، لأنه هو المذكور أولا ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة . حكاه الزمخشرى .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى مخلص من الشرك والشك . وقال عوف الأعرابى : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح لله عز وجل فى خلقه . وذكر الطبرى عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجّاج : مسكين أبو محمد إن عذبه الله فبذنبه، وإن غفر له فهنيئا له ، وإن كان قلبه سليما فقد أصاب الذنوب من هو خير منه . قال عوف : فقلت لمحمد ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال هشام بن عروة : كان أبى يقول لنا : يا بَنِىّ لا تكونوا لعّانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، فقال تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» . ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثانى عند إلقائه فى النار . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ وهو آزر وقد مضى الكلام[1] فيه . ﴿ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ تكون «ما» فى موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره . ويجوز أن تكون

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

«ما» و«ذا» فى موضع نصب بـ«تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به بمعنى أتريدون إفكا . قال المبرّد : والإفك أسوأ الكذب، وهو الذى لا يثبت و يضطرب، ومنه ٱئتفكت بهم الأرض . ﴿آلِهَةً﴾ بدل من إفك ﴿دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ أى تعبدون . و يجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين . ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره فهو تحذير، مثل قوله : «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» . وقيل : أى شىء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره .

قوله تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ قال ٱبن زيد عن أبيه : أرسل إليه ملكهم إن غدًا عيدُنا فٱخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمى . وكان علم النجوم مستعملا عندهم منظورا فيه ، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذرا لنفسه ؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر فى النجوم . وقال ٱبن عباس : كان علم النجوم من النبوّة، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها عِلمًا نبويا . وحكى جُوَيبر عن الضحاك : كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى عليه السلام ، حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منه ، فقالت لهم مريم : من أين علمتم بموضعه ؟ قالوا : من النجوم . فدعا ربه عند ذلك فقال : اللهم لا تفهمهم فى علمها ، فلا يعلم علم النجوم أحد ؛ فصار حكمها فى الشرع محظورا ، وعلمها فى الناس مجهولا . قال الكلبى : وكانوا فى قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هرمزجرد(١)، وكانوا ينظرون فى النجوم . فهذا قول . وقال الحسن : المعنى أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل . فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى ؛ أى فيما طلع له منه، فعلم أن كل حىّ يسقم فقال : «إِنِّى سَقِيمٌ» . الخليل والمبرد : يقال للرجل إذا فكر فى الشىء يدبّره نظر فى النجوم . وقيل : كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فيها الحمّى . وقيل : المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا

(١) ذكر هذا الاسم الطبرى فى تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ليدن م ١

Marfat.com

ومدبرا، وأنه يتغير كتغيرها فقال : « إِنِّى سَقِيمٌ » . وقال الضحاك : معنى « سَقِيمٌ » سأسقم سقم الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم فى الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملك لما سأله عن سارّة هى أختى؛ يعنى أخوة الدين . وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضا: أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدى كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، «فـ»لذلك «تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» أى فارّين منه خوفا من العدوى . وروى الترمذىّ الحكيم قال : حدثنا أبى قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السدىّ عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس . وعن سَمُرة عن الهَمْدانى عن ابن مسعود قال قال أبو إبراهيم : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا . فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إنى سقيم أشتكى رجلى، فوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى فى آخرهم « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ» . قال أبو عبد الله : وهذا ليس بمعارض لما قال ابن عباس وابن جبير؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران .

قلت : وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم " لَمْ يكذبْ إبراهيم النبى عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات " الحديث . وقد مضى فى سورة « الأنبياء »[1] . وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وإنما عرّض لهم . وقد قال جلّ وعزّ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ » . فالمعنى إنى سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة . وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا ، ومنه المثل السائر[2] « كَفَى بالسلامة داءً » وقول لبيد :

فدعوتُ ربِّى بالسَّلَامَةِ جاهِدًا * لِيُصِحَّنِى فإذا السَّلامَةُ داءُ

وقد مات رجل بغتة فالتف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابى : أصحيح من الموت فى عنقه ! فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عُدّ هذا ذنبا؛ ولهذا قال «وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ» وقد مضى هذا كله مبينا[3] والحمد لله . وقيل: أراد سقيم النفس لكفرهم . والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحدا مصدرا .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس حديثا عن ابن عباس بإسناد ضعيف . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٠٠ و جـ ١٣ ص ١١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ قال السدى : ذهب إليهم . وقال أبو مالك : جاء إليهم . وقال قتادة : مال إليهم . وقال الكلبي : أقبل عليهم . وقيل : عَدَل . والمعنى متقارب . فراغ يَرُوغ رَوْغا ورَوَغانا إذا مال . وطريق رائغ أى مائل . وقال الشاعر :

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلَاوة ٭ ويَرُوغ عنــكَ كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة . وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ . قيل : كان بين يدى الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم . وقيل : تركوه للسَّدَنة . وقيل : قرّب هو إليها طعاما على جهة الاستهزاء؛ فقال : «أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ» . ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس . وقيل : المراد باليمين اليمين التى حلفها حين قال : «وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم» . وقال الفراء وثعلب : ضربًا بالقوة واليمين القوة . وقيل : بالعَدْل واليمين ها هنا العَدْل . ومنه قوله تعالى : «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ» أى بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال . ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصى عن الشمال والطاعة عن اليمين ؛ ولذلك قال : «إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ» أى من قِبل الطاعة . فاليمين هو موضع العدل من المسلم والشمال موضع الجور . ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق ؛ فالبيعة باليمين ؛ فلذلك يُعطَى كتابه غدا بيمينه ؛ لأنه وفى بالبيعة ، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله ؛ لأن الجور هناك . فقوله : «فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ» أى بذلك العدل الذى كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا . فجعل تلك الأوثان جُذاذا، أى فُتاتا كالجذيذة

Marfat.com

وهي السّويق وليس من قبيل القوة ؛ قاله الترمذي الحكيم . ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة « يُزِفُّونَ » بضم الياء . الباقون بفتحها . أي يسرعون ؛ قاله ابن زيد . قتادة والسدي : يمشون . وقيل : المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء . وقيل : المعنى يتسللون تسللا بين المشي والعَدْو ؛ ومنه زَفِيف النعامة . وقال الضحاك : يسعون . وحكى يحيى بن سلّام : يُرعَدون غضبا . وقيل : يختالون وهو مشي الخيلاء ؛ قاله مجاهد . ومنه أُخذ زِفاف العروس إلى زوجها . وقال الفرزدق :

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ قبلَ إفالِها * يَزِفُّ وجاءت خَلْفَه وهي زُفَّفُ[(١)]

ومن قرأ « يُزِفُّونَ » فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهم على التزفيف . وعلى هذا فالمفعول محذوف . قال الأصمعي : أزففت الإبل أي حملتها على أن تزِفّ . وقيل : هما لغتان يقال زَفَّ القومُ وأزفُّوا وزففت العروسَ وأزففتها وازدففتها بمعنى ، والمِزَفّة المِحفّة التي تُزَفّ فيها العروس . حكى ذلك عن الخليل . النحاس : « يُزِفُّونَ » بضم الياء زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبّهها بقولهم : أطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك وطردته نحيته ؛ وأنشد هو وغيره :

تمنَّى حُصينٌ أن يسودَ جِذاعةً * فأمسى حُصينٌ قد أُذِلَّ وأُقهِرا[(٢)]

أي صير إلى ذلك ؛ فكذلك « يُزِفُّون » يصيرون إلى الزفيف . قال محمد بن يزيد : الزفيف الإسراع . وقال أبو إسحق : الزفيف أول عَدْو النعام . وقال أبو حاتم : وزعم الكسائي أن قوما قرءوا « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ » خفيفة من وَزَف يَزِف مثل وَزَن يَزِن . قال النحاس : فهذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئا . وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف « يَزِفُونَ » مخففة . قال الفراء : وأنا لا أعرفها . قال

(١) القريع : الفحل المختار للضراب . الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس ، وهي الناقة التي أتى عليها ، حملها أو وضعها سبعة أشهر بجف لبنها . و إفالها : صغارها . ويزف : يعدو . يريد أن القريع بفر من شدة البرد وكذا الإفال . (٢) البيت للمخبل السعدي يهجو الزبرقان وقومه ، وهم المعروفون بالجذاع . والأصمعي يرويه كما في اللسان مادة قهر ؛ قد أذل وأقهرا بالبناء للعلوم ؛ أي صار أمره إلى الذل والقهر .

Marfat.com

أبو إسحق : وقد عرفها غيرهما [أنه يقال][(١)] وَزَف يَزِف إذا أسرع . قال النحاس : ولا نعلم أحدا قرأ يَزِفون .

قلت : هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوى . الزمخشرى : و « يُزَفُّونَ » على البناء للمفعول ؛ و « يُزْفُونَ » من زَفَاه إذا حَدَاه ؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليــه . وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وآبن السَّمَيْقع « يَرِفُونَ » بالراء [من] رفيف النعام وهو ركض بين المشي والطيران .

قوله تعــالى : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أى قالوا من فعل هــذا بآلهتنا، فقال محتجا : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أى أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم تَنْجُرونها . والنّحت النجــر والبرى ؛ نحته ينحِته بالكسر نحتــا أى براه والنُّحاتة البُرَاية والمِنحَت ما ينحت به . ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ « ما » في موضع نصب أى وخلق ما تعملونه من الأصنام، يعنى الخشب والحجارة وغيرهمــا . كقوله : « بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ » وقيل : إن « ما » آستفهام ومعناه التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه . والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا ، والتقدير والله خلقكم وعملكم . وهذا مذهب أهل السنة أن الأفعال خلقٌ لله عز وجل وآكتسابٌ للعباد . وفى هذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خالق كل صانع وصنعته " ذكره الثعلبي . وخرّجه البيهقى من حديث حُذَيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل صــنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه " وقد بيناهما فى الكتاب الأسنى فى شرح أسمــاء الله الحسنى .

قوله تعــالى : قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا ﴾ أى تشاوروا فى أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدّم فى « الأنبياء »[(١)] بيانه فـ«قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا » تملئونه حطبا فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم . قال ابن عباس : بنوا حائطا من حجارة طوله فى السماء ثلاثون ذراعا ، وملئوه نارا وطرحوه فيها . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار فى البنيان قال : حسبى الله ونعم الوكيل . والألف واللام فى « الجحيم » تدل على الكناية ؛ أى فى جحيمه ؛ أى فى جحيم ذلك البنيان . وذكر الطبرى أن قائل ذلك اسمه الهيزن[(٢)] رجل من أعراب فارس وهم الترك ، وهو الذى جاء فيه الحديث " بينما رجل يمشى فى حُلّة له يتبختر فيها خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة " والله أعلم . ﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا ﴾ أى بإبراهيم والكيد المكر أى احتالوا لإهلاكه . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم .

قوله تعالى : وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأوّل من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى » أى مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى فإنه « سَيَهْدِينِ » فيما نويت إلى الصواب . قال مقاتل : هو أوّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارة ، إلى الأرض المقدّسة وهى أرض الشام . وقيل : ذاهب بعملى وعبادتى وقلبى ونيتى . فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن . وقد مضى بيان هذا فى « الكهف »[(٣)] مستوفى . وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) تقدّم فى جـ ١١ ص ٣٠٣ أن اسمه هيزر .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وقيل : خرج إلى حرّان فأقام بها مدّة . ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخا لهم . وقيل : قاله لمن هاجر معه من أهله فيكون ذلك منه ترغيبا . وقيل : قال هذا قبل إلقائه فى النار . وفيه على هذا القول تأويلان : أحدهما — إنى ذاهب إلى ما قضاه علىّ ربى . الثانى — إنى ميت كما يقال لمن مات قد ذهب إلى الله تعالى ؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه فى النار، على المعهود من حالها فى تلف ما يلق فيها ، إلى أن قيل لها « كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا » فحينئذ سلم إبراهيم منها . وفى قوله « سيهدين » على هذا القول تأويلان : أحدهما — « سَيَهْدِينِ » إلى الخلاص منها. الثانى — إلى الجنة . وقال سليمان ابن صُرَد وهو ممن أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم : لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار جعلوا يجمعون له الحطب، فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول : أذهب به إلى هذا الذى يذكر آلهتنا ؛ فلما ذُهب به ليطرح فى النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى » فلما طرح فى النار قال : (حسبى الله ونعم الوكيل) فقال الله تعالى : « يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا » فقال أبو لوط وكان ابن عمه : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته منى . فأرسل الله عنقا من النار فأحرقه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لما عرفه الله أنه مخلصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به فى غربته . وقد مضى فى «آل عمران»(١) القول فى هذا . وفى الكلام حذف أى هب لى ولدا صالحا من الصالحين وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أى إنه يكون حليما فى كبره فكأنه بُشّر ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم فى « هود »(٢) . ويأتى أيضا فى « الذاريات »(٣) .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) فى تفسير آية ٢٨ من السورة المذكورة .

Marfat.com

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

فيه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ ﴾ أى فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذى يسعى مع أبيه فى أمور دنياه معينا له على أعماله ﴿ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ . وقال مجاهد : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى شب وأدرك سعيه سعى إبراهيم . وقال الفراء : كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة . وقال ابن عباس : هو الاحتلام . قتادة : مشى مع أبيه . الحسن ومقاتل : هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة . ابن زيد : هو السعى فى العبادة ، ابن عباس : صام وصلى ألم تسمع الله عز وجل يقول «وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا » .

واختلف العلماء فى المأمور بذبحه . فقال أكثرهم : الذبيح إسحق . وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وهو الصحيح عنه . روى الثورى وابن جريج يرفعانه إلى ابن عباس قال : الذبيح إسحق. وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له : يابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم. وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم" . وروى أبو الزبير عن جابر قال : الذبيح إسحق . وذلك مروى أيضا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وعن عبد الله بن عمر أن الذبيح إسحق . وهو قول عمر رضى الله عنه . فهؤلاء سبعة من الصحابة . وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشّعْبي ومجاهد وسعيد بن جُبَير وكعب الأحبار وقتادة و مسروق وعكرمة والقـاسم بن أبى بَزّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط[1] والزهرى والسدى وعبد الله بن أبى الهذيل ومالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحق . وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس[2] والطبرى وغيرهما . قال سعيد بن جبير : أُرِىَ إبراهيمُ ذبح إسحق فى المنام ، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى به المنحـر من مِنًى ؛ فلمـا صرف الله عنـه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسـيرة شهر فى رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال . وهذا القول أقوى فى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين . وقال آخرون : هو إسمعيل . وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة . وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا ، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشّعبي و يوسف بن مِهْران ومجاهد والربيـع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظى والكلبى وعلقمة . وسئل أبو سـعيد الضرير عن الذبيح فأنشد :

إنّ الذبيح هُديتَ إسمعيـلُ * نَطَقَ الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيّنـا * وأتى به التفسيرُ والتأويـلُ
إن كنتَ أمّتَـه فلا تُنـكِرْ لهُ * شرفًا به قد خصّه التفضيلُ

وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمـرو بن العلاء عن الذبيح ، فقـال . يا أصمعى أين عزب عنـك عقلك ومتى كان إسحـق بمكة ؟ وإنمـا كان إسمعيـل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيـه والمنحر بمكة . وروى عن النبي صـلى الله عليـه وسـلم " أن الذبيح

(١) فى التهذيب قال ابن أبى خيثمة سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبدالله بن سابط ومن قال عبـد الرحمن ابن سابط فقد أخطأ ، وكذا ذكره البخارى . وفى اسم أبيه خلاف . (٢) فى نسخة : النقاش .

Marfat.com

إسمعيل " والأول أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن التابعين . واحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » أنه دعا فقال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فقال تعالى : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » ؛ ولأن الله قال : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشّر به إبراهيمُ وإنما بُشِّر بإسحق ؛ لأنه قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ » وقال هنا : « بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد له إسمعيل ، وليس في القرآن أنه بُشّر بولد إلا إسحق . احتج من قال إنه إسمعيل : بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى : «وَإِسْمَعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله : « إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به ؛ ولأن الله تعالى قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا» فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا ، وأيضا فإن الله تعالى قال : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ » فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب . وأيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدل على أن الذبيح إسمعيل ، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس . وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع ؛ أما قولهم : كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبيا ، فإنه يحتمل أن يكون المعنى ؛ وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان ؛ قاله ابن عباس . وسيأتي . ولعله أُمر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب . ويقال لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق وأما قولهم : ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدم . وقال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وهذا مذهب ثالث .

الثانية — قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات . وقال محمد بن كعب :

Marfat.com

كانت الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظا ورقودا، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهـذا ثابت فى الخبر المرفوع . قال صلى الله عليه وسلم : "إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا" . وقال آبن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ؛ وآستدل بهـذه الآية . وقال السدى : لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذًا لله ذبيح . فقيل له فى منامه : قد نذرت نذرا فَفِ بنـذرك . ويقال : إن إبراهيم رأى فى ليلة التروية كأن قائلا يقول : إن الله يأمرك بذبح آبنك، فلما أصبح رَوَّى فى نفسه أى فكَّر أهذا الحُلُم من الله أم من الشيطان؟ فسمّى يوم التَّروية . فلما كانت الليلة الثانيـة رأى ذلك أيضا وقيل له الوعد ، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمى يوم عرفة . ثم رأى مثـله فى الليلة الثالثـة فهَمّ بنحره فسمى يوم النَّحْر . وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر . فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر . فقال إبراهيم : الله أكبر والحمد لله . فبقى سُنة . وقد اختلف الناس فى وقوع هذا الأمر وهى :

الثالثـة — فقال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رفعه ، فكان هـذا من باب النسخ قبل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من آمتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ : أى حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم آمتنعت لما منعناك . هذا أصح ما قيل به فى هـذا الباب . وقالت طائفة : ليس هـذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشىء قطعته . وآستدل على هـذا بقول مجاهد : قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إلىّ فترحمنى ، ولكن آجعل وجهى إلى الأرض ، فأخذ إبراهيم السكين فأمرها على حلقه فانقلبت . فقال له مالكَ ؟ قال : آنقلبت السكين . قال آطعنّى بها طعنا . وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءا التأم . وقالت طائفة : وجد حلقه نحاسا أو مغشّى بنحاس ، وكان كلما أراد قطعا وجد منعا . وهذا كله جائز فى القدرة الإلهية، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر . ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعالى تعظيما لرتبة إسمعيل

Marfat.com

وإبراهيم صلوات الله عليهما ، وكان أولى بالبيان من الفـداء . وقال بعضهـم : إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيـقى الذى هو فَرْى الأوداج و إنهـار الدم ، و إنمـا رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقى ، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم . وأيضا لو صحت هذه الأشياء لمـا آحتيج الى الفداء .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم « مَاذَا تُرِى » بضم التاء وكسر الراء من أرِى يُرِى . قال الفرّاء : أى فآنظر ماذا ترى من صبرك وجزعك . قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره ، و إنمـا قال العلماء ماذا تشير ؛ أى ما تريك نفسك من الرأى . وأنكر أبو عبيد « تُرِى » وقال : إنمـا يكون هذا من رؤية العين خاصة . وكذلك قال أبو حاتم . النحاس : وهـذا غلط ، وهـذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور، يقال : أريت فلانا الصواب وأريته رشده ، وهذا ليس من رؤية العين . الباقون « تَرَى » مضارع رَأَيْتَ . وقد روى عن الضحاك والأعمش « تُرَى » غير مسمى الفاعل . ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة فى أمر الله ، و إنمـا شاوره ليعلم صـبره لأمر الله ، أو لتقر عينه إذا رأى من آبنه طاعة فى أمر الله ف﴿قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أى ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بِهِ *

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء ؛ كقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ ٱصْطَفَى » أى آصطفاهم على ما تقدّم (١) . و « ما » بمعنى الذى . ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ قال بعض أهل الإشارة : لمـا استثنى وفقـه الله للصـبر . وقد مضى الكلام فى « يَا أَبَتِ » وكذلك فى « يَا بُنَيَّ » فى « يوسف » (٢) وغيرها .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية ، و جـ ٢ ص ١٣٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

الخامسة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أى انقادا لأمر الله . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعلىّ رضوان الله عليهم « فَلَمَّا سَلَّمَا » أى فوضا أمرهما إلى الله . وقال ابن عباس : استسلما . وقال قتادة : أسـلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ابنه . ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال قتادة : كبه وحـوّل وجهه إلى القبـلة . وجواب لمـا محذوف عند البصريين تقديره « فلما أسـلما وتلّه للجبين » فديناه بكبش . وقال الكوفيون : الجـواب « نَادَيْنَاهُ » والواو زائدة مقحمة، كقوله : « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا » أى أوحينا . وقوله : « وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ » أى اقترب . وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ » أى قال لهم . وقال امرؤ القيس :

* فلمّـا أجزْنا ساحةَ الحَىِّ وانتحى (١) *

أى انتحى والواو زائدة . وقال أيضا :

حتّى إذا حَمَلتْ بُطونُكُمُ * ورأيتُم أبنـاءَكم شَـبُّوا
وقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا * إن اللّئيمَ الفاجِرَ الخَبُّ

أراد قلبتم . النحاس : والواو من حروف المعانى لا يجوز أن تزاد . وفى الخبر : إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن، وأسرعْ مرّ السكين على حلْقى ليكون الموت أهون علىّ واقذفنى للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهى فترحمنى؛ ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أمى فأقرئها منى السلام . فلما جرّ إبراهيمُ عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فـلم تعمل السكين شيئا ، ثم ضرب به على جبينه وحزّ فى قفاه فلم تعمل السكين شيئا . فذلك قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » كذلك قال ابن عباس : معناه كبّه على وجهه فنودى « يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » فالتفت فإذا بكبش . ذكره المهدوى . وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحتـه، وأن المعنى لمـا اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل ؛ هذا بهيئة

---

(١) تمـامه : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

Marfat.com

الذبح ، وهذا بصورة المذبوح، أعطيا محلا للذبح فِداء ولم يكن هناك مرّ سكين . وعلى هذا يتصوّر النسخ قبل الفعل على ما تقدم. والله أعلم. قال الجوهري: "وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" أى صرعه؛ كما تقول : كبه لوجهه. الهروى : والتل الدفع والصرع؛ ومنه حديث أبى الدرداء، رضى الله عنه: "وتركوك لِمَتَلِّكَ" أى لمصرعك. وفى حديث آخر: "فجاء بناقة كَوْمَاءَ فتَلَّهَا" أى أناخها. وفى الحديث "بينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلَّت فى يدى" قال ابن الأنبارى: أى فألقيت فى يدى؛ يقال: تَلَلْت الرجل إذا ألقيته. قال ابن الأعرابى : فصبّت فى يدى؛ والتّل الصّب ، يقال : تل يَتُلُّ إذا صبّ، وتَل يتِل بالكسر إذا سقط . قلت : وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ ؛ فقال للغلام : " أتأذن لى أن أعطى هؤلاء " فقال الغلام : لا والله لا أوثر بنصيبى منك أحدا . قال : فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده؛ يريد جعله فى يده. وقال بعض أهل الإشارة: إن إبراهيم آدعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة؛ فقيل له : يا إبراهيم آذبح ولدك فى مرضاتى، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال : اللهم تقبله منى فى مرضاتك . فأوحى الله إليه : يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا ، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك . وقال كعب وغيره : لما أرى إبراهيم ذبح ولده فى منامه، قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا . فتمثل الشيطان لهم فى صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين يذهب إبراهيم بآبنك ؟ قالت لا . قال : إنه يذهب به ليذبحه. قالت : كلا هو أرأف به من ذلك. فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه . ثم أتى الغلام فقال : أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لا . قال : فإنه يذهب بك ليذبحك . قال ولم ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره الله به ، سمعا وطاعة لأمر الله . ثم جاء إبراهيم فقال : أين تريد ؟ والله إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك

Marfat.com

بذبح آبنك . فعرفه إبراهيم فقال : إليك عنى يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربى . فلم يصب الملعون منهم شيئا . وقال آبن عباس : لمـا أمر إبراهيم بذبح آبنه عرض له الشيطان عنـد جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمـرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى . وآختلف فى الموضـع الذى أراد ذبحه [فيـه] فقيل : بمكة فى المقام . وقيـل : فى المنحر بمنى عنـد الجمار التى رمى بها إبليس لعنه الله، قاله آبن عباس وآبن عمر ومحمـد بن كعب وسعيد بن المسيّب . وحكى عن سعيد بن جبير أنه ذبحـه على الصخرة التى بأصـل ثَبِير بمنًى . وقال آبن جُرَيج : ذبحه بالشام وهو من بيت المقـدس على ميلين . والأول أكثر؛ فإنه ورد فى الأخبار تعليق قـرن الكبش فى الكعبـة ، فدل على أنه ذبحه بمكة . وقال آبن عباس : فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام، و إن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس . أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام : لعل الرأس حمل من الشام الى مكة . والله أعلم .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نجزيهم بالخلاص من الشدائد فى الدنيا والآخرة . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ أى النعمة الظاهرة . يقال : أَبلاه الله إِبْلاءً وبَلاءً إذا أنعم عليه . وقد يقال : بَلاهُ . قال زهير :

وأَبلاهما خيرَ البلاءِ الذى يبلو (١) *

فزعم قوم أنه جاء باللغتين . وقال آخرون : بل الثانى من بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا آختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه، ولا يقال من الابتلاء يبلوه . وأصل هـذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال الله عز وجل : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . وقال أبو زيد : هذا من البلاء الذى نزل به فى أن يذبح آبنه؛ قال : وهذا من البلاء المكروه .

(١) صدر البيت : * جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم *

Marfat.com

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذِّبح آسم المذبوح وجمعه ذبوح، كالطِّحن آسم المطحون . والذَّبح بالفتح المصدر . « عَظِيمٍ » أى عظيم القدر ولم يرِد عظيم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح ؛ أو لأنه متقبل . قال النحاس : عظيم فى اللغة يكون للكبير وللشريف . وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف ، أو المتقبّل . وقال آبن عباس : هو الكبش الذى تقرّب به هابيل، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله به إسمعيل . وعنه أيضا : إنه كبش أرسله الله من الجنة كان قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال الحسن : ما فدِى إسمعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثَبِير ، فذبحه إبراهيم فداء عن آبنه، وهذا قول على رضى الله عنه . فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق آبنه . وقال : يا بنى اليوم وُهبت لى . وقال أبو إسحق الزجاج : قد قيل أنه فدى بوعل والوعل التيس الجبلى . وأهل التفسير على أنه فُدِى بكبش .

الثامنة — فى هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر . وهذا مذهب مالك وأصحابه . قالوا : أفضل الضحايا الفحول من الضأن، وإناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر . وحجتهم قوله سبحانه وتعالى : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أى ضخم الجثة سمين، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة . وروى مجاهد وغيره عن آبن عباس أنه سأله رجل إنى نذرت أن أنحر آبنى فقال : يجزيك كبش سمين ثم قرأ « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » . وقال بعضهم : لو علم الله حيوانا أفضل من الكبش لفدى به إسحق . وضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين . وأكثر ما ضحى به الكباش . وذكر آبن أبى شيبة عن آبن عُلَيّة عن الليث عن مجاهد قال : الذِّبح العظيم الشاة .

التاسعة — واختلفوا أيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمنها . فقال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية . حكاه أبو عمر . وقال ابن المنذر : وروينا عن بلال أنه قال : ما أبالى ألا أضحى إلا بديك ولأن أضعه فى يتيم قد ترّب فيه —

Marfat.com

هكذا قال المحدث — أحب إلىّ من أن أضحى به . وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل . و به قال مالك وأبو ثور . وفيـه قول ثانٍ : إن الضحية أفضل؛ هـذا قول ربيعـة وأبى الزناد . وبه قال أصحاب الرأى . زاد أبو عمر وأحمـد بن حنبل قالوا : الضحية أفضل من الصدقة؛ لأن الضحية سـنّة مؤكدة كصلاة العيد . ومعلوم أن صلاة العيد أفضـل من سائر النوافل . وكذلك صلوات السنن أفضـل من التطوّع كله . قال أبو عمر : وقد روى فى فضل الضحايا آثار حسان، فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبى زَنْبَرعن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من نفقة بعـد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم" قال أبو عمر : وهو حديث غريب من حديث مالك . وعن عائشة قالت : يأيهـا الناس ضحوا وطيبوا أنفسا ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : "ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسناتٍ محضراتٍ فى ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع فى التراب فإنما يقع فى حِرْز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة" ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد . وخرجه الترمذى أيضـا عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما عمِـل آدمىٌّ من عملٍ يوم النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشـعارها وأظلافها و إنّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض فطِيبوا بها نفسا" قال : وفى الباب عن عِمْران بن حُصَين و زيد بن أَرْقَم . وهذا حديث حسن .

العاشــــرة — إن الضحية ليست بواجبة ولكنها سنّة ومعروف . وقال عكرمة : كان آبن عباس يبعثنى يوم الأضحى بدرهمين أشترى له لحما، ويقول : من لقيتَ فقل هذه أضحية آبن عباس . قال أبو عمر : ومحمل هـذا وما روى عن أبى بكر وعمر أنهما لا يضحيان عنـد أهل العلم؛ لئلا يعتقد فى المراظبة عليها أنها واجبة فرض ، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم ممن ينظر فى دينه إليهم ؛ لأنهم الواسطة بين النبى صلى الله عليـه وسلم و بين أمته، فساغ لهم من الآجتهاد فى ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم . وقـد حكى الطحاوى فى مختصره : وقال

Marfat.com

أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. قال : وتجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذى تجب عليه عن نفسه . وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها فى تركها . قال : وبه نأخذ . قال أبو عمر : وهذا قول مالك؛ قال : لا ينبغى لأحد تركها مسافرا كان أو مقيما ، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنى . وقال الإمام الشافعى : هى سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنى وليست بواجبة . وقد ٱحتج من أوجبها بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بُرْدة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى ؛ لأن ما لم يكن فرضا لا يؤمر فيه بالإعادة . ٱحتج من لم يوجبها بحديث أم سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحى" قالوا فلو كان ذلك واجبا لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّى . وهو قول أبى بكر وعمر وأبى مسعود البدرى و بلال .

الحادية عشرة — والذى يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية؛ وهى الضأن والمعز والإبل والبقر . قال ٱبن المنذر : وقد حكى عن الحسن بن صالح أنه قال : يضحى ببقرة الوحش عن سبعة و بالظبي عن رجل . وقال الإمام الشافعى : لو نزا ثور وحشى على بقرة أنسية أو ثور أنسى على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أضحية . وقال أصحاب الرأى : جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه . وقال أبو ثور : يجوز إذا كان منسو با إلى الأنعام .

الثانية عشرة — قد مضى فى سورة «الحج»[1] الكلام فى وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : "ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما" فى رواية قال "ويقول بسم الله والله أكبر" وقد مضى فى آخر «الأنعام»[2] حديث عِمران بن حُصَين ومضى فى «المائدة»[3] القول فى التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمه مستوفى . وفى صحيح مسلم

(١) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .   (٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمر بكبش أقرن يطأ فى سواد ويبرك فى سواد وينظر فى سواد فأتى به ليضحى به" فقال لها : "يا عائشة هَلُمِّى المدية" ثم قال "أشحذيها بحجر" ففعلت ، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : "بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد" ثم ضحى به . وقد آختلف العلماء فى هذا فكان الحسن البصرى يقول فى الأضحية : بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان . وقال مالك : إن فعل ذلك فحسن، و إن لم يفعل وسمى الله أجزأه . وقال الشافعى : والتسمية على الذبيحة بسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر الله ، أو صلى على محمد عليه السلام لم أكرهه ، أو قال اللهم تقبل منى، أو قال تقبل من فلان فلا بأس . وقال النعمان : يكره أن يذكر مع آسم الله غيره؛ يكره أن يقول : اللهم تقبل من فلان عند الذبح . وقال : لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح . وحديث عائشة يرد هذا القول . وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح آبنه : الله أكبر والحمد لله . فبقى سنة .

الثالثة عشرة — روى البَراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل؛ ماذا يُتَّقَى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : "أربعا — وكان البراء يشير بيده ويقول يدى أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم — العرجاء البيِّن ظَلَعُها والعوراء البيِّن عَوَرُها والمريضة البيِّن مرضُها والعجفاء التى لا تُنْقِى[(1)]" لفظ مالك ولا خلاف فيه . وآختلف فى اليسير من ذلك . وفى الترمذى عن على رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نَسْتَشْرِف[(2)] العين والأذن وألّا نضحِّى بمقابَلة ولا مُدابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء . قال : والمقابَلة ما قطع طرف أذنها ، والمدابَرة ما قطع من جانب الأذن ، والشَّرقاء المشقوقة ، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح . وفى الموطإ عن نافع : أن عبد الله بن عمر كان يَتَّقِى من الضحايا والبدن التى لم تُسْنِن والتى نقص من خَلْقها . قال مالك : وهذا أحبّ ما سمعت إلى . قال

(١) النقى : مخ العظام وشحمها . يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها .

(٢) نستشرف ؛ يعنى نتطلع العين والأذن ، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب .

Marfat.com

القتبي : لم تُسنَّن أى لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَ أسنانا . وهذا كما يقال : فلان لم يُلْبَن أى لم يُعطَ لبنا ، ولم يُسمَّن أى لم يُعطَ سمنا ، ولم يُعسَّل أى لم يُعطَ عسلا[1] . وهـذا مثل النهى فى الأضاحى عن الهتماء . قال أبو عمر : ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة ، فإن كانت ساقطة الأسنان وهى فتية لم يجز أن يضحى بها ؛ لأنه عيب غير خفيف . والنقصان كله مكروه وشرحه وتفصيله فى كتب الفقه . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم "آستشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم" ذكره الزمخشرى .

الرابعة عشر — ودلت الآية على أن من نذر نحر آبنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فَدَى به إبراهيم آبنه ؛ قاله آبن عباس . وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فَدَى بها عبد المطلب آبنه . روى الروايتين عنه الشعبي . وروى عنه القاسم بن محمد : يجزيه كفارة يمين . وقال مسروق : لا شيء عليه . وقال الشافعي : هو معصية يستغفر الله منها . وقال أبو حنيفة : هى كلمة يلزمه بها فى ولده ذبح شاة ولا يلزمه فى غير ولده شيء . وقال محمد : عليه فى الحلف بنحر عبده مثل الذى عليه فى الحلف بنحر ولده إذا حنث . وذكر آبن عبد الحكم عن مالك فيمن قال أنا أنحر ولدى عند مقام إبراهيم فى يمين ثم حنث فعليه هديٌ . قال : ومن نذر أن ينحر آبنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراده فلا شيء عليه . قال : ومن جعل آبنه هديا أهدى عنه ؛ قال القاضى آبن العربى : يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة ؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا ، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة ، وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة ؛ لأن الله تعالى قال :

---

(١) عقب صاحب لسان العرب فى مادة « سنن » على رواية القتبي وتفسيره بقوله : « وقد وهم القتبي فى الرواية والتفسير ؛ لأنه روى الحديث "لم تسنن" بفتح النون الأولى ، وإنما حفظه من محدّث لم يضبطه ، وأهل الثبت والضبط رووه "لم تسنن" بكسر النون وهو الصواب فى العربية ، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف لسكون النون الأخيرة ، كما يقال : لم يجلل . وإنما أراد ابن عمر أنه يضحى بأضحية لم تثن ؛ أى لم تصر ثنية وإذا أثنت فقد أسنت . ثم قال : وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقوله : سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح ، وقوله : لم يلبن ولم يسمن أى لم يعط لبنا وسمنا غير صحيح ، وإنما معناهما لم يطعم سمنا ولم يسق لبنا » .

Marfat.com

« مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » والإيمان التزام أصلىّ والنذر التزام فرعىّ فيجب أن يكون محمولا عليه . فإن قيل كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز . قلنا هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام ، فكيف بمن يفتى فى الحلال والحرام ، وقد قال الله تعالى : « ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » والذى يجلو الإلباس عن قلوب الناس فى ذلك أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، و إنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال ، والمعصية عبارة عما تعلق به النهى من الأفعال ، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسمعيل من إبراهيم صار طاعة وآبتلاء ، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» فى الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهى بنا فى ذبح أبنائنا صار معصية . فإن قيل: كيف يصير نذرا وهو معصية . قلنا إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوى الفداء ؟ فإن قيل : فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء ؟ قلنا : لو قصد ذلك لم يضره فى قصده ولا أثر فى نذره ؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى على إبراهيم ثناء جميلا فى الأمم بعده ، فما من أمة إلا تصلى عليه وتحبه . وقيل : هو دعاء إبراهيم عليه السلام « وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » . وقال عكرمة : هو السلام على إبراهيم أى سلاما منا . وقيل : سلامة له من الآفات مثل « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » حسب ما تقدم . ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس : بشر بنبوّته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين[1]؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحق بشر بنبوّته جزاء على صبره و رضاه بأمر ربه وآستسلامه له . ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ﴾ أى ثنّينا عليهما النعمة. وقيل كثّرنا ولدهما ؛ أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده ، وعلى إسحق حين أخرج أنبياء بنى

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين .

Marfat.com

إسرائيل من صلبه . وقد قيل : إن الكناية فى « عَلَيْهِ » تعود على إسمعيل وأنه هو الذبيح . قال المفضل : الصحيح الذى يدل عليه القرآن أنه إسمعيل وذلك أنه قصّ قصّة الذبيح ، فلما قال فى آخر القصّة : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إسمعيل « وَعَلَى إِسْحَقَ » كنى عنه؛لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال: « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا » فدل على أنها ذرية إسمعيل و إسحق،وليس تختلف الرواة فى أن إسمعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة .

قلت : قد ذكرنا أولا مايدل على أن إسحق أكبر من إسمعيل، وأن المبشر به هو إسحق بنص التنزيل ؛ فإذا كانت البشارة باسحق نصا فالذبيح لاشك هو إسحق ، و بشر به إبراهيم مرتين؛ الأولى بولادته والثانية بنبوّته ؛ كما قال ابن عباس، ولا تكون النبوّة إلا فى حال الكبر و« نبيا » نصب على الحال والهاء فى « عليه » عائدة إلى إبراهيم وليس لإسمعيل فى الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه . وأما ماروى من طريق معاوية قال : سمعت رجلا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم يابن الذبيحين ؛ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال معاوية : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله ، فسهّل الله عليه أمرها، فوقع السّهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم؛ وقالوا : أفد ابنك ؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح ، وإسمعيل هو الذبيح الثانى فلا حجة فيه؛ لأن سنده لايثبت على ماذكرناه فى كتاب «الأعلام فى معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام» ؛ ولأن العرب تجعل العم أبا ؛ قال الله تعالى : « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ » وقال تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » وهما أبوه وخالته . وكذلك ماروى عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لو صح إسناده فكيف والفرزدق فى نفسه مقال .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لما ذكر البركة فى الذرية والكثرة قال: منهم محسن ومنهم مسيء، وأن المسيء لاتنفعه بنوة النبوّة، فاليهود والنصارى

Marfat.com

وإن كانوا من ولد إسحق، والعرب وإن كانوا من ولد إسمعيل، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر، وفى التنزيل: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» الآية؛ أى أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلا. وقد تقدّم[1].

قوله تعالى: وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ ﴾ لما ذكر إنجاء إسحق من الذبح، وما منّ به عليه بعد النبوّة، ذكر ما منّ به أيضا على موسى وهرون من ذلك. وقوله: ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ قيل: من الرق الذى لحق بنى إسرائيل. وقيل من الغرق الذى لحق فرعون. ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ قال الفراء: الضمير لموسى وهرون وحدهما؛ وعلى هذا إن الآثنين جمع؛ دليله قوله: «وَآتَيْنَاهُمَا» «وَهَدَيْنَاهُمَا». وقيل: الضمير لموسى وهرون وقومهما وهذا هو الصواب؛ لأن قبله «وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا». و ﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ التوراة؛ يقال آستبان كذا أى صار بيِّنا، وآستبانه فلان مثل تبين الشيء بنفسه وتبينه فلانٌ. و ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الدّين القويم الذى لا آعوجاج فيه وهو دين الإسلام. ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ يريد الثناء الجميل. ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم.

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ طبعة أولى أو ثانية.

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون : إلياس نبيّ من بنى إسرائيل . وروى عن ابن مسعود قال : إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس . وقرأ « وَإِنَّ إِدْرِيسَ» وقاله عكرمة . وقال : هو فى مصحف عبد الله « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» وانفرد بهذا القول . وقال ابن عباس : هو عم اليسع (١) . وقال ابن إسحق وغيره : كان القيم بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث الله إليهم إلياس نبيا وتبعه اليسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له : آخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما آستقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه . فخرج ومعه اليسع فقال: يا إلياس ما تأمرنى . فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بنى إسرائيل ، وكان ذلك آخر العهد به . وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش وألبسه النور، فطار مع الملائكة، فكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا . قال ابن قتيبة: وذلك أن الله تعالى قال لإلياس « سلنى أعطك » . قال : ترفعنى إليك وتؤخر عنى مذاقة الموت . فصار يطير مع الملائكة . وقال بعضهم : كان قد مرض وأحس الموت فبكى ، فأوحى الله إليه ، لم تبك ؟ حرصا على الدنيا، أو جزعا من الموت، أو خوفا من النار ؟ قال : لا ولا شيء من هذا وعزتك، إنما جزعى كيف يحمدك الحامدون بعدى ولا أحمدك، ويذكرك

(١) قال بعض المفسرين هو ابن عم اليسع .

Marfat.com

الذاكرون بعدى ولاأذكرك، و يصوم الصائمون بعدى ولاأصوم، و يصلّى المصلون ولاأصلّى. فقيل له : « يا إلياس وعزتى لأؤخرنك إلىوقت لا يذكرنى فيه ذاكر» . يعنى يوم القيامة. وقال عبدالعزيز بن أبى روّاد : إنّ إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم فى كل عام . وذكر ابن أبى الدنيـا ؛ إنهما يقولان عنـد افتراقهما عن الموسم : ما شاء الله ماشاء الله، لا يسوق الخير إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله؛ ما شـاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله؛ ما شـاء الله ما شاء الله، توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد مضى فى «الكهف»(١) . وذكر من طريق مكحول عن أنس قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم حتى إذا كنا بفجّ الناقة عند الحجر، إذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة، المغفور لها، المتوب عليها، المستجاب لهـا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا أنس آنظر ما هذا الصوت“ فدخلت الجبل ، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس ، عليـه ثياب بيض ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما نظـر إلىّ قال : أنت رسـول النبي ؟ قلت نعم ؛ قال : ارجع إليه فأقرئه منى السلام وقل له : هـذا أخوك إلياس يريد لقاءك . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كنا قريبا منـه ، تقدّم النبي صلى الله عليه وسـلم وتأخرت ، فتحدّثا طويلا ، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السّفرة فدعوانى فأكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به ؛ فقلت للنبي صلى الله عليه وسـلم : بأبى أنت وأمى ! هذا الطعام الذى أكلنا أمن السماء نزل عليه ؟ فقال النبي صلى الله عليـه وسلم : ”سألته عنه فقال يأتينى به جبريل فى كل أربعين يوما أكلة وفى كل حول شربة من ماء زمزم وربما رأيتـه على الجبّ يملأ بالدلو فيشرب وربما سقانى“ .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعنى لبنى إسرائيل . ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعنى الله عز وجل وتخافون عقابه . ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك .

(١) راجع جـ ١١ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قال ثعلب : اختلف الناس فى قوله عن وجل هاهنا « بَعْلًا » فقالت طائفة : البعل هاهنا الصنم . وقالت طائفة : البعل هاهنا ملك . وقال ٱبن إسحق : ٱمرأة كانوا يعبدونها . والأول أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ٱبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ٱبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : ربًّا . النحاس : والقولان صحيحان ؛ أى أتدعون صنما عملتموه ربًّا . يقال : هذا بعل الدار أى ربّها . فالمعنى أتدعون ربًّا ٱختلقتموه ، و «أتدعون» بمعنى أتُسمُّون . حكى ذلك سيبويه . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : البعل الرب بلغة اليمن . وسمع ٱبن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هذه ؟ . أى من ربّها ومنه سمى الزوج بعلا . قال أبو دؤاد[1] :

ورأيتُ بَعْلَكِ فى الوغَى * مُتقلِّدًا سيفًا ورُمحًا

مقاتل : صنم كسره إلياس وهرب منهم . وقيل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربعمائة سادِن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسَّدَنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أى أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون . ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بالنصب فى الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وٱبن أبى إسحق وٱبن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى . وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى أبو عبيد أنها على النعت . النحاس : وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت هاهنا ؛ لأنه ليس بتحلية . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع . قال أبو حاتم : بمعنى هو الله ربكم . قال النحاس : وأولى مما قال إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف . ورأيت على بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

(١) هكذا فى كل نسخ الأصل ونسبه فى الكامل لعبد الله بن الزبعرى ورواه كما فى المعاجم : ياليت زوجك فى الوغى الخ وقد مضى للمصنف .

Marfat.com

أولى وأحسن؛ لأن قبـله رأس آية فالاستئناف أولى . آبن الأنبارى : من نصب أو رفع لم يقف على « أَحْسَنَ الْخَـالِقِينَ » على جهة التمـام؛ لأن الله عز وجل مترجم عن « أَحْسَنَ الْخَـالِقِينَ » من الوجهين جميعا .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أخبر عن قوم إليـاس أنهم كذبوه . ﴿ فَإِنَّهُـمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى فى العذاب . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى من قومه فإنهم نجوا من العذاب . وقرئ « المخلِصين » بكسر اللام وقد تقـدّم . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْـهِ فِى الْآخِرِينَ ﴾ تقدّم . ﴿ سَـلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع . وقرأ عكرمة وأبو عمرو وآبن كثير وحمزة والكسائى : «سلام على إلياسِين» . وقرأ الحسن « سلام على الياسين » بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التى للتعريف . والمراد إلياس عليه السلام وعليه وقع التسليم ولكنه آسم أعجمى . والعرب تضطرب فى هـذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لهـا . قال ابن جِنى : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا؛ فياسين و إلياس والياسين شيء واحد. الزمخشرىّ : وكان حمزة إذا وصـل نصب و إذا وقف رفع . وقرئ « على إلياسينَ » و « إِدْرِيسين وإِدْرَسِينَ و إِدْرَاسِينَ » على أنها لغات فى إليـاس و إدريس . ولعـل لزيادة اليـاء والنون فى السريانية معنى . النحاس : ومن قرأ « سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ » فكأنه والله أعلم جعل آسمه إلياس و ياسين ثم سلم على آله؛ أى أهل دينـه ومن كان على مذهبه ، وعلِم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل فى الســلام ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "اللهم صلّ على آل أبى أوفى" وقال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . ومن قرأ « إِلْيَاسِين» فللعلماء فيه غير قول. فروى هرون عن ابن أبى إسحق قال : إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له . وأبو عبيـدة يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التســليم على أنه وأهل بيته سـلّم عليهم ؛ وأنشـــد : * قَدْنِىَ من نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِى *[(١)]

(١) تمـامه : * ليس الإمام بالشحيح الملحد *

والبيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبـد الملك بن مروان، و يعرض بعبـد الله بن الزبير ؛ يرميه بالبخل والإلحاد فى الحرم . وقيل هو لأبى بحدلة .

Marfat.com

يقال : قِدنى وقَدِى لغتان بمعنى حَسْب . وإنما يريد أباخُبَيْب عبدالله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه . وغير أبى عبيدة يرويه : الخُبَيْبين على التثنية ، يريد عبدالله ومُصْعبا . ورأيت عليّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا ؛ [قال][1] فإن العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون : المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلَّب. قال : فعلى هذا « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » سمّى كل رجل منهم بإلياس . وقد ذكر سيبويه فى كتابه شيئا من هذا ، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة ، فيقولون : الأشعرون يريدون به النسب . المهدوى : ومن قرأ « إلياسين » فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسيّ فحذفت ياء النسبة ؛ كما حذفت ياء النسبة فى جمع المكسّر فى نحو المهالبة فى جمع مهلبيّ ، كذلك حذفت فى المسلّم فقيل المهلَّبون . وقد حكى سيبويه : الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين . السهيليّ : وهذا لا يصح بل هى لغة فى إلياس ، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل فى المهالبة والأشعريين ؛ فكان يقول : « سَلَامٌ على الإلياسين » لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام ؛ لا تقول : سلام على زيدين ، بل على الزيدين بالألف واللام . فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات . النحاس : واحتج أبو عبيد فى قراءته « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » وأنه اسمه كما أن اسمه إلياس ؛ لأنه ليس فى السورة سلام على « آل » لغيره من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، فكما سُمِّى الأنبياء كذا سُمِّى هو . وهذا الاحتجاج أصله لأبى عمرو وهو غير لازم ؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه . والقول بأن اسمه « إلياسين » يحتاج إلى دليل ورواية ؛ فقد وقع فى الأمر إشكال . قال الماوردى : وقرأ الحسن « سَلَامٌ على يَاسِينَ » بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان : أحدهما أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . الثانى أنهم آل ياسين ؛ فعلى هذا فى دخول الزيادة فى ياسين وجهان : أحدهما أنها زيدت لتساوى الآى ، كما قال فى موضع : « طورِسيناء » وفى موضع آخر « طورِسينين » فعلى هذا يكون

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفا له . الثانى أنها دخلت للجمع فيكون داخلا فى جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم . قال السهيلى : قال بعض المتكلمين فى معانى القرآن آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال فى تفسير « يسۤ » يا محمد ؛ وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة : أحدها أن سياقة الكلام فى قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هى فى قصة إبراهيم ونوح وموسى وهرون وأن التسليم راجع عليهم ، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل فى تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضا؛ فإن « يسۤ » و « حمۤ » و « الۤمۤ » ونحو ذلك القول فيها واحد، إنما هى حروف مقطعة ، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس ، وإما من صفات القرآن ، وإما كما قال الشعبى : لله فى كل كتاب سر، وسره فى القرآن فواتح القرآن . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لى خمسة أسماء " ولم يذكر فيها « يسۤ » . وأيضا فإن « يسۤ » جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف ، ولو كان اسما للنبى صلى الله عليه وسلم لقال « يسنُ » بالضم ؛ كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه فـ« إلياسين » هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم . وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل إدريس وإدراسين ، وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود «وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ثم قال: « سلام على إدراسين». ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ﴾ تقدم قصة لوط[1] . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى بالعقوبة . ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ و جـ ٩ ص ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

خاطب العرب أى تمرون على منازلهم وآثارهم « مُصْبِحِينَ » وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ تمرون عليهم أيضا . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى تعتبرون وتتدبرون .

قوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متّى، وهو ابن العجوز التى نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبىّ يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها . ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يونسُ، فخرجت فى إثر إلياس تطوف وراءه فى الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيي لها ولدها، فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس ابن متّى بدعوة إلياس عليه السلام . وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدّم بيانه فى سورة «يونس»(١) ومضى فى «الأنبياء»(٢) قصة يونس فى خروجه مغاضبا . واختلف فى رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده . قال الطبرى عن شهر بن حَوْشَب : إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال : انطلق إلى أهل نِينَوَى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم . قال : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : ألتمس حذاء . قال : الأمرُ أعجل من ذلك . قال : فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر . قال : فتساهموا،

(١) جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) جـ ١١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قال : فسهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه؛ فنودى الحوت : أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقا؛ إنما جعلناك له حرزا ومسجدا . قال : فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به الى الأبلة، ثم آنطلق به حتى مر به على دجلة، ثم آنطلق حتى ألقاه فى نينوى . حدثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوّة . وقال آخرون : كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله فى وقت وقّته لهم، ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم — كما قال الله تعالى فى تنزيله — تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال : وعدتهم وعدا فكذب وعدى . فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جرّبوا عليه الكذب . رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . وقد مضى هذا فى «الأنبياء» وهو الصحيح على ما يأتى عند قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . ولم ينصرف يونس؛ لأنه آسم أعجمى ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت فى أوله الياء؛ لأنه ليس فى الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سميت بيُعْفُر صرفته[١] وإن سميت بيَعْفُر لم تصرفه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ قال المبرد : أصل أبق تباعد ومنه غلام آبق . وقال غيره : إنما قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستترا من الناس . ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى المملوء . « والفلك » يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدّم[٢] . قال الترمذى الحكيم : سماه آبقا لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عند ما اشتدّت عليه العزمة من الملك حسب ما تقدم بيانه فى « الأنبياء » ، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزمة الملك فى أمر الله

(١) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فانه على وزن يقتل فمنع الصرف .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

Marfat.com

لا فى أمر نفسه، وبحظّ حقّ الله لا بحظ نفسه ، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذى عند الله فسماه آبقا ومُليما .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قال المبرد : فقارع قال : وأصله من السهام التى تُجال . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ قال : من المغلوبين . قال الفرّاء : دحضت حجّتُه وأدحضها الله . وأصله من الزلق؛ قال الشاعر :

قَتَلْنا المُدْحَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ فقد قرّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أى المغلوبين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى أتى بما يلام عليه . فأما الملوم فهو الذى يلام آستحق ذلك أو لم يستحق . وقيل : المليم المعيب . يقال لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائى: لم تكسر أن لدخول اللام ؛ لأن اللام ليست لها . النحاس : والأمر كما قال ؛ إنما اللام فى جواب لولا . « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى عقوبة له ؛ أى يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة . وآختلف كم أقام فى بطن الحوت . فقال السدىّ والكلبىّ ومقاتل بن سليمان : أربعين يوما . الضحاك : عشرين يوما. عطاء : سبعة أيام . مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . وقيل : ساعة واحدة . والله أعلم .

الخامسة — روى الطبرى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لما أراد الله — تعالى ذكره — حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر فلما آنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دوابّ البحر" قال : " فسبح وهو فى بطن الحوت " قال :" فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة" قال: " ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان

Marfat.com

يصعد إليك منـه فى كل يوم وليلة عمـل صالح قال نعم فشفعوا له عنـد ذلك فأمر الحوت بقذفه فى الساحل كما قال تعالى « وَهُوَ سَقِيمٌ ». وكان سقمه الذى وصفه به الله تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روى: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسـه يتنفس فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى آنتهوا إلى البر ، فلفظه سالمـا لم يتغير منه شيء فأسلموا ؛ ذكره الزمخشرىّ فى تفسيره . وقال ابن العربى : أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى أنه سئل عن البارى فى جهة ؟ فقال : لا؛ هو يتعالى عن ذلك . قيل له : ما الدليل عليه ؟ قال : الدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تفضلونى على يونس بن متّى" فقيل له : ما وجه الدليل فى هذا الخبر؟ فقال : لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دينا . فقام رجلان فقالا : هى علينا . فقال : لا يتبع بها آثنين؛ لأنه يشق عليه . فقال واحد: هى علىّ. فقال : إن يونس بن متّى رمى بنفسه فى البحر فآلتقمه الحوت، فصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث ، ونادى « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » كما أخبر الله عنه ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسـلم حين جلس على الرفرف الأخضر وآرتقى به صعدا ، حتى آنتهى به إلى موضع يسمع فيه صَرِيف الأقلام ، وناجاه ربه بما ناجاه به ، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر .

السـادسة — ذكر الطبرى : أن يونس عليـه السلام لمـا ركب فى السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح ، فقالوا : هذه بخطيئة أحدكم . فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب : هـذه خطيئتى فألقونى فى البحر ، وأنهـم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » فقال لهم : قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبى . وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين ، وأنهم أبوا أن يلقوه فى البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين . فلما رأى ذلك ألقى نفسه فى البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحـوت . وروى أنه لمـا ركب فى السفينة تقنّع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

Marfat.com

ريح كادت السفينة أن تغرق ، فاجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا : أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا ؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح ، ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد ، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق ، فأيقظوه ودعوا الله فارتفعت الريح . قال : فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة ، فقال لهم يونس : يا قوم! هذا من أجلي فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع . قالوا : لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر . قال : فتساهموا فوقع على يونس ، فقال لهم : يا قوم اطرحوني فمن أجلي أوتيتم ؛ فقالوا . لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى . ففعلوا فوقع على يونس . فقال لهم : يا قوم اطرحوني فمن أجلي أوتيتم . فذلك قول الله عز وجل : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أي وقع السهم عليه ؛ فانطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر ، فإذا الحوت فاتح فاه ، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة ، فإذا بالحوت ، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر فإذا بالحوت فاتح فاه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت ؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت : إني لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء . فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » وقد تقدم ويأتي . ففي هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولا بها في شرع من قبلنا ، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في « آل عمران »(١) قال ابن العربي : وقد وردت القُرْعة في الشرع في ثلاثة مواطن ؛ الأول — كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، الثاني — أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم ، فأقرع بينهم ؛ فأعتق اثنين وأرق أربعة . الثالث — أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال : "اذهبا وتوخيا الحق واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه" . فهذه ثلاثة مواطن ، وهي القَسْم في النكاح والعِتق والقسمة ، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وحسم داء التشهى . وآختلف علماؤنا فى القرعة بين الزوجات فى الغزو على قولين ؛ الصحيح منهما الإقتراع . وبه قال فقهــاء الأمصار ؛ وذلك أن السـفر بجميعهن لا يمكن ، وآختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة . وكذلك فى مسألة الأعبد الستة ؛ فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر الذى يجوز له فيه العتق فى مرض الموت، وتعيينهما بالتشهى لا يجوز شرعا، فلم يبـق إلا القرعة . وكذلك التشاجر إذا وقع فى أعيـان المواريث لم يميز الحق إلا القُرْعة، فصارت أصلا فى تعيين المستحق إذا أشكل . قال : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا إن القرعة بين الزوجات فى الطلاق كالقرعة بين الإماء فى العتق .

السابعــة — الآقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر لا يجوز . وإنمـا كان ذلك فى يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه، وزيادة فى إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصيا أن يقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر، وإنمـا تجرى عليــه الحدود والتعزير على مقدار جنايته . وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فآضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم ، فيطرح بعضهــم تخفيفا ؛ وهــذا فاسد ؛ فإنهـا لا تخفّ برمى بعـض الرجال وإنمـا ذلك فى الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل .

الثامنـــة — أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبِّحين، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ؛ ولذلك قيــل : إن العمل الصالح يرفع صاحبــه إذا عثر . قال آبن عبــاس : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين . قال قتادة : كان يصلّى قبل ذلك فحفظ الله عز وجل له فنجّاه . وقال الربيع بن أنس : لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح «لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» قال : ومكتوب فى الحكمة — إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر . وقال مقاتل : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين المطيعين قبل المعصية . وقال وهب : من العابدين . وقال الحسن : ما كان له صــلاة فى بطن الحـوت ، ولكنه قــدّم عملا صالحا فى حال الرخاء فذكره الله به فى حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأ .

Marfat.com

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "من ٱستطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل" فيجتهد العبد، ويحرص على خَصْلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه . وقد خرّج البخارى ومسلم من حديث ٱبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بينما ثلاثة نفر - فى رواية ممن كان قبلكم - يتماشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فٱنحطت على فم الغار صخرة من الجبل فٱنطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض ٱنظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فٱدعوا الله بها لعله يفرجها عنكم" الحديث بكماله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه . وقال سعيد بن جبير : لما قال فى بطن الحوت «لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قذفه الحوت . وقيل : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلّين فى بطن الحوت .

قلت : والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدل حديث أبى هريرة المذكور قبل الذى ذكره الطبرى . قال : فسبح فى بطن الحوت . قال : فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . وتكون « كان » على هذا القول زائدة . أى فلولا أنه من المسبِّحين . وفى كتاب أبى داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا ٱستجيب له" (١) وقد مضى هذا فى سورة « الأنبياء » فيونس عليه السلام كان قبل مصلّيا مسبحا، وفى بطن الحوت كذلك . وفى الخبر: فنودى الحوت، إنا لم نجعل يونس لك رزقا، إنما جعلناك له حِرْزا ومسجدا . وقد تقدم.

قوله تعالى : فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ روى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل . وقال ٱبن قُسَيْط عن أبى هريرة : طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة ؛ فقلنا يا أبا هريرة : وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدُّبَّاء ؛ هيأ الله له أُرْوِيَّة(١) وحشية تأكل من خَشَاش الأرض — أو هَشَاش الأرض — فتَفَشَّج(٢) عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . وقال سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : خرج به — يعنى الحوت — حتى لَفَظه فى ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء . وقيل : إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهى فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته . ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست، فحزن وبكى عليها فعوتب؛ فقيل له : أحزنت على شجرة وبكيت عليها ، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بنى إسرائيل ، من أولاد إبراهيم خليلى ، أسرى فى أيدى العدو، وأردت إهلاكهم جميعا . وقيل : هى شجرة التين . وقيل : شجرة الموز تغطّى بورقها، وٱستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها . والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتى . ثم إن الله تبارك وتعالى ٱجتباه فجعله من الصالحين . ثم أمره أن يأتى قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم ، فعمد إليهم حتى لقى راعيا فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم ، فأخبره أنهم بخير ، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم . فقال له : فأخبرهم أنى قد لقيت يونس . فقال : لا أستطيع إلا بشاهد . فسمى له عنزا من غنمه فقال : هذه تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه البقعة التى أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس . وأنه رجع الراعى إلى قومه فأخبرهم أنه لقى يونس فكذبوه وهمّوا به شرا فقال : لا تعجلوا علىّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التى لقى فيها يونس ، فٱستنطقها فأخبرتهم أنه لقى يونس ، وٱستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقى يونس ، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك .

(١) الأروية : الأنثى من الوعول . (٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها .

Marfat.com

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبرى رحمه الله . « فَنَبَذْنَاهُ » طرحناه . وقيل : تركناه . «بِالْعَرَاءِ» بالصحراء ؛ قاله آبن الأعرابى . الأخفش : بالفضاء . أبو عبيدة : الواسع من الأرض . الفـراء : العراء المكان الخالى . قال وقال أبو عبيـدة : العراء وجه الأرض ؛ وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعتُ رِجْلًا لا أخافُ عِثارَها * ونَبَـذْتُ بالبَـلَدِ العَرَاءِ ثيـابِى

وحكى الأخفش فى قوله : «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سقمى و](١) سقامى وسقام . وقال فى هذه السورة: «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ» وقال فى« نون والقلم» : «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » والجواب أن الله عز وجل خبرها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم ؛ قاله النحاس. وقوله : « وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ » يعنى « عَلَيْهِ » أى عنده ؛ كقوله تعالى : « وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ » أى عندى . وقيل: « عَلَيْـهِ » بمعنى له . « شَجَرَةً مِنْ يَقْطِـينٍ » اليقطين شجر الدُّبَّاء : وقيـل : غيرها ؛ ذكره آبن الأعرابى . وفى الخبر : " الدُّبَّاء والبطيخ من الجنة " وقد ذكرناه فى كتاب التـذكرة . وقال المبرّد : يقال لكل شجرة ليس لهـا ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحـو الدُّبَّاء والبطيخ والحنظل ، فإن كان لهـا ساق يقلها فهى شجرة فقط، وإن كانت قائمـة أى بعروق تفترش فهى نجمة وجمعها نجم . قال الله تعـالى : « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » وروى نحوه عن آبن عباس والحسن ومقاتل . قالوا : كل نبت يمتـد ويبسط على الأرض ولا يبقى على آستواءٍ وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين . وقال سعيد بن جبير: هو كل شىء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل فى هذا الموز .

قلت : وهو ممـا له ساق . الجوهرى : واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه . الزجاج: آشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يفعيل . وقيل: هو آسم أعجمى. وقيل : إنمـا خص اليقطين بالذكر ؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب . وقيل : ما كان ثَمّ يقطين

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس ؛ وهى عبارته عن الأخفش .

Marfat.com

فأنبته الله فى الحال . القشيرى : وفى الآية ما يدل على أنه كان مفروشا ليكون له ظل . الثعلبى : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يتحزّن عليها ؛ فقيل له : يايونس أنت الذى لم تخلق ولم تَسقِ ولم تُنبت تحزن على شجيرة، فأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم ! فأين رحمتى يا يونس أنا أرحم الراحمين . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول : " إنها شجرة أخى يونس " وقال أنس : قدم للنبىّ صلى الله عليه وسلم مَرَق فيه دُبّاء وقَديد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالى القَصْعة . قال أنس : فلم أزل أحبّ الدُّبّاء من يومئذ . أخرجه الأئمة .

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدّم عن ابن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذه الحوت . وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب . النحاس : وأجود منه إسنادا وأصح ما حدّثناه عن علىّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن بن محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزِىّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال عن يونس النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرّقوا بين كلّ والدة وولدها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا ، فكفّ الله عز وجل عنهم العذاب، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئا — وكان من كَذَب ولم تكن له بينة قُتِل — فخرج يونس مغاضبا، فأتى قوما فى سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينا وشمالا؛ فقالوا : ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندرى . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبدا آبقا من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبىّ الله فإنا لا نلقيك . قال : فاقترِعوا فمن قُرِع فليقع، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فاقترعوا ثلاثا فمن قُرِع فليقع . فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثا فوقع . وقد وكل الله به جل وعز حوتا فابتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام

Marfat.com

تسبيح الحصى « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت ، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فيبست فبكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه : أتبكى على شجرة يبست ، ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى ؛ قال : ياغلام من أنت؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس . قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة فمن يشهد لى؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فرهما ؛ فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له . قالتا نعم . قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان فى منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إنى قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال : فأمر به أن يقتل ؛ فقالوا : إن له بينة فأرسلوا معه . فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أنى لقيت يونس؟ قالتا : نعم ! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض ! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه فى مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان منى . قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة . قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين فى هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذى لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل . وهذا هو الصحيح فى الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه فى غيرهم فى قوله عز وجل : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » وقوله عز وجل : «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ» الآية .

Marfat.com

وقال بعض العلماء : إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا . وهذا لا يمتنع ، وقد تقدّم ما للعلماء في هذا في سورة « يونس »(١) فلينظر هناك .

قوله تعالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » قد مضى في « البقرة »(٢) محامل « أو » في قوله تعالى : « أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » . وقال الفراء : « أو » بمعنى بل . وقال غيره : إنها بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر :

فلمّا اشتد أمرُ الحربِ فينا   تأمّلنا رِياحا أو رِزَامَا

أي ورزاما . وهذا كقوله تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » . وقرأ جعفر بن محمد «إلى مِائةِ ألفٍ ويزِيدون» بغير همز ف«يزِيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدإ محذوف أي وهم يزيدون . النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين ، وأنكروا كون « أو » بمعنى بل وبمعنى الواو ؛ لأن بل للاضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده ، وتعالى الله عز وجل عن ذلك ، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك ؛ والواو معناه خلاف معنى « أو » فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني ؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر ، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون . وقيل : هو كما تقول : جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب . وقال الأخفش والزجاج : أي أو يزيدون في تقديركم . قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا . ورواه أُبيّ بن كعب مرفوعا . وعن ابن عباس أيضا : ثلاثين ألفا . الحسن والربيع : بضعا وثلاثين ألفا . وقال مقاتل بن حيان : سبعين ألفا . ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى منتهى آجالهم .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم آحتج على كفار قريش فى قولهم : إن الملائكة بنات الله ؛ فقال : « فَاسْتَفْتِهِمْ » . وهو معطوف على مثله فى أول السورة و إن تباعدت بينهم المسافة؛ أى فسل يا محمد أهل مكة « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ ».وذلك أن جُهَينة وخُزَاعة و بنى مُلَيح و بنى سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله . وهذا سؤال توبيخ .﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أى حاضرون لخلقنا إياهم إناثا . وهذا كما قال الله عز وجل : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم إن لله ولدا وهو الذى لا يلد ولا يولد . و « إنّ » بعد « أَلَا » مكسورة؛ لأنها مبتدأة . وحكى سيبويه أنها تكون بعد أمّا مفتوحة أو مكسورة ؛ فالفتح على أن تكون أمّا بمعنى حقًّا والكسر على أن تكون أمّا بمعنى ألَا . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد ألَا تشبيها بأمّا ، وأمّا فى الآية فلا يجوز إلا كسرها؛ لأن بعدها الرفع . وتمام الكلام « لَكَاذِبُونَ » ثم يبتدئ ﴿ أَصْطَفَى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال : ويحكم « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » أى آختار البنات وترك البنين . وقراءة العامة « أَصْطَفَى » بقطع الألف ؛ لأنها ألف آستفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الآستفهام مفتوحة مقطوعة على

Marfat.com

حالها مثل « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » (١) على ما تقدّم . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة « آصْطَفَى » بوصـل الألف على الخبر بغـير آستفهام . وإذا آبتـدأ كسر الهمـزة . وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لهـا ؛ لأن بعدها ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين : إحداهمـا أن يكون تبيينا وتفسـيرا لمـا قالوه من الكذب ويكون « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » منقطعا مما قبله . والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون — منهم الفراء — أن التوبيخ يكون بآستفهام وبغير آستفهام كما قال جل وعز « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » . وقيـل : هو على إضمار القول؛ أى ويقولون « آصْطَفَى الْبَنَاتِ » . أو يكون بدلا من قوله : «وَلَدَ اللَّهُ» لأن ولادة البنات وآتخاذهنّ اصطفاء لهنّ، فأبدل مثال المـاضى من مثال المـاضى فلا يوقف على هذا على «لَكَاذِبُونَ» . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فى أنه لايجوز أن يكون له ولد . ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ حجة وبرهان . ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أى بحججكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى قولكم .

قوله تعـالى : وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنـة ها هنا الملائكة . روى ابن أبي نجيح عن مجاهـد قال : قالوا — يعنى كفار قـريش — الملائكة بنات الله؛ جل وتعالى . فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فمن أمهاتهن . قالوا : مخدرات الجنّ . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم جِنّة لأنهم لا يُرَوْن . وقال مجاهـد : إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجِنّـة . وروى عن ابن عباس . وروى إسرائيل عن السـدى عن أبى مالك قال : إنمـا قيل لهم جِنّة لأنهم خُزّان على الجنان والملائكة كلهم جِنّـة . « نَسَبًا » مصاهرة، قال قتادة والكلبي ومقاتل : قالت اليهـود لعنهم الله إن الله صاهر الجنّ فكانت

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الملائكة من بينهم. وقال مجاهد والسدى ومقاتل أيضا : القائل ذلك كنانة وخُزاعة، قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سَرَوات بنات الجنّ . وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله فهو النّسب الذى جعلوه .

قلت : قول الحسن فى هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى : « إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادة . وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضا : هو قولهم إن الله تعالى و إبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى قائل هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى النار؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : للحساب . الثعلبى : الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر فى هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب . ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تنزيها لله عما يصفون . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم ناجون من النار .

قوله تعالى : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ «ما» بمعنى الذى . وقيل : بمعنى المصدر، أى فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام . وقيل : أى فإنكم مع ما تعبدون من دون الله . يقال : جاء فلان وفلان . وجاء فلان مع فلان . ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضلّين . النحاس . أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى؛ ما أنتم بمضلّين أحدا إلا من قدّر الله عز وجل عليه أن يضل . وقال الشاعر :

فَرَدّ بنعمته كيدَهُ * عليه وكان لنا فاتِنَا

أى مضلّا .

Marfat.com

الثانيـــة ـــ فى هذه الآية ردٌّ على القَدَرية . قال عمــرو بن ذر : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر، فقال عمر : لو أراد الله ألّا يُعصَى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وإن فى ذلك لعلماً فى كتاب الله جل وعز، عرفه من عرفه، وجهله من جهله؛ ثم قرأ "فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ" إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلى الجحيم . وقال : فصلت هذه الآية بين الناس، وفيها من المعانى أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدى، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدى لحال بينه وبينهم . وعلى هـذا قوله تعالى : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أى لست تصل منهم إلى شىء إلا إلى ما فى علمى . وقال لَبيد بن ربيعة فى تثبيت القدَر فأحسن :

إنّ تقْـوَى ربِّنا خير نفَـلْ * وبإذنِ الله رَيْثِي وعَجَـلْ
أَحمَـــدُ اللهَ فــلا نِــدَّ لهُ * بِيَــديهِ الخــيْرُ ما شاء فَعَلْ
مَنْ هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى * ناعِمَ البالِ ومَنْ شاء أَضَلْ

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل وأهل نجد يقولون أفتنته .

الثالثـــة ـــ روى عن الحسن أنه قرأ « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ » بضم اللام . النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ . ومن أحسن ما قيل فيـه ما سمعت على بن سليمان يقوله؛ قال : هو محمول على المعنى؛ لأن معنى « من » جماعة، فالتقدير صالون، فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . وقيل : أصله فاعل إلا أنه قلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل « شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » . ووجه ثالث أن تحذف لام صال تخفيفا وتجـرى الإعراب على عينه، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة . وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى؛ ونظيره قراءة من قرأ « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ » « وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَئَاتُ » أجرى الإعراب على العين . والأصل فى قراءة الجماعة صالِي بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها فى اللفظ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

هذا من قول الملائكة تعظيما لله عز وجل، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم. ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ قال مقاتل : هـذه الثلاث الآيات نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سِدْرة المنتهى، فتأخر جبريل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أهنا تفارقني" فقال : ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » الآيات . والتقـدير عند الكوفيين : وما منا إلا من له مقام معلوم . فحذف الموصول . وتقـديره عند البصريين : وما منا ملَك إلا له مقام معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبَير . وقال ابن عباس : ما في السموات موضع شبرٍ إلا وعليه ملَك يصلّي ويسبّح. وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملَك ساجد أو قائم". وعن أبي ذرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماءُ وحقٌّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد" خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث [حسن](1) غريب. ويروى من غير هـذا الوجه أن أبا ذرّ قال : لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد . ويروى عن أبي ذرّ موقوفا . وقال قتادة : كان يصلي الرجال والنساء جميعا حتى نزلت هذه الآية « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » . قال : فتقـدّم الرجال وتأخر النسـاء . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » قال الكلبي : صفوفهـم كصفوف أهل الدنيا في الأرض . وفي صحيح مسـلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ونحن في المسجد؛ فقال : " ألا تَصُفّون كما تَصُفّ الملائكة عند ربها" فقلنا يا رسول الله كيف تصفّ الملائكة عند ربها ؟ قال ؟

(1) الزيادة من صحيح الترمذي .

Marfat.com

"يُتمون الصفوف الأُوَل ويتراصّون فى الصفّ" وكان عمـر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا إنمـا يريد الله بكم هَدْى الملائكة عند ربها ويقرأ « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » تأخر يافلان تقـدّم يافلان؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد مضى فى سورة « الحجـر »(١) بيانه . وقال أبو مالك : كان الناس يصلون متبدّدين فأنزل الله تعالى «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا . وقال الشعبي : جاء جبريل أو ملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه؛ إن الملائكة لتصلى وتسبح ما فى السماء ملك فارغ . وقيل : أى لنحن الصافّون أجنحتنا فى الهواء وقوفا ننتظر ما نؤمر به . وقيل : أى نحن الصافّون حـول العرش . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المصلّون ؛ قاله قتـادة : وقيل : أى المنزّهون الله عما أضافه إليـه المشركون . والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبـدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله . وقيل : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للشركين؛ أى لكل واحد منا ومنكم فى الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب . وقيـل : أى منّا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومنا من له مقام الإخلاص، ومنّا من له مقام الشكر . إلى غيرها من المقامات .

قلت : والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنـدَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين ، أى كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إذا عُيّروا بالجهل قالوا : «لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ» أى لو بُعث إلينا نبيّ ببيان الشرائع لاتبعناه. ولمـا خففت « إن » دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقا بين النفى والإيجاب . والكوفيون

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

يقولون : «إنْ» بمعنى ما واللام بمعنى إلا . وقيل : معنى « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا » أى كتابا من كتب الأنبياء (لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) أى لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله . (فَكَفَرُوا بِهِ) أى بالذكر . والفراء يقدره على حذف؛ أى فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به . وهذا تعجيب منهم، أى فقد جاءهم نبيّ وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا . (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال الزجاج : يعلمون مغبة كفرهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ) قال الفراء : أى بالسعادة . وقيل : أراد بالكلمة قوله عز وجل « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » قال الحسن : لم يقتل من أصحاب الشرائع قط أحد. (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) أى سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة. (وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ» . وقال الشيبانى: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية .

قوله تعالى : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى أعرض عنهم . (حَتَّى حِينٍ) قال قتادة : إلى الموت . وقال الزجاج : إلى الوقت الذى أمهلوا إليه . وقال ابن عباس : يعنى القتل ببدر . وقيل يعنى فتح مكة . وقيل : الآية منسوخة بآية السيف . (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) قال قتادة : سوف يبصرون حين لاينفعهم الإبصار . وعسى من الله للوجوب وعبر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أى عن قريب يبصرون : وقيل : المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم

Marfat.com

القيامة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هـذا العذاب ، أى لا تستعجلوه فإنه واقع بكم .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أى العذاب . قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتل . ومعنى « بِسَاحَتِهِمْ » أى بدارهم؛ عن السدى وغيره . والساحة والسَّحْسَة فى اللغة فِنَاء الدار الواسع . الفرّاء : « نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » ونزل بهم سواء . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب . وفيه إضمار أى فساء الصباح صباحهم . وخصّ الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيـه . ومنه الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : لمـا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المسَاحى، فقالوا : محمد والخميس(١)، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر خَرِبت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين" وهو يبين معنى «فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ» يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ كرر تأكيدا وكذا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد أيضا .

قوله تعـالى : سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فيــه أربع مسـائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون . ﴿ رَبِّ الْعِـزَّةِ ﴾ على البـدل . ويجوز النصب على المـدح ، والرفع بمعنى هو ربّ العـزة . ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى من الصاحبة والولد . وسـئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن معنى « سبحان الله » فقال : " هو تنزيه الله عن كل سوء " وقد مضى فى « البقرة(٢) » مستوفى .

الثانيــة ــ سـئل محمد بن سُحْنون عن معنى « رَبِّ الْعِزَّةِ » لِمَ جاز ذلك والعـزّة من صفات الذات، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال: العزة تكون

(١) الخميس الجيش . (٢) راجع جـ١ ص ٢٧٦ و ٢٨٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة وجـ٢ ص ٧٦ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

صفة ذات وصفة فعل ، فصفة الذات نحو قوله : « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وصفة الفعل نحو قوله : « رَبِّ الْعِزَّةِ » والمعنى ربّ العزّة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل . قال وقد جاء في التفسير : إن العزة هاهنا يراد بها الملائكة . قال وقال بعض علمائنا : من حلف بعزّة الله فإن أراد عزّته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفّارة عليه . الماوردي : « رَبِّ الْعِزَّةِ » يحتمل وجهين، أحدهما مالك العزّة، الثاني ربّ كل شيء متعزّز من ملك أو متجبّر .

قلت : وعلى الوجهين فلا كفّارة إذا نواها الحالف .

الثالثة — روى من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يسلّم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » إلى آخر السورة، ذكره الثعلبي .

قلت : قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد ابن عمروك البكري بالجزيرة قُبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسمعيل ابن أبي بكر القارئ، قال حدّثنا أبو الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسي، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الاسفرايني ، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي ، قال حدّثنا أبو زكرياء يحيي بن يحيي بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدّثنا هُشَيم عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الماوردي : روى الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ذكره الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه مرفوعا .

Marfat.com

الرابعــة — قوله تعـالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى الذين بلغوا عن الله تعـالى التوحيد والرسالة . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سلّمتم علىّ فسلّموا على المرسلين فإنمـا أنا رسول من المرسلين " وقيل : معنى « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى أَمْن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على إرسال المرسلين مبشرين ومنـذرين . وقيل : أى على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين . وقيل : أى على هلاك المشركين ؛ دليله « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قلت : والكل مراد والحمد يعم . ومعنى . « يَصِفُونَ » يكذبون، والتقدير عما يصفون من الكذب . تم تفسير سورة الصافات .

ســورة صۤ

مكية فى قول الجميع ، وهى ست وثمـانون آية . وقيل ثمـان وثمـانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿صٓ﴾ قراءة العامة « صٓ » بجـزم الدال على الوقف ؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل « الٓمٓ » و « الٓمٓر » . وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبى إسحق ونصر ابن عاصم « صادِ » بكسر الدال بغـير تنوين . ولقـراءته مذهبان : أحدهما أنه من صادى يصادى إذا عارض، ومنـه « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى » أى تعرّض . والمصاداة المعارضة، ومنـه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الخالية . فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك ؛ أى عارضه بعملك وقابله به ، فاعمل بأوامره، وانته عن نواهيه . النحاس : وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة . وعنـه أن المعنى آتلُه وتعرّض لقراءته . والمذهب

Marfat.com

الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين . وقرأ عيسى بن عمر « صادَ » بفتح الدال ومثله «قافَ» و «نونَ» بفتح آخرها. وله في ذلك ثلاثة مذاهب : أحدهنّ أن يكون بمعنى ٱتلُ. والثاني أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وٱختار الفتح للإتباع ؛ ولأنه أخفّ الحركات . والثالث أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف ؛ كقولك : اللهَ لأفعلنّ، وقيل : نصب على الإغراء . وقيل : معناه صادَ محمدٌ قلوبَ الخلق وٱستمالها حتى آمنوا به . وقرأ ٱبن أبي إسحق أيضا «صادٍ» بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله . ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « صادُ » و « قافُ » ونونُ» بضم آخرهن ؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ. و « صٓ » إذا جعلته ٱسما للسورة لم ينصرف ؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلّت حروفه . وقال ٱبن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن « صٓ » فقالا : لا ندري ما هي . وقال عكرمة : سأل نافع ٱبن الأزرق ٱبن عباس عن «صٓ» فقال : «صٓ» كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار . وقال سعيد بن جبير : « صٓ » بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين . وقال الضحاك: معناه صدق الله . وعنه أن « صٓ » قَسَمٌ أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى. وقاله السدي، وروى عن ٱبن عباس . وقال محمد بن كعب: هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدٌ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد . وقال قتادة : هو ٱسم من أسماء الرحمن . وعنه أنه ٱسم من أسماء القرآن . وقال مجاهد : هو فاتحة السورة . وقيل : هو مما ٱستأثر الله تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأول . وقد تقدّم جميع هذا في « البقرة[1] » .

قوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو ٱسم معتل والأصل فيه ذَوِى على فَعَل . قال ٱبن عباس ومقاتل : معنى « ذِي الذِّكْرِ » ذي البيان . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥ طبعه ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

ذى الشرف أى من آمن به كان شرفا له فى الدارين؛ كما قال تعالى: « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم . وأيضا القرآن شريف فى نفسه لإعجازه وآشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره . وقيــل : « ذِى الذِّكْرِ » أى فيه ذكر ما يحتاج إليــه من أمر الدين . وقيــل : « ذِى الذِّكْرِ » أى فيه ذكر أسماء الله وتمجيده . وقيل : أى ذى الموعظة والذكر . وجواب القسم محذوف . وآختلف فيه على أوجه : فقيل جواب القسم «صٓ»؛ لأن معناه حقّ فهى جواب لقوله : « وَالْقُرْآنِ » كما تقول : حقًّا واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ، فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله : « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » حسنا وعلى « فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » تمــاما. قاله آبن الأنبارى . وحكى معناه الثعلبى عن الفراء . وقيــل : الجواب « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » لأن « بل » نفى لأمر سبق وإثبات لغــيره ؛ قاله القتبى ؛ فكأنه قال : « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » عن قبول الحق وعداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم . أو « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب ؛ لأنهم يعرفونك بالصــدق والأمانة بل هم فى تكبر عن قبول الحق . وهو كقوله : « قٓ . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا » وقيل : الجواب « كَمْ أَهْلَكْنَا » كأنه قال : والقرآنِ لَكَمْ أهلكنا ؛ فلما تأخرت « كم » حذفت اللام منها ؛ كقوله تعالى : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » ثم قال : « قَدْ أَفْلَحَ » أى لقد أفلح . قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء . آبن الأنبارى : فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله : « فِى عِزَّةٍ وَشِــقَاقٍ » . وقال الأخفش : جواب القسم « إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ » ونحو منه قوله تعالى : « تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ » . آبن الأنبارى : وهــذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهــما وكثرت الآيات والقصص . وقال الكسائى : جواب القسم قوله : « إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » . آبن الأنبارى : وهذا أقبح من الأوّل ؛ لأن الكلام أشــدّ طولا فيما بين القسم وجوابه . وقيل الجواب قــوله : « إِنَّ هَــذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ » . وقال قتادة : الجواب محذوف تقديره « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » لتبعثنّ ونحوه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ أى فى تكبر وامتناع من قبول الحق ؛ كما قال جل وعز : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » والعزّة عند العرب الغَلَبة والقَهْر. يقال : من عَزّ بَزّ يعنى من غَلَب سَلَب . ومنه « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أراد غلبنى . وقال جرير :

يَعُزُّ على الطّريق بمَنْكِبيه * كما ٱبْتَرَكَ الخَلِيعُ على القِداح (١)

أراد يغلب . ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أى فى إظهار خلاف ومباينة . وهو من الشّق كأنّ هذا فى شَقّ وذلك فى شَقّ . وقد مضى فى « البقرة » مستوفى (٢) .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من قوم كانوا أمنع من هؤلاء . و « كم » لفظة التكثير ﴿ فَنَادَوْا ﴾ أى بالاستغاثة والتوبة . والنداء رفع الصوت ؛ ومنه الخبر: " ألقه على بلال فإنه أَنْدى منك صوتا " أى أرفع . ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل . النحاس : وهذا تفسير منه لقوله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » فأما إسرائيل فروى عن أبى إسحق عن التميمى عن ٱبن عباس « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال : ليس بحين نَزْوٍ (٣) ولا فِرار ؛ قال : ضُبِط القوم جميعا قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فٱضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أى عليكم بالفرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص؛ فقال الله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال القشيرى : وعلى هذا فالتقدير؛ فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه ؛ أى ليس الوقت وقت ما تنادون به . وفى هذا نوع تحكم؛ إذ يبعد أن يقال : كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار . وقيل : المعنى « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه . قال القشيرى : وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو فى « وَلَاتَ حِينَ

(١) البيت فى وصف جمل؛ يقول : يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق؛ فشبه حرصه على لزوم الطريق، وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله . والخليع المخلوع المقمور ماله . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

(٣) النزو : ضرب من العدو .

Marfat.com

مَناصٍ » وقال الجرجاني : أى فنادوا حين لا مناص؛ أى ساعة لا منجًى ولا فوت، فلما قدم « لا » وأخر « حين » اقتضى ذلك الواو ، كما يقتضى الحال إذا جعل ابتداء وخبرا ؛ مثل قولك : جاء زيد راكبا؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبرا اقتضى الواو مثل جاءنى زيد وهو راكب، فحين ظرف لقوله « فَنَادَوْا » والمناص بمعنى التأخر والفرار والخلاص ؛ أى نادوا لطلب الخلاص فى وقت لا يكون لهم فيه خلاص . قال الفرّاء :

* أَمِنْ ذكر ليلى إذ نأتك تَنُوصُ (١) *

يقال : ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصا ومَناصا أى فَرَّ وزاغ . النحاس : ويقال : ناص ينوص إذا تقدم .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوْص الحمار الوحشى واستناص أى تأخر؛ قاله الجوهرى . وتكلم النحويون فى « وَلَاتَ حِينَ » وفى الوقف عليه ، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلّام فى كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيرا مردود . فقال سيبويه : «لات» مشبهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أى ليست أحياننا حين مناص . وحكى أن من العرب من يرفع بها فيقول : ولات حِينُ مناصٍ . وحكى أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفا كما كان الاسم محذوفا فى النصب؛ أى ولات حينُ مناصٍ لنا . والوقف عليها عند سيبويه والفراء «ولات» بالتاء ثم تبتدئ «حِينَ مَنَاصٍ» وهو قول ابن كيسان والزجاج . قال أبو الحسن بن كيسان : والقول كما قال سيبويه ؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات . والوقوف عليها عند الكسائى بالهاء ولَاهْ . وهو قول المبرّد محمد بن يزيد . وحكى عنه على بن سليمان أن الحجة فى ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال ثُمَّهْ ورُبَّهْ. وقال القشيرى : وقد يقال ثُمَّتْ بمعنى ثُمّ، ورُبَّتْ بمعنى رُبَّ؛ فكأنهم زادوا فى لاهاء فقالوا لَاهْ، كما قالوا فى ثُمّ ثُمَّهْ ثم عند الوصل صارت تاء . وقال الثعلبى : وقال أهل اللغة و « لَاتَ حِينَ » مفتوحتان كأنهما

---

(١) تمامه : * فتقصر عنها خطوة وتبوص *
والبوص بالباء الموحدة التقدم .

Marfat.com

كلمة واحدة ، وإنما هي « لا » زيدت فيها التاء نحو ربّ ورُبّتْ وثمّ وثُمّتْ . قال أبو زبيد الطائي :

طَلَبُوا صُلْحنا ولَاتَ أَوَانٍ * فَأَجَبْنا أَنْ ليس حينَ بقَاءِ

وقال آخر :

تذكَّرَ حُبَّ ليلى لَاتَ حِينَا * وأمسى الشَّيْبُ قدقَطَعَ القَرِينا

ومن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء :

فَلَتَعْرِفَنَّ خلائقًا مَشْمُولَةً * ولَتَنْدَمَنَّ ولاتَ ساعةِ مَنْدَمِ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن « ولات حين » التاء منقطعة من حين ، ويقولون معناها وليست . وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين . وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلّام . الوقف عندي على هذا الحرف « ولا » والابتداء « تَحِينَ مَنَاصٍ » فتكون التاء مع حين . وقال بعضهم : « لات » ثم يبتدئ فيقول « حِينَ مَنَاصٍ » . قال المهدوي : وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين ، وهو خلاف قول المفسرين . ومن حجة أبي عبيد أن قال : إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن . وأنشد لأبي وَجْزَة السعدي :

العاطفونَ تَحِينَ مامِنْ عاطِفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ

وأنشد لأبي زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولا تأوانٍ * فأجبنا أن ليس حين بقاءِ

فأدخل التاء في أوان . قال أبو عبيد : ومن إدخالهم التاء في الآن ، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فذكر مناقبه ثم قال : اذهبْ بها تَلَانَ معك . وكذلك قول الشاعر(١) :

نَوِّلِي قَبْلَ نَأْيِ دَارِي جُمَانا * وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلَانا

(١) هو جميل بن معمر وبعده :
إن خيرَ المواصلين صفاءً * من يوافي خليله حيث كانا

Marfat.com

قال أبو عبيد : ثم مع هذا كله إنى تعمدت النظر فى الذى يقال له الإمام — مصحف عثمان — فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين . قال أبو جعفر النحاس : أما البيت الأول الذى أنشده لأبى وَجْزَة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفى أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

* العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفٍ *

والرواية الثانية :

* العاطِفونَ ولَاتَ حِينَ تَعاطُفٍ *

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

* العاطفــونةَ حِينَ ما مِن عاطِفٍ *

جعلها هاء فى الوقف وتاء فى الإدراج، وزعم أنهـا لبيان الحركة شبهت بهـاء التأنيث .

والرواية الرابعة :

* العاطِفونهُ حِين ما مِن عاطِفٍ *

وفى هذه الرواية تقديران : أحدهما وهو مذهب إسمعيل بن إسحق أن الهاء فى موضع نصب؛ كما تقول : الضاربون زيدا فإذا كنيت قلت الضاربوهُ . وأجاز سيبويه فى الشعر الضاربونهُ، فجاء إسمعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه فى إجازته مثله . والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة ، كما تقول : مرّ بنا المسلمونهْ فى الوقف، ثم أجريت فى الوصل مجراها فى الوقف ؛ كما قرأ أهل المدينــة « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَــهْ » وأما البيت الثانى فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئا مشكلا؛ لأنه يروى (ولات أوانٍ) بالخفض، وإنمـا يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا . وإن كان قد روى عن عيسى بن عمر أنه قرأ « ولاتِ حِينِ مناصٍ » [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنــه أنه قرأ « ولاتِ حينَ مناص »](١) فبنى « لاتِ » على الكسر ونصب « حينَ » فأما (ولَاتَ أوانٍ) ففيه تقــديران ؛ قال الأخفش : فيــه مضمر أى ولات حين أوان .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

قال النحاس : وهذا القول بيّن الخطإ . والتقدير الآخر عن أبي إسحق قال : تقـديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين . وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانٌ) بالرفع . وأما البيت الثالث فبيت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة. على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الان) . وقال غيره : المعـنى كما زعمت أنت الآن . فأسقط الهمزة من أنت والنـون . وأما احتجاجه بحديث ابن عمر ، لمـا ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : اذهب بها تَلاَنَ إلى أصحابك فلا حجة فيه ؛ لأن المحدّث إنمـا يروى هذا على المعنى . والدليل على هـذا أن مجاهدا يروى عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيـه : اذهب فاجهد جهدك . ورواه آخر : اذهب بها الآن معك . وأما احتجاجه بأنه وجدها فى الإمام « تحِين » فلا حجة فيـه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفا لهـا فليس بإمام لهـا ، وفى المصاحف كلها « ولات » فلو لم يكن فى هذا إلا هـذا الاحتجاج لكان مقنعا . وجمع مناص مناوص .

قوله تعالى : وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ «أن» فى موضع نصب والمعنى من أن جاءهم . قيل : هو متصل بقوله « فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أى فى عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : « كَمْ أَهْلَكْنَا » معترض . وقيـل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أى ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم . ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ أى يجىء بالكلام المموّه الذى يخـدع به الناس ؛ وقيـل : يفرق بسحره بين الوالد و ولده والرجل و زوجتـه ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أى فى دعوى النبوّة .

قوله تعـالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا ﴾ مفعولان أى صيّر الآلهة إلهـا واحدا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أى عجيب . وقرأ السلمى «عُجَّابٌ» بالتشديد . والعُجَاب والعَجاب

Marfat.com

والعَجَب سواء . وقد فرّق الخليل بين عَجيب وعُجَاب فقال : العَجيب العَجَب ، والعُجَاب الذى قد تجاوز حدّ العَجَب، والطَويل الذى فيه طول، والطُّوَال الذى قد تجاوز حدّ الطُّول .
وقال الجوهرى : العَجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال مقاتل : «عُجَّابٌ» لغة أزد شنوءة . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند رأس أبى طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كى يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبى طالب ، فقال : يابن أخى ما تريد من قومك؟ فقال : "ياعمّ إنمـا أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّى إليهم بهـا الجزية العجم" فقال : وما هى ؟ قال : "لا إله إلا الله" قال : فقالوا « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » قال : فنزل فيهم القرآن « صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِي ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » حتى بلغ « إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ » خرّجه الترمـذى أيضا بمعناه . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقيل : لمـا أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنـه شقّ على قريش إسلامه فآجتمعوا إلى أبى طالب وقالوا : آقض بيننا وبين آبن أخيك . فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقـال : يابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السـواء[(١)] ، فلا تمل كل الميل على قومك . قال : "وماذا يسألونى" قالوا : آرفضنا وآرفض ذكر آلهتنا وندعك و إلهك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بهـا العجم" فقال أبو جهل : لله أبوك ! لنعطينكها وعشر أمثالهـا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قولوا لا إله إلا الله" فنفروا من ذلك وقاموا ، فقالوا : « أَجَعَـلَ ٱلْآلِهَـةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد . فأنزل الله فيهم هذا الآيات إلى قوله : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ » .

(١) فى نسخ الأصـل : يسألك ذا السواء . وفى أبى السعود : يسألونك السـواء والإنصاف . وفى البيضاوى كما فى الكشاف : يسألونك السؤال . وعلق عليه الشهاب بقوله : والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أى العدل كما وقع فى غيره من التفاسير اهـ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا﴾ « الملأ » الأشراف ، والانطلاق الذهاب بسرعة ؛ أى انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض« أَنِ ٱمْشُوا» أى امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا فى دينه ﴿وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾. وقيل: هو إشارة إلى مشيهم إلى أبى طالب فى مرضه كما سبق. وفى رواية محمد بن إسحق أنهم أبو جهل بن هشام ، وشيبة وعُتبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس، وأمية بن خلف، والعاص ابن وائل، وأبو معيط؛ جاءوا إلى أبى طالب فقالوا: أنت سيدنا وأنصفنا فى أنفسنا، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا . فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة " فقال أبو جهل وعشرا . قال : " تقولون لا إله إلا الله " فقاموا وقالوا : «أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا » الآيات . «أَنِ ٱمْشُوا» «أن» فى موضع نصب والمعنى بأن امشوا . وقيل : «أن» بمعنى أى ؛ أى « وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى امشوا ؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ . وقيل : المعنى وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : «ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ» أى على عبادة آلهتكم «إِنَّ هَٰذَا» أى هذا الذي جاء به محمد عليه السلام ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أى يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

Marfat.com

وغير تنزل بهم . وقيل : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » كلمة تحذير ؛ أى إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد ، فاحذروا أن تطيعوه . وقال مقاتل : إن عمر لما أسلم وقوى به الإسلام شقّ ذلك على قريش فقالوا : إن إسلام عمر فى قوة الإسلام لشىء يراد .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ قال ابن عباس والقرظى وقتادة ومقاتل والكلبى والسدى : يعنون ملّة عيسى النصرانية وهى آخر الملل . والنصارى يجعلون مع الله إلها . وقال مجاهد وقتادة أيضا : يعنون ملة قريش . وقال الحسن : ما سمعنا أن هذا يكون فى آخر الزمان . وقيل : أى ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسول حقّ . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أى كذب وتخرص ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : خلق واختلق أى ابتدع ، وخلق الله عز وجل الخلق من هذا ؛ أى ابتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ هو استفهام إنكار ، والذكر ها هنا القرآن . أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم ؛ فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أى من وحيى وهو القرآن . أى قد علموا أنك لم تزل صدوقا فيما بينهم ، وإنما شكّوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندى أم لا . ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أى إنما اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابى على الشرك لزال عنهم الشك ، ولما قالوا ذلك ؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ . و « لَمَّا » بمعنى لم وما زائدة كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ » و « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ قيل : أم لهم هذا فيمنعوا محمدا عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة . و « أم » قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبله ؛ كقوله تعالى : « الم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » . وقد قيل إن قوله : « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » متصل بقوله : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء ؛ لأن خزائن السموات والأرض له . ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

Marfat.com

أى فإن آدعوا ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أى فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحى على محمد . يقال : رَقِيَ يَرْقَى وآرتقى إذا صَعِد . ورَقَى يَرْقِي رَقْيا مثل رَمَى يَرْمِي رَمْيا من الرقيــة . قال الربيع بن أنس : الأسباب أرقّ من الشعر وأشــدّ من الحديد ولكن لا ترى . والسبب فى اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره . وقيل : الأسباب أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها ؛ قاله مجاهد وقتادة ؛ قال زهير :

* ولَوْ رَامَ أسبابَ السماءِ بسُــلَّمِ[1] *

وقيــل : الأســباب السموات نفسها ؛ أى فليصعدوا سمــاء سماء . وقال الســدى : « فى الْأَسْبَابِ » فى الفضل والدين . وقيل : أى فليعلوا فى أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة . وهو معنى قول أبى عبيدة . وقيل : الأسباب الحبال؛ يعنى إن وجدوا حبلا أو سببا يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز . ثم وعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر عليهم فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ ﴾ « ما » صلة وتقديره هم جند، فـ « جُنْدٌ » خبر ابتداء محذوف . ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ أى مقموع ذليل قد آنقطعت حجتهم؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا . ويقال : هُزِمت القــرية إذا آنكسرت ، وهزمتُ الجيش كسرته . والكلام مرتبط بمــا قبــل ؛ أى « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِــقَاقٍ » وهم جند من الأحزاب مهزومون ، فلا تغمك عزتهــم وشقاقهم، فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزهم . وهــذا تأنيس للنبى صلى الله عليه وسلم، وقد فُعِل بهم هذا فى يوم بَدْر . قال قتادة : وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلهــا يوم بَدْر . و « هُنَالِكَ » إشارة لبدر وهو موضع تحــزبهم لقتال محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزّبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى ذلك فى « الأحزاب »[2] . والأحزاب الجند ، كما يقال جند من قبائل شتّى . وقيــل : أراد بالأحزاب القرون المــاضية من الكفّار . أى هؤلاء جنــد على طريقة أولئك ؛ كقوله

(١) صدر البيت : * ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ وما بعدها طبعة أو ثانية .

Marfat.com

تعالى : « فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أى على دينى ومذهبى . وقال الفراء : المعنى هم جندٌ مغلوب ؛ أى ممنوع عن أن يصعد إلى السماء . وقال القتبى : يعنى أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم ، فهم لا يقدرون على أن يدعوا الشيء من آلهتهم ، ولا لأنفسهم شيئا من خزائن رحمة الله ، ولا من ملك السموات والأرض .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكرها تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له ، أى هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدّمين الذين تحزّبوا على أنبيائهم ، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا . وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث ، واختلف أهل العربية فى ذلك على قولين : أحدهما — أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث . الثانى — أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه ، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة ، فيغلب فى اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيها عليه ، كقوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » ولم يقل ذكرها ؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكرا ذكره ، وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث . ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد . وقد اختلف فى تأويل ذلك ؛ فقال ابن عباس : المعنى ذو البناء المحكم . وقال الضحاك : كان كثير البنيان والبنيان يسمى أوتادا . وعن ابن عباس أيضا وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعب له عليها . وعن الضحاك أيضا : ذو القوة والبطش . وقال الكلبى ومقاتل : كان يعذّب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقيا بين أربعة أوتاد فى الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت . وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ ؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت . وقيل : ذو الأوتاد أى ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا ؛

Marfat.com

لأنهم يقوّون أمره كما يقوّى الوتِد البيت . وقال ابن قتيبة : العرب تقول هم فى عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائما شديدا . وأصل هذا أن البيت من بيوت الشَّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد . قال الأسود بن يَعْفُر :

ولقد غَنَوْا فيها بأنعم عِيشةٍ * فى ظلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوتادِ

وواحد الأوتاد وَتِد بالكسر، وبالفتح لغة . وقال الأصمعى : يقال وَتد واتِد كما يقال شغل شاغل . وأنشد(١) :

لاقتْ على الماءِ جُذَيْلا وَاتِدَا * ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدَا

قال : شبه الرجل بالجذل . ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أى الغيضة . وقد مضى ذكرها فى « الشعراء »(٢) . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « لَيْكَةَ » بفتح اللام والتاء من غير همز . وهمز الباقون وكسروا التاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى هم الموصوفون بالقوّة والكثرة ؛ كقولك فلان هو الرجل . ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ بمعنى ما كلّ. ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أى فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب. وأثبت يعقوب الياء فى « عذابِى » و « عِقابِى » فى الحالين وحذفها الباقون فى الحالين . ونظير هذه الآية قوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ » فسمى هذه الأمم أحزابا .

قوله تعالى : وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ « يَنْظُرُ » بمعنى ينتظر ؛ ومنه قوله تعالى : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . « هَؤُلَاءِ » يعنى كفار مكة . « إِلَّا صَيْحَةً

---

(١) البيت لأبى محمد الفقعسى . والضمير فى لاقت ضمير الإبل .　　(٢) راجع ج ١٣ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وَاحِدَةً » أى نفخة القيامة . أى ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة . وقيل : ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التى هى النفخة فى الصور، كما قال تعالى : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » وهـذا إخبار عن قرب القيامة والموت . وقيل : أى ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهى النفخة . وقال عبد الله بن عمرو : لم تكن صيحة فى السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى من ترداد؛ عن ابن عباس . مجاهد : مالها رجوع . قتادة : مالها من مثنوية . السدّى : ما لها من إفاقة . وقرأ حمـزة والكسائى « مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء . الباقون بالفتح . الجوهرى : والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت ؛ لأنها تُحلَب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَـدِرَّ ثم تُحلَب . يقال : ما أقام عنده إلا فُوَاقا؛ وفى الحديث : "العيادة قدر فواق الناقة". وقوله تعالى : « مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ » يقرأ بالفتح والضم أى مالها من نظرة وراحة و إفاقة . والفِيقة بالكسر اسم اللبن الذى يجتمع بين الحَلْبتين : صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ قال الأعشى يصف بقرة :

حتى إذا فِيقَـةٌ فى ضَرعِها ٱجتمعتْ ✱ جاءتْ لِتُرْضِع شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعا

والجمع فِيَق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق . قال ٱبن همّام السَّلُولى :

وذَمُّوا لنا الدُّنيا وهُمْ يَرْضَعُونَها ✱ أَفَاوِيقَ حتى ما يَدِرُّ لها ثُعْلُ (١)

والأفاويق أيضا ما ٱجتمع فى السحاب من ماء ، فهو يمطر ساعة بعد ساعة . وأفاقت الناقة إفاقة أى ٱجتمعت الفِيقـة فى ضرعها ، فهى مُفِيـقٌ ومُفِيقَةٌ — عن أبى عمرو — والجمـع مفاويق . وقال الفرّاء وأبو عبيـدة وغيرهما : « مِنْ فَوَاقٍ » بفتح الفاء أى راحة لا يفيقون فيها ، كما يفيق المريض والمغشىّ عليه . و « مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء من ٱنتظار . وقد تقدّم أنهما بمعنى وهو ما بين الحَلْبتين .

---

(١) البيت فى ذم علماء الدنيا . والثعل زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة ؛ وهو لا يدر وإنما ذكره للمبالغة .

Marfat.com

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدة لاتقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى طائفة من أصحابه؛ الحديث. وفيه "يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول آنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدّها ويديمها ويطولها يقول الله عز وجل «مَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ» وذكر الحديث، خرجه على بن معبد وغيره كما ذكرناه فى كتاب التذكرة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لنتنعم به فى الدنيا. وقاله سعيد بن جبير. ومعروف فى اللغة أن يقال للنصيب قِطّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِطّ. قال الفراء: القِطّ فى كلام العرب الحظّ والنصيب. ومنه قيل للصك قِطّ. وقال أبو عبيدة والكسائى: القِطّ الكتاب بالجوائز والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا الملكُ النّعمانُ يومَ لَقِيتُهُ * بِغبطتِهِ يُعطِى القُطوطَ ويَأْفِقُ

يعنى كتب الجوائز. ويروى: بأُمَّتِهِ بدل بغبطته، أى بنعمته وحاله الجليلة، ويأفق يصلح. ويقال فى جمع قِط أيضا قِططة وفى القليل أُقُط وأقْطاط. ذكره النحاس. وقال السدى: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة مايوعدون به. وقال إسمعيل بن أبى خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا. وقيل: معناه عجل لنا ما يكفينا؛ من قولهم: قَطْنِى؛ أى يكفينى. وقيل: إنهم قالوا ذلك آستعجالا لكتبهم التى يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلى عليهم بذلك القرآن. وهو قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ». «وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ». وأصل القِطّ القَطّ وهو القطع، ومنه قَطّ القلم؛ فالقِط آسم للقطعة من الشيء كالقَسْم والقِسْم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره؛ إلا أنه فى الكتاب أكثر آستعمالا وأقوى حقيقة. قال أمية بن أبى الصَّلْت:

قومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما * يُجْبَى إليه وَالقِطُّ والقَلَمُ

Marfat.com

﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى قبل يوم القيامة فى الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد . وكل هذا استهزاء منهم .

قوله تعـالى : ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْـدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لمـا استهزءوا به . وهذه منسوخة بآية السيف .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْـدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ لمـا ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهـم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصـلاة والسلام بالصـبر على أذاهم، وسلّاه بكل ما تقدّم ذكره . ثم أخذ فى ذكر داود وقصص الأنبياء؛ ليتسلى بصبر من صـبر منهـم ؛ وليعلم أن له فى الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء . وقيـل : المعنى اصبر على قولهم، واذكر لهم أقاصيص الأنبياء؛ لتكون برهانا على صحة نبوّتك . « ذَا الْأَيْدِ » ذا القوّة فى العبادة . وكان يصوم يوما ويفطـر يوما ، وذلك أشـد الصوم وأفضله ؛ وكان يصلى نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدوّ، وكان قويا فى الدعاء إلى الله تعـالى . وقوله : « عَبْـدَنَا » إظهارا لشرفه بهـذه الإضافة . ويقال : الأَيْدُ والآدُ كما تقـول العيب والعاب . قال (١) :

* لم يكُ يَنْآدُ فأمسى انْآدا *

ومنه رجل أَيِّدٌ أى قوىّ . وتَأَيَّدَ الشىء تقوّى؛ قال الشاعر :

إذا القـــوسُ وَتَّرَها أَيِّدٌ * رَمَى فأَصَابَ الكُلَى والذُّرا

يقول : إذا الله وَتَّر القوسَ التى فى السحاب رَمَى كُلَى الإبل وأسمنَها بالشحم . يعنى من النبات الذى يكون من المطر . ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ قال الضحاك : أى توّاب . وعن غيره : أنه كلما ذكر

(١) هو العجاج . وانآد العود ينآد انئيادا فهو منآد إذا انثنى واعوجّ . وصدر البيت :

من أن تبدلت بآدى آدا

Marfat.com

ذنبه أو خطر على باله آستغفر منه ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة" . ويقال آب يؤوب إذا رجع ؛ كما قال[(١)] :

وكلُّ ذِى غَيْبَـةٍ يؤوبُ * وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ « يُسَبِّحْنَ » فى موضع نصب على الحال . ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه . قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال . وقال ابن عباس : « يُسَبِّحْنَ » يصلين . وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه . وقال محمد بن إسحق : أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن ، وما تصغى لحسنه [الطير[(٢)]] وتصوّت معه ، فهذا تسبيح الجبال والطير . وقيل : سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها ؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين . وقد مضى القول فى هذا فى « سبإ[(٣)] » وفى « سبحان[(٤)] » عند قوله تعالى « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال . والله أعلم . ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ الإشراق أيضا آبيضاض الشمس بعد طلوعها . يقال : شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها .

الثانية — روى عن آبن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية « بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » ولا أدرى ما هى ، حتى حدّثتنى أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ،

(١) هو عبيد بن الأبرص .	(٢) زيادة يقتضيها المعنى .	(٣) راجع ج ١٤ ص ٢٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .	(٤) راجع ج ١٠ ص ٢٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال : " يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق " . وقال عكرمة قال ابن عباس : كان فى نفسى شىء من صلاة الضحى حتى وجدتها فى القرآن « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » . قال عكرمة : وكان ابن عباس لا يصلى صلاة الضحى ثم صلاها بعد . وروى أن كعب الأحبار قال لابن عباس : إنى أجد فى كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هى صلاة الأوابين . فقال ابن عباس : وأنا أوجدك فى القرآن ؛ ذلك فى قصة داود « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » .

الثالثة — صلاة الضحى نافلة مستحبة ، وهى فى الغداة بإزاء العصر فى العشى ، لا ينبغى أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة ، ويرتفع كدرها ، وتشرق بنورها ؛ كما لا تصلى العصر إذا اصفرت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الأوابين حين تَرْمَض الفصالُ " الفِصال والفصلان جمع فَصيل ، وهو الذى يفطم من الرضاعة من الإبل . والرمضاء شدّة الحر فى الأرض . وخصّ الفصال هنا بالذكر ؛ لأنها هى التى تَرْمَض قبل انتهاء شدّة الحر التى تَرْمَض بها أمهاتها لقلة جَلَدها ، وذلك يكون فى الضحى أو بعده بقليل ، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها ؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى . ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك استعجالا ؛ لأجل شغله فيخسر عمله ؛ لأنه يصليها فى الوقت المنهى عنه ويأتى بعمل هو عليه لا له .

الرابعة — روى الترمذى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى الضحى ثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب فى الجنة " قال حديث غريب . وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يصبح على كل سُلامَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى" . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على شُفْعة الضحى غُفر له ذنوبُه وإن كانت مثل زَبَد البحر " . وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة

Marfat.com

قال : " أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر" لفظ البخارى . وقال مسلم : "وركعتى الضحى" وخرّجه من حديث أبى الدرداء كما خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة . وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة . والله أعلم . وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم آستعمل فى سائر عظام الجسد ومفاصله . وروى من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه خلق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله وآستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار" قال أبو توبة : وربما قال "يمسى" كذا خرجه مسلم . وقوله : "ويجزى من ذلك ركعتان" أى يكفى من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان . وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد، فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التى عليه فى الأصل . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال . قال الفراء : ولو قرئ « وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ» لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل. قال ابن عباس : كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال وآجتمعت إليه الطير فسبحت معه . فآجتماعها إليه حشرها. فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه . وقيل : أى وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور . ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ أى لداود ﴿ أَوَّاب ﴾ أى مطيع ؛ أى تأتيه وتسبح معه . وقيل : الهاء لله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أى قويناه حتى ثبت . قيل : بالهيبة وإلقاء الرعب منه فى القلوب . وقيل : بكثرة الجنود . وقيل : بالتأييد والنصر . وهذا آختيار ابن العربى.

Marfat.com

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان داود أشدّ ملوك الأرض سلطانا . كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضى عنكم نبيّ الله . والمُلْك عبارة عن كثرة الملك ، فقد يكون للرجل مِلك ولكن لا يكون ملِكا حتى يكثر ذلك ؛ فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف فى المنافع التى يفتقر إليها لضرورته الآدمية . وقد مضى هذا المعنى فى « براءة »(١) وحقيقة الملك فى « النمل » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أى النبوّة؛ قاله السدى . مجاهد : العدل . أبو العالية : العلم بكتاب الله تعالى . قتادة : السنة . شريح : العلم والفقه . ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمى وقتادة : يعنى الفصل فى القضاء . وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس : بيان الكلام . علىّ بن أبى طالب : هو البينة على المدّعى واليمين على من أنكر . وقاله شُرَيح والشَّعْبيّ وقتادة أيضا . وقال أبو موسى الأشعرى والشّعبي أيضا : هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها . وقيل : «فَصْلُ الْخِطَابِ» البيان الفاصل بين الحق والباطل . وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وقول علىّ رضى الله عنه يجمعه ؛ لأن مدار الحكم عليه فى القضاء ما عدا قول أبى موسى .

الثانيـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فأما علم القضاء فَلَعَمْرُ إلهك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام ؛ ففى الحديث " أقضاكم علىّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل " وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولا يقوم بفصل القضاء . يروى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زُبْيَةً للأسد،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٧١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فوقع فيها الأسد، وآزدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال؛ قال فأتيتهم فقلت: أتقتلون مائتى رجل من أجل أربعة أناس! تعالوا أقض بينكم بقضاء، فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء. فجعل للأول ربع الدية، وجعل للثانى ثلث الدية، وجعل للثالث نصف الدية، وجعل للرابع الدية، وجعل الدياتِ على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربع؛ فسخط بعضهم ورضى بعضهم، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة؛ فقال: "أنا أقضى بينكم" فقال قائل: إن عليا قد قضى بيننا. فأخبروه بما قضى علىّ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القضاء كما قضى علىّ" فى رواية: فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علىّ. وكذلك يروى فى المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال: إن آبن أبى ليلى — وكان قاضيا بالكوفة — جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يآبن الزانيين حدّين فى المسجد وهى قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه. قال آبن العربى: وهذا الذى قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء. فأما قضية علىّ فلا يدركها الشادى، ولا يلحقها بعد التمرن فى الأحكام إلا العاكف المتمادى. وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولون خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجاذبة، فله الديةُ بما قُتِل، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثانى فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالآثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة. وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحدا بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجارى فيه. وهذا من بديع الآستنباط. وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعانى المتعلقة فرآها ستة: الأول أن المجنون لا حدّ عليه؛ لأن الجنون يسقط التكليف. وهذا إذا كان القذف فى حالة الجنون، وأما إذا كان يجنّ مرة ويفيق أخرى فإنه يحدّ بالقذف فى حالة إفاقته. والثانى قولها يآبن الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ، فإنما خطاه أبو حنيفة على مذهبه فى أن حدّ

Marfat.com

القذف يتداخل ؛ لأنه عنده حق الله تعالى كحد الخمر والزنى ، وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحدّ بالقذف حقّ للآدمي ، فيتعدد بتعدد المقذوف . الثالث أنه جلد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامة حدّ القذف بإجماع من الأمة ، إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حقّ لله تعالى ، ومن يقول إنه حقّ الآدمي . وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقّ للآدمي ؛ إذ لو كان حقّا لله لما توقف على المطالبة كحدّ الزنى . الرابع أنه والى بين الحدّين ، ومن وجب عليه حدّان لم يُوالَ بينهما ، بل يحدّ لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، [أو يستبل المضروب](1) ثم يقام عليه الحدّ الآخر . الخامس أنه حدّها قائمة ، ولا تحدّ المرأة إلا جالسة مستورة ؛ قال بعض الناس : في زنبيل . السادس أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعا . وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف . قال القاضي : فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء ، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المروي " أقضاكم علي " . وأما من قال : إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم دون العرب ؛ وقد بين هذا بقوله : " وأوتيت جوامع الكلم " . وأما من قال : إنه قوله أما بعد ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته " أما بعد " . ويروى أن أول من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أول من آمن بالبعث ، وأول من توكأ على عصا ، وعمّر مائة وثمانين سنة . ولو صح أن داود عليه السلام قالها ، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم ، وإنما كان بلسانه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ

(1) الزيادة من ابن العربي .

Marfat.com

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

فيه أربع وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ « الْخَصْمُ » يقع على الواحد والاثنين والجماعة ؛ لأن أصله المصدر . قال الشاعر :

وخَصْمٌ غِضَابٌ يَنْفُضونَ لِحَاهُمُ * كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيَا

النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا مَلَكان . وقيل : « تَسَوَّرُوا » وإن كانا اثنين حملًا على الخصم ، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له ، مثل الركب والصحب . وتقديره للاثنين ذوا خصم وللجماعة ذوو خصم . ومعنى « تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أتوه من أعلى سوره . يقال : تسور الحائط تسلقه ، والسور حائط المدينة وهو بغير همز ، وكذلك السُّوَرُ جمع سورةٍ مثل بُسْرَةٍ وبُسْرٍ وهى كل منزلة من البناء . ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . وقد مضى فى مقدمة الكتاب بيان هذا(١) . وقول النابغة :

ألم تَرَ أنَّ الله أعطاكَ سُورَةً * تَرى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

يريد شرفا ومنزلة . فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام فى الإناء . ابن العربى : والسؤر الوليمة بالفارسى . وفى الحديث : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب "إن جابرا قد صنع لكم سؤرا فَحَيَّهَلًا بكم" والمحراب هنا الغرفة ؛ لأنهم تسوروا عليه فيها ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد . وقد مضى القول فيه فى غير موضع(٢) . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ ﴾ جاءت « إذ » مرتين ؛ لأنهما فعلان . وزعم

(١) راجع جـ ١ ص ٦٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٧١ و جـ ١١ ص ٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الفتراء : أن إحداهما بمعنى لمـا . وقول آخر أن تكون الثانيـة مع ما بعدها تبيينا لمـا قبلها . قيـل : إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقاش . وقيـل : مَلَكين ؛ قاله جماعة . وعينهما جماعة فقالوا : إنهما جبريل وميكائيل . وقيـل : مَلَكين فى صورة إنسيين بعثهما الله إليه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس الدخول، فتسوّروا المحراب عليـه ، فما شعر وهو فى الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين ؛ وهو قوله تعـالى : « وَهَـلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وسبب ذلك ماحكاه آبن عباس أن داود عليه السـلام حدّث نفسه إن آبتلى أن يعتصم . فقيل له : إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حِذرك . فأخذ الزّبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليـه ، فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير ، فجعل يَدْرُج بين يديه ، فهمّ أن يتناوله بيده ، فآستدرج حتى وقع فى كوّة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فطار ، فآطلع ليبصره فأشرف على آمرأة تغتسل ، فلما رأته غطت جسـدها بشعرها . قال السـدى : فوقعت فى قلبه . قال آبن عباس : وكان زوجها غازيا فى سبيل الله وهو أوريا بن حنان ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها فى حَمَلة التابوت ، وكان حَمَـلة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدّمه فيهم فقتل، فلما آنقضت عدّتها خطبها داود، وآشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتابا، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بنى إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشبّ ، وتسوّر المَلَكان وكان من شأنهما ماقص الله فى كتابه . ذكره المـاوردى وغيره . ولا يصح . قال آبن العربى : وهو أمثل ما روى فى ذلك[1] .

---

(١) ما أورده القرطبي هنا فى حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لهـا ، وهو هراء وآفتراء كما قال البيضاوى ، ومـا يقدح فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول : و يعلم قطعا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ، ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء ممـا يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فـا حكى الله تعالى فى كتابه يمر على ما أراده تعالى ، وما حكى القصاص ممـا فيه غض من منصب النبوة طرحناه ؛ ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل فى كل شـبهة * إذا آثر الأخبار جلاس قصاص

والرقاشى مطروح الرواية عند التحقيق . وسيأتى للؤلف أن ينقل عن النحاس فى صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أوردناه .

Marfat.com

قلت : ورواه مرفوعا بمعناه الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيد الرقاشيّ ، سمع أنس بن مالك يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثا وأوصى صاحب البَعْث فقال إذا حضر العدوّ قَرِّب فلانا وسماه قال فقرّبه بين يدى التابوت — قال — وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يُستنصَر به فمن قُدِّم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذى يقاتله فقُدِّم فقُتِـل زوجُ المرأة ونزل الملكان على داود فقصّا عليـه القصّة" . وقال سعيد عن قتادة : كتب إلى زوجها وذلك في حِصار عَمّـان مدينة بلقاء[1] أن يأخذوا بحلقة الباب ، وفيه الموت الأحمر، فتقدّم فقتل . وقال الثعلبي قال قوم من العلماء : إنمـا آمتحن الله داود بالخطيئة؛ لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم و إسحق و يعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو ما آمتحنهم، و يعطيه نحو ما أعطاهم . وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوم يقضى فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه ، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله . وكان يجـد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم و إسحق و يعقوب . فقال : يارب ! إن الخير كله قد ذهب به آبائى ؛ فأوحى الله تعالى إليـه : إنهم آبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصـبروا عليها ؛ آبتلى إبراهيم بنمروذ و بالنار و بذبح آبنـه ، وآبتلى إسحق بالذبح وآبتـلى يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام : فآبتلنى بمثل ما آبتليتهم، وأعطنى مثل ما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة . فلما كان ذلك اليوم دخل محـرابه، وأغلق بابه ، وجعل يصـلى و يقرأ الزبور . فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صـورة حمامة من ذهب ، فيهـا من كل لون حسن ، فوقفت بين رجليه، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لآبن له صغير ، فطارت غير بعيد ولم تؤيسـه من نفسها ، فامتـد إليها ليأخذها فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة، فذهب ليأخذها فطارت ونظر داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها ، فنظر آمرأة في بستان على شط بركة

(١) مدينة بلقاء يريد بها قصبة البلقاء .

Marfat.com

تغتسل ؛ قاله الكلبي . وقال السدى : تغتسل عريانة على سطح لها ؛ فرأى أجمل النساء خَلْقا ، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده إعجابا بها . وكان زوجها أوريا بن حنان ، فى غزوة مع أيوب بن صوريا ٱبن أخت داود ، فكتب داود إلى أيوب أن ٱبعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا ، وقدِّمه قبل التابوت ، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد . فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك . قال الكلبي : وكان أوريا سيف الله فى أرضه فى زمان داود ، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهى ذلك إلى العرش ، فتكبّر ملائكة العرش بتكبيره . قال : وكان سيوف الله ثلاثة (١) ؛ كالب بن يوفنا فى زمن موسى ، وأوريا فى زمن داود ، وحمزة بن عبد المطلب فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه : أن ٱبعثه فى بعث كذا وقدّمه قبل التابوت ؛ ففتح الله عليه ، فقتل فى الثالثة شهيدا . فتزوج داود تلك المرأة حين ٱنقضت عدّتها ، فهى أم سليمان بن داود . وقيل : سبب ٱمتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شىء . قال الحسن : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء ؛ جزءا لنسائه ، وجزءا للعبادة ، وجزءا لبنى إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم ، ويوما للقضاء ، فتذاكروا هل يمر على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك ، فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته ، وأمر ألا يدخل عليه أحد ، وأكب على قراءة الزبور ، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه . وذكر نحو ما تقدّم . قال علماؤنا : وفى هذا دليل وهى .

الثانية — على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم ، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولا بالعبادة . وقد مضى هذا المعنى فى « النساء (٢) » . وحكم كعب بذلك فى زمن عمر بمحضره رضى الله عنهما . وقد قال عليه السلام

(١) فى النسخة الخيرية : وكان سيوف الله هكذا ثلاثة . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

لعبد الله بن عمر : " إنّ لزوجك عليك حقا " الحديث . وقال الحسن أيضا ومجاهد : إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين آستخلف : والله لأعدلنّ بينكم، ولم يستثن فابتلي بهذا . وقال أبو بكر الوراق : كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال : هل فى الأرض أحد يعمل كعملي . [فأرسل][(1)] الله إليه جبريل؛ فقال إن الله تعالى يقول لك: عجبتَ بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب ، فإن أعجبتَ ثانية وكلتك إلى نفسك . قال : يا رب كلني إلى نفسي سنة . قال : إن ذلك لكثير . قال : فشهرا . قال : إن ذلك لكثير . قال: فيوما. قال: إن ذلك لكثير. قال : يا رب فكلني إلى نفسي ساعة . قال : فشأنك بها . فوكّل الأحراس، ولبس الصوف، ودخل المحراب ، ووضع الزّبور بين يديه ؛ فبينما هو فى عبادته إذ وقع الطائر بين يديه، فكان من أمر المرأة ما كان . وقال سفيان الثورى قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم . فأوحى الله إليه : يا داود منك ذلك أو مني ؟ وعزتى لأكلنك إلى نفسك . قال : يا رب آعف عنّي . قال : أكلك إلى نفسك سنة . قال : لا بعزّتك . قال : فشهرا . قال : لا بعزّتك . قال : فأسبوعا . قال : لا بعزّتك . قال : فيوما . قال : لا بعزّتك . قال : فساعة . قال : لا بعزّتك . قال : فلحظة . فقال له الشيطان : وما قدر لحظة . قال : كلني إلى نفسي لحظة . فوكله الله إلى نفسه لحظة . وقيل له : هي فى يوم كذا فى وقت كذا . فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة، ووكل الأحراس حول مكانه . قيل : أربعة آلاف . وقيل : ثلاثين ألفا أو ثلاثة وثلاثين ألفا . وخلا بعبادة ربه، ونشر الزّبور بين يديه، فجاءت الحمامة فوقعت له ، فكان من أمره فى لحظته مع المرأة ما كان . وأرسل الله عز وجل إليه الملكين بعد ولادة سليمان، وضربا له المثل بالنعاج، فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجدا أربعين ليلة على ما يأتى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم. وقيل : لدخولهم عليه بغير إذنه . وقيل : لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب .

(1) فى الأصول : « فأوحى » .

Marfat.com

قال ابن العربى : وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرا بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جمة مختلفة الأنواع . ولو قلنا : إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك «تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» إذلا يقال تسوّر المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازا؛ و إذا شاهدت الكوة التى يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا علْوِى . قال الثعلبى : وقد قيل كان المتسوّران أخوين من بنى إسرائيل لأب وأم . فلما قضى داود بينهما بقضية قال له ملك من الملائكة : فهلا قضيت بذلك على نفسك ياداود . قال الثعلبى : والأول أحسن أنهما كانا ملكين نبها داود على ما فعل .

قلت: وعلى هذا أكثر أهل التأويل. فإن قيل : كيف يجوز أن يقول الملكان «خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ» وذلك كذب والملائكة عن مثله منزّهون . فالجواب عنه أنه لا بد فى الكلام من تقدير ؛ فكأنهما قالا : قدّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق، وعلى ذلك يحمل قولهما : « إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » لأن ذلك و إن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم .

الرابعة — إن قيل : لِمَ فزع داود وهو نبىّ، وقد قويت نفسه بالنبوّة ، واطمأنت بالوحى، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟ قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والإذاية ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالا : « إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى » فقال الله عز وجل «لَا تَخَافَا» . وقالت الرسل للوط : « لَا تَخَفْ » . «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » وكذا قال الملكان هنا : « لَا تَخَفْ» . قال محمد بن إسحق : بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو فى محرابه — مثلا ضربه الله له ولأوريا — فرآهما واقفين على رأسه ؛ فقال : ما أدخلكما علىّ؟ قالا : «لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ» جئناك لتقضى بيننا،

Marfat.com

الخامسة — قال ابن العربي : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأول — أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن ، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام ، وقد كان ذلك في ابتداء شرعنا مهملا في هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان . الثاني — أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب ، لاحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له . الثالث — أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترن بذلك عذرلهما أم لا يكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة ، ومثل ضرب به الله في القصة، وأدب وقع على دعوى العصمة . الرابع — أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشيري ؛ وهو أنهما قالا : لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسوّر، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا . فقبل داود عذرهم ، وأصغى إلى قولهم .

السادسة — قوله تعالى : « خَصْمَانِ » إن قيل : كيف قال « خَصْمَانِ » وقبل هذا « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » فقيل : لأن الاثنين جمع ؛ قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين . وقال الكسائي : جمع لما كان خبرا، فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبّر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان . وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان . وقال غيره : القول محذوف ؛ أي يقول « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » قال الكسائي : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز . الماوردي : وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغيين، ولا يأتي منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض. وقيل : أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض . وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع . ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة

Marfat.com

مع كل واحد من الفريق الآخر ، لحضروا الخصومات ولكن ٱبتدأ منهم ٱثنان، فعرف داود بذكر النكاح القصة . وأغنى ذلك عن التعرض لخصومات الأخر . والبغى التعدّى والخروج عن الواجب . يقال بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش ، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعـة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أى لا تجُـرْ ؛ قاله السدّى . وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أى جُرت . وفى حديث تَميم الدارِىّ : (إنكَ لَشَاطِّى) أى جائر علىّ فى الحكم . وقال قتادة : لا تَمِل . الأخفش : لا تُسرِف . وقيـل : لا تفرط . والمعنى متقارب . والأصل فيـه البعد من شطتِ الدارُ أى بعدت ؛ شطّتِ الدارُ تَشِطّ وتَشُطّ شطًّا وشُطُوطا بعدت. وأَشطَّ فى القضية أى جار، وأَشطَّ فى السَّوْم وٱشتط أى أبعد، وأشطُّوا فى طلبى أى أمعنوا . قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر فى كل شىء . وفى الحديث : " لهـا مهر مثلها لا وَكْسَ ولا شَطَطَ " أى لا نقصان ولا زيادة . وفى التنزيل : « لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » أى جورًا من القول وبُعدًا عن الحقّ . ﴿ وَٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى أرشدنا إلى قصد السبيل .

الثامنـة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَةً ﴾ أى قال المَلَك الذى تكلم عن أُورِيا « إِنّ هَذَا أَخِى » أى على دينى ، وأشار إلى المدّعَى عليه . وقيل : أخى أى صاحبى . « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » وقرأ الحسن : « تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً » بفتح التاء فيهما وهى لغة شاذة، وهى الصحيحة من قراءة الحسن ؛ قاله النحاس . والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة ؛ لمـا هى عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب . وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة ؛ لأن الكل مركوب قال ٱبن عون :

أنا أبوهنّ ثلاثٌ هُنَّـهْ * رابعةٌ فى البيت صُغْرا هُنَّهْ
ونعجتى خمسا تُوَفِّيهِنَّـهْ * ألَا فتًى سمحٌ يغذِّيهنّـهْ
طَىُّ النَّقَا فى الجوع يَطْوِيهِنَّهْ * ويلُ الرغيف ويلَهُ مِنْهُنَّهْ

Marfat.com

وقال عنترة :

يا شاةَ مَا قَنَصٍ لِمَن حَلَّتْ لَهُ * حَرُمتْ علىَّ وليتَهـا لم تَحْرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتى فقلتُ لها آذْهَبِي * فتَجَسَّسِى أخبارَها لى وآعْلَمِ
قالتْ رأيْتُ من الأعادى غِرَّةً * والشّاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنّمَا التَفَتَتْ بجِيدِ جِدايةٍ * رَشَإٍ مِنَ الغِـزْلانِ حُرٍّ أَرْثَمِ

وقال آخـر (١) :

فرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ * فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَهَا

وهذا من أحسن التعريض، حيث كنى بالنعاج عن النساء . قال الحسين بن الفضل : هـذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمرا، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال نحن خصمان هذه حالنا . قال أبو جعفـر النحاس : وأحسن ما قيل فى هـذا أن المعنى؛ يقول خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسئلة؛ كما تقول: رجل يقول لآمرأته كذا، ما يجب عليه ؟

قلت : وقـد تأول المزنىّ صاحب الشافعى هـذه الآية ، وقوله صلى الله عليـه وسلم فى حديث آبن شهاب الذى خرجه « الموطأ » وغيره : " هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَةَ " على نحو هـذا ؛ قال المزنى : يحتمل هذا الحديث عنـدى — والله أعلم — أن يكون النبي صلى الله عليه وسـلم أجاب عن المسئلة فأعلمهم بالحكم أن هـذا يكون إذا آدعى صاحب فـراش وصاحب زنى ، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد ، ولا على زَمْعَة قول آبنه إنه ولد زنى (٢) ، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره . وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره . وقد ذكر الله سبحانه فى كتابه مثل ذلك فى قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة، ولكنهم كلموه على المسئلة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه . فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم

(١) هو الأعشى . (٢) قوله : « إنه ولد زنى » أولى بقول سعد بن أبى وقاص . راجع الحديث فى « الموطأ » ج ٦ ص ٤ طبعة السلطان عبد الحفيظ .

Marfat.com

حكم فى هذه القصة على المسئلة، وإن لم يكن أحد يؤنسنى على هذا التأويل فى الحديث؛ فإنه عندى صحيح . والله أعلم .

التاسعة — قال النحاس : وفى قراءة ابن مسعود «إِنَّ هَذَا أَخِى كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى » و « كان» هنا مثل قوله عز وجل : «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» فأما قوله «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال : هو رجل ذكر وهو تأكيد . وقيل : لما كان يقال هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شىء يسير، جاز أن يقال أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها . وفى التفسير : له تسع وتسعون امرأة . قال ابن العربى : إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه، وإن كن إماء فذلك شرعنا . والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد ، وإنما الحصر فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار . وقال القشيرى : ويجوز أن يقال لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل ، كما تقول : لو جئتنى مائة مرة لم أقض حاجتك ، أى مرارا كثيرة . قال ابن العربى : قال بعض المفسرين لم يكن لداود مائة امرأة ، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلا ؛ المعنى : هذا غنى عن الزوجة وأنا مفتقر إليها، وهذا فاسد من وجهين : أحدهما — أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له ، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما فى شرعنا . الثانى — أنه روى البخارى وغيره أن سليمان قال : "لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله ونسى أن يقول إن شاء الله" وهذا نص .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِى نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أى امرأة واحدة : ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أى انزل لى عنها حتى أكفلها . وقال ابن عباس : أعطنيها . وعنه : تحول لى عنها . وقاله ابن مسعود . وقال أبو العالية : ضمها إلىّ حتى أكفلها . وقال ابن كيسان : اجعلها كفلى ونصيبى . ﴿وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ﴾ أى غلبنى . قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح منى ، وإن حارب كان أبطش منى . يقال : عزه يعزه (بضم العين فى المستقبل) عزا غلبه . وفى المثل : مَن عَزَّ بَزَّ، أى من غلب سلب . والاسم العزة وهى القوة والغلبة . قال الشاعر:

قَطَاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ * تُجاذِبُه وقد عَلِقَ الجَنَاحُ

Marfat.com

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير « وَعَازَّنِي فِي الْخِطَابِ » أي غالبني؛ من المعازّة وهي المغالبة؛ عازّه أي غالبه . قال ابن العربي : واختلف في سبب الغلبة ؛ فقيل : معناه غلبني ببيانه . وقيل : غلبني بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه . كان ببلادنا أمير يقال له سير بن أبي بكر[1] فكلمته في أن يسأل لي رجلا حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها . فقلت : أما إذا كان عدلا فلا . فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي له واستغربه .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام ؛ لأنه قال : لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن . فهذا قول .

وسيأتي بيانه في المسئلة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى . قال أبو جعفر النحاس : فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس ، فإنهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك . قال أبو جعفر : فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبهه عليه ، وليس هذا بكبير من المعاصي ، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم . كذا قال في كتاب «إعراب القرآن» . وقال في كتاب «معاني القرآن» له بمثله . قال رضي الله عنه : قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها . وأصح ما روى في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال « أَكْفِلْنِيهَا » أي انزل لي عنها . وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال : ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ ، قال أبو جعفر : فهذا أجل ما روى في هذا، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته، كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يبيعه جاريته، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده . اهـ نفح الطيب .

Marfat.com

عز وجل على ذلك ، وعاتبه لما كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه. قال ابن العربي: وأما قولهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتال في سبيل الله فهذا باطل قطعا؛ فإن داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه ، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه : انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة ؛ كانت في الأهل أو في المال . وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما ؛ فقال له : بارك الله لك في أهلك . وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يروى هذا ويسند ؟ ! وعلى من في نقله يعتمد، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد . أما أن في سورة «الأحزاب» نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة، وذلك قوله : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق ، بل أمره بالتمسك بزوجته، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها . فكانت هذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية صلى الله عليه وسلم . ولكن قد قيل : إن معنى «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق . وقيل : أراد بقوله : «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصح الأقوال. وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة؛ وهذا نص القرآن . وروى أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية؛ وربك أعلم . وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» الآية ؛ ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر، أن داود عليه

Marfat.com

السـلام كان قد أقدم على خِطبة آمرأة قد خطبها غيره ، يقال هو أوريا ؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيـه ، وزاهدين في الخاطب الأول، ولم يكن بذلك داود عارفا ، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخِطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد ؛ وقد كان لداود عليه السـلام من النساء العـدد الكثير ، وذلك الخاطب لا آمرأة له ، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسوّر المَلَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض ؛ لكى يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هـذه الطريقة ، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعـد السماع من أحد الخصمين، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هـذا القول . قال آبن العربي : وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر . وإنمـا تقدير الكلام أن أحد الخصمين آدعى والآخر سـلم في الدعوى، فوقعت بعـد ذلك الفتوى . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى آعترف صاحبه بذلك . وقيل : تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك . والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه .

قلت : ذكر هذين الوجهين القشيري والمـاوردي وغيرهما . قال القشـيري : وقوله «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ» من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال : إنما قال هـذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعـد آعترافه . وقد روى هذا وإن لم تثبت روايته، فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكته بهـذا وصبره إلى أن يسأل خصمه . قال ويحتمل أن يقـال : كان من شرعهـم التعويل على قول المدّعى عند سكوت المدّعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول . وقال الحليمي أبو عبد الله في كتاب منهاج الدين له : ومـما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت ، أو كانت خافيـة فظهرت السجود لله عز وجل . قال والأصـل في ذلك قوله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

Marfat.com

الخصم » إلى قوله : « وَحُسْنَ مَآبٍ » . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام، أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى فى المتكلم مخائل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول ، ودعاه ذلك إلى ألا يسأل الخصم ؛ فقال له مستعجلا : « لَقَدْ ظَلَمَكَ » مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول : كانت لى مائة نعجة ولا شىء لهذا، فسرق منى هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له آرددها، وما قلت له أكفلنيها، وعلم أنى مرافعه إليك، فجرّنى قبل أن أجرّه، وجاءك متظلما من قبل أن أحضره، لتظنّ أنه هو المحق وأنى أنا الظالم . ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه فى ذلك الوقت ، وهو الفتنة التى ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فآستغفر ربه وخر راكعا لله تعالى شكرا على أن عصمه، بأن آقتصر على تظليم المشكو، ولم يزده على ذلك شيئا من آنتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصور فى القلب أنه ظالم، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه؛ فقال : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة ، التى توخاه بها بعد المغفرة ، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ فى الحكم ، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه . ثم جاء عن آبن عباس أنه قال سجدها داود شكرا، وسجدها النبي صلى الله عليه وسلم آتباعا ، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أى بسؤاله نعجتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال؛ وهو كقوله تعالى: « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ » أى من دعائه الخير .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ يقال : خليط وخلطاء ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة فى الواو . وفيه وجهان : أحدهما أنهما الأصحاب . الثانى أنهما الشركاء .

Marfat.com

قلت : إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد آختلف العلماء فى صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء : هو أن يأتى كل واحد بغنمه فيجمعها راع واحد والدلو والمراح. وقال طاوس وعطاء : لا يكون الخلطاء إلا الشركاء . وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يُجمَع بين مفترق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية " وروى " فإنهما يترادّان الفضل " ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء ؛ فأعلمه . وأحكام الخلطة مذكورة فى كتب الفقه . ومالك وأصحابه و جمع من العلماء لا يرون [الصدقة][(1)] على من ليس فى حصته ما تجب فيه الزكاة . وقال الربيع والليث و جمع من العلماء منهم الشافعى : إذا كان فى جميعها ما تجب فيـه الزكاة أخذت منهـم الزكاة . قال مالك : وإن أخذ المصَّدّق بهذا ترادّوا بينهم للآختلاف فى ذلك، وتكون كحكم حاكم آختلف فيه .

الرابعـة عشرة — قـوله تعـالى : ﴿ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أى يتعدى و يظـلم . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا . ﴿ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ ﴾ يعنى الصالحين أى وقليل هم ف « ما » زائدة . وقيـل : بمعنى الذى وتقديره وقليـل الذين هم . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقول فى دعائه : اللهم آجعلنى من عبادك القليل . فقال له عمر : ما هذا الدعاء؟ فقال أردت قول الله عز وجل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أى آبتليناه . «وظن» معناه أيقن . قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز فى المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين . والقراءة « فَتَنَّاهُ » بتشـديد النون دون التـاء . وقرأ عمر آبن الخطاب رضى الله عنـه « فَتَّنَّاهُ » بتشديد التاء والنون على المبالغة . وقـرأ قتادة وعبيد آبن عمير وآبن السَّمَيْقَع « فَتَنَاه » بتخفيفهما . ورواه علىّ بن نصر عن أبى عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام .

(1) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

السادسة عشرة — قيل : لما قضى داود بينهما فى المسجد ، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، فلم يفطن داود؛ فأحبا أن يعرفهما ، فصعدا إلى السماء حيال وجهه ، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى آبتلاه بذلك ، ونبهه على ما آبتلاه .

قلت : وليس فى القرآن ما يدل على القضاء فى المسجد إلا هذه الآية ، وبها آستدل من قال بجواز القضاء فى المسجد ، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعى لما أقرهم داود على ذلك . ويقول : آنصرفا إلى موضع القضاء . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء يقضون فى المسجد ، وقد قال مالك : القضاء فى المسجد من الأمر القديم . يعنى فى أكثر الأمور . ولا بأس أن يجلس فى رحبته ؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض ، ولا يقيم فيه الحدود ، ولا بأس بخفيف الأدب . وقد قال أشهب : يقضى فى منزله وأين أحب .

السابعة عشرة — قال مالك رحمه الله : وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأول من آستقضى معاوية . قال مالك : وينبغى للقضاة مشاورة العلماء . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يستقضى حتى يكون عالما بآثار من مضى ، مستشيرا لذوى الرأى ، حليما نزها . قال : ويكون ورعا . قال مالك : وينبغى أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالما بالشروط ، عارفا بما لا بد له منه من العربية ؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التى تتضمن حقوق المحكوم له . وينبغى له أن يقول قبل إنجاز الحكم للطلوب : أبقيتْ لك حجةٌ ؟ فإن قال لا حكم عليه ، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتى بما له وجه أو بينة . وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة فى غير هذا الموضع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ آختلف المفسرون فى الذنب الذى آستغفر منه على أقوال ستة ؛ الأول أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها . قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة . قال أبو إسحق : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، فصارت الأولى له والثانية عليه . الثانى أنه أغزى زوجها فى حملة التابوت . الثالث

Marfat.com

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها . الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة ، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة . الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا ، كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله . السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر . قال القاضي ابن العربي : أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل ؛ وأما من قال : إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال ؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب ! وحكى السدي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرما لجلدته ستين ومائة ؛ لأن حد [قاذف] الناس ثمانون وحد [قاذف] الأنبياء ستون ومائة . ذكره الماوردي والثعلبي أيضا . قال الثعلبي وقال الحرث الأعور عن علي : من حدث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقدا جلدته حدين ؛ لعظم ما ارتكب برمي من قد رفع الله محله ، وارتضاه من خلقه رحمة للعالمين ، وحجة للمجتهدين . قال ابن العربي : وهذا مما لم يصح عن علي . فإن قيل : فما حكمه عندكم ؟ قلنا : أما من قال إن نبيا زنى فإنه يقتل ، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملامسة ، فقد اختلف [نقل](١) الناس في ذلك ؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته ، فإنه يناقض التعزير المأمور به ، فأما قولهم : إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة ، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأئمة ؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها . وأما قولهم : إنه [نوى](١) إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرضه للموت ، وأما قولهم : إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يرده القرآن والآثار التفسيرية كلها .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

Marfat.com

وقد روى أشهب عن مالك قال : بلغنى أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود عليه السلام وهى من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت وآتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهى تغتسل ولهـا شعر طويل؛ فبلغنى أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينيه . قال آبن العربى وأما قول المفسرين : إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه وآتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله ، لاسيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما آتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لامنفعة له فيه، وإنمـا ذِكرهم لحسن الطائر خرقٌ فى الجهالة . أما أنه روى أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روى فى الصحيح : « إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عريانا فخر عليه رِجل من جراد [من ذهب] (١) فجعل يحثى منه ويجعل فى ثوبه». فقال الله تعالى له : «يا أيوب ألم أكن أغنيتك» قال : «بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك» وقال القشيرى : فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى آبن له صغير فطار ووقع على كوّة البيت ؛ وقاله الثعلبى أيضا وقد تقدّم .

التاسـعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ أى خر ساجدا ، وقد يعبر عن السجود بالركوع . قال الشاعر :

فخـــرَّ على وَجْهِــهِ راكِعًا * وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذَنْبِ

قال آبن العربى : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود؛ فإن السجود هو الميل ، والركوع هو الأنحناء ، وأحدهما يدخل على الآخر ، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته ، ثم جاء هـذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمى السجود ركوعا . وقال المهدوى : وكان ركوعهم سجودا . وقيـل : بل كان سجودهم ركوعا . وقال مقاتل . فـوقع من ركوعه سـاجدا لله عز وجل . أى لمـا أحس بالأمر قام إلى الصـلاة ، ثم وقـع من الركوع إلى السجود ؛ لاشتمالهما جميعا على الأنحناء . ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أى تاب من خطيئته ورجـع إلى الله .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

Marfat.com

وقال الحسين بن الفضـل : سألني عبـد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل : «وَخَرَّ رَاكِعًا» فهل يقال للراكع خرّ ؟ . قلت : لا . قال : فما معنى الآية؟ قلت : معناها فخرّ بعد أن كان راكعا أى سجد .

الموفية عشرين — وآختلف فى سجدة داود هل هى من عزائم السجود المأمور به فى القرآن أم لا ؟ فروى أبو سـعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليـه وسلم قرأ على المنبر « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلمـا كان يوم آخر قرأ بها فتشزّن[1] الناس للسجود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها توبة نبيّ ولكنى رأيتكم تَشَزَّنتم للسجود " ونزل وسجد . وهذا لفظ أبى داود . وفى البخارى وغيره عن آبن عباس أنه قال : «صٓ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسجد فيها . وقد روى من طريق عن آبن مسعود أنه قال : « صٓ » توبة نبيّ ولا يسجد فيها ؛ وعن آبن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به . قال آبن العربى : والذى عندى أنهـا ليست موضع سجود، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالآقتداء به . ومعنى السجود أن داود سجـد خاضعا لربه ، معترفا بذنبـه ، تائبا من خطيئته ، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذى آتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ؟ فإن هذا أمر مشروع فى كل أمة لكل أحد . والله أعلم .

الحادية والعشرون — قال آبن خُوَيْز منداد : قوله « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » فيـه دلالة على أن السجود للشكر مفردا لا يجوز ؛ لأنه ذكر معه الركوع ، وإنمـا الذى يجـوز أن يأتى بركعتين شكرا فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم والأئمة بعده ، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا ، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة .

---

(١) التشزن التأهب والتهيؤ للشيء .

Marfat.com

قلت : وفى سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يوم بُشر برأس أبى جهل ركعتين . وخرّج من حديث أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسرّه — أو يسرّ به — خر ساجدا شكرا لله. وهذا قول الشافعى وغيره.

الثانية والعشرون — روى الترمذى وغيره واللفظ للغير : أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » ولما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهى تقول: اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا، وارزقنى بها شكرا .

قلت : خرّج ابن ماجه فى سننه عن ابن عباس قال: كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل فقال : إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم ، كأنى أصلى إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدة [فسجدت][(1)] فسجدتْ الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول: اللهم احطط بها عنى وزرا، واكتب لى بها أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « السجدة » فسجد، فسمعته يقول فى سجوده مثل الذى أخبره الرجل عن قول الشجرة . ذكره الثعلبى عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قلت يا رسول الله رأيتنى فى النوم كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ « صٓ » فلما بلغت السجدة سجدتْ فيها ، فسمعتها تقول فى سجودها : اللهم اكتب لى بها أجرا، وحُطَّ عنى بها وزرا، وارزقنى بها شكرا، وتقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود سجدته . فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : " أفسجدت أنت يا أبا سعيد" فقلت : لا والله يا رسول الله . فقال : "لقد كنت أحقّ بالسجود من الشجرة" ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم «صٓ» حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ماقالت الشجرة.

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى فغفرنا له ذنبه . قال ابن الأنبارى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ » تام، ثم تبتدئ « وإنّ له » وقال القشيرى : ويجوز الوقف على «فَغَفَرْنَا لَهُ» ثم تبتدئ «ذَٰلِكَ وإنّ لَهُ» كقوله : «هَٰذَا وإنّ لِلطَّاغِينَ» أى الأمر ذلك.

(1) الزيادة من سنن ابن ماجه .

Marfat.com

وقال عطاء الخراسانى وغيره: إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، فنودى: أجائع فتطعم وأعار فتكسى؛ فنحب نحبة هاج المرعى من حرّ جوفه، فغفر له وسترها . فقال : يا رب هـذا ذنبى فيما بينى وبينك قد غفرته ، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بنى إسرائيل، تركت أولادهم أيتاما، ونساءهم أرامل ؟ قال : يا داود لا يجاوزنى يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة. قال : يارب هكذا تكون المغفرة الهينة . ثم قيل : يا داود ٱرفع رأسك . فذهب ليرفع رأسـه فإذا به قد نشِب فى الأرض، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن ٱبن جابر عن عطاء . قال الوليد : وأخبرنى مُنِير بن الزبير، قال : فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد قال ابن لَهِيعة: فكان يقول فى سجوده سبحانك هـذا شرابى دموعى ، وهذا طعامى فى رماد بين يدى . فى رواية : إنه سجـد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العشب من دموعه . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده : يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبـه حديثا فى الخلق من بعده فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهمّ الذى هَمَمْتَ به " وقال وهب : إن داود عليه السلام نودى إنى قد غفرت لك . فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال : لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك؟ قال : يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا . فقال الله لجبريل : ٱذهب إلى داود فقـل له يذهب إلى قـبر أوريا فيتحلل منه، فأنا أسمعه نداءه . فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ، ونادى يا أوريا فقال : لبيك ! من هـذا الذى قطع علىّ لذتى وأيقظنى؟ فقال : أنا أخوك داود أسألك أن تجعلنى فى حلّ فإنى عرّضتك للقتل؛ قال: عرّضتنى للجنة فأنت فى حلّ . وقال الحسن وغيره: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخطّاء، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه . وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قَصْعة فلا يزال

Marfat.com

يبكي حتى يبتل بدموعه، وكان يذر عليه الرماد والملح فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين . وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله ، وقال : يارب آجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته منقوشة في كفه ، فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شيء إلا رآها فأبكته ، وأن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء ، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه . وروى الوليد بن مسلم : حدثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل عيني داود مثل القربتين تَنْطُفان ولقد خدّد الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض " . قال الوليد : وحدثنا عثمان بن أبي العاتكة أنه كان في قول داود إذ هو خلوٌّ من الخطيئة شدة قوله في الخاطئين أن كان يقول : اللهم لا تغفر للخاطئين . ثم صار إلى أن يقول : اللهم رب آغفر للخاطئين لكي تغفر لداود معهم ؛ سبحان خالق النور . إلهي ! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني . إلهي ! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها ؛ سبحان خالق النور . إلهي ! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت الأرض برحبها عليّ ، و إذا ذكرت رحمتك آرتد إليّ روحي . وفي الخبر : إن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فآستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته ؛ فكان ينادي : إلهي ! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها ، و إذا ذكرت رحمتك آرتد إليّ روحي ؛ رب ! آغفر للخاطئين كي تغفر لداود معهم . وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها . وكان إذا كان يوم نَوْحه نادى مناديه في الطرق والأسواق والأودية والشّعاب وعلى رءوس الجبال وأفواه الغيران : ألا إن هذا يوم نَوْح داود ، فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعده ؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية ، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكَّفٌ ، و بنو إسرائيل حول منبره ؛ فإذا أخذ في العويل والنوح ، وأثارت الحرقات منابع دموعه ، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء ، حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم . ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت بغتة ؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه و ينزل ؛

Marfat.com

فقال : جئت لأقبض روحك . فقال : دعني حتى أنزل أو أرتقى . فقال : مالى إلى ذلك سبيل ؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثرا . قال : فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال . وكان بينه و بين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة . وقيل : تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى ﴾ قربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قالا : والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود . وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة . وعن مجاهد : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة فى يده ؛ فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى . قال : ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له ها هنا ؛ ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا ؛ [حتى يقترب فيسكن][(1)] فذلك قوله عز وجل : « وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » ذكره الترمذى الحكيم . قال : حدثنا الفضل بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن الأصبغ ، قال حدثنا الوليد بن مسلم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى عن عبد الملك بن أبى سليمان عن مجاهد فذكره . قال الترمذى : ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لى المراد والمعنى من قوله : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » والقط الصحيفة فى اللغة؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وقال لهم " إنكم ستجدون هذا كله فى صحائفكم تعطونها بشمائلكم " فقالوا : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » أى صحيفتنا «قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» قال الله تعالى : « اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ » فقص قصة خطيئته إلى منتهاها، فكنت أقول : أمره بالصبر على ماقالوا ، وأمره بذكر داود فأى شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف أتصل هذا بذاك ؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه ، حتى هدانى الله له

(1) هذه الزيادة يقتضيها المقام ويدل عليها ما ورد فى آخر القصة .

Marfat.com

يوما فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم ، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاء بأمر الله؛ وقالوا : «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مقالتهم، وأن يذكر عبده داود؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة فى كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ[1] سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم ، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا ، فكيف كان يحل بأعداء الله و بعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التى عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها فى تلك الصحائف ، وقد أخبر الله عنهم فقال : «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها . وقد روينا فى الحديث : إذا رآها يوم القيامة منقوشة فى كفه قلق حتى يقال له ها هنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال له هاهنا ، ثم يرى فيقلق حتى يقرب فيسكن .

قوله تعالى : يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أى ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. وقد مضى فى «البقرة»[2] القول فى الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله .

(١) لعل الأصل : حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ.

(٢) راجع جـ١ ص ٢٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

Marfat.com

الثانية — قوله تعالى : ﴿فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أى بالعدل ، وهو أمر على الوجوب وقد ٱرتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذى عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقيل له بعد هذا فٱحكم بين الناس بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أى لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى عن طريق الجنة . ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى يحيدون عنها و يتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى النار ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أى بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله : « نسوا » أى تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين . ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوّة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة — الأصل فى الأقضية قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ » وقوله : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ » وقوله تعالى : « لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ » وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ » الآية . وقد تقدّم الكلام فيه (١) .

الرابعة — قال ٱبن عباس فى قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » قال : إن ٱرتفع لك الخصمان فكان لك فى أحدهما هوًى ، فلا تشته فى نفسك الحق له لِيفلُج (٢) على صاحبه ، فإن فعلتَ محوتُ ٱسمك من نبوّتى ، ثم لا تكون خليفتى ولا أهل كرامتى . فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وألّا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة ، أو غيرهما . وقال ابن عباس : إنما ٱبتلى سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوى أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبى روّاد : بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل ، بلغ من ٱجتهاده أن طلب إلى ربه

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٧٥ وما بعدها و جـ ٦ ص ١٠٩ وما بعدها وص ٢١٢ طبعة أو ثانية .

(٢) يفلج على صاحبه : يظفر و يفوز .

Marfat.com

أن يجعل بينه و بينه علَمـا ، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك ؛ و إذا هو قصّر عرف ذلك ، فقيل له : ٱدخل منزلك ، ثم مدّ يدك فى جدارك ، ثم ٱنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فٱخطط عندها خطا ؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء ، فٱرجع إلى ذلك الخط فٱمدد يدك إليه ، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه ، و إن قصّرت عن الحق قصّر بك ، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحقّ ، و إذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا ، ولم يفِض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتى ذلك الخط ، فإذا بلغه حمـد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهـل أو مطعم أو مشرب . فلمـا كان ذات يوم وهـو فى مجلس القضاء ، أقبل إليه رجلان يريدانه ، فوقع فى نفسـه أنهما يريدان أن يختصما إليه ، وكان أحدهما له صديق وخدن ، فتحرّك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له ، فلمـا أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليـه ، فلمـا قام من مجلسـه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمدّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشـمّر إلى السقف ، و إذا هو لا يبلغـه فخرّ ساجدا وهو يقول : يا ربّ شيئا لم أتعمده ولم أردْه فبينـه لى . فقيـل له : أتحسبن أن الله تعـالى لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصـديقك لتقضى له به ، قد أردته وأحببتـه ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره . وعن ليث قال : تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما ، ثم عادا فأقامهما ، ثم عادا ففصل بينهما ، فقيل له فى ذلك فقال : تقدّما إلىّ فوجدت لأحدهما مالم أجد لصاحبه ، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك ، ثم عادا فوجدت بعض ذلك ، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما . وقال الشعبي : كان بين عمر وأُبىّ خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أوّل جورك ؛ أجلسنى و إياه مجلسا واحدا ؛ فجلسا بين يديه .

الخامسـة ــ هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ؛ لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّـه ويهلك عدوّه إلا ٱدعى علمه فيما حكم به . ونحو ذلك روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر ؛ قال : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود

Marfat.com

الله ، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيرى . وروى أن آمرأة جاءت إلى عمـر فقالت له : آحكم لى على فلان بكذا فإنك تعلم مالى عنده . فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا . وفى صحيح مسلم عن آبن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه آشترى فرسا فجحده البائع، فلم يحكم عليـه بعلمه وقال : " من يشهد لى " فقام خزيمة فشهد فحكم . خرّج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى فى « البقرة »[١] .

قوله تعـالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أى هزلا ولعبا . أى ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا . ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ثم وبخهم فقـال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والميم صـلة تقديره ؛ أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فكان فى هذا ردّ على المرجئة؛ لأنهم يقولون : يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه . و بعده أيضا : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أى أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله آبن عباس . وقيـل هو عام فى المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن ، وهو ردّ على منكرى البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصى إلى شيء واحد .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أى هذا كتاب ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ يا محمد ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ أى ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال . وفى هذا دليل على وجوب معرفة معانى القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهَذِّ(١)، إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه فى كتاب التذكار . وقال الحسن : تدبر آيات الله اتباعها . وقراءة العامة « لِيَدَّبَّرُوا » . وقرأ أبو جعفر وشيبة « لِتَدَبَّرُوا » بتاء وتخفيف الدال، وهى قراءة علىّ(٢) رضى الله عنه ، والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التائين تخفيفا ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول واحدها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبّ، كما جمع بُؤْس على أبؤس، ونُعْم على أنعم؛ قال أبو طالب :

* قلبى إليه مُشرِفُ الأَلُبِّ *

وربما أظهروا التضعيف فى ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت :

إليكم ذوى آلِ النبىّ تطلَّعتْ * نوازِعُ مِن قلبى ظِماءٌ وأَلْبُبُ

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان. و « أَوَّابٌ » معناه مطيع . ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ يعنى الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر، كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها ؛ يقال : قوم أجواد وخيل جِياد، جاد الرجلُ بماله يجود جُودا فهو جَواد، وقوم جُود مثال

(١) الهذ : سرعة القراءة .

(٢) وفى الألوسى أن عليا قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء آخر الحروف وكذا فى البحر لأبى حيان .

Marfat.com

قَذَالٍ وقُذُلٍ، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك ٱمرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر (١) :

صَناعٌ بإشفاها حَصانٌ بِشَكْرِها * جوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول : سِرنا عُقْبة جَوَادا، وعُقْبتين جَوَادين، وعُقَبا جِيادا . وجاد الفرس أى صار رائعا يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جِياد وأجياد وأجاويد . وقيل : إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجِيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [فى] الخيل من صفات فَرَاهتها . وفى الصافنات أيضا وجهان : أحدهما أن صفونها قيامها . قال القتبي والفراء : الصافن فى كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها . ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوّأ مقعده من النار" أى يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضا وأنشد قول النابغة :

لنا قُبّةٌ مضروبةٌ بِفِنائها * عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن

وهذا قول قتادة . الثانى أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزَالُ كأَنَّهُ * مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرَا (٢)

وقال عمرو بن كُلْثوم :

تركْنا الخَيْلَ عاكِفَةً عليْهِ * مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفونَا

وهذا قول مجاهد . قال الكلبي : غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس . وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة . وقال الحسن : بلغنى أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة . وقاله الضحاك . وأنها كانت خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة . ٱبن زيد : أخرج

---

(١) هو أبو شهاب الهذلى ورواه ٱبن السكيت : والعرض وافر، وروى : جواد بزاد الركب والعرق زاخر. وٱمرأة صناع أى ماهرة حاذقة عمل اليدين، والإشفى المخصف للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفى . والشكر الفرج . والعرق زاخر أراد به الجوع يعنى تجود بقوتها مع شدة الجوع . (٢) ورد فى اللسان فى مادة صفن أن قوله مما يقوم لم يرد من قيامه، وإنما أراد من الجنس الذى يقوم على الثلاث، وجعل « كسيرا » حالا من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور.

Marfat.com

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال علي رضي الله عنه: كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة. وقيل: كانت مائة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفا؛ فالله أعلم. فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل والعرب تسميها كذلك، وتعاقب بين الراء واللام؛ فتقول: انهملت العين وانهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت. قال الفراء: الخير في كلام العرب والخيل واحد. النحاس: في الحديث "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" فكأنها سميت خيرا لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: "أنت زيد الخير" وهو زيد بن مهلهل الشاعر. وقيل: إنما سميت خيرا لما فيها من المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له: اختر منها واحدا فاختار الفرس؛ فقيل له: اخترت عزك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسمي خيلا؛ لأنها موسومة بالعز. وسمي فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطا وتناولا. وسمي عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسمعيل عربي فصارت له نحلة من الله؛ فسمي عربيا. و«حُبَّ» مفعول في قول الفراء. المعنى إني آثرت حب الخير. وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول؛ أي أحببت الخير حبا فألهاني عن ذكر ربي. وقيل: إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدت وتأخرت من قولهم: أَحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر. وأحب فلان أي طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال بعير مُحِبٌّ وقد أحبّ إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضا للبعير الحسير مُحِبٌّ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي. و«حُبَّ» على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْداني في كتاب التبيان: أحببت بمعنى لزمت من قوله[(١)]:

* مِثْلَ بَعِيرِ السَّوْءِ إِذْ أَحَبّا *

---

(١) هو أبو محمد الفقعسي؛ وصدر البيت: * حلت عليه بالقفيل ضربا *
والقفيل السوط. وفي كتب اللغة: ضرب بعير السوء ... الخ.

Marfat.com

﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعنى الشمس كناية عن غير مذكور ؛ مثل قوله تعالى : « مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » أى على ظهر الأرض ؛ وتقول العرب : هاجت باردة أى هاجت الريح باردة . وقال الله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » أى بلغت النفس الحلقوم . وقال تعالى : « إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ » ولم يتقدم للنار ذكر . وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله : « بِالْعَشِيِّ » . والعشي ما بعد الزوال، والتوارى الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ؛ قاله قتادة وكعب . وقيل : هو جبل قاف . وقيل : جبل دون قاف . والحجاب الليل سمي حجابا ؛ لأنه يستر ما فيه. وقيل : « حَتَّىٰ تَوَارَتْ » أى الخيل فى المسابقة . وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه فى المسابقة ؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر . وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان فى صلاة، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده، لأنه كان يصلى حتى توارت الخيل، وسترتها جُدُر الأصطبلات، فلما فرغ من صلاته قال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا » أى فأقبل يمسحها مسحا . وفى معناه قولان : أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لها، وليُرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله. وقال قائل هذا القول : كيف يقتلها ؟ وفى ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له . وقيل : المسح ها هنا هو القطع أذن له فى قتلها . قال الحسن والكلبي ومقاتل : صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهى تعرض عليه، وكانت ألف فرس ، فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ، ولم يُعلَم بذلك هيبة له فاغتم ؛ فقال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » فردّت فعقرها بالسيف ؛ قربة لله وبقى منها مائة ، فما فى أيدى الناس من الخيل العتاق اليوم فهى من نسل تلك الخيل . قال القشيرى : وقيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا ، فلم يذكّره أحد ما نسى من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحا ، فتذكر سليمان تلك

Marfat.com

الصلاة الفائتة ، وقال على سبيل التلهف : « إِنِّى أَحْبَبْتَ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى عن الصلاة ، وأمر برد الأفراس إليه ، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها ، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس ؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة ، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة . ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار، ثم ذبحها فى الحال ليتصدق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحا فى شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله ، فأثنى الله عليه بهذا ، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح ، فكان يقطع عليها من المسافة فى يوم ما يقطع مثله على الخيل فى شهرين غُدوّا ورَوَاحا. وقد قيل : إن الهاء فى قوله : « رُدُّوهَا عَلَىَّ » للشمس لا للخيل . قال ابن عباس : سألت عليا عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها ؟ فقلت سمعت كعبا يقول : إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة، قال : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى آثرت « حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى» الآية «رُدُّوهَا عَلَىَّ» يعنى الأفراس وكانت أربع عشرة ؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما ؛ لأنه ظلم الخيل . فقال على بن أبى طالب : كذب كعب ؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت ؛ أى غربت الشمس بالحجاب ؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : «رُدُّوهَا» يعنى الشمس فردوها حتى صلى العصر فى وقتها ، وأن أنبياء الله لا يظلمون؛ لأنهم معصومون .

قلت : الأكثر فى التفسير أن التى توارت بالحجاب هى الشمس ، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها؛ حسب ما تقدم بيانه . وكثيرا ما يضمرون الشمس؛ قال لبيد :

حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا فى كافِرٍ * وأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغورِ ظَلامُها

والهاء فى « رُدُّوهَا » للخيل، ومسحها قال الزهرى وابن كيسان : كان يمسح سوقها وأعناقها، ويكشف الغبار عنها حُبّا لها . وقاله الحسن وقتادة وابن عباس . وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم رؤى وهو يمسح فرسه بردائه . وقال : " إنى عوتبت الليلة فى الخيل "

Marfat.com

خرّجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلا . وهو فى غير الموطإ مسند متصل عن مالك عن يحيى ابن سعيد عن أنس . وقد مضى فى « الأنفال »(١) قوله عليه السلام : "وآمسحوا بنواصيها وأكفالها" وروى آبن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف .

قلت : وقد آستدل الشبلى وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا . وهو آستدلال فاسد ؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبيّ معصوم أنه فعل الفساد . والمفسرون آختلفوا فى معنى الآية ؛ فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها وقال أنت فى سبيل الله ؛ فهذا إصلاح . ومنهم من قال : عرقبها ثم ذبحها ، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز . وقد مضى فى «النحل»(٢) بيانه . وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح . فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز . ومن الجائز أن يكون فى شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون فى شرعنا . وقد قيل : إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك . وقد قيل : إن مسحه إياها وَسْمُها بالكىّ وجعلها فى سبيل الله ؛ فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال . وقد يقال : الكى على الساق علاطٌ ، وعلى العنق وِثاق . والذى فى الصحاح للجوهرى : عَلَط البعيرَ عَلْطا كواه فى عنقه بسمة العِلاط . والعِلَاطان جانبا العنق .

قلت : ومن قال إن الهاء فى « رُدُّوهَا » ترجع للشمس فذلك من معجزاته . وقد آتفق مثل ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم . خرج الطحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ ؛ فلم يصل العصر حتى غربت الشمس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصليت يا علىّ" قال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فآردد عليه الشمس" قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها بعد ما غربت طلعت على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْباء فى خيبر . قال الطحاوى : وهذان الحديثان ثابتان . ورواتهما ثقات .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قلت : وضعف أبو الفرج ابن الجوزى هذا الحديث فقال : وغلو الرافضة فى حب على عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله ؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليا عليه السلام العصر فردّت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قـد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت . ومن قال : إن الهـاء ترجع إلى الخيل، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان فى السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع . وقد مضى القول فيه فى « يوسف »(١) .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعـد الفتنة عشرين سنة ؛ ذكره الزمخشرى . و « فَتَنَّا » أى آبتلينا وعاقبنا . وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن آبن عباس قال : آختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة آمرأة سليمان ؛ وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذى أصابه عقوبة لذلك الهوى . وقال سعيد بن المسيّب : إن سليمان عليه السلام آحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد، ولا ينصف مظلوما من ظالم، فأوحى الله تعالى إليه : إنى لم أستخلفك لتحتجب عن عبادى، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم.

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن منبه : إن سليمان عليه السلام سبي بنت ملك غزاه في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لهـا صيدون ، فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه ، لا تنظر إليه إلا شزرا، ولا تكلمه إلا نزرا ، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها، وكانت في غاية من الجمال ، ثم أنها سألته أن يصنع لهـا تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر إليه ، فأمر فصنع لهـا فعظمته وسجدت له ، وسجدت معها جواريها، وصار صنما معبودا في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليـلة، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سـليمان فكسره ، وحرقه ثم ذرّاه في البحر. وقيل : إن سليمان لما أصاب آبنة ملك صيدون وآسمها جرادة — فيما ذكر الزمخشري — أعجب بهـا، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت : آقتلني ولا أسـلم، فتزوّجها وهي مشركة، فكانت تعبد صنما لها من ياقوت أربعين يوما في خفية من سليمان؛ إلى أن أسلمت فعوقب سـليمان بزوال ملكه أربعين يوما . وقال كعب الأحبار : إنه لمـا ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه . وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره . وقيل : إنه أُمِر ألا يتزوّج آمرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوّج آمرأة من غيرهم فعوقب على ذلك ؛ والله أعـــلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ قيـل : شيطان في قول أكثر المفسرين؛ ألقى الله شـبه سليمان عليه السلام عليـه، وآسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذي دل سليمان على المـاس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لمـا صنعت بالحديد، فأخذوا المـاس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوّت . قال آبن عباس : كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سـليمان بن داود ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من آمرأة من نساء سليمان أمّ ولد له يقال لها الأمينة؛ قاله شهر ووهب . وقال آبن عباس وآبن جبير : آسمها جرادة. فقام أربعين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى ردّ الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيِّب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته.

Marfat.com

وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان ٱسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطني خاتمك حتى أخبرك . فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسيّ سليمان، متشبها بصورته، داخلا على نسائه، يقضي بغير الحق، ويأمر بغير الصواب . وٱختلف في إصابته لنساء سليمان، فحكى عن ٱبن عباس ووهب بن منبّه أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ(1) . وقال مجاهد : منع من إتيانهنّ . وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيّف الناس، ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه، قال قتادة : ثم إن سليمان بعد أن ٱستنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد . قيل : إنه ٱستطعمها . وقال ٱبن عباس : أخذها أجرة في حمل حوت . وقيل : إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه، وهي عدد الأيام التي عُبِد [فيها] الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يعبث بخاتمه، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه. وقال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله" . وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى . قال ٱبن عباس وغيره : ثم إن

(1) هذه الأقوال لا تصح قطعا لمنافاتها للعصمة التي هي من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولو صح شيء منها لكان الوحي محل الشك والارتياب؛ وقد قال أبو حيان في تفسيره : نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. إلى أن قال : لم يكن ليذكر من يتأسى به من نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي، حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي . ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها .

وقال الألوسي : ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهنّ وهنّ حيض . الله أكبر ! ! هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم . وسيأتي للمؤلف تضعيف هذا القول أيضا .

Marfat.com

سليمان لما ردّ الله عليه ملكه، أخذ صخرا الذى أخذ خاتمه، ونقر له صخرة وأدخله فيها، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها فى البحر؛ وقال : هذا محبسك إلى يوم القيامة . وقال علىّ رضى الله عنه : لما أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطان الذى خاف فى أهله، فأتى جزيرة فى البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لا نقدر عليه، ولكنه يرد عينا فى الجزيرة فى كل سبعة أيام يوما، ولا نقدر عليه حتى يسكر ! قال : فنزح سليمان ماءها وجعل فيها خمرا، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر، فقال : والله إنك لشراب طيّب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا . ثم عطش عطشا شديدا ثم أتاها فقال مثل مقالته، ثم شربها فغلبت على عقله؛ فأروه الخاتم فقال : سمعا وطاعة . فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا : إن الدخان الذى ترون من نفسه، والماء الذى يخرج من الجبل من بوله . وقال مجاهد : آسم ذلك الشيطان آصف . وقال السدى آسمه حبقيق؛ فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم فى حقّ، وهم مع الشيطان فى باطل . وقيل : إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما ولد آجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض : إن عاش له آبن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله . فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا آبنه فى السحاب خوفا من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا . قال معناه الشعبي . فهو الجسد الذى قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا » .

وحكى النقاش وغيره : إن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلبا للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه، جاءت به القابلة فألقته هناك . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال سليمان لأطوفنّ الليلة على

Marfat.com

تسعين أمرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا أمرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيم الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون" وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان ، وذلك أن سليمان لما فُتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه ، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة، فقال له آصف: إنك مفتون ولذلك لا يتماسك فى يدك ، ففرّ إلى الله تعالى تائبا من ذلك، وأنا أقوم مقامك فى عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوما . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت ، وكان عنده علم من الكتاب. وقام آصف فى ملك سليمان وعياله ، يسير بسيره و يعمل بعمله ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ، وردّ الله عليه ملكه، فأقام آصف فى مجلسه ، وجلس على كرسيّه وأخذ الخاتم. وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه ، وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا . وقد يوصف به المريض المضنى فيقال : كالجسد الملقى .

صفة كرسى سليمان وملكه

روى عن آبن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة كرسى، ثم يجىء أشراف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتى أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس، ثم يدعو الطير فتظلّهم، ثم يدعو الريح فتقلّهم، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر . وقال وهب وكعب وغيرهما : إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه ، أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء ، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور آرتدع وتهيب ، فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصّصة بالدر والياقوت والزبرجد ، وأن يحفّ بنخيل الذهب ، فحفّ بأربع نخلات من ذهب ، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منهما طاوسان من ذهب ، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبى الكرسى أسدين من ذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر .

Marfat.com

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر ، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر ، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي . وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي كله بما فيه دوران الرحى المسرعة ، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ، ويضربان الأرض بأذنابهما . وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه ، ثم يستدير الكرسي بما فيه ، ويدور معه النسران والطاوسان والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر ، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء . قالوا : ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر، وهي ألف كرسي عن يمينه ، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسي، ثم تحف بهم الطير تظلهم، ويتقدم الناس لفصل القضاء . فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسي بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما ، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق . وقيل : إن الذي كان يدور بذلك الكرسي تنين من ذهب ذلك الكرسي عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجني؛ فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسي إلى أعلاه درن معه ، فإذا وقفن وقفن كلهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما في أجوافهن من المسك والعنبر . فلما توفي سليمان بعث بختنصر فأخذ الكرسي فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها ، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا . ومات بختنصر وحمل الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره ولعله رفع .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى رجع إلى الله وتاب . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ أى اغفر لى ذنبى ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى ﴾ يقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله تعالى ، وبغضه لها ، وحقارتها لديه؟ . فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه ، وتحقيق الوعود فى أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال : « إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ » وحوشى سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطى سليمان المملكة . وقد قيل : إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التى علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده ، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال : « لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى » وهذا فيه نظر . والأول أصح . ثم قال له : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال الحسن : ما من أحد إلا ولله عليه تبعة فى نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال : « هذا عَطَاؤُنَا » الآية .

قلت : وهذا يردّ ما روى فى الخبر : إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه فى الدنيا . وفى بعض الأخبار : يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا ، ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له ؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه ، لأنه من طريق المنة ، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة ، وهو سبحانه يقول : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » . وفى الصحيح : " لكل نبىّ دعوة مستجابة فتعجّل كل نبىّ دعوته " الحديث . وقد تقدّم بجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية ، فلذلك لم تكن عليه تبعة . ومعنى قوله : « لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى » أى أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة . وقيل : إن سؤاله ملكا لا ينبغى

Marfat.com

لأحد من بعده؛ ليكون محله وكرامته من الله ظاهرا فى خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس فى المحل عنده ، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محله عنده، ولهذا لما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان « رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فرده خاسئا . فلو أعطى أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية ، فكأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يزاحمه فى تلك الخصوصية ، بعد أن علم أنه شيء هو الذى خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ أى لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضرّ بأحد ، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه . وكان موكبه فيما روى فرسخا فى فرسخ ، مائة درجة بعضها فوق بعض ، فى كل درجة صنف من الناس ، وهو فى أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه ؛ صلوات الله وسلامه عليه . وذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدّثنا أحمد ابن جعفر، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن إدريس بن وهب بن منبّه ، قال حدّثنى أبى قال : كان لسليمان ابن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد ، فركب الريح يوما فمر بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ! فحملت الريح كلامه فألقته فى أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال : إنى سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ؛ لتسبيحةٌ واحدة يقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود . فقال الحرّاث : أذهب الله هَمَّك كما أذهبتَ همّى .

قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى أراد ؛ قاله مجاهد . والعرب تقول : أصاب الصوابَ وأخطأ الجوابَ . أى أراد الصواب وأخطأ الجواب ؛ قاله ابن الأعرابى . وقال الشاعر :

أصابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ * فأخطا الجوابَ لدَى المفصَلِ

Marfat.com

وقيل : أصاب أراد بلغة حِمْير . وقال قتادة : هو بلسان هَجَر . وقيل : « حَيْثُ أَصَابَ » حيثما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. ﴿ وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أى وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله . « كُلَّ بَنَّاءٍ » بدل من الشياطين أى كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء . قال[1] :

إِلَّا سُلَيْمَانَ إذ قال الإلهُ له * قُمْ في البَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عن الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنِّى قد أَذِنْتُ لهم * يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعُمُدِ

« وَغَوَّاصٍ » يعنى فى البحر يستخرجون له الدرّ . فسليمان أول من آستخرج له اللؤلؤ من البحر . ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أى وسخرنا له مَرَدة الشياطين حتى قرنهم فى سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة . السدى : فى الأغلال . آبن عباس : فى وثاق . ومنه قول الشاعر[2] :

فَآبُوا بالنِّهَابِ و بالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا

قال يحيى بن سلّام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا ﴾ الإشارة بهذا إلى الملك؛ أى هذا الملك عطاؤنا، فأعطِ من شئت أو آمنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما . قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال قتادة : الإشارة فى قوله تعالى : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا » إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت له ثلثمائة آمرأة وسبعمائة سرية، وكان فى ظهره ماء مائة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[3] . ومعناه فى البخارى . وعلى هذا « فَٱمْنُنْ » من المنِيّ؛ يقال : أَمْنَى يُمْنِي ومَنَى يَمْنِي لغتان ، فإذا أمرت من أمنى قلت أَمْنِ، ويقال : من مَنَى يَمْنِي فى الأمر آمنِ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت آمنن . ومن

(١) هو النابغة الذبيانى : ويروى إذ قال المليك له . ويروى فآزجرها عن الفند . أى الخطإ . وخيس أى ذلل . والصفاح جمع صفاحة بشدّ الفاء . وهى حجارة رقاق عراض .
(٢) هو عمرو بن كلثوم والبيت من معلقته .
(٣) قال أبو حيان فى تفسيره : ولعله لا يصح عن آبن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء، ولا ما أوتى من القدرة على ذلك .

Marfat.com

ذهب به إلى المنّة قال : مَنَّ عليه، فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين ؛ لأنه كان مضاعفا فقال آمْنُنْ . فيروى فى الخبر أنه سخر له الشياطين فمن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدى . وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس : أى جامع من شئت من نسائك واترك جماع من شئت منهن لاحساب عليك . ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى إن أنعمنا عليه فى الدنيا فله عندنا فى الآخرة قربة وحسن مرجع .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فى الصبر على المكاره . « أيوب » بدل . ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «إِنى» بكسر الهمزة أى قال. قال الفراء: وأجمعت القراء على أن قرءوا «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف . النحاس : وهذا غلط و بعده مناقضة وغلط أيضا؛ لأنه قال أجمعت القراء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ «بِنَصَبٍ» بفتح النون والصاد فغلط على أبى جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر «بِنُصُبٍ» بضم النون والصاد؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروى عن الحسن . فأما « بِنَصَبٍ » فقراءة عاصم الجحدرى و يعقوب الحضرمى . وقد رويت هذه القراءة عن الحسن . وقد حكى «بِنَصْبٍ» بفتح النون وسكون الصاد عن أبى جعفر . وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَبِ ؛ فنُصْب ونَصَب كحُزْن وحَزَن . وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَبٍ كوُثْن ووَثَنٍ . ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة، فأما « وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » فقيل : إنه جمع نصاب . وقال أبو عبيدة وغيره : النُّصْبُ الشر والبلاء والنَّصَب التعب والإعياء . وقد قيل فى معنى «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» أى ما يلحقه من وسوسته لا غير . والله أعلم . ذكره

Marfat.com

النحاس . وقيل : إن النصب ما أصابه فى بدنه، والعذاب ما أصابه فى ماله؛ وفيه بعد .
وقال المفسرون : إن أيوب كان روميا من البَثَنِيَّة[1] وكنيته أبو عبد الله فى قول الواقدى ؛ آصطفاه الله بالنبوة، وآتاه جملة عظيمة من الثروة فى أنواع الأموال والأولاد . وكان شاكرا لأنعم الله، مواسيا لعباد الله، برا رحيما . ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر . وكان لإبليس موقف من السماء السابعة فى يوم من العام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدى أيوب على شىء؟ ! فقال : يارب! وكيف أقدر منه على شىء، وقد آبتليته بالمال والعافية ، فلو آبتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك . قال الله: قد سلطتك على أهله وماله . فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم : أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجاء أيوبَ فى صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه . ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب . قال : يا رب سلطنى على بدنه . قال : قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره ، فنفخ فى جسده نفخة آشتعل [منها][2] فصار فى جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه . وقال عند ذلك « مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ » . ولم يخلص إلى شىء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب ، فمكث كذلك ثلاث سنين . فلما غلبه أيوب آعترض لامرأته فى هيئة أعظم من هيئة بنى آدم فى القدر والجمال، وقال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت ، ولو سجدت لى سجدة واحدة لرددتُ عليه أهله وماله وهم عندى . وعرض لها فى بطن الوادى ذلك كله فى صورته؛ أى أظهره لها ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاما طويلا فى [سبب[3] بلائه و] مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذى

---

(١) صحح المحققون أنه من بنى إسرائيل كما جزم به الألوسى وغيره . والبثنية بالتحريك وكسر النون و ياء مشددة قرية بدمشق بينها و بين أذرعات . (٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبي . (٣) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك وآعترضوا عليه ؛ وقيل : آستعان به مظلوم فلم ينصره فآبتلى بسبب ذلك . وقيل : آستضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فآبتلى بذلك . وقيل : كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم في ولايته ، فداهنه لأجلها بترك غزوه فآبتلى . وقيل : كان الناس يتعـدون آمرأته و يقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها ؛ فلهذا قال : « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . وآمرأته ليا بنت يعقوب . وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه آبنة لوط . وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . ذكر القولين الطبرى رحمه الله . قال آبن العربي : ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض ، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟ ! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم . وأما قولهم : إن الله تعالى قال له هل قدرتَ من عبدى أيوب على شيء فباطل قطعا ؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون ؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟ ! وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة ، ولكنه بعيد في هذه القصة . وكذلك قولهم : إنه نفخ في جسده حين سلَّطه عليه فهو أبعد ، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقرّ له — لعنةُ اللهِ عليه — عينٌ بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم . وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكر الله وسجدتِ أنتِ لى لعافيته، فآعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم و به ألمٌ وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلهـا في الأرض ، وأنه يُسجَد له ، وأنه يعـافِي من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبيّ ؟ ! ولو كانت زوجة سوادىّ أو فَدْم (١) بربرىّ ما ساغ ذلك عندها . وأما تصويره الأموال والأهل في وادٍ للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه .

(١) الفدم من الناس القليل الفهم والفطنة .

Marfat.com

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهى فوقنا فى المعرفة بذلك ؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره . قال القاضى : والذى جرأهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » فلما رأوه قد شكا مسّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير فى هذه الأقوال . وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها، فى إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها ، خالقها هو الله لا شريك له فى خلقه ، ولا فى خلق شىء غيرها ، ولكنّ الشر لا ينسب إليه ذكرا ، وإن كان موجودا منه خلقا ؛ أدباً أدّبنا به، وتحميدا علّمناه ، وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قوله من جملته : "والخير فى يديك والشر ليس إليك" على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وقال الفتى للكليم : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ » وأما قولهم : إنه آستعان به مظلوم فلم ينصره ، فمن لنا بصحة هـذا القول . ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزّه عن ذلك . أو كان عاجزا فلا شىء عليه فى ذلك، وكذلك قولهم : إنه منع فقيرا من الدخول ؛ إن كان علم به فهو باطل عليه، وإن لم يعلم به فلا شىء عليه فيه . وأما قولهم : إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى . ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام . قال آبن العربى القاضى أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين ؛ الأولى قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ » والثانية فى « ص » « أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » . وأما النبى صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : "بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رِجْل من جَراد من ذهب" الحديث . وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أى لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا .

Marfat.com

وفى الصحيح واللفظ للبخارى أن آبن عباس قال : يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبـار بالله ، تقرءونه محضا لم يُشَب ، وقـد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيّروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا : « هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » ولاينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسئلتهم ، فـلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة .

قوله تعـالى : ﴿ آرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ الرَّكْض الدفع بالرجل. يقال: رَكَضَ الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله . وقال المبرد : الرَّكْض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعى : يقال رُكِضَت الدابةُ ولا يقال رَكَضتْ هى؛ لأن الرَّكض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لهـا فى ذلك . وحكى سيبويه : رَكَضتُ الدابةَ فركضتْ مثل جَبرتُ العظم فجَبَرَ وحَزنته فحزن ؛ وفى الكلام إضمار أى قلنا له « آركض» قاله الكسائى. وهذا لمـا عافاه الله.﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أى فركض فنبعت عين ماء فآغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منـه فذهب الداء من باطنه . وقال قتادة : هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية ، فآغتسل من إحداهما فأذهب الله تعـالى ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه ؛ ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل : نبعت عين حارّة وآغتسل فيها فخرج صحيحا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا . وقيل : أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء فى جسده، والمغتسل المـاء الذى يغتسل به؛ قاله القتبي . وقيل : إنه الموضع الذى يغتسل فيه؛ قاله مقاتل . الجوهرى : وآغتسلت بالمـاء ، والغَسُول المـاء الذى يغتسل به، وكذلك المغتسل، قال الله تعالى : « هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » والمغتسل أيضا الذى يغتسل فيه ، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل الموتى والجمع المغاسل . وآختلف كم بقى أيوب فى البـلاء ؛ فقال ابن عباس : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات . وقال وهب بن منبّه : أصاب أيوب البـلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ،

Marfat.com

وعذب بختنصر وحول(١) فى السباع سبع سنين . ذكره أبو نعيم . وقيل : عشر سنين . وقيل : ثمان عشرة سنة . رواه أنس مرفوعا فيما ذكر الماوردى .

قلت : وذكره ابن المبارك ؛ أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذى أصابه كان به ثمان عشرة سنة . وذكر الحديث القشيرى . وقيل : أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ تقدم فى « الأنبياء »(٢) الكلام فيه . ﴿ رحمة منا ﴾ أى نعمة منا . ﴿ وذكرى لأولى الألباب ﴾ أى عبرة لذوى العقول .

قوله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — كان أيوب حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ؛ وفى سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقال : ويحك ذلك الشيطان . الثانى — ما حكاه سعيد بن المسيب أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . الثالث — ما حكاه يحيى بن سلام وغيره أن الشيطان أغواها ؛ أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفى مائة . و[الرابع] قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به،

(١) حول بمعنى مسخ ؛ راجع قصة دانيال فى قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضه حشيش مختلطة الرطب باليابس . وقال ابن عباس : إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه .

الثانية — تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا . وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة ، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوق حد الأدب . وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب ؛ ولهذا قال عليه السلام : " واضربوهن ضربا غير مبرح " على ما تقدم في « النساء »[1] بيانه .

الثالثة — واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده ؛ فروى عن مجاهد أنه عام للناس . ذكره ابن العربي . وحكى عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب . وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باقٍ ، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة برَّ. وروى نحوه الشافعي. وروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المقعد الذي حملت منه الوليدة ، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وقال القشيري : وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم ؟ فقال : ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع . ابن العربي : وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة . وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك : من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبر . قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علي أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل : « فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » وهذا مذهب أصحاب الرأي . وقد احتج الشافعي لقوله بحديث ، وقد تكلم في إسناده ؛ والله أعلم .

قلت : الحديث الذي احتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال : حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني ، قال حدثنا ابن وهب ، قال أخبرني يونس عن ابن شهاب ، قال أخبرني

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

أبو أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنه آشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى، فعـاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لهـا فوقع عليها، فلما دخل عليـه رجال قومـه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: آسـتفتوا لى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فإنى قـد وقعت على جارية دخلت علىّ. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ماهو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمـراخ فيضربوه بهـا ضربةً واحدة. قال الشافعى: إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ولا يحنث. قال آبن المنذر: وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضربا خفيفا فهو بارّ عنـد الشافعى وأبى ثور وأصحـاب الرأى. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذى يؤلم.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليل على أن الاستثناء فى اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراخيا. وقـد مضى القول فيه فى «المـائدة»(١) يقال: حنِث فى يمينـه يحنث إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أى فآضرب لا تحنث.

الخامســـة — قال ابن العربى قوله تعـالى: «فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ» يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة، وإنما كان البرّ والحِنث. والثانى أن يكون صدر منه نذر لا يمين، وإذا كان النذر معينا فلا كفارة فيه عنـد مالك وأبى حنيفة. وقال الشافعى: فى كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليـه السلام لمـا بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة، كما فى حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنبـا ما أظنّ أحدا بلغه. فقال أيوب صـلى الله عليه وسـلم: ما أدرى ما تقولان، غير أن ربى

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

Marfat.com

عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى ، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق فنادى ربه « أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وذكر الحديث . فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة — آستدل بعض جهّال المتزهدة ، وطَغام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » على جواز الرقص . قال أبو الفرج الجوزى : وهذا آحتجاج بارد، لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة ، و إنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء . قال آبن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص فى الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : «ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ» دلالة على ضرب المحادّ(٢) بالقضبان ! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع . وقد آحتج بعض قاصريهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : " أنت منّى وأنا منك " فحَجَل . وقال لجعفر : " أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى " فحَجَل . وقال لزيد : " أنت أخونا ومولانا " فحَجَل . ومنهم من آحتج بأن الحبشة زَفَنت والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم . والجواب — أما الحَجْل فهو نوع من المشى يُفعَل عند الفرح فأين هو والرقص، وكذلك زَفْن الحبشة نوع من المشى يُفعَل عند اللقاء للحرب .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ أى على البلاء. ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى توّاب رجاع مطيع . وسئل سفيان عن عبدين آبتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال : كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا ، فقال فى وصف أيوب : « نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » وقال فى وصف سليمان : « نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

(١) فى نسخة إلا بحق .　　(٢) كذا فى الأصل وفى بعض النسخ «بالمخاد» بالخاء المعجمة .

Marfat.com

قلت : وقد ردّ هذا الكلام صاحب « القوت » وآستدل بقصة أيوب فى تفضيل الفقير على الغنىّ . وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه، وقد ذكرناه فى غير هذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد » . وخفى عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما آبتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الداء فى جسده. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به آمتحِنوا وفُتِنوا . فأيوب عليه السلام دخل فى البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد آجتمع(١) مع أيوب فى المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذى يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهذا الآعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر سواء . وهو كما قال سفيان . والله أعلم .

وفى حديث آبن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه « آرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فآغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان فى جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فآئتزر بأحدهما وآرتدى بالآخر ثم أقبل يمشى إلى منزله ورَاثَ(٢) على آمرأته فأقبلت حتى لقيته وهى لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أى يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلَى قال من هو قالت نبيّ الله أيوب أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا قال فإنى أيوب وأخذ ضِغْثا فضربها به " فزعم آبن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُماما(٣). وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم، فأقبلت سحابة حتى سَجَلت(٤) فى أَنْدَر(٥) قمحه ذهبا حتى آمتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أَنْدَر شعيره وقَطَانيِّه(٦) فسَجَلت فيه وَرِقا حتى آمتلأ .

---

(١) الضمير يعود على سليمان عليه السلام . (٢) راث : أبطأ . (٣) الثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص . (٤) السجل الانصباب المتواصل . (٥) الأندر : الموضع الذى يدرس فيه القمح وغيره . (٦) القطانى : الحبوب التى تدخر كالحمص والعدس واللوبيا وما شاكلها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ٱبن عباس : «عَبْدَنَا» بإسناد صحيح ؛ رواه ٱبن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه ، وهي قراءة مجاهد وحميد وٱبن محيصن وٱبن كثير ؛ فعلى هـذه القراءة يكون « إبراهيم » بدلا من « عبدنا » و « إسحق و يعقوب » عطف . والقـراءة بالجمع أبين ، وهي ٱختيار أبي عبيـد وأبي حاتم ، و يكون « إبراهيم » وما بعده على البدل . النحاس : وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت : رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا ، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب ، و إذا قلت رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا فـزيد وحده بدل وهو صاحبنا ، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هـذا ، غير أنه قـد علم أن قوله : « وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » داخل في العبودية . وقد ٱستدل بهذه الآية من قال : إن الذبيح إسحق لا إسمعيل ، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب « الإعلام بمولد النبي عليـه السلام » . ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصارِ ﴾ قال النـحاس : أما « الأَبْصَارِ » فمتفق على تأويلها أنهـا البصائر في الدين والعـلم . وأما « الأَيْدِي » فمختلف في تأويلها ؛ فأهـل التفسير يقولون : إنهـا القوة في الدين . وقـوم يقولون : «الأَيْدِي» جمع يد وهي النعمة ؛ أي هم أصحاب النعم ؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل : هم أصحاب النعم والإحسان ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدّموا خيرا . وهذا ٱختيار الطبري . ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ أي الذين ٱصطفاهم من الأدناس وٱختارهم لرسالته . ومصطفين جمع مصطفى والأصل مصتفي وقـد مضى في « البقرة »(١) عنـد قوله : «إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ» «والأخيار» جمع خير . وقـرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ في تفسير قوله تعالى : « ولقد ٱصطفيناه في الدنيا » ففيه الكلام على ٱشتقاق اللفظ وليس في الآية المذكورة .

Marfat.com

وعيسى الثقفي « أولِى الأَيْدِ » بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولى القوة فى طاعة الله . ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذفت الياء تخفيفا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قراءة العامة « بِخَالِصَةٍ » منونة وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن آبن عامر « بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ » بالإضافة فمن نون خالصة ف « ذِكْرَى الدَّارِ » بدل منها ؛ التقدير : إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها ، ويرغبوا فيها ويُرغّبوا الناس فيها . ويجوز أن يكون « خالصة » مصدرا لخلص و« ذكرى » فى موضع رفع بأنها فاعله ؛ والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ؛ أى تذكير الدار الآخرة . ويجوز أن يكون «خالصة» مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة ، فيكون « ذكرى » على هذا فى موضع نصب ، التقدير : بأن أخلصوا ذكرى الدار . والدار يجوز أن يراد بها الدنيا ؛ أى ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها ، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم ، كما قال تعالى : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها . ومن أضاف خالصة إلى الدار فهى مصدر بمعنى الإخلاص ، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر ؛ أى بإخلاصهم ذكرى الدار . ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ؛ أى بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وهى الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم . وقال آبن زيد : معنى أخلصناهم أى بذكر الآخرة ؛ أى يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون فى الدنيا . وقال مجاهد : المعنى ؛ إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ مضى ذكر اليسع فى « الأنعام »[(١)] وذكر ذى الكفل فى «الأنبياء»[(٢)] . ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أى ممن ٱختير للنبوّة . ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل فى الدنيا وشرف يذكرون به فى الدنيا أبدا . ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى لهم مع هذا الذكر الجميل فى الدنيا حسن المرجع فى القيامة . ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والعَدْن فى اللغة الإقامة ؛ يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام . وقال عبد الله ابن عمر : إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن[(٣)] حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[(٤)] لا يدخله إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد . ﴿ مُفَتَّحَةً ﴾ حال ﴿ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ رفعت الأبواب لأنه ٱسم ما لم يسم فاعله . قال الزجاج : أى مفتحة لهم الأبواب منها . وقال الفرّاء : مفتحة لهم أبوابها . وأجاز الفرّاء : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابَ » بالنصب. قال الفرّاء: أى مفتحة الأبوابَ ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه :

ونأخذُ بعدهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ * أَجَبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنَامُ[(٥)]

وإنما قال « مُفَتَّحَةً » ولم يقل مفتوحة ؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس . قال الحسن : تُكلَّم : ٱنفتحى فتنفتح ٱنغلقى فتنغلق . وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب .

قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أى يدعون فى الجنات متكئين فيها . ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى بألوان الفواكه ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أى وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى فى « الصافات »[(٦)] . ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أى على سن واحد ، وميلاد ٱمرأة واحدة، وقد

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) تقدّمت هذه الرواية فى جـ ٩ ص ٣١١ بهذا اللفظ وهى توافق ما فى تفسير الطبرى وغيره عن عبد الله بن عمرو ، ولفظ الأصل هنا « جنة عدن قصر فى الجنة » الخ . (٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنية مخطط . (٥) البيت للنابغة والشاهد فيه نصب الظاهر بأجب على نية التنوين ؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس فى أسوإ حال وأضيق عيش ، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذى لا سنام له من الهزال . (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء .

تساوين فى الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة . قال ابن عباس : يريد الآدميات . و « أَتْرَابٌ » جمع ترب وهو نعت لقاصرات ؛ لأن « قَاصِرَاتُ » نكرة وإن كان مضافا إلى المعرفة . والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال :

مِن القاصراتِ الطَّرْفِ لَوْدَبَّ مُحْوِلٌ * مِن الذَّرِّ فوقَ الإتْبِ مِنها لَأَثَّرا (١)

قوله تعالى : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى هذا الجزاء الذى وعدتم به . وقراءة العامة بالتاء أى ما توعدون أيها المؤمنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر، وهى قراءة السُّلَمى واختيار أبى عبيد وأبى حاتم؛ لقوله تعالى : « وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ » فهو خبر . « لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى فى يوم الحساب، قال الأعشى :

المُهِينِينَ مَا لَهُـمْ لِزَمانِ السُّـ * ـوءِ حتى إذا أفاقُوا أفاقـوا

أى فى زمان السوء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع ؛ كما قال : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » وقال : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

قوله تعالى : هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَـذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين . قال الزجاج : « هَذَا » خبر ابتداء محذوف أى الأمر هـذا فيوقف على « هذا » . قال ابن الأنبارى : « هـذا » وقف حسن ثم تبتدئ « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ » وهم الذين كذبوا الرسل .

(١) قائله امرؤ القيس . المحول : الصغير . والإتب : درع المرأة ، وبردة تشق فتلبس من غير كمين ولا جيب .

Marfat.com

﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى منقلب يصيرون إليه. ثم بين ذلك بقوله : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى بئس ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس الفراش لهم . ومنه مهد الصبي . وقيل : فيه حذف أى بئس موضع المهاد . وقيل : أى هذا الذى وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال : وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على « هذا » أيضا .

قوله تعالى : ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ « هذا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « حَمِيمٌ » على التقديم والتأخير، أى هذا حميم وغساق فليذوقوه. ولا يوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويجوز أن يكون « هذا » فى موضع رفع بالابتداء و « فَلْيَذُوقُوهُ » فى موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذى فى « هذا » فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويرتفع « حميم » على تقدير هذا حميم . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغسّاق إذا لم تجعلهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق . والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد :

حتّى إذا ما أَضاءَ الصُّبْحُ(١) فى غَلَسٍ * وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِىٌّ ومَحْصُودُ

وقال آخر(٢) :

لها مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ * قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ آنْسَحَقَا

ويجوز أن يكون « هذا » فى موضع نصب بإضمار فعل يفسره « فَلْيَذُوقُوهُ » كما تقول زيدا آضربه . والنصب فى هذا أولى فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » وتبتدئ « حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » على تقدير الأمر حميم وغسّاق . وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين فى «وغَسَاق» . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى «وغساق» بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد فى قول الأخفش . وقيل : معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو آسم مثل عذاب وجواب وصواب، ومن شدّد قال : هو آسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة، نحو ضرّاب وقتال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق . قال آبن عباس : هو الزمهرير يخوّفهم

(١) رواه السمين : أضاء البرق . (٢) قائله زهير بن أبى سلمى يصف الناقة ، التى يسنق عليها . وقتب وغرب بيان للتاع . والقتب أداة السانية ، الغرب الدلو العظيمة . وآنسحقا أى مضى وبعد سيلانه .

Marfat.com

ببرده . وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذى قد آنتهى برده . وقال غيرهما : إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحره . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من فى المغرب ، ولو وقع منه شيء فى المغرب لأنتن من فى المشرق . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن . وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار . وهذا القول أشبه باللغة ؛ يقال : غَسَق الجرح يغسِق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر ؛ قال الشاعر :

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيبَها * إلىّ جَرَى دَمْعٌ من الليلِ غاسِقُ (١)

أى بارد . ويقال : ليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقال السدى : الغسّاق الذى يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم . وقال آبن زيد : الحميم دموع أعينهم ، يجمع فى حياض النار فيسقونه ، والصديد الذى يخرج من جلودهم . والآختيار على هذا « وغَسَّاق » حتى يكون مثل سَيّال . وقال كعب : الغَسّاق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذى حُمَةٍ من عقرب وحية . وقيل : هو مأخوذ من الظلمة والسواد . والغَسَق أول ظلمة الليل ، وقد غَسَق الليلُ يغسِق إذا أظلم . وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن دَلْوا من غساق يُهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا" .

قلت : وهذا أشبه على الآشتقاق الأوّل كما بينا ، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلما فيصح الاشتقاقان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ قرأ أبو عمرو « وَأُخَرُ » جمع أخرى مثل الكبرى والكُبَر . الباقون « وَآخَرُ » مفرد مذكر . وأنكر أبو عمرو « وَآخَرُ » لقوله تعالى : « أَزْوَاجٌ » أى لا يخبر بواحد عن جماعة . وأنكر عاصم الجحدرى « وَأُخَرُ » قال : ولو كانت « وَأُخَرُ » لكان من شكلها . وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان . « وَآخَرُ » أى وعذاب آخر سوى الحميم والغساق . « مِنْ شَكْلِهِ » قال قتادة : من نحوه . قال آبن مسعود : هو

(١) لعله من العين .

Marfat.com

الزمهرير . وآرتفع « وآخر » بالأبتداء و « أَزْوَاجٌ » مبتدأ ثان و « مِنْ شَكْلِهِ » خبره والجملة خبر « آخر » . ويجوز أن يكون « وآخر » مبتدأ والخبر مضمر دل عليه « هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » لأن فيه دليلا على أنه لهم ، فكأنه قال : ولهم آخر ويكون « مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و « أَزْوَاجٌ » مرفوع بالظرف . ومن قرأ « وَأُخَرُ » أراد وأنواع من العذاب أُخَرُ ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناسا فجمع لآختلاف الأجناس . أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريرا ثم جمع كما قالوا : شابت مفارقه . أو على أنه جمع لما فى الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذى هو نهاية البرد بإزاء الجمع فى قوله : « هَـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » والضمير فى « شَكْلِهِ » يجوز أن يعود على الحميم أو الغساق . أو على معنى « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ » ما ذكرنا ، ورفع « أُخَرُ » على قراءة الجمع بالابتداء و « مِنْ شَكْلِهِ » صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدإ و « أَزْوَاجٌ » خبر المبتدإ . ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و « من شكله » صفة لأخر و « أَزْوَاجٌ » مرتفعة بالظرف كما جاز فى الإفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث آرتفع « أَزْوَاجٌ » بالظرف ولا ضمير فى الظرف ، والهاء فى « شكله » لا تعود على « أُخَرُ » لأنه جمع والضمير مفرد؛ قاله أبو على . و « أَزْوَاجٌ » أى أصناف وألوان من العذاب . وقال يعقوب : الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدل (١) .

قوله تعالى : ﴿ هَـذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ قال آبن عباس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة « هَذَا فَوْجٌ » يعنى الأتباع والفوج الجماعة « مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » أى داخل النار معكم ؛ فقالت السادة : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أى لا آتسعت منازلهم فى النار . والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد وغيره . وهو فى مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة :

لا مَرْحَبًا بِغَدٍ ولا أَهْلًا بِهِ * إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبةِ فى غَدِ

(١) يقال آمرأة ذات شكل (بالكسر) أى ذات دلال ، وهو حسن الحديث وحسن المزح والهيئة .

Marfat.com

قال أبو عبيدة العرب تقول : لا مرحبا بك ؛ أى لا رحبت عليك الأرض ولا آتسعت . ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ قيل : هو من قول القادة ، أى إنهم صالوا النار كما صليناها . وقيل : هو من قول الملائكة متصل بقولهم : «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» و «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» هو من قول الأتباع . وحكى النقاش : إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثانى أتباعهم ببدر . والظاهر من الآية أنها عامة فى كل تابع ومتبوع . ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أى دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم ﴿قَالُوا﴾ يعنى الأتباع ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا ﴾ قال الفراء : من سوّغ لنا هذا وسنّه . وقال غيره : من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصى ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفا . وقال آبن مسعود : معنى عذابا ضعفا فى النار الحيات والأفاعى . ونظير هذه الآية قوله تعالى : "رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ" .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قال آبن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول أبو جهل : أين بلال أين صُهَيب أين عمّار أولئك فى الفردوس ! واعجبا لأبى جهل ! مسكين؛ أسلم آبنه عكرمة، وآبنته جُوَيرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال :

ونُورًا أضاءَ الأرضَ شَرْقًا ومَغْرِبًا * وموضِعُ رِجلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قال مجاهد : أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ فلم نعلم مكانهم . قال الحسن : كلّ ذلك قد فعلوا؛ آتخذوهم سخريّا، وزاغت عنهم أبصارهم فى الدنيا محقرة لهم . وقيل : معنى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ » أى أهم معنا فى النار فلا

Marfat.com

نراهم. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرءون «مِنَ الأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرءون «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «الأَشْرَارِ» لأن «اتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا. ومن قرأ «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف وقف على «الأَشْرَارِ» قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب. «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ» إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل. وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي «سُخْرِيًّا» بضم السين. الباقون بالكسر. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ «لحقٌّ» خبر إنّ و «تَخَاصُمُ» خبر مبتدإ محذوف بمعنى هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلا من حق. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع. أي إن تخاصم أهل النار في النار لحقّ. يعني قولهم: «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي معبود ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ

Marfat.com

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ بالرفع على النعت و إن نصبت الأول نصبته . ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح . « والْعَزِيزُ » معناه المنيع الذى لا مثل له . « الْغَفَّارُ » الستار لذنوب خلقه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى وقل لهم يا محمد «هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» أى ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغى أن يُستخفّ به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ » . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعنى القرآن الذى أنبأكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدى اختصموا فى أمر آدم حين خلق فـ « قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » وقال إبليس « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » وفى هذا بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى ؛ فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ؛ ولهذا وصل قوله بقوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ» . وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”سألنى ربى فقال يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى قلت فى الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشى على الأقدام إلى الجماعات و إسباغ الوضوء فى السَّبْرات(١) والتعقيب فى المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام و إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام“ خرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضا وقال حديث حسن صحيح . وقد كتبناه بكماله فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وأوضحنا إشكاله والحمد لله . وقد مضى فى « يس »(٢) القول فى المشى إلى المساجد ، وأن الخطا تكفّر السيئات ، وترفع الدرجات . وقيل : الملأ الأعلى الملائكة والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » لفرقتين يعنى قول من قال منهم الملائكة بنات الله ،

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى شدة البرد . (٢) راجع ص ١٢ وما بعدها من هذا الجزء .

Marfat.com

[ومن قال آلهة تعبد[(١)]] . وقيل : الملأ الأعلى ههنا قريش ؛ يعنى آختصامهم فيما بينهم سرا ، فاطلع الله نبيه على ذلك . ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى إن يوحى إلىّ إلا الإنذار . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « إِلَّا إِنَّمَا » بكسر الهمزة ؛ لأن الوحى قول ، كأنه قال : يقال لى إنما أنت نذير مبين ، ومن فتحها جعلها فى موضع رفع ؛ لأنها آسم ما لم يسمّ فاعله . قال الفراء : كأنك قلت ما يوحى إلىّ إلا الإنذار ، النحاس : ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى إلا لأنما . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ « إذ » من صلة « يَخْتَصِمُونَ » المعنى ؛ ما كان لى من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ . وقيل : « إذ قال » بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » و « يَخْتَصِمُونَ » يتعلق بمحذوف ؛ لأن المعنى ما كان لى من علم بكلام الملإ الأعلى وقت آختصامهم . ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ « إذا » تردّ الماضى إلى المستقبل ؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه ؛ أى خلقته . ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾ أى من الروح الذى أملكه ولا يملكه غيرى . فهذا معنى الإضافة ، وقد مضى هذا المعنى مجوّدا فى « النساء[(٢)] » فى قوله فى عيسى « وَرُوحٌ مِنْهُ » . ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ نصب على الحال . وهذا سجود تحية لا سجود عبادة . وقد مضى فى « البقرة[(٣)] » . ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أى آمتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله ، والأنفة من طاعة الله آستكبارا كفر ، ولذلك كان من الكافرين بآستكباره عن أمر الله تعالى . وقد مضى الكلام فى هذا فى « البقرة[(٤)] » مستوفى .

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان فى تفسيره. (٢) راجع ج٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع ج ١ ص ٢٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة. (٤) راجع ج ١ ص ٢٩٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ أى صرفك وصدك ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أى عن أن تسجد ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له ، و إن كان خالق كل شىء . وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح و البيت و الناقة و المساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لايباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد هاهنا بمعنى التأكيد والصلة ؛ مجازه لما خلقت أنا كقوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ » أى يبقى ربك . وقيل : التشبيه فى اليد فى خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى . وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال مالى بهذا الأمر يد . ومالى بالحمل الثقيل يدان . ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع . وقال الشاعر :

تحمّلتُ من [عفراء](١) ماليس لي به * ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل « لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » لما خلقت بغير واسطة . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أى عن السجود ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أى المتكبرين على ربك . وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة « بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ » موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل « أَمْ يَقُولُونَ

---

(١) فى الأصول ذلفاء ، وهو تحريف . والبيت لعروة بن حزام .

Marfat.com

ٱفْتَرَاهُ » وشبهه . ومن ٱستفهم فأم معادلة لهمزة الٱستفهام وهو تقرير وتوبيخ . أى ٱستكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم ، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ قال الفرّاء : من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الٱستعمال . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فضّل النار على الطين وهذا جهل منه ؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس . وقد مضى فى « الأعراف »(1) بيانه . ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ يعنى من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ أى طردى وإبعادى من رحمتى ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذ ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن . ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجَب إلى ذلك ، وأُخّر إلى الوقت المعلوم ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأخّر إليه تهاونا به . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بنى آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبه عليهم ، فمعنى « لَأُغْوِيَنَّهُمْ » لأستدعينهم إلى المعاصى وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة ، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين أخلصتهم لعبادتك ، وعصمتهم منى . وقد مضى فى « الحجر »(2) بيانه .

قوله تعالى : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائى . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول . وأجاز الفرّاء فيه

(1) راجع جـ ٧ ص ١٧١ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الخفض . ولا آختلاف فى الثانى فى أنه منصوب بـ«أقول» ونصب الأول على الإغراء أى فآتبعوا الحق وآستمعوا الحق ، والثانى بإيقاع القول عليه . وقيل : هو بمعنى أُحِقُّ الحق أى أفعله . قال أبو على : الحق الأول منصوب بفعل مضمر أى يحق الله الحق ، أو على القسم وحذف حرف الجر ؛ كما تقول : اللهِ لأفعلنّ ؛ ومجازه : قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه . « وَالْحَقَّ أَقُولُ » جملة آعترضت بين القسم والمقسم عليه ، وهو توكيد القصة ، وإذا جعل الحقّ منصوبا بإضمار فعل كان « لَأَمْلَأَنَّ » على إرادة القسم . وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحقّ منصوبا بمعنى حقّا « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » وذلك عند جماعة من النحويين خطأ ؛ لا يجوز زيدا لأضربنّ ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه . والتقدير على قولهما لأملأنّ جهنم حقّا . ومن رفع « الحقّ » رفعه بالآبتداء ؛ أى فأنا الحقّ أو الحق منى . رويا جميعا عن مجاهد . ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق . وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحق لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم . وفى الخفض قولان وهى قراءة آبن السَّمَيْقَع وطلحة بن مُصَرِّف : أحدهما أنه على حذف حرف القسم . هذا قول الفراء قال كما يقول : اللهِ عز وجل لأفعلنّ . وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض ؛ لأن حروف الخفض لا تضمر ، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم ؛ كما أنشدوا (١) :

* فمثلكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع *

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أى من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ من بنى آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى من جعل على تبليغ الوحى وكنى به عن غير مذكور . وقيل هو راجع إلى قوله : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال :

---

(١) البيت لامرئ القيس من معلقته وتمامه :

* فألهيتها عن ذى تمائم محول *

Marfat.com

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف ؛ فإن قوله لا أعلم علمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى مالا ينال ويقول مالا يعلم" . وروى الدارقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة[1] له ، فقال له عمر : يا صاحب المَقْرَاة أولغت السباع الليلة فى مَقْرَاتك ؟ فقال له صلى الله عليه النبي وسلم : "يا صاحب المَقْرَاة لا تخبره هذا متكلِّف لها ما حملت فى بطونها ولنا ما بقى شراب وطهور" . وفى الموطإ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : إن عمر بن الخطاب خرج فى ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : يا صاحب الحوض لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا . وقد مضى القول فى المياه فى سورة « الفرقان[2] » . ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعنى القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس . ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أى نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق «بَعْدَ حِينٍ» قال قتادة : بعد الموت . وقاله الزجاج . وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعنى يوم القيامة . وقال الفراء : بعد الموت وقبله . أى لتظهر لكم حقيقة ما أقول « بَعْدَ حِينٍ » أى فى المستأنف أى إذا أخذتكم سيوف المسلمين . قال السدى : وذلك يوم بدر . وكان الحسن يقول : يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين . قال : إن من الحين مالا تدركه كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ومنه ما تدركه ؛ كقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة[3] » و « إبراهيم[4] » والحمد لله .

(١) المقراة الحوض الذى يجتمع فيه الماء . النهاية لابن الأثير .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

سورة الزمر

ويقال سورة الغرف . قال وهب بن منبه : من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرف . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » والأخرى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقال آخرون : إلا سبع آيات من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيّ وأصحابه على ما يأتي . روى الترمذي عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل . وهي خمس وسبعون آية . وقيل : اثنتان وسبعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤)

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل ؛ قاله الفراء . وأجاز الكسائي والفراء أيضا «تَنْزِيلَ» بالنصب على أنه مفعول به . قال الكسائي : أي اتبعوا واقرءوا «تَنْزِيلَ الْكِتَابِ» . وقال الفراء : هو على الإغراء مثل قوله « كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أي الزموا . والكتاب القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق ؛ أى بالصدق وليس بباطل وهزل . ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — « مُخْلِصًا » نصب على الحال أى مُوحدا لا تشرك به شيئا ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أى الطاعة . وقيل : العبادة وهو مفعول به . ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أى الذى لا يشوبه شيء . وفى حديث الحسن عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »[1] و « النساء »[2] و « الكهف »[3] مستوفى .

الثانية — قال ابن العربى : هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان ، خلافا لأبى حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفى من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمان شطرا ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى الأصنام والخبر محذوف . أى قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله ، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبى : جواب هذا الكلام فى الأحقاف «فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً» والزلفى القربة ؛ أى ليقربونا إليه تقريبا ، فوضع « زُلْفَى » فى موضع المصدر . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قالوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٠٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١١ ص ٦٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

زُلْفَى » وفى حرف أُبَىّ « وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » ذكره النحاس . قال : والحكاية فى هذا بينة . ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحق . ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أى من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد ؛ أى للدين الذى ارتضاه وهو دين الإسلام ؛ كما قال الله تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » وفى هذا ردّ على القدرية[(١)] وغيرهم على ما تقدم .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى لو أراد أن يسمى أحدا من خلقـه بهذا ما جعله عز وجل إليهـم . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى تنزيها له عن الولد ﴿ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

قوله تعـالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هو القادر على الكمال المستغنى عن الصاحبة والولد، ومن كان هكذا لحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به . ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل . قوله تعـالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ قال الضحاك : أى يلقى هذا على هذا وهـذا على هذا . وهذا على معنى التكوير فى اللغة وهو طـرح الشيء بعضه على بعض ؛ يقال كوّر المتاع أى ألقى بعضه على بعض ،

(١) تقدم فى غير موضع فراجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة و جـ ٩ ص ٣٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

ومنه كور العمامة . وقد روى عن ابن عباس هذا فى معنى الآية . قال : ما نقص من الليل دخل فى النهار وما نقص من النهار دخل فى الليل . وهو معنى قوله تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » . وقيل : تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته ، وهذا قول قتادة . وهومعنى قوله تعالى : « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا » . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى بالطلوع والغروب لمنافع العباد . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة [حين](١) تنفطر السماء وتنتثر الكواكب . وقيل : الأجل المسمى هو الوقت الذى ينتهى فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها . قال الكلبي : يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يجاوزانه . وقد تقدم بيان هذا فى سورة « يس »(٢) . ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ « ألا » تنبيه أى تنبهوا فإنى أنا « الْعَزِيزُ » الغالب « الْغَفَّارُ » الساتر لذنوب خلقه برحمته .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعنى آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى ليحصل التناسل وقد مضى هذا فى « الأعراف »(٣) وغيرها . ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل . وهذا يسمى التدريج؛ ومثله قوله تعالى : «قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا» الآية . وقيل : أنزل أنشأ وجعل . وقال سعيد بن جبير : خلق . وقيل : إن الله تعالى خلق هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض؛ كما قيل فى قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد . وقيل : « أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى أعطاكم . وقيل : جعل الخلق إنزالا ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى خلق لكم كذا بأمره النازل . قال قتادة : من الإبل آثنين ومن البقر آثنين ومن الضأن آثنين ومن المعز آثنين كل واحد

(١) فى نسخ الأصل : حتى . (٢) راجع ص ٢٩ وما بعدها من هذا الجزء طبعة أولى أو ثانية
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

زوج . وقد تقدم هذا[١] . ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ قال قتادة والسدى: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما . آبن زيد : « خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ » خلقا فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم . وقيل : فى ظهر الأب ثم خلقا فى بطن الأم ثم خلقا بعد الوضع . ذكره الماوردى . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المَشِيمة . قاله آبن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال آبن جبير : ظلمة المَشِيمة وظلمة الرَّحِم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل : ظلمة صُلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرَّحِم . وهذا مذهب أبى عبيدة . أى لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ ﴾ أى الذى خلق هذه الأشياء ﴿ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره . وقرأ حمزة « إِمِّهَاتِكُمْ » بكسر الهمزة والميم والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

قوله تعالى : إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى أن يكفروا أى لا يحب ذلك منهم . وقال آبن عباس والسدى : معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . وكقوله : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » أى المؤمنون . وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة . وقيل : لا يرضى الكفر وإن أراده؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يريد كون ما لا يرضاه ، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا . وهذا مذهب أهل السنة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[(١)] أى يرضى الشكر لكم ؛ لأن « تَشْكُرُوا » يدل عليه . وقد مضى القول فى الشكر فى « البقرة » وغيرها . ويرضى بمعنى يثيب ويثنى ، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » و إما ثناؤه فهو صفة ذات. و « يرضه » بالإسكان فى الهـاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم . وأشبع الضمة ٱبن ذكوان وٱبن كثير وٱبن محيصن والكسائى وورش عن نافع[(٢)] . وٱختلس الباقون . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تقدّم فى غير موضع[(٣)] .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ أى شدّة من الفقر والبلاء ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أى راجعا إليـه مخبتا مطيعا له مستغيثا به فى إزالة تلك الشدّة عنـه . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ أى أعطاه وملكه . يقال : خوّلك الله الشيء أى ملكك إياه ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هُنالِكَ إنْ يُسْتَخْوَلُوا المَالَ يُخْوِلُوا ＊ وإنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا[(٤)]

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٢ ص ١٧٢ طبعة ثانية .

(٢) فى الأصول : ورش عن نافع ، وفى البيضاوى : وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية الخ يعنى ورواية أخرى بالاختلاس كما هو المشهور فى رواية ورش .

(٣) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ١٠ ص ٢٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) البيت لزهير ، ويروى : هنالك إن يستخبلوا المـال يخبلوا . والإخبال الإعارة أى يستعيرون الناقة للانتفاع بألبانها وأوبارها والفرس للغزو عليها . وإن ييسروا يغلوا : أى إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الإبل فيقامرون عليها .

Marfat.com

وخَوَلَ الرجل حَشَمُه الواحد خائل . قال أبو النّجم :

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ * كُومُ الذُّرَى مِن خَوَلِ المُخَوَّلِ

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى نسى ربه الذى كان يدعوه من قبل فى كشف الضر عنه . فـ « ما » على هذا الوجه لله عز وجل وهى بمعنى الذى . وقيل : بمعنى من كقوله : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » والمعنى واحد . وقيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به إلى الله عز وجل . أى ترك كون الدعاء منه إلى الله، فما والفعل على هذا القول مصدر . ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أى أوثانا وأصناما . وقال السدى : يعنى أندادا من الرجال يعتمدون عليهم فى جميع أمورهم . ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى ليقتدى به الجهال . ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أى قل لهذا الإنسان « تمتع » وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل . ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أى مصيرك إلى النار .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره . وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائى « أَمَّنْ » بالتشديد . وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « أَمَنْ هُوَ » بالتخفيف على معنى النداء ؛ كأنه قال يا من هو قانت . قال الفراء : الألف بمنزلة يا تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل . وحكى ذلك عن سيبويه وجميع النحويين ؛ كما قال أوس بن حَجَر :

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَدٍ * إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لها عَضُدُ

وقال آخر هو ذو الرُّمَّة :

أَدَارًا بِحُزْوَى هِجْتِ لِلعَيْنِ عَبْرَةً * فَمَاءُ الهَوَى يَرْفَضُّ أَوْ يَتَرَقْرَقُ

فالتقدير على هذا « قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة؛ كما يقال فى الكلام : فلان لا يصلى ولا يصوم، فيا من يصلى ويصوم أبشر؛ فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : إن الألف فى « أمن » ألف استفهام أى « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ » أفضل أم من جعل لله أندادا، والتقدير الذى هو قانت خير . ومن شدد

Marfat.com

« أَمَّنْ » فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ » فالجملة التي عادلت أم محذوفة، والأصل أم من فأدغمت في الميم . النحاس : وأم بمعنى بل ومن بمعنى الذي؛ والتقدير : أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكر. وفي قانت أربعة أوجه : أحدها أنه المطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني أنه الخاشع في صلاته ؛ قاله ابن شهاب . الثالث أنه القائم في صلاته ؛ قاله يحيى ابن سلّام . الرابع أنه الداعي لربه . وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كل قنوت في القرآن فهو طاعة لله عز وجل " وروى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الصلاة أفضل؟ فقال: " طول القنوت " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام . وروى عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال : ما أعرف القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع وغض البصر. وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضّوا أبصارهم ، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين. قال النحاس : أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لي ابن عمر قم فصلّ، فقمت أصلّي وكان عليّ ثوب خَلَق، فدعاني فقال لي : أرأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا ؟ فقلت : كنت أتزين قال: فالله أحق أن تتزين له . واختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلّام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر : هو عثمان رضي الله عنه . وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسر . الكلبي: صُهَيب وأبو ذر وابن مسعود. وعن الكلبي أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال. ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره . وعن ابن عباس: « آنَاءَ اللَّيْلِ » جوف الليل. قال ابن عباس : من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله في ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه. وقيل: ما بين المغرب والعشاء . وقول الحسن عام . ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ قال سعيد بن جبير : أي عذاب الآخرة . ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي

Marfat.com

نعيم الجنة. وروى عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى فى المعاصى و يرجو فقال: هذا متمنٍّ. ولا يقف على قوله : « رَحْمَةَ رَبِّهِ » من خفف « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ » على معنى النداء ؛ لأن قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ متصل إلا أن يقدر فى الكلام حذف وهو أيسر ، على ما تقدم بيانه . قال الزجاج : أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوى المطيع والعاصى . وقال غيره : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم و يعملون به . فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول من المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى قل يا محمد لعبادى المؤمنين ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم(١). وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبى طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة . ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ يعنى بالحسنة الأولى الطاعة و بالثانية الثواب فى الجنة . وقيل : المعنى للذين أحسنوا فى الدنيا حسنة فى الدنيا ، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة . قال القشيرى : والأول أصح؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

قلت : وينالها معه المؤمن و يزاد الجنة إذا شكر تلك النعم . وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن وفى الآخرة الجزاء. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصى . وقد مضى القول فى هذا مستوفى فى « النساء »(٢) . وقيل : المراد أرض الجنة ؛ رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها ؛ كما قال: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» والجنة قد تسمى أرضا ؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قال الله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » والأول أظهر فهو أمر بالهجرة . أى ارحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا . الماوردى : ويحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق ؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه ؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان .

قلت : فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية ، إلى الأرض الراخية ؛ كما قال سفيان الثورى : كن فى موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم . ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى بغير تقدير . وقيل : يزاد على الثواب ؛ لأنه لو أعطى بقدر ما عمل لكان بحساب . وقيل : « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا . و« الصَّابِرُونَ » هنا الصائمون ؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبرا عن الله عز وجل : "الصوم لى وأنا أجزى به" قال أهل العلم : كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يحثا حثوا ويغرف غرفا ؛ وحكى عن على رضى الله عنه . وقال مالك بن أنس فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال : هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها . ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك ما نهى عنه ، فلا مقدار لأجره . وقال قتادة : لا والله ماهناك مكيال ولاميزان، حدثنى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبّ عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل" . وعن الحسين بن على رضى الله عنهما قال سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس يا بنى إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صبّا" ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . ولفظ صابر يمدح به و إنما هو لمن صبر عن المعاصى، و إذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا ؛ قاله النحاس . وقد مضى فى « البقرة »(١) مستوفى .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ تقدم أول السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة ، وكذلك كان ؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إليه صلى الله عليه وسلم . واللام فى قوله : « لِأَنْ أَكُونَ » صلة زائدة ؛ قاله الجرجانى وغيره . وقيل : لام أجل . وفى الكلام حذف أى أمرت بالعبادة « لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذاب يوم القيامة . وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه . قاله أكثر أهل التفسير . وقال أبو حمزة الثمالى وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ « الله » نصب بـ « أَعْبُدُ » ﴿ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ طاعتى وعبادتى . ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أمر تهديد ووعيـد وتوبيخ ؛ كقوله تعـالى : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ » . وقيل : منسوخة بآية السيف .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس : ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النـار خسر نفسه وأهله . فى رواية عن ابن عباس : فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك ، وهو قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

قوله تعـالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ سمى ما تحتهم ظللا ؛ لأنها تظل من تحتهم ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَـذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قال ابن عباس : أوليـاءه . ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى يا أوليائى نخافون . وقيل : هو عام فى المؤمن والكافر . وقيل : خاص بالكفار .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ قال الأخفش : الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة . وقد تقدم[1] . أى تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها . قال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان . وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان . وقيل : إنه الكاهن اسم أعجمى مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت . وقيل : إنه اسم عربى مشتق من الطغيان ، و « أن » فى موضع نصب بدلا من الطاغوت ، تقديره ، والذين

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

آجتنبوا عبادة الطاغوت . ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى رجعوا إلى عبادته وطاعته . ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ فى الحياة الدنيا بالجنة فى العقبى . روى أنها نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضى الله عنهم؛ سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا . وقيل نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر وغيرهما ممن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ قال آبن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أى محكمه فيعملون به . وقيل : يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقيل : يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو . وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام « لا إله إلا الله » . وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى ، آجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها فى جاهليتهم، وآتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ لما يرضاه . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى الذين آنتفعوا بعقولهم .

قوله تعالى : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية . قال آبن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . وكرر الآستفهام فى قوله : « أَفَأَنْتَ » تأكيدا لطول الكلام، وكذا قال سيبويه[(1)] فى قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ » على ما تقدّم. والمعنى « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » أفأنت تنقذه . والكلام شرط وجوابه . وجيء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير . قال الفراء : المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

كلمة العذاب . والمعنى واحد . وقيل : إن فى الكلام حذفا والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، وما بعده مستأنف . وقال : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ » وقال فى موضـع آخر : « حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » لأن الفعل إذا تقدم ووقـع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيث هنا ليس بحقيق بل الكلمة فى معنى الكلام والقول ؛ أى أفمن حق عليه قول العذاب .

قوله تعـالى : لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ لمـا بيّن أن للكفار ظللا من النار من فوقهم ومن تحتهم بيّن أن للمتقين غرفا فوقها غرف؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا و « لكن » ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفى كقوله : ما رأيت زيدا لكن عمرا، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يأت . ﴿ غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى هى جامعة لأسباب النزهة . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ؛ لأن معنى « لَهُمْ غُرَفٌ » وعدهم الله ذلك وعدا . ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله . ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ أى ما وعد الفريقين .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى إنه لا يخلف الميعاد فى إحيـاء الخلق، والتمييز بين المؤمن والكافر، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال المـاء من السماء. « أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى من السحاب « مَاءً » أى المطر ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ أى فادخله فى الأرض

Marfat.com

وأسكنه فيها ، كما قال : « وَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » . ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنبَع و ينبُع و ينبِع بالرفع والنصب والخفض . النحاس : وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر:(١)

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

أن معناه يَنْبَع فأشبع الفتحة فصارت ألفا ، نبوعا خرج . واليَنْبوع عين الماء والجمع الينابيع . وقد مضى في « سبحان »(٢) . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿ زَرْعًا ﴾ هو للجنس أي زروعا شتى لها ألوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونورا . قال الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي ييبس . ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ أي بعد خضرته ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ قال المبرد قال الأصمعي : يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولّى . قال : وكذلك هاج النبت . قال : وكذلك قال غير الأصمعي . وقال الجوهري : هاج النبت هياجا أي يبس . وأرض هائجة يبس بقلها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات ، وهاج هائجه أي ثار غضبه ، وهدأ هائجه أي سكنت فورته . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أي فتاتا مكسرا من تحطّم العودُ إذا تفتت من اليبس . والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة . وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، أي أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين « ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » أي دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا ، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع . وقيل : هو مثل ضربه الله للدنيا ؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١) قائله عنترة : ويروى ، غضوب حرة . وتمامه : * زيافة مثل الفنيق المقرم *
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ شرح فتح ووسع . قال ابن عباس : وسع صـدره للإسلام حتى ثبت فيـه . وقال السدى : وسع صـدره بالإسـلام للفرح به والطمأنينة إليه ؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام ؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام . ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه . ودل على هذا المحذوف قوله : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » قال المبرد : يقال قسا القلب إذا صَلُب ، وكذلك عتا ، وعسا مقاربة لهـا . وقلب قاسٍ أى صُلْب لا يرقّ ولا يلين . والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون علىّ وحمزة رضى الله عنهما . وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال مقاتل : عمّار بن ياسر . وعنه أيضا والكلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والآية عامة فيمن شرح الله صـدره بخلق الإيمـان فيه . وروى مُرّة[(1)] عن ابن مسعود قال : قلنا يا رسول الله قوله تعـالى « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » كيف انشرح صدره ؟ قال : " إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح " قلنا : يا رسول الله وما علامة ذلك ؟ . قال : " الإنابة إلى دار الخـلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله " وخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصـول » من حديث ابن عمر : أن رجلا قال يا رسـول الله أى المـؤمنين أكيس ؟ قال : " أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع " قالوا : فما آية ذلك يا نبىّ الله ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبـل نزول الموت " فذكر صلى الله عليه وسلم خصالا ثلاثة ، ولا شك أن من كانت فيه هـذه الخصال فهو الكامل الإيمان ، فإن الإنابة إنمـا هى أعمال البر ؛ لأن دار الخلود إنمـا وضعت جزاء لأعمال البر ، ألا ترى كيف ذكره الله فى مواضع فى تنزيله ثم قال بعقب ذلك « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فالجنـة جزاء الأعمـال ؛ فإذا انكمش العبد فى أعمال البر فهـو إنابته إلى دار الخلود ، وإذا خمد حرصه عن الدنيا ، ولهـا عن طلبها ، وأقبـل على

---

(1) هو مرة بن شراحيل الهمدانى يروى عن أبى بكر وعمر وعلى وأبى ذر وحذيفة وابن مسعود الخ ... التهذيب .

Marfat.com

ما يغنيه منها ٱكتفى به وقنع ، فقد تجافى عن دار الغرور . وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا فى كل أمر ، واقفا متأدّبا متثبتا حذرا يتورّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه ، فقد ٱستعدّ للموت . فهذه علامتهم فى الظاهر . وإنما صار هكذا لرؤية الموت ، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا ، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور ، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب . وقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ قيل : المراد أبو لهب وولده ، ومعنى « مِنْ ذِكْرِ اللهِ » أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره . وقيل : إن « مِن » بمعنى عن والمعنى قست عن قبول ذكر الله . وهذا ٱختيار الطبرى . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى ٱطلبوا الحوائج من السُّمَحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى " . وقال مالك بن دينار : ماضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعنى القرآن لما قال « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » بين أن أحسن ما يسمع ما أنزله الله وهو القرآن . قال سعد بن أبى وقاص قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا : لو قصصت علينا فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » فقالوا : لو ذكرتنا فنزل « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » الآية . وعن ٱبن مسعود رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّوا مَلّة فقالوا له : حدّثنا فنزلت . والحديث ما يحدّث به المحدِّث . وسمى القرآن حديثا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به

Marfat.com

أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » وقوله : « إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » وقوله : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً » وقوله : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » قال القشيري : وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدَث وهو وهم ؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما فى قوله : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقد قالوا : إن الحـدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسمـاء الرب تعـالى . ﴿ كِتَاباً ﴾ نصب على البدل من « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » ويحتمل أن يكون حالا منه . ﴿ مُتَشَابِهاً ﴾ يشبه بعضه بعضا فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا ؛ ليس فيه تناقض ولا آختلاف . وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيـل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ؛ لمـا يتضمنه من أمر ونهى وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز . ثم وصفه فقال : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل . ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف ممـا فيه من الوعيد . ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ أى عند آية الرحمة . وقيل : إلى العمل بكتاب الله والتصديق به . وقيل : « إِلَى ذِكْرِ اللهِ » يعنى الإسلام .

الثانيــة — عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : كان أصحاب النبى صلى الله عليـه وسلم ، إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم . قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه . فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مر آبن عمر برجل من أهل القرآن ساقطا فقال : ما بال هـذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال آبن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن عبد العزيز : ذكر عند آبن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن ، فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ، ثم يقرأ عليـه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق . وقال أبو عمران

Marfat.com

الجونى : وعظ موسى عليه السلام بنى إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه ، فأوحى الله إلى موسى ؛ قل لصاحب القميص لا يشقّ قميصه فإنى لا أحبّ المبذرين ؛ يشرح لى عن قلبه .

قال زيد بن أسلم : قرأ أبيّ بن كعب عند النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فرقّوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة " . وعن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا اقشعر جلدُ المؤمن من مخافة الله تحاتّت عنه خطاياه كما يتحاتّ عن الشجرة البالية ورقُها ". وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار ". وعن شهر بن حَوْشَب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل فى قلب الرجل كاحتراق السعفة، أما تجد إلا قشعريرة ؟ قلت : بلى؛ قالت : فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب . وعن ثابت البُنَانى قال قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى، ووجِل قلبى، وفاضت عيناى، فذلك حين يستجاب لى . يقال: اقشعر جلد الرجل اقعشرارا فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم، لأنها زائدة ؛ يقال أخذته قشعريرة . قال امرؤ القيس :

فبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَا(١) * مِ والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرّ

وقيل : إن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته، اقشعرت الجلود منه إعظاما له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » فالتصدّع قريب من الاقشعرار، والخشوع قريب من قوله : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه . ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللهِ ﴾ أى القرآن هدى الله . وقيل: أى الذى وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى من خذله فلا مرشد له . وهو يرد على القَدَرية وغيرهم . وقد مضى معنى هذا كله مستوفى فى غير موضع والحمد لله . ووقف ابن كثير وابن محيصن على قوله : « هَادٍ » فى الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء .

(١) ليل التمام : أطول ما يكون من ليالى الشتاء .

Marfat.com

قوله تعالى : أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد : يُرْمَى به مكتوفا في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجر على وجهه في النار، وقال مقاتل : هو أن الكافر يرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه، فحرها ووهجها على وجهه؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال . والخبر محذوف . قال الأخفش : أى « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ » أفضل أم من سعد، مثل « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أى وتقول الخزنة للكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أى جزاء كسبكم من المعاصى . ومثله « هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تقدم معناه (١) . وقال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته، أى وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لها . قال : والخزى من المكروه والخزاية من الاستحياء . ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أى مما أصابهم فى الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثـل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وقيـل : أى ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحال . قال الأخفش : لأن قوله جل وعز « فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ » معرفة . وقال على بن سليمان : « عَرَبِيًّا » نصب على الحال و « قُرْآنًا » توطئـة للحال كما تقول مررت بزيد رجلا صالحا فقولك صالحا هو المنصوب على الحال . وقال الزجاج : « عَرَبِيًّا » منصوب على الحال و « قُرْآنًا » توكيد . ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ النحاس : أحسن ما قيل فيه قول الضحاك، قال : غير مختلف . وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي . وعن ابن عباس أيضا غير مخلوق ، ذكره المهدوى وقاله السدى فيما ذكر الثعلبي . وقال عثمان بن عفان : غير متضاد . وقال مجاهد : غير ذى لبس . وقال بكر بن عبـد الله المزنى : غير ذى لحن . وقيل : غير ذى شك . قاله السدى فيما ذكره المـاوردى . قال :

وقـد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذى عِوَجٍ * من الإلهِ وقـولٌ غيرُ مكذوبِ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والكذب .

قوله تعـالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

قوله تعـالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ قال الكسائى : نصب « رجلا » لأنه ترجمة للمثـل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض ، مجازه : ضرب الله مثـلا برجل « فِيـهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرّد : أى متعاسرون من شكُس يشكُس شُكْسًا [بوزن قفـل](١) فهو شَكِسٌ مثـل عَسُر يعسُر عُسْرا فهو عسِر؛ يقال : رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ . و يقال : رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ أى

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبى .

Marfat.com

شَرِسٌ عسِرٌ شَكِسٌ ؛ قاله الجوهري . الزمخشري : والتشاكس والتشاخس الاختلاف . يقال : تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه . ويقال : شاكسني فلان أي ماكسني وشاحّني في حقّ . قال الجوهري : رجل شَكْس بالتسكين أي صَعْب الخُلُق . قال الراجز :

* شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ *

وقوم شُكْسٌ مثال رَجُلٌ صَدْق وقوم صُدْق . وقد شَكِس بالكسر شَكَاسةً . وحكى الفراء : رجل شَكِسٌ . وهو القياس ، وهذا مَثَل من عبد آلهة كثيرة . ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصا لسيد واحد ، وهو مَثَل من يعبد الله وحده . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء ، أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، لا يلقاه رجل إلا جره وآستخدمه ؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته ، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد ، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم . وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة « وَرَجُلاً سَلَماً » وقرأ آبن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدري وأبو عمرو وآبن كثير ويعقوب «وَرَجُلاً سَالِماً» وآختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه . قال : لأن السالم الخالص ضدّ المشترك ، والسَّلَم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هنا . النحاس : وهذا الاحتجاج لا يلزم ؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فهذا وإن كان السلم ضدّ الحرب فله موضع آخر ، كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك . ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره ؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به . والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة . وآختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة «سَلَماً» قال وهذا الذي لا تنازع فيه . وقرأ سعيد آبن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام وسِلْماً وسَلَما مصدران ، والتقدير ؛ ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و « مَثَلاً » صفة على التمييز ، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاهما . وإنما آقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيتبعونه .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقرأ آبن محيصن وآبن أبى عبلة وعيسى بن عمر وآبن أبى إسحق « إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ » وهى قراءة حسنة وبهـا قرأ عبد الله بن الزبير . النحاس : ومثل هذه الألف تحذف فى الشواذ و « مائت » فى المستقبل كثير فى كلام العـرب ؛ ومثله ما كان مريضا وإنه لمـارض من هـذا الطعام . وقال الحسن والفـراء والكسائى : الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والمَيْت بالتخفيف من فارقتـه الروح ؛ فلذلك لم تخفف هنا . قال قتادة : نُعيت إلى النبى صلى الله عليـه وسلم نفسُه ، ونُعيت إليكم أنفسُكم . وقال ثابت البُنَانى : نَعَى رجلٌ إلى صلة بن أَشْيَم أخًا له فوافقـه يأكل ، فقال : آدنُ فكُلْ فقد نُعِى إلى أخى منذ حين ؛ قال : وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر . قال إن الله تعالى نعاه إلىّ فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أخبره بموته وموتهم ؛ فاحتمل خمسـة أوجه : أحدها أن يكون ذلك تحـذيرا من الآخرة . الثـانى أن يذكره حثا على العمل . الثـالث أن يذكره توطئة للموت . الرابع لئلا يختلفوا فى موته كما آختلفت الأمم فى غيره ، حتى أن عمر رضى الله عنه لمـا أنكر موته آحتج أبو بكر رضى الله عنه بهذه الآية فأمسك . الخامس ليعلمه أن الله تعالى قـد سوّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم فى غيره ؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيـه الحسرة . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يعنى تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم ؛ قاله آبن عباس وغيره . وفى خبر فيه طول : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد . وقال الزبير : لمـا نزلت هـذه الآية قلنا : يارسول الله ! أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : "نعم ليكررن عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذى حقّ حقّه" فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد . وقال آبن عمر : لقـد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين "ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْـدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ" فقلنا : وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد ، حتى رأيت

Marfat.com

بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها فينا نزلت . وقال أبو سعيد الخدرى : كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة . فلما كان يوم صِفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا . وقال إبراهيم النَّخَعى : لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : ما خصومتنا بيننا ؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هذه خصومتنا بيننا . وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفى من حسنات الظالم بقدر مظلمته ، ويردّها فى حسنات من وجبت له . وهذا عام فى جميع المظالم كما فى حديث أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون من المفلس" قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار" خرجه مسلم. وقد مضى المعنى مجودا فى «آل عمران»(1) وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كانت له مظلمة لأحد من عِرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته و إن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" وفى الحديث المسند "أول ما تقع الخصومات فى الدنيا" وقد ذكرنا هذا الباب كله فى « التذكرة » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ فزعم أن له ولدا وشريكا ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ آستفهام تقرير ﴿ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مقام للجاحدين وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْـوِى ثَوَاء وثُوِيًّا مثـل مَضَى مَضَاء ومُضِيًّا ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى وهـذا يدل على أن ثَوَى هى اللغة الفصيحة . وحكى أبو عبيد أَثْوَى وأنشد قول الأعشى :

أَثْـوَى وقَصَّـرَ لَيْـلَهُ لِـيُزَوَّدا * ومَضَى وأَخْلَفَ مِن قُتَيْـلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعي لا يعرف إلا ثَوَى، ويروى البيت أَثَوَى على الآستفهام . وأَثْوَيْتُ غيرى يتعدى ولا يتعـدّى .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ فى موضع رفع بالآبتداء وخبره ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وآختلف فى الذى جاء بالصدق وصدق به؛ فقال على رضيَ الله عنه : «الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ» النبي صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » أبو بكر رضى الله عنه . وقال مجاهد : النبي عليه السلام وعليّ رضى الله عنه . السدى : الذى جاء بالصدق جبريل صلى الله عليه وسلم والذى صدّق به محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال آبن زيد ومقاتل وقتـادة : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبي صلى الله عليه وسلم «وَصَدَّقَ بِهِ» المؤمنون. وآستدلوا على ذلك بقوله : «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» كما قال : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . وقال النخعى ومجاهد : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَـدَّقَ بِهِ » المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون : هذا الذى أعطيتمونا قد آتبعنا ما فيه؛ فيكون « الذى » على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع . وقيل : بل حذفت منه النون لطـول الآسم، وتأوله الشعبى على أنه واحد . وقال : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ » محمد صـلى الله عليه وسلم فيكون على هـذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظم هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا . وقيل : إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله آبن عباس وغيره وآختاره الطبرى . وفى قراءة آبن مسعود « وَالَّذِى جَاءُوا بِالصدقِ وَصَدَّقُوا بِهِ » وهى قراءة على التفسير، وفى قراءة أبى صالح الكوفى « وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ » مخففا على معنى وصدق بمجيئه

Marfat.com

به، أى صدق فى طاعة الله عز وجل، وقــد مضى فى « البقرة »[1] الكلام فى « الذى » وأنه يكون واحدا ويكون جمعا . ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى من النعيم فى الجنة، كما يقال: لك إكرام عندى ؛ أى ينالك منى ذلك . ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الثناء فى الدنيـا والثواب فى الآخــرة .

قوله تعـالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى صدّقوا « لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ » . ﴿ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أى يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام . ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى يثيبهم على الطاعات فى الدنيا ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهى الجنة .

قوله تعـالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ حذفت الياء من « كافٍ » لسكونها وسكون التنوين بعـدها ؛ وكان الأصل ألا تحذف فى الوقف لزوال التنوين ، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك فى الوصل . ومن العرب من يثبتها فى الوقف على الأصل فيقول : كافى . وقراءة العامة « عَبْدَهُ » بالتوحيد يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم . وقـرأ حمزة والكسائى « عِبَادَهُ » وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهـم . وآختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه : « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » . ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس ؛ كقوله عز من قائل : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وعلى هـذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانيـة . والكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوّفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السـلام وكيف « أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ » . وقال الجرجانى : إن الله كافٍ عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم مَضرّة الأوثان ، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكفّ عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها ياخالد فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العُزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس . وتخويفهم لخالد تخويف للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الذى وجه خالدا . ويدخل فى الآية تخويفهم النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ تقدم . ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ ﴾ أى ممن عاداه أو عادى رسله .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أى ولئن سألتهم يا محمد ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرّون بأن الخالق هو الله ، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلهتهم التى هى مخلوقة لله تعالى ، وأنت رسول الله الذى خلقها وخلق السموات والأرض . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا « أَفَرَأَيْتُمْ » ﴿ إِنْ أَرَادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة و بلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ يعنى هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَرَادَنِى

Marfat.com

بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ قال مقاتل : فسألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لاتدفع شيئا قدّره الله ولكنها تشفع . فنزلت ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ؛ يعنى فسيقولون لا [أى لا تكشف ولا تمسك](١) فـ « قُلْ » أنت « حَسْبِيَ اللَّهُ » أى عليه توكلت أى آعتمدت و ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يعتمد المعتمدون . وقد تقدّم الكلام فى التوكل(٢) . وقرأ نافع وآبن كثير والكوفيون ما عدا عاصما « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » بغير تنوين . وقرأ أبو عمرو وشيبة وهى المعروفة من قراءة الحسن وعاصم « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ » . « مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ » بالتنوين على الأصل وهو آختيار أبي عبيد وأبى حاتم ؛ لأنه آسم فاعل فى معنى الآستقبال ، و إذا كان كذلك كان التنوين أجود . قال الشاعر :

الضاربون عُمَيْرًا عن بيوتهم * بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادى

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين ، وحذف التنوين على التحقيق ، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الآسمين حاجز فخفضت الثانى بالإضافة . وحذف التنوين كثير فى كلام العرب موجود حسن؛ قال الله تعالى : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ » وقال : « إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ » قال سيبويه : ومثل ذلك « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ » وأنشد سيبويه :

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا * أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

وقال النابغة :

آحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ * إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ(٣)

معناه واردٍ الثّمد فحذف التنوين ؛ مثل « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ آعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أى على مكانتى أى على جهتى التى تمكنت عندى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقرأ أبو بكر « مَكَانَاتِكُمْ » وقد مضى فى «الأنعام»(٤).

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ وص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) يقول الشاعر للنعمان بن المنذر وكان واجدا عليه : كن حكيما فى أمرى كحكم زرقاء اليمامة فى حزرها للحمام التى مرت طائرة بها . وخبرها مشهور . والشراع : الموضع الذى ينحدر منه إلى الماء . والثمد : الماء القليل على وجه الأرض .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى يهينه ويذله أى فى الدنيا وذلك بالجوع والسيف . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أى فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ تقدم الكلام فى هذه الاية مستوفى فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أى يقبضها عند فناء آجالها ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ اختلف فيــه . فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقــاء أرواحها فى أجسادها ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴾ وهى النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها ؛ قاله ابن عيسى (٢) . وقال الفــراء : المعنى ويقبض التى لم تمت فى منامها عند انقضاء أجلها . قال : وقد يكون توفيها نومها ؛ فيكون التقدير على هذا والتى لم تمت وفاتها نومها . وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنــام فتتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها . وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أى يعيدها . قال على رضى الله عنه : فما رأته نفس النــائم وهى فى السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأته بعــد إرسالها وقبل استقرارها فى جسدها تلقيها الشياطين ، وتخيل إليهــا الأباطيل فهى الرؤيا الكاذبة .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى نسخة : قاله أبو عيسى .

Marfat.com

وقال آبن زيد : النوم وفاة والموت وفاة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون" . وقال عمر : النوم أخو الموت . وروى مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله قيل : يا رسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : "لا النوم أخو الموت والجنــة لا موت فيها" خرجه الدارقطني . وقال آبن عباس : فى آبن آدم نَفْس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التى بها العقل والتمييز، والروح التى بهــا النفس والتحريك ، فإذا نام العبــد قبض الله نَفْسه ولم يقبض روحه . وهــذا قول آبن الأنبارى والزجاج ، قال القشيرى أبو نصر : وفى هــذا بُعْد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالين شيء واحد ؛ ولهــذا قال : « فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَى عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِـلُ ٱلْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فإذًا يقبض الله الروح فى حالين فى حالة النوم وحالة الموت ، فمــا قبضه فى حال النــوم فمعناه انه يغمره بمــا يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض ، وما قبضــه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة . وقوله : «وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَى» أى يزيل الحابس عنه فيعود كما كان ، فتوفى الأنفس فى حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة فى محل الإدراك . وتوفيها فى حالة الموت بخلق الموت و إزالة الحس بالكلية. « فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَى عَلَيْهَــا ٱلْمَوْتَ » بألا يخــلق فيها الإدراك كيف وقــد خلق فيها الموت ؟ « وَيُرْسِــلُ ٱلْأُخْرَى » بأن يعيد إليها الإحساس .

الثانيــــة ــ وقد آختلف الناس من هذه الآية فى النفس والروح ؛ هل هما شيء واحد أو شيئان على ما ذكرنا . والأظهر أنهما شيء واحد، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره فى هذا الباب. من ذلك حديث أم سَلَمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سَلَمة وقد شَقّ[(1)] بصرُه فأغمضه، ثم قال: "إن الرُّوح إذا قُبِض تَبِعه البصر" وحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصرُه" قال: "فذلك حين يَتْبَع بصرُه نَفْسَه" خرجهما مسلم . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(١) شق بصره : أى آنفتح .

Marfat.com

" تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا آخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب آخرجى حميدة وأبشرى بروْح وريحان وربّ راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يُعرج بها الى السماء " وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه آبن ماجه ؛ وقد ذكرناه فى «التذكرة». وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: "إذا خرجت رُوح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها" . وذكر الحديث. وقال بلال فى حديث الوادى : أخذ بنفْسى يارسول الله الذى أخذ بنفسك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلا له فى حديث زيد بن أسلم فى حديث الوادى : " يأيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا فى حين غير هذا".

الثالثة — والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة ، يُجذب ويُخرج وفى أكفانه يُلف ويُدرج ، وبه إلى السماء يُعرج ، لايموت ولا يفنى ، وهو مما له أول وليس له آخر ، وهو بعينين ويدين ، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة ؛ كما فى حديث أبى هريرة . وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض ؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله فى كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » يعنى النفس إلى خروجها من الجسد ؛ وهذه صفة الجسم . والله أعلم .

الرابعة — خرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا آوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليسم الله فإنه لايعلم ماخلفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن وليقل سبحانك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكتَ نفْسى فآغفر لها " . وقال البخارى وآبن ماجه والترمذى : "فآرحمها" بدل " فآغفر لها " " وإن أرسلتها فآحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين" زاد الترمذى " وإذا آستيقظ فليقل الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ علىّ روحى وأذن لى بذكره". وخرج البخارى عن حُذَيْفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ؛ ثم يقول : " اللهم بآسمك أموت وأحيا " وإذا آستيقظ قال : " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل « الْمَوْتَ » نصبا؛ أى قضى الله عليها وهو آختيار أبي حاتم وأبي عبيد ؛ لقوله فى أول الآية : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ » فهو يقضي عليها . وقرأ الأعمش ويحيي بن وثاب وحمزة والكسائى « قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ » على ما لم يسم فاعله . النحاس : والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام ؛ لأنهم قد أجمعوا على « وَيُرْسِلُ » ولم يقرءوا « ويُرْسَل » . وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته وآنفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ، ويحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك سواه . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعنى فى قبض الله نَفْس الميت والنائم ، وإرساله نَفْس النائم وحبسه نَفْس الميت ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .وقال الأصمعي سمعت معتمرا يقول : روح الإنسان مثل كُبَّة الغَزْل[1] ، فترسَل الروح ، فتمضى ثم تمضى ثم تطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شيء فى حال النوم ومعظمها فى البدن متصل بما يخرج منها آتصالا خفيا، فإذا آستيقظ المرء جذب معظم روحه ما آنبسط منها فعاد . وقيل : غير هذا؛ وفى التنزيل : «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أى لا يعلم حقيقته إلا الله . وقد تقدّم فى « سبحان[2] » .

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أى بل آتخذوا يعنى الأصنام وفى الكلام ما يتضمن لم ؛ أى « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » لم يتفكروا ولكنهم آتخذوا آلهتهم شفعاء . ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ أى قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا

(١) كبة الغزل : ما جمع منه .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

لا يملكون شيئا من الشفاعة ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات . وهذا آستفهام إنكار .
﴿ قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » فلا شافع إلا من شفاعته « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى » . « جَمِيعًا » نصب على الحال . فإن قيل : « جَمِيعًا » إنما يكون للآثنين فصاعدا والشفاعة واحدة . فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدى عن الآثنين والجميع ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، وعلى الحال عند يونس . ﴿ ٱشْمَأَزَّتْ ﴾ قال المبرد : آنقبضت . وهو قول آبن عباس ومجاهد . وقال قتادة : نفرت وآستكبرت وكفرت وتعصت . وقال المؤرِّج : أنكرت . وأصل الآشمئزاز النفور والآزورار . قال عمرو بن كلثوم :

إذا عَضَّ الثِّقافُ بها آشْمَأَزَّتْ * وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونا (١)

وقال أبو زيد : آشمأزّ الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور . وكان المشركون إذا قيل لهم « لا إله إلا الله » نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان حين ألقى الشيطان فى أمنية النبى صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة « والنجم » تلك الغرانيقُ العُلَى و إن شفاعتهم تُرْتَجى (٢) . قاله جماعة المفسرين . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى يظهر فى وجوههم البشر والسرور .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

(١) الثقاف ما تقوم به الرماح . وعشوزنة صلبة شديدة . والزبون الدفوع . والبيت فى وصف قناة ، وقبله :
فإن قناتنا يا عمرو أعيت * على الأعداء قبلك أن تلينا

(٢) راجع ما قيل فى هذا الكلام من منافاته للعصمة وتأويلات فى قوله تعالى فى سورة الحج : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » جـ ١٢ ص ٧٩ وما بعدها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتا . ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " ولما بلغ الربيع بن خُثَيْم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » . وقال سعيد بن جبير : إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم . وقد مضى هذا في سورة « آل عمران »(١) و« الرعد »(٢) . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ من أجل ما روى فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات . وقاله السدي . وقيل : عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا ، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة . ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ « بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » من دخول النار . وقال سفيان الثوري في هذه الآية : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة ابن عمار . جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال :

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

أخاف آية من كتاب الله « وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ » فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصى . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ونزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ قيل : إنها نزلت فى حُذَيفة بن المغيرة . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال قتادة : « عَلَى عِلْمٍ » عندى بوجوه المكاسب ، وعنه أيضا « عَلَى عِلْمٍ » على خير عندى . وقيل : « عَلَى عِلْمٍ » أى على علم من الله بفضلى . وقال الحسن : « عَلَى عِلْمٍ » أى بعلم علمنى الله إياه . وقيل : المعنى أنه قال قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند الله منزلة ؛ فقال الله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى بل النعم التى أوتيتها فتنة تختبر بها . قال الفراء : أنث « هى » لتأنيث الفتنة، ولو كان بل هو فتنة لجاز . النحاس : التقدير بل أعطيته فتنة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون أن إعطاءهم المال آختبار .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أنث على تأنيث الكلمة . ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « ما » للجحد أى لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقيل :

Marfat.com

أى فما الذى أغنى أموالهم ؟ فـ « ـما » آستفهام . ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم . وقد يسمى جزاء السيئة سيئة . ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا ﴿ مِنْ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الأمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى بالجوع والسيف . ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين الله ولا سابقيه . وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذى يتدبر الايات وينتفع بها ، و يعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا وآستدراجا ، وتقتيره رفعة و إعظاما .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وإن شئت حذفت الياء؛ لأن النداء موضع حذف . النحاس : ومن أجلّ ما روى فيه ما رواه محمد بن إسحق عن نافع عن آبن عمر عن عمر قال : لما آجتمعنا على الهجرة، آتعدتُ

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ٨ ص ٣٥١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

أنا وهشام بن العاصي بن وائل السّهمى، وعيّاش بن أبى ربيعة بن عُتْبة ، فقلنا : الموعد أضاة بنى غفار (١) ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِس فليمض صاحبه ؛ فأصبحت أنا وعيّاش ابن عتبة وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتِن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضا يقولون هذا فى أنفسهم، فأنزل الله عز وجل فى كتابه : «قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» إلى قوله تعالى : «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ» قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت علىّ خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية «قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» ذكره البخارى بمعناه . وقد مضى فى آخر «الفرقان» (٢) . وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونُسْلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ! فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة، وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية . وقال ابن عباس أيضا وعطاء : نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ؛ وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحْشىّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله" قال: فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت

(١) الأضاة غدير . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى، أو ثانية .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ » إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطا فلعلى لا أعمل صالحا، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلى ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » فقال: نعم الآن لا أرى شرطا. فأسلم. وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ولا يبالي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ». وفي مصحف ابن مسعود « إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ ». قال أبو جعفر النحاس: وهاتان القراءتان على التفسير؛ أي يغفر الله لمن يشاء. وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة، ودل على أنه يريد التائب ما بعده « وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ » فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا، يدل على ذلك « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » فهذا لا إشكال فيه. وقال علي بن أبي طالب: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وقد مضى هذا في « سبحان »(١). وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن فرد عليهم ابن عباس وقال أرجى آية في القرآن قوله تعالى: « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » وقد مضى في « الرعد »(٢). وقرئ « وَلَا تَقْنِطُوا » بكسر النون وفتحها. وقد مضى في « الحجر »(٣) بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة. لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي اخضعوا له وأطيعوا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ في الدنيا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية.

Marfat.com

﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أى لا تمنعون من عذابه . وروى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من السعادة أن يطيل الله عمر المرء فى الطاعة ويرزقه الإنابة وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله " .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن وكله حسن، والمعنى ما قال الحسن: ٱلتزموا طاعته، وٱجتنبوا معصيته . وقال السدى : الأحسن ما أمر الله به فى كتابه . وقال ابن زيد : يعنى المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقال : أنزل الله كتبا التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر بٱتباعه فهو الأحسن وهو المعجز . وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة . وقيل : يعنى العفو؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص . وقيل ما علّم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن . وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا﴾ «أن» فى موضع نصب أى كراهة «أَنْ تَقُولَ» وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر «أَنْ تَقُولَ» . وقيل : أى من قبل « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » لأنه قال قبل هذا : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ » . الزمخشرى : فإن قلت لم نكّرت؟ قلت؛ لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يريد نفسا متميزة من الأنفس، إما بلجاج فى الكفر شديد، أو بعقاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ ✽ أتانى كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا ، ونظيره رُبَّ بلدٍ قطعت ، ورُبَّ بطلٍ قارعت، ولا يقصد إلا التكثير . «يَا حَسْرَتَا» والأصل «يا حسرتى» فأبدل من الياء الفا؛ لأنها أخف وأمكن فى الاستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء :

يا مَرْحباهُ بحمارٍ ناجِيَهْ[1] ✽ إذا أتَى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ

(١) الناجية : السريعة . وفى تفسير الفراء ناهية بدل ناجية وكذا روى فى اللسان وشرح القاموس فى مادة سنا . والسانية هنا مصدر على فاعلة بمعنى الاستسقاء؛ أراد قربته للسناية .

Marfat.com

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر «يَا حَسْرَتَاىَ» والحسرة الندامة. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ قال الحسن: فى طاعة الله. وقال الضحاك: أى فى ذكر الله عز وجل. قال: يعنى القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة: فى جنب الله أى فى ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال فلان يعيش فى جنب فلان أى فى جواره ومنه «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ» أى على مافرطت فى طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أى على ما فرطت فى الطريق الذى هو طريق الله الذى دعانى إليه. والعرب تسمى السبب والطريق إلى الشيء جنبا؛ تقول تجرعت فى جنبك غصصا؛ أى لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: «فِي جَنْبِ اللهِ» أى فى الجانب الذى يؤدى إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمى الجانب جنبا؛ قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُودا لِذاكَ الْقَلْبُ　*　النَّاسُ جَنْبٌ والأَمِيرُ جَنْبُ

يعنى الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أى تركت من أمر الله؛ يقال ما فعلت ذلك فى جنب حاجتى؛ قال كُثَيِّر:

أَلَا تَتَّقِينَ اللهَ فى جَنْبِ عاشِقٍ　*　له كَبِـدٌ حَرَّى عليكِ تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد؛ أى ضيعت من أمر الله. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما جلس رجل مجلسا ولا مشى مَمْشًى ولا اضطجع مضطجعا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه تِرَةً يوم القيامة" أى حسرة (١)؛ خرجه أبو داود بمعناه. وقال إبراهيم التيمى: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذى آتاه الله فى الدنيا يوم القيامة فى ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذى خوّله الله إياه فى الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلا يعرفه أعمى فى الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمى هو. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أى وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول فى الدنيا وبأولياء الله. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع

(١) فسرها ابن الأثير فى النهاية بالنقص أو التبعة.

Marfat.com

طاعة لله حتى سخر من أهلها . ومحل « إن كنت » النصب على الحال؛ كأنه قال : فرطت وأنا ساخر؛ أي فرطت في حال سخريتي . وقيل وما كنت إلا في سخرية ولعب وباطل؛ أي ما كان سعيي إلا في عبادة غير الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ هذه النفس ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي ﴾ أي أرشدني إلى دينه ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الشرك والمعاصي . وهذا القول لو أن الله هداني لاهتديت قول صدق . وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم في قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا » فهي كلمة حق أريد بها باطل ؛ كما قال علي رضي الله عنه لما قال قائل من الخوارج لا حكم إلا لله . ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ يعني هذه النفس ﴿ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي رجعة . ﴿ فَأَكُونَ ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفا على « كَرَّةً » لأن معناه أن أكر ؛ كما قال الشاعر[(1)] :

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي * أَحَبُّ إلَيَّ مِن لُبْسِ الشُّفُوفِ

وأنشد الفراء :

فَمَالَكَ مِنها غَيْرُ ذِكْرَى وخَشْيَةٍ * وتَسْأَلَ عن رُكْبَانِها أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و(تسأل) على موضع الذكرى؛ لأن معنى الكلام فمالك منها إلا أن تذكر . ومنه للبس عباءة وتقر ؛ أي لأن ألبس عباءة وتقر . وقال أبو صالح : كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد رقعة؛ إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال : ولأي شيء أتعب نفسي فترك عمله وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس : لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب ، فأخذ في الفسوق وأنفق ماله في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان ، فقال : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه الندم؛ فأنزل الله خبره في القرآن . وقال

(١) قائله ميسون بنت بحدل الكلبية .

Marfat.com

قتادة : هؤلاء أصناف ؛ صنف منهم قال : « يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ » . وصنف منهم قال : « لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وقال آخر : « لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » فقال الله تعالى ردًا لكلامهم ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ قال الزجاج : «بلى» جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي، ولكن معنى «لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي» ماهداني، وكأن هذا القائل قال ما هديت؛ فقيل: بلى قد بين لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن. «آيَاتِي» أي القرآن . وقيل : عنى بالآيات المعجزات؛ أي وضع الدليل فأنكرته وكذبته . ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ أي تكبرت عن الإيمان ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال : « استكبرت وكنت » وهو خطاب الذكر ؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى . يقال : ثلاثة أنفس . وقال المبرد : تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد. وروى الربيع ابن أنس عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ «قَدْ جَاءَتْكِ آيَاتِي فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ». وقرأ الأعمش «بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ آيَاتِي» وهذا يدل على التذكير. والربيع ابن أنس لم يلحق أم سلمة إلا أن القراءة جائزة؛ لأن النفس تقع للمذكر والمؤنث . وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات . قال النحاس : وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبله «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال : « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات . والتقدير في العربية على كسر التاء «وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ» من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ أى مما أحاط بهـم من غضب الله ونقمته . وقال الأخفش : « ترى » غير عامل فى قـوله : « وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ » إنما هو ابتداء وخبر . الزمخشرى : جملة فى موضع الحال إن كان «تَرَى» من رؤية البصر، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب . ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال عليه السلام : "سفهُ الحقِّ وغمْصُ النـاس" أى احتقارهم . وقد مضى فى «البقرة»(١) وغيرها . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم".

قوله تعـالى : ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرئ « ويُنْجِى » أى من الشرك والمعاصى . ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر . وقرأ الكوفيون «بِمفازاتِهم» وهو جائز كما تقول بسعاداتهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة، قال : "يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُعْب أو خَوْف قال له لا تُرَع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنيّ به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفنى أنا عملك الصالح حملتنى على ثِقلى فوالله لأحملنك ولأدفعنّ عنك فهى التى قال الله « وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَـوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »". ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى حافظ وقائم به . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واحدها مِقليد . وقيـل : مِقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره . وقال السدى : خزائن السموات والأرض . وقال غيره : خزائن السـموات المطر وخزائن الأرض النبـات . وفيـه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد ، قال الجوهرى : والإقليد المفتاح، والمِقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقلد القتّ إذا جعل حِبالا ؛ أى يفتل والجمع المقاليد . وأقلد البحـرُ على خلق كثير أى غرّقهم كأنه أغلق عليهم . وخرج البيهقى عن ابن عمر أن عثمان بن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

عفان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماسألني عنها أحد لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير" ذكره الثعلبي في تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال: أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره آثنا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضا من الأجر كمن حج وآعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا . وروى الحارث عن عليّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد فقال : " ياعليّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير" من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية يعطى قنطارا في الجنة هو أثقل في ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لاينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين، والخامسة يشهده آثنا عشر ألف ملك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج وآعتمر فقبل الله حجته وعمرته ، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء . وقيل : المقاليد الطاعة يقال ألقى إلى فلان بالمقاليد أي أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية له طاعة من في السموات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أي بالقرآن والحجج والدلالات . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ وذلك حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك . و « غَيْرَ » نصب بـ « أَعْبُدُ » على تقدير أعبد غير الله فيما تأمرونى . ويجوز أن ينتصب بـ « تَأْمُرُونِّي » على حذف حرف الجر ؛ التقدير : أتأمرونّى بغير الله أن أعبده ؛ لأنّ أن مقدرة وأن والفعل مصدر، وهى بدل من غير ؛ التقدير : أتأمرونّى بعبادة غير الله . وقرأ نافع « تَأْمُرُونِيَ » بنون واحدة مخففة وفتح الياء . وقرأ ابن عامر « تَأْمُرُونَنِي » بنونين مخففتين على الأصل . الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها وقعت فى مصحف عثمان بنون واحدة . وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية ؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها ، وأيضا حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع . وقد مضى فى «الأنعام»(1) بيانه عند قوله تعالى : « أَتُحَاجُّونِّي » . « أَعْبُدُ » أى أن أعبد فلما حذف « أن » رفع؛ قاله الكسائى . ومنه قول الشاعر :

* أَلَا أَيُّهَذَا الزاجِرِى أَحْضُرُ الوَغَى(2) *

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ « أَعْبُدَ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ قيل : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا ؛ والتقدير : لقد أوحى إليك لئن أشركت وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك . وقيل : هو على بابه ؛ قال مقاتل : أى أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف . ثم قال : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ » يا محمد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهو خطاب للنبي

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (2) البيت من معلقة طرفة وتمامه :

* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى *

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : الخطاب له والمراد أمته ؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك . والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيري : فمن آرتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر؛ ولهذا قال : « مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » فالمطلق ها هنا محمول على المقيد؛ ولهذا قلنا من حج ثم آرتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج .

قلت : هذا مذهب الشافعي . وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في « البقرة »(١) بيان هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ النحاس : في كتابي عن أبي إسحق لفظ آسم الله عز وجل منصوب بـ « ـا عْبُدْ » قال: ولا آختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين . قال النحاس : وقال الفراء يكون منصوبا بإضمار فعل . وحكاه المهدوي عن الكسائي . فأما الفاء فقال الزجاج : إنها للمجازاة . وقال الأخفش : هي زائدة . وقال آبن عباس : «فاعْبُدْ» أي فوحد . وقال غيره: « بَلِ اللهَ» فأطع ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمه بخلاف المشركين .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال المبرد : ما عظّموه حقّ عظمته من قولك فلان عظيم القدر . قال النحاس : والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ . ثم نزه نفســه عن أن يكون ذلك بجارحة

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الترمذى عن عبدالله قال : جاء يهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض". وفى الترمذى عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » قالت : قلت فأين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : "على جسر جهنم" فى رواية " على الصراط يا عائشة " قال : حديث حسن صحيح . وقوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ» " و يقبض الله الأرض " عبارة عن قدرته و إحاطته بجميع مخلوقاته ؛ يقال ما فلان إلا فى قبضتى ، بمعنى ما فلان إلا فى قدرتى ، والناس يقولون الأشياء فى قبضته يريدون فى ملكه وقدرته . وقد يكون معنى القبض والطى إفناء الشيء و إذهابه فقوله جل وعز : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة ، والمراد بالأرض الأرضون السبع ؛ يشهد لذلك شاهدان قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا » ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتضٍ للبالغة . وقوله : « وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ليس يريد به طيا بعلاج وانتصاب ، و إنما المراد بذلك الفناء والذهاب ؛ يقال : قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره . وانطوى عنا دهر بمعنى المضى والذهاب . واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يريد به الملك ؛ وقال : « لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » أى بالقوة والقدرة أى لأخذنا قوته وقدرته . قال الفراء والمبرد : اليمين القوة والقدرة . وأنشدا :

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ * تَلَقَّاهَا عَرابَةُ بِالْيَمِينِ (١)

(١) قائله الحطيئة . وقيل هو للشماخ .

Marfat.com

وقال آخـــر :

ولمـا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها * تَنـاولتُ مِنْهـا حاجَـتِي بِيَمِينِ (١)
قَتلتُ شُنَيْفا ثم فارانَ بَعدهُ * وكان على الآياتِ غَــيرَ أَمِينِ

وإنمـا خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قـدرته شاملة لكل شيء أيضا ؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليــوم، كما قال : « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِـذٍ لِلهِ » وقال : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » حسب ما تقدّم فى « الفاتحة (٢) » ولذلك قال فى الحـديث : "ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وقد زدنا هذا الباب فى «التذكرة» بيانا، وتكلمنا على ذكر الشمال فى حديث ٱبن عمر، قوله : "ثم يطوى الأرض بشماله" .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ بين ما يكون بعـد قبض الأرض وطى السماء وهو النفخ فى الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق فى الأولى منهما ويحيون فى الثانية. وقد مضى الكلام فى هذا فى «النمل (٣)» و «الأنعام (٤)» أيضا . والذى ينفخ فى الصور هو إسرافيل عليه السلام . وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "إن صاحبي الصور بأيديهما — أو فى أيديهما — قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران" خرجه ٱبن ماجه فى السنن . وفى كتاب أبى داود عن أبى سعيد الخدرى قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور، وقال : "عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل" . وٱختلف فى المستثنى من هم؟ فقيل : هم الشهداء متقلّدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعا من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى، ومن حديث عبـد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي . وقيــل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم الســلام . وروى من حديث أنس أن النبي صــلى الله عليه وســلم تلا « وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَعِقَ مَنْ

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر على هذين البيتين فيما لدينا من المراجع . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » فقالوا : يا نبى الله من هم الذين استثنى الله تعالى ؟ قال : " هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فيقول الله لملك الموت يا ملك الموت من بقى من خلق وهو أعلم فيقول يا رب بقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرافيل وميكائيل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى فيقول الله تعالى يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام " فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على الظرب(١) من الظراب " ذكره الثعلبى . وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحق، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله جل وعز : « فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » قال : "جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل" وفى هذا الحديث: "إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام" وحديث أبى هريرة فى الشهداء أصح على ماتقدم فى « النمل »(٢) . وقال الضحاك : هو رضوان والحور ومالك والزبانية . وقيل : عقارب أهل النار وحياتها . وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . وقال قتادة : الله أعلم بثنياه . وقيل : الاستثناء فى قوله : « إلا من شاء الله » يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى ؛ أى فيموت من فى السموات والأرض إلا من سبق موته ؛ لأنهم كانوا قد ماتوا . وفى الصحيحين وابن ماجه واللفظ له عن أبى هريرة قال قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى اصطفى موسى على البشر ؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) الظرب ككتف الجبل الصغير والجمع ظراب . وقد يجمع فى القلة على أظرب .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قال الله عز وجل « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ » فأكون أوّل من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى أو كان ممن آستثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " وخرجه الترمذى أيضا وقال فيه : حديث حسن صحيح . قال القشيرى : ومن حمل الآستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله . فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة ، ويجوز أن تكون بالموت ، ولا يبعد أن تكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوّزه العقل ، والأمر فى وقوعه موقوف على خبر صدق .

قلت : جاء فى بعض طرق أبى هريرة أنه عليه السلام قال : " لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أوّل من يفيق فإذا موسى باطش[1] بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن آستثنى الله " خرجه مسلم . ونحوه عن أبى سعيد الخدرى ؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية و زوال عقل لا عن موت بردّ الحياة . والله أعلم .

قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ » أى فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم ، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم ، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون . وقيل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذى وعدوا به . وقيل : هذا النظر بمعنى الانتظار ؛ أى ينتظرون ما يفعل بهم . وأجاز الكسائى قياما بالنصب ؛ كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا .

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾

---

(١) باطش بجانب العرش : أى متعلق به بقوة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها ؛ يقال : أشرقت الشمسُ إذا أضاءت وشَرَقت إذا طَلَعت . ومعنى « بِنُورِ رَبِّهَا » بعدل ربها ؛ قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ؛ والمعنى واحد ؛ أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض . وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتى لفصل القضاء . والمعنى أنها أشرقت بنورٍ خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك . وقيل : إنه اليوم الذى يقضى فيه بين خلقه ؛ لأنه نهار لا ليل معه . وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير « وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ » على مالم يسم فاعله وهى قراءة على التفسير . وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس ، وهو متعال عن [مشابهة[1]] المحسوسات، بل هو منوّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقا وإنشاء . وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عز وجل : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » يبين هذا الحديثُ المرفوع من طرق كثيرة صحاح " تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامون فى رؤيته " وهو يروى على أربعة أوجه : لا تُضامُون ولا تضارُون ولا تضامّون ولا تضارّون، فمعنى " لا تضامون " لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم فى الدنيا فى النظر إلى الملوك . و " لا تضارُون " لا يلحقكم ضير . و " لا تضامُّون " لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه . و " لا تضارّون " لا يخالف بعضكم بعضا ؛ يقال : ضارّه مُضارّة وضِرارا أى خالفـه .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ أى جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم . ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة

(١) فى الأصول : مباينة المحسوسات وهو تحريف .

Marfat.com

محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » . وقيل : المراد بالشهداء الذين آستشهدوا فى سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله ؛ قاله السدى . قال ابن زيد : هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . قال الله تعالى : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها ، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتى بيانه فى « قاف »[1] . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق والعدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك فتشهد الكتب إلزاما للحجة .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة . والزُّمَر الجماعات واحدتها زُمْرة كظُلْمة وغُرْفة . وقال الأخفش وأبو عبيدة : « زُمَرًا » جماعات متفرقة بعضها إثر بعض . قال الشاعر :

وتَرى النّاسَ إلى مَنْزِلِهِ * زُمَرًا تَنْتابُه بعدَ زُمَرْ

وقال آخر :

حتّى آحْزَأَلَّتْ * زُمَرٌ بعد زُمَرْ

(١) آية ٢١ من السورة المذكورة .

Marfat.com

وقيل : دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار . ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ جواب إذا، وهى سبعة أبواب . وقد مضى فى «الحجر»(١) . ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ واحدهم خازن نحو سَدَنة وسادن، يقولون لهم تقريعا وتوبيخا : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أى الكتب المنزلة على الأنبياء . ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾ أى يخوّفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ أى قد جاءتنا، وهذا ٱعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهى قوله تعالى : «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أى يقال لهم ٱدخلوا جهنم . وقد مضى الكلام فى أبوابها . قال وهب : تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع فى الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر . ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٢) تقدم بيانه .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعنى من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن ٱتقى الله تعالى وعمل بطاعته . وقال فى حق الفريقين «وَسِيقَ» بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزى والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف و يكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قيل : الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف . قال المبرد : أى سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب . وأنشد[(١)] :

فـلَوْ أَنَّهـا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيـعةً * ولٰكِنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح . وقال الزجاج : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا » دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل: الواو زائدة . قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله : « جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ » وحذف الواو فى قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم . ذكره المهدوى وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل فى أهل النار : «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا» دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال فى أهل الجنة « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها، والله أعلم . وقيل : إنها واو الثمانية وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية . قاله أبو بكر بن عياش . قال الله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ » وقال : «ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ» ثم قال فى الثامن « وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » وقال : «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ» وقال « ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا » وقد مضى القول فى هذا فى « براءة »[(٢)] مستوفى وفى « الكهف »[(٣)] أيضا .

(١) البيت لامرئ القيس . «وتموت جميعة» بمعنى أنه مريض فنفسه لاتخرج بمرة، ولكنها تموت شيئا بعد شىء، وهو معنى تساقط أنفسا . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانيـة . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قلت : وقد آستدل بهـذا من قال إن أبواب الجنة ثمـانية ؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب ، قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " ما منكم من أحد يتوضـأ فيُبْلِغ — أو فيُسْبِغ الوضوء[1] — ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمـانية يدخل من أيها شاء" خرجه مسلم وغيره . وقد خرج الترمذى حديث عمر هـذا وقال فيه : " فتح له من أبواب الجنة ثمـانية أبواب يوم القيامة " بزيادة من ، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «التذكرة» وآنتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا ، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد فى الحديث من ذلك ، فمن أراده وقف عليه هناك . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أى فى الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله . وقيـل : بالعمل الصالح . حكاه النقاش والمعنى واحد . وقال مقـاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » بمعنى التحية ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

قلت : خرج البخارى حديث القنطرة هـذا فى جامعه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَخْلُص المؤمنون من النـار فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيـا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذِن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا". وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ» وهذا يروى معناه عن علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أى إذا دخلوا الجنة

(١) يبلغ الوضوء : يوصل الوضوء إلى مواضعه ؛ فالوَضوء فيه مفتوح الواو . ومعنى يسبغ الوضوء يكمله على الوجه المسنون ؛ فالوُضوء فيه مضموم الواو . (هامش مسلم) .

Marfat.com

قالوا هذا . ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الجنة . قيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين ؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدى وأكثر المفسرين. وقيل : إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير . قوله تعالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ قيل : هو من قولهم أى نعم الثواب هذا . وقيل : هو من قول الله تعالى ؛ أى نعم ثواب المحسنين هذا الذى أعطيتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴾ يا محمد ﴿ حَافِّينَ ﴾ . أى محدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ؛ أى يصلّون حول العرش شكرا لربهم . والحافّون أخذ من حافات الشيء ونواحيه . قال الأخفش : واحدهم حافّ . وقال الفرّاء : لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين . ودخلت « مِن » على « حول » لأنه ظرف والفعل يتعدّى إلى الظرف بحرف وبغير حرف . وقال الأخفش : « مِنْ » زائدة أى حافين حول العرش . وهو كقولك : ماجاءنى من أحد، فمن توكيد . الثعلبى : والعرب تدخل الباء أحيانا فى التسبيح وتحذفها أحيانا، فيقولون : سبح بحمد ربك وسبح حمدا لله؛ قال الله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وقال : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بين أهل الجنة والنار . وقيل : قضى بين النبيين الذين جىء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل . ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقال قتادة فى هذه الآية : آفتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلزم الآقتداء به ، والأخذ فى آبتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده . وقيل : إن قول « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه . وروى من حديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر سورة « الزمر » فتحرك المنبر مرتين .

تم تفسير سورة « الزمر »

Marfat.com

تفسير سورة غافر، وهى سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول

وهى مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» والتى بعدها. وهى خمس وثمانون آية. وقيل ثنتان وثمانون آية.

وفى مسند الدارمى قال: حدّثنا جعفر بن عون عن مِسْعر عن سعد بن إبراهيم قال: كنّ الحواميم يسمين العرائس. وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحواميم ديباج القرآن" وروى عن ابن مسعود مثله. وقال الجوهرى وأبو عبيدة: وآل حم سور فى القرآن. قال ابن مسعود آل حم ديباج القرآن. قال الفراء: إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم؛ قال الْكُمَيْت:

وَجَدْنا لكم فى آلِ حَاميمَ آيةً * تأوَّلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ (١)

قال أبو عبيد: هكذا رواها الأموى بالزاى وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب. وقال أبو عبيدة: الحواميم سور فى القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

* وبالحواميم التى قد سُبِّعَتْ (٢) *

قال: والأولى أن تجمع بذوات حم. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "لكل شىء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هنّ روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحبّ أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم". وقال النبى صلى الله عليه وسلم: "مَثَل الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب" ذكرهما الثعلبى. وقال أبو عبيد: وحدّثنى حجاج بن محمد عن أبى معشر عن محمد بن قيس قال: رأى رجل سبع جوارٍ حسان مزينات فى النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم.

(١) الآية التى ذكرها هى قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» يقول الشاعر: من تأول هذه الآية لم يسعه إلا التشيع لآل النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم، وإبداء المودة. وتقى: ساكت عنه التقية. ويروى: تقى ومعرب، كمكلم أى مبين لما فى نفسه. (٢) صدره: * وبالطواسين التى قد ثلثت *

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ آختلف في معناه؛ فقال عكرمة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حمٓ » آسم من أسماء الله تعالى وهي مفاتيح خزائن ربك " وقال آبن عباس : « حمٓ » آسم الله الأعظم. وعنه: « الٓر » و « حمٓ » و « نٓ » حروف الرحمن مقطعة . وعنه أيضا : آسم من أسمــاء الله تعالى أقسم به . وقال قتادة : إنه آسم من أسماء القرآن . مجاهد : فواتح السور . وقال عطاء الخراساني : الحاء آفتتاح آسمه حميدٌ وحنّانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم آفتتاح آسمه ملك ومجيــدٌ ومنّانٌ ومتكبرٌ ومصوّرٌ ؛ يدل عليــه ما روى أنس أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما « حم » فإنا لا نعرفها في لساننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بدء أسماء وفواتح سور ". وقال الضحاك والكسائي : معناه قُضِيَ ما هو كائن . كأنه أراد الإشارة إلى تهجي « حمٓ » ؛ لأنهــا تصير حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم ؛ أي قُضِيَ ووَقَع . قال كعب بن مالك :

فلمّــا تلاقينــا ودارتْ بِنــا الرّحَى * ولَيْسَ لأمْرٍ حمّــه الله مَدْفَــعُ

وعنه أيضا : إن المعنى حُمّ أمر الله أي قَرُب؛ كما قال الشاعر :

قد حُمّ يومِي فسُــرّ قومٌ * قومٌ بهــم غَفْــلَةٌ ونومٌ

ومنه سميت الحُمّى ؛ لأنها تقترب من المنيّة . والمعنى المــراد قُرْب نصره لأوليائه ، وآنتقامه من أعدائه كيوم بدر . وقيل : حروف هجــاء ؛ قال الجرمي : ولهذا تقــرأ ساكنة الحروف

Marfat.com

لخرجت مخرج التهجى، وإذا سميت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأت «حمَ» فتنصب؛ قال الشاعر[1]:

يُذَكِّرنى حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ * فهلّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفى: «حمَ» بفتح الميم على معنى آقرأ حم أو لالتقاء الساكنين. آبن أبى إسحق وأبو السَّمّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك فى «حمٓ. عسٓقٓ». وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمـزة والكسائى وخلف وآبن ذكوان بالإمالة فى الحـاء. وروى عن أبى عمرو بين اللفظين وهى قراءة نافع وأبى جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مشبعا.

قوله تعـالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ آبتداء والخبر ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون «تَنْزِيلُ» خبرا لمبتدإ محذوف؛ أى هذا «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ». ويجوز أن يكون «حمٓ» مبتدأ و «تَنْزِيلُ» خبره والمعنى: إن القرآن أنزله الله وليس منقولا ولا مما يجوز أن يكذّب به.

قوله تعـالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة وهى نكرة. وقال الزجاج: هى خفض على البدل. النحاس: وتحقيق الكلام فى هذا وتلخيصه أن «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» يجـوز أن يكونا معرفتين على أنهما لمـا مضى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما «شَدِيدِ الْعِقَابِ» فهو نكرة ويكون خفضه على البدل. قال آبن عباس: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال «لا إله إلا الله» «وقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال «لا إله إلا الله» «شَدِيدِ الْعِقَابِ» لمن لم يقل «لا إله إلا الله». وقال ثابت البُنَانى: كنت إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب، قال: فآستفتحت «حمٓ. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فمر علىّ رجل على دابة فلما قلت «غَافِرِ الذَّنْبِ» قال: قل يا غافر الذنب آغفر لى ذنبى، فلما قلت «قَابِلِ التَّوْبِ» قال:

(١) قائله شريح بن أوفى العبسى. وقيل هو للأشتر النخعى.

Marfat.com

قل يا قابل التوب تقبل توبتى، فلما قلت «شَدِيدِ الْعِقَابِ» قال : قل يا شديد العقاب ٱعف عنى ، فلمـا قلت « ذِى الطَّوْلِ » قال : قل ياذا الطول طُلْ علىّ بخير، فقمت إليـه فأُخذ ببصرى ، فٱلتفت يمينا وشمالا فلم أر شـيئا . وقال أهل الإشارة : « غَافِرِ الذَّنْبِ » فضلا « وقَابِلِ التَّوْبِ » وعدا « شَدِيدِ الْعِقَابِ » عدلا « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» فردا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه ٱفتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له : تتابع فى هذا الشراب ؛ فقال عمر لكاتبه : ٱكتب : من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حـمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قـد وعدنى الله أن يغفر لى، وحذرنى عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمرُه قال : هكذا فٱصنعوا إذا رأيتم أحدكم زلّ زلّة فسدّدوه وٱدعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه . و « التَّوْبِ » يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم ؛ ومنه قوله (١) :

* فيَخْبُو ساعةً ويَهُبُّ ساعا *

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة؛ قال أبو العباس : والذى يسبق إلى قلبى أن يكون مصدرا؛ أى يقبل هـذا الفعل، كما تقول قال قولا، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات .

﴿ ذِى الطَّوْلِ ﴾ على البدل وعلى النعت ؛ لأنه معرفة . وأصل الطول الإنعام والتفضل يقال منه : اللهم طُلْ علينا أى أنعم وتفضل . قال ٱبن عباس : « ذِى الطَّوْلِ » ذى النعم . وقال مجاهد : ذى الغنى والسعة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا » أى غنى وسعة. وعن ٱبن عباس أيضا : « ذِى الطَّوْلِ » ذى الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله . وقال عكرمة:

(١) قائله القطامى وصدره : * وكنا كالحريق أصاب غابا *

Marfat.com

« ذِي الطَّوْلِ » ذى المنّ؛ قال الجوهرى : والطَّوْل بالفتح المنّ، يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا آمتن عليه . وقال محمد بن كعب : « ذِي الطَّوْلِ » ذى التفضل؛ قال الماوردى : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحقّ . والطَّوْل مأخوذ من الطُّول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدّة إنعامه . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سجل سبحانه على المجادلين فى آيات الله بالكفر ، والمراد الجدال بالباطل، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق ، وإطفاء نور الله تعالى . وقد دل على ذلك فى قوله تعالى : « وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » . فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها ، وحلّ مشكلها ، ومقادحة أهل العلم فى آستنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » عند قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ »[1] مستوفى . ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ ﴾ وقرئ « فَلَا يَغُرَّكَ » ﴿ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ أى تصرفهم ﴿ فِي الْبِلَادِ ﴾ فإنى و إن أمهلتهم لا أهملهم بل أعاقبهم . قال آبن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام و إلى اليمن . وقيل : « لَا يَغْرُرْكَ » ماهم فيه من الخير والسعة فى الرزق فإنه متاع قليل فى الدنيا . وقال الزجاج : « لَا يَغْرُرْكَ » سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك . وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن، قوله : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ
شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ على تأنيث الجماعة أى كذبت الرسل . ﴿ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى والأمم الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم . ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى ليحبسوه ويعذّبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك؛ كقوله : « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » . والعرب تسمى الأسير الأخيذ ؛ لأنه مأسور للقتل ؛ وأنشد قُطْرُب قول الشاعر :

فإمّا تأخُذونِي تَقْتُلونِي * فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودِي[(١)]

وفى وقت أخذهم لرسولهم قولان : أحدهما عند دعائه لهم . الثانى عند نزول العذاب بهم . ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى ليزيلوا ومنه مكان دَحْض أى مَزْلَقة ، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر . قال يحيى بن سلّام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان . ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أى بالعذاب . ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى عاقبة الأمم المكذبة ؛ أى أليس وجدوه حقا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ ﴾ أى وجبت ولزمت؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم . ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ هـذه قراءة العامة على التوحيد . وقرأ نافع وابن عامر « كَلِمَاتُ » جمعا .

(١) فى تفسير السمين : * وكم من واحد يهوى خلودى *

Marfat.com

﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ ﴾ قال الأخفش : أى لأنهم وبأنهم . قال الزجاج : ويجوز إنهم بكسر الهمزة . ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أى المعذَّبون بها وتم الكلام . ثم آبتدأ فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ويروى: أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم . ففى الحديث : " إن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حَمَلة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة ". ويقال: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل : حول العرش سبعون ألف صفّ من الملائكة يطوفون به مهلّلين مكبّرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صفّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، مامنهم أحد إلا وهو يسبّح بما لا يسبّح به الآخر. وقرأ آبن عباس : « الْعُرْشَ » بضم العين؛ ذكر جميعه الزمخشرى رحمه الله . وقيل : آتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى — والله أعلم — «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ» ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أى يسألون لهم المغفرة من الله تعالى . وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله ، وتعبَّدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به وآستقباله فى الصلاة . وروى آبن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام " ذكره البيهقى وقد مضى فى « البقرة »[(1)] فى آية الكرسى عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات . وروى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن كعب الأحبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقا أعظم منى ؛ فآهتز فطوقه الله بحية، للحية

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

سبعون ألف جناح، فى الجناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان . يخرج من أفواهها فى كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية به[1] . وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير . ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ أى من الشرك والمعاصى ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أى دين الإسلام . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى آصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم . قال إبراهيم النخعى: كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من آبن الكَوَّاء ؛ هم يستغفرون لمن فى الأرض وآبن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر . قال إبراهيم : وكانوا يقولون لا يحجبون الآستغفار عن أحد من أهل القبلة . وقال مطرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هذه الآية . وقال يحيى بن معاذ الرازى لأصحابه فى هذه الآية : آفهموها فما فى العالم جنة أرجى منها؛ إن مَلَكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحَمَلة العرش يستغفرون للؤمنين . وقال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ثم قال : يا خلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : ما جنات عدن . قال : قصور من ذهب فى الجنة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل . ﴿ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ « التى » فى محل نصب نعتا للجنات . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ « مَنْ » فى محل نصب عطفا على الهاء والميم فى قوله « وَأَدْخِلْهُمْ » . « وَمَنْ صَلَحَ » بالإيمان

(١) هذا الخبر وأشباهه من الإسرائيليات التى يحشرها أهل القصص وليس مما يصح .

Marfat.com

﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وقد مضى فى « الرعد »(١) نظير هذه الآية . قال سعيد بن جبير : يدخل الرجل الجنة ، فيقول : يا رب أين أبى وجدّى وأمى؟ وأين ولدى وولد ولدى؟ وأين زوجاتى؟ فيقال : إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول : يا رب كنت أعمل لى ولهم؛ فيقال أدخلوهم الجنة . ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » . ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ » .

قوله تعالى : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ قال قتادة : أى وقهم ما يسوءهم، وقيل : التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمر(٢) من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر؛ أى حفظه. ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى بدخول الجنة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى النجاة الكبيرة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش : « لَمَقْتُ » هذه لام الابتداء وقعت بعد « يُنَادَوْنَ » لأن معناه يقال لهم والنداء قول . وقال غيره : المعنى يقال لهم « لَمَقْتُ اللهِ » إياكم فى الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ « أَكْبَرُ » من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة؛ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة ، فأذعنوا عند ذلك ، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار . وقال الكلبى : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم فى النار : لمقت الله

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) بل هو دعاء لأنه من الخلق إلى الخالق .

Marfat.com

إياكم إذ أنتم فى الدنيا وقد بعثت إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن : يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون « لَمَقْتُ اللهِ » إياكم فى الدنيا « إِذْ تُدْعَوْنَ إلى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِن مَقْتِكم أَنْفُسَكُمْ » اليوم . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : المعنى « لَمَقْتُ اللهِ » لكم « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » إذ عاينتم النار . فإن قيل : كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان: أحدهما أنهـم أحلوها بالذنوب محـل الممقوت . الثانى أنهم لمـا صاروا إلى حال زال عنهم الهوى، وعلموا أن نفوسهم هى التى أوبقتهم فى المعاصى مقتوها . وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل النار لمـا يئسوا ممـا عند الخزنة وقال لهم مالك « إِنَّكُم مَاكِثُونَ » على ما يأتى قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! إنه قد نزل بكم من العذاب والبـلاء ما قد ترون ، فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صـبرهم ، ثم جزعوا فنادوا « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ » أى من ملجإ؛ فقـال إبليس عنـد ذلك : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَـقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ » إلى قوله : « مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِىَّ » يقول: بمغنٍ عنكم شيئا «إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم. قال : فنودوا « لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَـانِ فَتَكْفُرُونَ » إلى قوله : « فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ » قال فردّ عليهم « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِىِّ الْكَبِيرِ » ذكره ابن المبارك .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ اختلف أهل التأويل فى معنى قولهم : « أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » فقـال ابن مسعود وابن عبـاس وقتادة والضحاك : كانوا أمـواتا فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التى لا بدّ منها فى الدنيـا ، ثم أحياهم للبعث والقيامـة، فهاتان حياتان وموتتان ، وهو قوله تعـالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم » . وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحياهم فى القبور للمسئلة، ثم أميتوا ثم أُحيوا فى الاخرة . وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على

Marfat.com

النطفة . وآستدل العلماء من هـذا فى إثبات سؤال القبر ، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسـد، وهو حىّ لنفسه لا يتطرق إليـه موت ولا غشية ولا فناء. وقال آبن زيد فى قـوله : « ربّنا أَمَتَّنَا آثْنَتَيْنِ » الآية قال : خلقهـم فى ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. وقد مضى هذا فى «البقرة»(١). ﴿فَآعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ آعترفوا حيث لا ينفعهم الآعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم . ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى هل نردّ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؛ نظـيره : «فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » وقوله : « فَآرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا » وقوله : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ «ذَلِكُمْ» فى موضع رفع أى الأمر «ذَلِكُمْ» أو «ذَلِكُمْ» العذاب الذى أنتم فيه بكفركم . وفى الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد. وذلك لأنكم «إِذَا دُعِيَ اللهُ» أى وُحِّد الله «وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، و إن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله . قال الثعلبي: وسمعت بعض العلماء يقول ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تصدقوا المشرك ؛ نظيره: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» . ﴿فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد» .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى دلائل توحيده وقدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق ؛ لأن بالآيات قـوام الأديان، وبالرزق قـوام الأبدان . وهذه الايات هى السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهـار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا . ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أى يرجع إلى طاعة الله. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أى اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى العبادة . وقيل : الطاعة . ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره .

قوله تعـالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ « ذُو الْعَـرْشِ » على إضمار مبتدإ . قال الأخفش : ويجوز نصبه على المدح . ومعنى « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » أى رفيع الصفات . وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع . وقال يحيى بن سلّام : هو رفعة درجة أوليائه فى الجنة فـ « رَفِيعُ » على هذا بمعنى رافع فَعِيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذى لا أرفع قدرا منـه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهى أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره؛ قاله الحليمى . وقد ذكرناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله . « ذُو الْعَرْشِ » أى خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه . وقيل : هو من قولهم ثُلّ عرشُ فلان أى زال ملكه وعزّه، فهو سبحانه « ذُو الْعَرْشِ » بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه فى «الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» . ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أى الوحى والنبوة « عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وسمى ذلك رُوحا لأن الناس يحيون بها ؛ أى يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح . وقال ابن زيد : الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . وقيل : الرُّوح جبريل؛ قال الله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِـكَ » وقال : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » . ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أى من قوله . وقيل : من قضائه . وقيل : « مِنْ » بمعنى الباء أى بأمره . ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة .

Marfat.com

﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أى إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث . فقوله : « لِيُنذِرَ » يرجع إلى الرسول . وقيل : لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق « يَوْمَ التَّلَاقِ » . وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْقَع « لِتُنْذِرَ » بالتاء خطابا للنبي عليه السلام . « يَوْمَ التَّلَاقِ » قال ابن عباس وقتادة : يوم تلتقى أهل السماء وأهل الأرض . وقال قتادة أيضا وأبو العالية ومقاتل : يلتقى فيه الخلق والخالق . وقيل : العابدون والمعبودون . وقيل : الظالم والمظلوم . وقيل : يلق كل إنسان جزاء عمله . وقيل : يلتقى الأولون والآخرون على صعيد واحد ؛ روى معناه عن ابن عباس . وكله صحيح المعنى . ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ يكون بدلا من يوم الأول . وقيل : « هُمْ » فى موضع رفع بالابتداء و « بَارِزُونَ » خبره والجملة فى موضع خفض بالإضافة ؛ فلذلك حذف التنوين من « يَوْمَ » وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ ؛ تقول لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ . فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ . ومعنى « بَارِزُونَ » خارجون من قبورهم لا يسترهم شىء ؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتا على ما تقدّم فى « طه »[1] بيانه . ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ قيل : إن هذا هو العامل فى « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » أى لا يخفى عليه شىء منهم ومن أعمالهم « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » . ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ وذلك عند فناء الخلق . وقال الحسن : هو السائل تعالى وهو المجيب ؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . النحاس : وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يُحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر مناد ينادى « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غمًّا وانقيادا وخضوعا . فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد ؛ لأنه لا فائدة فيه ، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قلت : والقول الأول ظاهر جدا؛ لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدّعين وانتساب المنتسبين؛ إذ قد ذهب كلّ مَلِك ومُلْكه ومتكبر وملكه وانقطعت نسبهم ودعاويهم ؛ ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطيّ السماء : "أنا الملك أين ملوك الأرض" كما تقدم في حديث أبي هريرة وفي حديث ابن عمر ، ثم يطوى الأرض بشماله والسموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون . وعنه قوله سبحانه : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر . قال محمد بن كعب قوله سبحانه : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» يكون بين النفختين حين فني الخلق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول : «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» لأنه بقي وحده وقهر خلقه . وقيل : إنه ينادي منادٍ فيقول «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فيجيبه أهل الجنة «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» فالله أعلم . ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» من خير أو شر . ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحسّاب؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة . وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»(1) . وفي الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

قوله تعالى : وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ

(1) راجع جـ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا
فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أى يوم القيامة . سميت بذلك؛ لأنها قريبة إذ كل ما هو آتٍ قريب . وأَزِفَ فلانٌ أى قرب يأْزَفُ أَزَفًا؛ قال النابغة :

أَزِفَ التَّرحُّلُ غيرَ أَنَّ رِكابَنا * لمّا تَزُلْ بِرِحالِنا وكأَنْ قَدِ

أى قرب . ونظير هذه الآية «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ»(١) أى قربت الساعة . وكان بعضهم يتمثل ويقول :

أَزِفَ الرَّحيلُ وليْسَ لِي مِن زادِ * غيرُ الذّنوبِ لِشِقْوَتِي ونَكادِي

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى . قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس «لَدَى الْحَنَاجِرِ» فى حال كظمهم . وأجاز الفراء أن يكون التقدير «وَأَنْذِرْهُمْ» «كَاظِمِينَ» وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبر للقلوب . وقال : المعنى إذ هم كاظمون . وقال الكسائى : يجوز رفع «كَاظِمِينَ» على الابتداء . وقد قيل : إن المراد بـ«يَوْمَ الْآزِفَةِ» يوم حضور المنية ؛ قاله قطرب . وكذا «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» عند حضور المنية . والأول أظهر . وقال قتادة : وقعت فى الحناجر من المخافة فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال : «وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» . وقيل : هذا إخبار عن نهاية الجزع ؛ كما قال : «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» وأضيف اليوم إلى «الآزِفة» على تقدير يوم القيامة «الآزِفة» أو يوم المجادلة «الآزِفة» . وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشىء إلى

---

(١) آية ٥٧ من سورة النجم .

Marfat.com

نفسه مثل مسجد الجامع وصـلاة الأولى . ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى من قريب ينفع ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم .

قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ قال المؤرّج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة . وقال ٱبن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها . وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليـه أصحابه غَضَّ بصرَه ، فإذا رأى منهم غفـلة تَدَسَّسَ بالنظر ، فإذا نظر إليـه أصحابه غَضَّ بصرَه ، وقـد علم الله عز وجل منه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها . وقال مجاهد : هى مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . وقال قتادة : هى الهَمْزة بعينه و إغماضه فيما لا يحب الله تعالى . وقال الضحاك : هى قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى . وقال السدى : إنها الرَّمْز بالعين . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . وقال الفراء : « خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » النظرة الثانيـة « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » النظرة الأولى . وقال ٱبن عباس : «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » أى هل يزنى بها لو خلا بها أو لا . وقيل : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» تكنّه وتضمره . ولمـا جىء بعبد الله بن أبى سَرْح[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما ٱطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضى الله عنه ، صَمَتَ رسولُ الله صـلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" فلما ٱنصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : " ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " فقال رجل من الأنصار فهلاَّ أومأتَ إلىَّ يارسول الله ؛ فقال : "إن النبي لا تكون له خائنة أعين" . ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أى يجازى من غَضَّ بصرَه عن المحارم ، ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقـدر عليه ولا تملك . وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهى ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وهشام «تَدْعُونَ» بالتاء . ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة . ويجوز أن تكون فى موضع رفع بالٱبتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن .

(١) عبد الله بن أبى سرح : كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ثم ٱرتد ولحق بالمشركين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة . راجع قصته فى جـ ٧ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ فى موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا» ويجوز أن يكون فى موضع نصب على أنه جواب ، والجزم والنصب فى التثنية والجمع واحد . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ آسم كان والخبر فى « كيف » . و ﴿ وَاقٍ ﴾ فى موضع خفض معطوف على اللفظ . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد ؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها . وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى غير موضع (١) فأغنى عن الإعادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ وهى التسع الآيات المذكورة فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » وقد مضى تعيينها (٢) . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة واضحة بينة وهو يذكر ويؤنث . وقيل : أراد بالسلطان التوراة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم ؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما ؛ لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ وهي المعجزة الظاهرة ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ؛ فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم؛ فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقُمَّل والدم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في خسران وهلاك ، وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلا .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ « أَقْتُلْ » جزم ؛ لأنه جواب الأمر « وَلْيَدْعُ » جزم؛ لأنه أمر و « ذَرُونِي » ليس بمجزوم وإن كان أمرا ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبني . وقيل: هذا يدل على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب ؛ فقال : « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أي لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر في الأرض الفساد . أي يقع بين الناس بسببه الخلاف. وقـراءة المدنيين وأبي عبـد الرحمن السُّلَمي وابن عامر وأبي عمرو « وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» وقراءة الكوفيين «أَوْ أَنْ يَظْهَرَ» بفتح الياء «الْفَسَادُ» بالرفع وكذلك هي في مصاحف الكوفيين . « أو » بألف وإليه يذهب أبو عبيد ؛ قال : لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل ؛ ولأن « أو » تكون بمعنى الواو . النحاس : وهـذا عند حُذّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو ؛ لأن في ذلك بطلان المعاني، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لمـا احتيج إلى هذا ها هنـا ؛ لأن معنى الواو « إِنِّي أَخَافُ » الأمرين جميعا ومعنى « أو » لأحد الأمرين أي « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ » فإن أعوزه ذلك أظهر في الأرض الفساد .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لمـا هدّده فرعونُ بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي متعظم عن الإيمان بالله، وصفتُه أنه ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ » ذكر بعض المفسرين : أن آسم هذا الرجل حبيب . وقيل : شمعان بالشين المعجمة . قال السهيلي : وهو أصح ما قيل فيه . وفى تاريخ الطبرى رحمه الله : آسمه خبرك[1] . وقيل : حزقيل . ذكره الثعلبي عن آبن عباس وأكثر العلماء . الزمخشري : وآسمه سمعان أو حبيب . وقيل خربيل أو حزبيل . وآختلف هل كان إسرائيليا أو قبطيا فقال الحسن وغيره : كان قبطيا . ويقال : إنه كان آبن عم فرعون ؛ قاله السدى . قال : وهو الذى نجا مع موسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » وهذا الرجل هو المراد بقوله تعالى : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى » الآية . وهذا قول مقاتل . وقال آبن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير آمرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى فقال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

[وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم"[2]] وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أى لا تعجب من مشركى قومك . وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون ؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء . وقيل : كان هذا الرجل من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون . عن السدى أيضا ؛ ففى الكلام على هذا تقديم وتأخير ، والتقدير : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون . فمن جعل الرجل قبطيا

(١) فى هامش الطبرى حبرك . وفى نسخة جبرك . (٢) الزيادة أوردها الجمل فى حاشيته عن القرطبى .

Marfat.com

فـ « مِن » عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل ؛ التقدير : وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون ؛ أى من أهله وأقاربه . ومن جعله إسرائيليا فـ « مِن » متعلقة بـ « يَكْتُمُ » فى موضع المفعول الثانى لـ « يَكْتُمُ » . القشيرى : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد ؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه . قال الله تعالى : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا » وأيضا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ أى لأن يقول ومن أجل « أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ » فـ « أَنْ » فى موضـع نصب بنزع الخافض . ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى الآيات التسع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه فى رسالته وصدقه، ولكن تلطفا فى الاستكفاف واستنزالا عن الأذى . ولو كان و « إن يكن » بالنون جاز ولكن حذفت النـون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه ؛ ولأنهـا نون الإعراب على قول أبى العباس . ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِـدُكُمْ ﴾ أى إن لم يصبكم إلا بعض الذى يعدكم به هلكتم . ومذهب أبى عبيدة أن معنى « بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ » كل الذى يعدكم، وأنشد قول لبيد :

تَرَّاكُ أمكِنَـــةٍ إذا لم أَرْضَهـا * أو يَرْتَبِطْ بَعْضَ النفوسِ حِمَامُها[(١)]

فبعض بمعنى كلّ ؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله فى الوعيد ، وهذا ترقيق الكلام فى الوعظ . وذكر المـاوردى : أن البعض قد يستعمل فى موضـع الكل تلطفا فى الخطاب وتوسعا فى الكلام؛ كما قال الشاعر[(٢)] :

قَدْ يُدرِكُ المتأنِّى بعضَ حاجتِهِ * وقد يكون مَـعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضا : قال ذلك لأنه حذرهم أنواعا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع . وقيل : وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين . وقيل : أى يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا

(١) ويروى : أو يعتلق بدل يرتبط كما فى اللسان وغيره .	(٢) هو عمر القطامى .

Marfat.com

وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب فى الآخرة أيضا . وقيل : وعدهم العذابَ إن كفروا والثواب إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ماوعدوا . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هـذا من قول المؤمن . وقيـل : « مُسْرِفٌ » فى عناده « كَذَّابٌ » فى آدعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿يَكْتُمُ إِيمَـانَهُ﴾ قال القاضى أبو بكر بن العـربى : ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمـانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمنا بآعتقاده، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمنا بقلبه وكافرا بقلبه . فحعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه فى أصول الفقه؛ بمـا لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافرا وإن لم يتلفظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير فى صحته من التكليف، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله .

الرابعـة — روى البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ماصنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فأخذ بمنكب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » لفظ البخارى. خرجه الترمذى الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه قال : آجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث، فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فأقبل هذا يجُؤه[1] وهـذا يتلتله، فاستغاث النبى صلى الله عليه وسـلم يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبـل يجأ ذا ويتلتل ذا

(١) وجأه يجؤه وجأ ضربه . والتلتلة التحريك والإقلاق والزعزعة .

Marfat.com

ويقول بأعلى صوته: ويلكم «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله» والله إنه لرسول الله. فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ. فقال علىّ: والله ليوم أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه فى كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل.

قلت: قول علىّ رضى الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد فى أول أمره بخلاف الصدّيق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتى بيانه. فى «نوادر الأصول» أيضا عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالوا لها: ما أشدّ شيءٍ رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: كان المشركون قعودا فى المسجد، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول فى آلهتهم، فبينا هم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدّقهم، فقالوا: ألست تقول كذا فى آلهتنا قال "بلى" فتشبثوا فيه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال له: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت ياذا الجلال والإكرام؛ إكرام إكرام.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

Marfat.com

وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفى قوله «يَا قَوْمِ» دليل على أنه قبطى؛ ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال « يَا قَوْمِ »؛ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه «لَكُمُ الْمُلْكُ» فآشكروا الله على ذلك . ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى غالبين وهو نصب على الحال أى فى حال ظهوركم . والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره؛ كقوله : «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ» أى فى أرض مصر ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى من عذاب الله تحذيرا لهم من نقمه إن كان موسى صادقا ، فذكّر وحذّر فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ .قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ماأشير عليكم إلا ماأرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فى تكذيب موسى والإيمان بى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ ﴾ زادهم فى الوعظ ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ زاد فى الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق « فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا » . وقراءة العامة «التَّنَادِ» بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبى الصّلت :

وبَثّ الخلق فيها إذ دحاها * فهم سُكّانُها حتى التّنادِ

سمى بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضا؛ فينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار : « أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة : « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ » وينادى المنادى أيضا بالشقوة

Marfat.com

والسعادة : ألا إن فلان بن فلان قد شق شقاوة لا يسعد بعدها أبدا، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وهذا عند وزن الأعمال . وتنادى الملائكة أصحاب الجنة : «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» وينادى حين يذبح الموت : يأهل الجنة خلود لا موت ويأهل النار خلود لاموت . وينادى كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء . وقرأ الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد « التَّنَادِي » بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل . وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة « يوم التَّنَادِّ » بتشديد الدال . قال بعض أهل العربية : هذا لحن ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ إذا مرَّ على وجهه هاربا ؛ كما قال الشاعر[1] :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مَخافتي * نَوادِيَها أَسْعَى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ

قال : فلا معنى لهذا في القيامة . قال أبو جعفر النحاس : وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ؛ فذلك قوله : «يَوْمَ التَّنَادِّ» . وقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقوله : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » ذكره ابن المبارك بمعناه . قال : وأخبرنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثنا عبد الجبار بن عبيدالله بن سلمان في قوله [تعالى] : « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح . قال : يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح ، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق في الطين . وقيل : إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع . ذكره علي بن معبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة ، وفيه "فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين

(١) هو طرفة . في اللسان : نواديه أمشى . يقول : إبل باركة نيام ، ونواديها أي ما ندّ منها . ويروى هواديها أي أوائلها . أي أثارت مخافتي نوادي هذا البرك حال مشي إليه بالسيف .

Marfat.com

هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى «يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» الحديث بكماله. وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هناك. وروى عن على ابن نصر عن أبى عمرو إسكان الدال من «التناد» فى الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبدالوارث زيادة الياء فى الوصل خاصة وهو مذهب ورش. والمشهور عن أبى عمرو حذفها فى الحالين. وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدم. وقيل: سمى يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادى فيه بالويل والثبور والحسرة. قاله ابن جريج. وقيل: فيه إضمار أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ فالله أعلم. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التنادِ» ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى من خلق الله فى قلبه الضلال فلا هادى له. وفى قائله قولان: أحدهما موسى. الثانى مؤمن آل فرعون وهو الأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: إن هذا من قول موسى. وقيل: هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات «أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا

Marfat.com

عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك : إن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف . وقال وهب بن منبه : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر . وغيره يقول : هو آخر . النحاس : وليس في الآية ما يدل على أنه هو ؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيٌّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعا بها وعليهم أن يصدقوه بها . ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أى أسلافكم كانوا فى شك . ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أى من يدعى الرسالة ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أى مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاكٌّ فى وحدانية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى فى حججه الظاهرة ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى بغير حجة و برهان و « الَّذِينَ » فى موضع نصب على البدل من « مَنْ » . وقال الزجاج : أى كذلك يضل الله الذين يجادلون فى آيات الله فـ « الذين » نصب . قال : و يجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ . ثم قيل : هذا من كلام مؤمن آل فرعون . وقيل : ابتداء خطاب من الله تعالى . « مقتا » على البيان أى « كبر » جدالهم « مقتا » ؛ كقوله : « كَبُرَتْ كَلِمَةً » ومقت الله تعالى ذمه لهم ولعنه إياهم و إحلال العذاب بهم . ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أى يختم ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق . وقراءة العامة « عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ » بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو عبيد . وفى الكلام حذف والمعنى « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ » على كل « مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » فحذف « كُلّ » الثانية لتقدم ما يدل عليها . و إذا لم يقدر حذف « كلّ » لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . و إنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبا قلبا . ومما يدل على حذف « كلّ » قول أبي دُؤَاد (١) :

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيلِ نارًا

(١) هو جارية بن الحجاج الإيادى . وقيل اسمه حنظلة بن الشرقى ، وكان فى عصر كعب بن مامة الإيادى الذى يضرب به المثل فى الجود . « الشعر والشعراء لابن قتيبة » .

Marfat.com

يريد وكلّ نارٍ . وفى قراءة ابن مسعود « عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ » فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهـل الشام « قلبٍ » منون على أن « متكبرٍ » نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجمـلة ؛ لأن القلب هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أى على كل ذى قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخفه عنهم ، و إن لم يصح ثبّتهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببنـاء الصرح . وقد مضى فى « القصص »(١) ذكره . ﴿ لَعَـلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ « أَسْبَابَ السَّمواتِ » بدل من الأول . وأسباب السماء أبوابها فى قول قتـادة والزهرى والسدى والأخفش ؛ وأنشد :

ومَنْ هابَ أَسْبَابَ المنـايا يَنَلْنَـهُ * ولَـوْ رَامَ أَسْبَـابَ السَّماءِ بِسُـلَّمِ(٢)

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها . وقيل : الأمور التى تستمسك بها السموات . وكرر أسباب تفخيما ؛ لأن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، والله أعلم . ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه . توهم أنه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى

Marfat.com

يدعى الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس فى مكان مشـ ـب . وقراءة العامة « فَأَطَّلِعُ » بالرفع نسقا على قوله : « أَبْلُغُ » . وقرأ الأعرج والسلمى وعيسى وحفص « فَأَطَّلِعَ » بالنصب؛ قال أبو عبيدة : على جواب « لعل » بالفاء . النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب أطلعت . ومعنى الرفع « لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ » ثم لعلى أطلع بعـد ذلك؛ إلا أن ثم أشد تراخيا من الفاء . ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ أى وإنى لأظن موسى كاذبا فى ادعائه إلها دونى ، وإنمـا أفعل ما أفعل لإزاحة العلة . وهـذا يوجب شك فرعون فى أمر الله . وقيل : إن الظن بمعنى اليقين أى وأنا أتيقن أنه كاذب ، وإنمـا أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه .

قوله تعـالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُـوءُ عَمَلِهِ﴾ أى الشرك والتكذيب . ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ قراءة الكوفيين « وصُدَّ » على ما لم يسم فاعله وهو ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم؛ ويجوز على هـذه القراءة « وَصِدَّ » بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد؛ وهى قراءة يحيى بن وثاب وعلقمة . وقرأ ٱبن أبى إسحق وعبـد الرحمن بن بكرة « وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ » بالرفع والتنوين . الباقون « وَصَدَّ » بفتح الصاد والدال . أى صد فرعون الناس عن السبيل . ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أى فى خسران وضلال، ومنه « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ » وقوله : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » وفى موضع « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » فهـذا الله صرحه وغرقه هو وقومه على ما تقدم (١) .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ
دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى
ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون؛ أى اقتدوا بى فى الدين . ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى طريق الهدى وهو الجنة . وقيل : من قول موسى . وقرأ معاذ بن جبل « الرَّشَّادِ » بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية ؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشد ولا يكون فعّال من أفعل إنما يكون من الثلاثى ؛ فإن أردت التكثير من الرباعى قلت : مِفْعال . قال النحاس : يجوز أن يكون رشّاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه، ولكن كما يقال لأّال من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه . ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أى صاحب رشّاد ؛ كما قال :

* كلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ (١) *

الزمخشرى : وقرئ « الرَّشَّادِ » فعّال من رَشِد بالكسر كعَلّام أو من رَشَد بالفتح كعبّاد . وقيل : من أرشد كجبّار من أجبر وليس بذاك ؛ لأن فعّالا من أفعل لم يجئ إلا فى عدّة أحرف : نحو دَرّاك وسَأّر وقصّار وجبّار . ولا يصح القياس على هذا القليل . ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعوّاج و بتّات (٢) غير منظور فيه إلى فعل . ووقع فى المصحف «اتَّبِعُونِ»

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى وتمامه :

* وليل أقاسيه بطىء الكواكب *

(٢) العواج : بياع العاج . والبتات : بياع البت وهو كساء غليظ .

Marfat.com

بغير ياء . وقرأها يعقوب وآبن كثير بالإثبات فى الوصل والوقف . وحذفها أبو عمرو ونافع فى الوقف وأثبتوها فى الوصل ، إلا ورشًا حذفها فى الحالين، وكذلك الباقون؛ لأنها وقعت فى المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل .

قوله تعالى : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى يتمتع بها قليلا ثم تنقطع وتزول. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى الاستقرار والخلود . ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان . بين ذلك بقوله : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعنى الشرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب . ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ قال آبن عباس : يعنى لا إله إلا الله . ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدّق بقلبه لله وللأنبياء . ﴿فَأُولَـٰئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وهى قراءة آبن كثير وآبن محيصن وأبى عمرو ويعقوب وأبى بكر عن عاصم يدل عليه ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء .

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أى إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بين أن ما قال فرعون من قوله : « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » سبيل الغيّ عاقبته النار وكانوا دعوه إلى آتباعه، ولهذا قال : ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ . ﴿لَا جَرَمَ﴾ (٢) تقدّم الكلام فيه ومعناه حقًا . ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ « ما » بمعنى الذى ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ قال الزجاج : ليس له آستجابة دعوة تنفع ؛ وقال غيره : ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾. وقال الكلبي : ليس له شفاعة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وكان فرعون أوّلا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبَد ما كانت شابة، فإذا هَرِمت أمر بذبحها، ثم دعا بأخرى لتعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى . ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ قال قتادة وآبن سيرين : يعنى المشركين . وقال مجاهد والشعبي : هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها . وقال عِكْرِمة : الجبّارون

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

والمتكبّرون . وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله . وهذا جامع لما ذكر . و «أَنَّ» في المواضع في موضع نصب باسقاط حرف الجر . وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن « لا جرم » رد لكلام يجوز أن يكون موضع « أَنَّ » رفعا على تقدير وجب أن ما تدعوننى إليه ، كأنه قال وجب بطلان ما تدعوننى إليه، والمردّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ تهديد ووعيد و «ما» يجوز أن تكون بمعنى الذى أى الذى أقوله لكم . ويجوز أن تكون مصدرية أى فستذكرون قولى لكم إذا حل بكم العذاب . ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . وقيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قتله . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه . وقد قيل : القائل موسى . والأظهر أنه مؤمن آل فرعون؛ وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى من إلحاق أنواع العذاب به فطلبوه فما وجدوه ؛ لأنه فوض أمره إلى الله . قال قتادة : كان قبطيا فنجاه الله مع بنى إسرائيل فالهاء على هذا المؤمن آل فرعون . وقيل : إنها لموسى على ما تقدّم من الخلاف . ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ قال الكسائى : يقال حاق يحيق حيقا وحيوقا إذا نزل ولزم . ثم بين العذاب فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وفيه ستة أوجه : يكون رفعا على البدل من «سُوءُ» . ويجوز أن يكون بمعنى هو النار . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء . وقال الفراء : يكون مرفوعا بالعائد على معنى النار عليها يعرضون، فهذه أربعة أوجه فى الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائدا وقبلها ما يتصل به، وأجاز الأخفش الخفض على البدل من « الْعَذَابِ » . والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ . واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت

Marfat.com

عذاب القبر بقوله : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » ما دامت الدنيا . كذلك قال مجاهد وعكرمة . ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال : هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . وفى الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشى فيقال هذه داركم . وعنه أيضا : إن أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها . وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال سمعت ميمون بن [مهران] (١) يقول : كان أبو هريرة إذا أصبح ينادى أصبحنا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ، فإذا أمسى نادى أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار . وفى حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشىّ " ثم تلا « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » " وإن المؤمن إذا مات عُرِض رُوحُه على الجنة بالغَدَاة والعشىّ " وخرّج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشىّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " . قال الفراء : فى الغداة والعشىّ بمقادير ذلك فى الدنيا . وهو قول مجاهد . قال : « غُدُوًّا وَعَشِيًّا » قال : من أيام الدنيا . وقال حماد بن محمد الفزارىّ : قال رجل للأوزاعى رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب ، بيضا صغارا فَوْجا فَوْجا لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سودا . قال : تلك الطيور فى حواصلها أرواح آل فرعون ، يُعْرَضُون على النار غدوًا وعشيا ، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سودا ، فينبت عليها من الليل رياشها بيضا وتتناثر السود ، ثم تغدو فتعرض على النار غدوًا وعشيا ، ثم ترجع إلى وكرها فذلك دأبها ما كانت فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو الهاوية . قال الأوزاعى : فبلغنا أنهم

(١) فى نسخ الأصل ميمون بن ميسرة وهو تحريف ، والته ... « التهذيب » .

Marfat.com

ألفا ألف وستمائة ألف . «وَغُدُوًّا» مصدر جعل ظرفا على السعة «وَعَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام . ثم تبتدئ « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » على أن تنصب يوما بقوله : « أَدْخِلُوا » ويجوز أن يكون منصوبا بـ « يُعْرَضُونَ » على معنى « يُعْرَضُونَ » على النار فى الدنيا « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » فلا يوقف عليه . وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائى « أَدْخِلُوا » بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهى آختيار أبى عبيد؛ أى يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم، ودليله « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » . الباقون « ٱدْخُلُوا » بوصل الألف وضم الخاء من دخل أى يقال لهم « ٱدْخُلُوا » يا « آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو آختيار أبى حاتم . قال : فى القراءة الأولى « آل » مفعول أول و « أَشَدَّ » مفعول ثانٍ بحذف الجر، وفى القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف . وآل فرعون من كان على دينه وعلى مذهبه ، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه فى أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك . وروى آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن العبد يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمنا وحيى مؤمنا ومات مؤمنا وإن العبد يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا منهم فرعون ولد كافرا وحيى كافرا ومات كافرا" ذكره النحاس . وجعل الفرّاء فى الآية تقديما وتأخيرا مجازه: « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » فجعل العرض فى الآخرة، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من آنتظام الكلام على سياقه على ما تقدم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّـارِ ﴾ أى يختصمون فيها ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ فيما دعوتمونا إليـه من الشرك فى الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى متحملون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أى جزءا من العذاب . والتبع يكون واحدا ويكون جمعا فى قول البصريين واحده تابع . وقال أهل الكوفة : هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمـع لقيل أتباع . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى فى جهنم . قال الأخفش : « كُلٌّ » مرفوع بالابتداء . وأجاز الكسائى والفراء « إِنَّا كُلًّا فِيهَا » بالنصب على النعت والتأكيد للضمر فى « إنا » وكذلك قرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر . والكوفيون يسمون التأكيد نعتا . ومنع ذلك سـيبويه ؛ قال : لأن « كُلًّا » لا تنعت ولا ينعت بهـا . ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره وقال معناه المبرد ؛ قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنـا ؛ لأنه مخاطِب ولا يبـدل من المخاطَب ولا من المخاطِب ؛ لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما ؛ هذا نص كلامه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره فكل منا كافر .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من الأمم الكافرة . ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمـع مسلم معرب ، ومن قال « الَّذِينَ » فى الرفع بناه كما كان فى الواحد مبنيا . وقال الأخفش : ضمت النون إلى الذى فأشبه خمسةَ عشرَ فبنى على الفتح . ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ خزنة جمع خازن ويقال خُزَّان وخُزَّن . ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ « يُخَفِّفْ » جواب مجـزوم وإن كان بالفاء كان منصوبا ، إلا أن الأكثر فى كلام العرب فى جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال[(١)] :

* قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *

قال محمد بن كعب القرظى : بلغنى أو ذكر لى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ؛ فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّـا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فسألوا يوما

(١) هو امرؤ القيس والبيت من معلقته ، وتمامه :

* بسقط اللوى بين الدخول فحومل *

Marfat.com

واحدا يخفف عنهم فيه العذابُ فردّت عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ الخبر بطوله. وفى الحديث عن أبى الدرداء خرجه الترمذى وغيره قال: يلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لايسمن ولا يغنى من جوع، فيأكلونه لايغنى عنهم شيئا، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغَصُّونَ به، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع فى بطونهم قطع أمعاءهم وما فى بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبوهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى خسار وتبار.

قوله تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال « رُسْلَنَا » والمراد موسى عليه السلام. ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فى موضع نصب عطف على الرسل، والمراد المؤمن الذى وعظ. وقيل: هو عام فى الرسل والمؤمنين، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها فى قول أبى العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدى: ما قَتَل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتلوا.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: «الْأَشْهَادُ» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد. وقال مجاهد والسدى: «الْأَشْهَادُ» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب. وقال قتادة: الملائكة والأنبياء. ثم قيل:

Marfat.com

« الأشهاد » جمع شهيد مثل شريف وأشراف . وقال الزجاج : « الأشهاد» جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليـه ولكن ماجاء منه مسموعا أدى كما سمع ، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: «وَيَوْمَ تَقُومُ الْأَشْهَادُ » بالتاء على تأنيث الجماعة . وفى الحديث عن أبى الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من ردّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقاً على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم " ثم تلا « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وعنه عليه السلام أنه قال: " من حَمَى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملَكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشىء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال "(١) . ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم الأول . ﴿ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ نافع والكوفيون «ينفع» باليـاء . الباقون بالتاء . ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ «اللَّعْنَةُ» البعد من رحمة الله و « سُوءُ الدَّارِ» جهنـم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ هذا دخل فى نصرة الرسل فى الدنيا والآخرة أى آتيناه التوراة والنبوة . وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنـور ؛ وفى التنزيل : «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » . ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة جعلناه لهم ميراثا . ﴿ هُـدًى ﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هـدى ؛ يعنى ذلك الكتاب . ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى موعظة لأصحاب العقول .

قوله تعـالى : فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ

(١) رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه . النحاس .

Marfat.com

خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أى فٱصبر يا محمد على أذى المشركين ، كما صبر مَن قبلك « إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » بنصرك وإظهارك ، كما نصرت موسى وبنى إسرائيل . وقال الكلبي : نسخ هـذا بآية السيف . ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ قيـل : لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : لذنب نفسك على من يجوز الصغائر على الأنبياء . ومن قال لا تجوز قال : هذا تعبد للنبي عليه السلام بالدعاء ، كما قال تعالى : « وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا » والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده . وقيل : فٱستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ﴾ يعنى صـلاة الفجر وصلاة العصر ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : هى صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غُدوة وركعتان عشيّة . عن الحسن أيضا ذكره الماوردى . فيكون هذا مما نسخ والله أعلم . وقوله : « بِحَمْدِ رَبِّكَ » بالشكر له والثناء عليه . وقيـل : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى ٱستدم التسبيح فى الصلاة وخارجا منها لتشتغل بذلك عن ٱستعجال النصر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ يخاصمون ﴿ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ﴿ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ قال الزجاج : المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه . قدره على الحذف . وقال غيره : المعنى ما هم ببالغى الكبر على غير حذف ؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن ٱتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ٱرتفاعهم ، ونقصت أحوالهم ، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا ، فأعلم الله عز وجـل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذى أمّلوه بالتكذيب . والمراد المشركون . وقيل : اليهود ؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة .

Marfat.com

والمعنى؛ إن تعظَّموا عن آتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيردّ الملك إلينا ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله [فذلك كبر لا يبلغونه][1] فنزلت الآية فيهم ؛ قاله أبو العالية وغيره . وقد تقدم في « آل عمران »[2] أنه يخرج و يطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة . وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب « التذكرة » . وهو يهودي وآسمه صاف و يكنى أبا يوسف . وقيل : كل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم . وهـذا أحسن ؛ لأنه يعم . وقال مجاهد : معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها والمعنى واحد . وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير أي يطلبون النبوة أو أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل ونحوه . ولا يبلغون ذلك . أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ قيل : من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت في اليهود . وعلى القول الآخر من شر الكفار . وقيل : من مثل ما آبتلوا به من الكفر والكبر . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ «هو» يكون فاصلا ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مبتدأ وخبره . قال أبو العالية : أي أعظم من خلق الدجال حين عظّمته اليهود . وقال يحيى بن سلّام : هو آحتجاج على منكري البعث . أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم آعتقدوا عجزي عنها . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي المؤمن والكافر والضال والمهتدي . ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي ولا يستوي العامل للصالحات ﴿ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ الذي يعمل السيئات . ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قراءة العامة بياء على الخبر وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده . وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

(١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) راجع ج ٤ ص ٨٩ وما بعدها وص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ هذه لام التأكيد دخلت فى خبر إن وسبيلها أن تكون فى أول الكلام ، لأنها توكيد الجملة إلا أنها تزحلق عن موضعها ؛ كذا قال سيبويه . تقول : إن عمرا لخارج ، وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها و بين إنّ ؛ لأنهما يؤدّيان عن معنى واحد ، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين . وأجاز هشام إنّ أنّ زيدا منطلق حقّ ؛ فإن حذفت حقّا لم يجز عند أحد من النحويين علمته ؛ قاله النحاس . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك ولا مرية . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يصدّقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصى .

قوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآية ؛ روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة . وكذا قال أكثر المفسرين

Marfat.com

وأن المعنى وحّدونى وٱعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيل : هو الذكر والدعاء والسؤال .
قال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا ٱنقطع" ويقال الدعاء هو ترك الذنوب . وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبيّ ، كان إذا أرسل نبيّ قيل له أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وكان يقال للنبيّ ليس عليك فى الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان يقال للنبيّ ٱدعنى ٱستجب لك ، وقال لهذه الأمة : « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

قلت : مثل هذا لا يقال من جهة الرأى ، وقد جاء مرفوعا ؛ رواه ليث عن شهر بن حَوْشَب عن عُبادة بن الصامت ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أُعطيت أمتى ثلاثا لم تُعطَ إلا للأنبياء كان الله تعالى إذا بعث النبيّ قال ٱدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وكان الله إذا بعث النبي قال ما جعل عليك فى الدين من حرج وقال لهذه الأمة « مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس" ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » .
وكان خالد الربعى يقول : عجيب لهذه الأمة ! قيل لها : «ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط . قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فها هنا شرط ، وقوله : «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ » فليس فيه شرط العمل ، ومثل قوله : « فَٱدْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فها هنا شرط ، وقوله تعالى : « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ليس فيه شرط . وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها فى حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك . وقد قيل : إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدم فى « البقرة » (١) بيانه . أى « أَسْتَجِبْ لَكُمْ » إن شئت ؛ كقوله : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . وقد تكون الاستجابة فى غير عين المطلوب على حديث أبى سعيد الخدرى على ما تقدم

(١) راجع ج ٢ ص ٣٠٩ طبعة ثانية

Marfat.com

فى « البقرة » بيانه فتأمله هناك . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورويس عن يعقوب وعيّاش عن أبى عمرو وأبو بكر والمفضّل عن عاصم « سَيُدْخَلُونَ » بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسمّ فاعله . الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح اليـاء وضم الخـاء . ومعنى ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين أذلاء وقد تقدّم[(١)] .

قوله تعـالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ « جَعَلَ » هنـا بمعنى خلق، والعرب تفرق بين جعـل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين ؛ نحو قوله : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع[(٢)] . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا فى طلب معائشكم . ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله و إنعامه عليهم .

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بيّن الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمـان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك؛ أى كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف عن الحق ﴿ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ زاد فى تأكيد التعريف والدليل ؛ أى جعـل لكم الأرض مسـتقرا لكم فى حياتكم و بعد الموت . ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ تقـدّم[(٣)] . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة . وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلى « صِوَرَكُمْ » بكسر الصاد؛ قال الجوهرى : والصِّور بكسر الصاد لغة فى الصُّوَر جمع صُورة، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشبهْنَ من بقرِ الخَلْصاءِ أعيُنَهـا * وهُنَّ أحسَنُ من صِيرانِها صِوَرا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١١ و جـ ١٣ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

[والصِّيران جمع صُوَار وهو القطيع من البقر والصِّوار أيضا وعاء المسك](١) وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاحَ الصِّوارُ ذكرتُ ليلى * وأذكُرُها إذا نفحَ الصُّوارُ

والصِّيار لغة فيه . ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقدّم(٢) . ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ أي الباقي الذي لا يموت ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي الطاعة والعبادة . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر أي ادعوه واحمدوه . وقد مضى هذا كله مستوفى في « البقرة »(٣) وغيرها . وقال ابن عباس : من قال « لا إله إلا الله » فليقل « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أي قل يا محمد نهاني الله الذي هو الحي القيوم ولا إله غيره ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ غيره . ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾ أي دلائل توحيده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أذل وأخضع ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه ، فأمر أن يقول هذا .

(١) الزيادة من الصحاح للجوهري لا يتم الكلام إلا بها .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ١ ص ١٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) مضى هذا الكلام للمصنف في تفسير الفاتحة جـ ١ ص ١٣٦ فليراجع هناك لا في البقرة ولعل ما في الأصل تحريف .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أى أطفالا . وقد تقدّم هذا (١) . ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وهى حالة آجتماع القوّة وتمام العقل . وقد مضى فى « الأنعام » بيانه (٢) . ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ بضم الشين قراءة نافع وآبن محيصن وحفص وهشام و يعقوب وأبو عمرو على الأصل ؛ لأنه جمع فَعْل ، نحو . قَلْب وقُلُوب ورأس ورءوس . وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة ، وفى العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة فى الياء ثقيلة . وقرئ « شَيْخًا » على التوحيد ؛ كقوله « طِفْلًا » والمعنى كل واحد منكم ؛ وآقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس . وفى الصحاح : جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيخة وشِيخان ومَشْيخة ومَشايخ ومَشيوخاء والمرأة شَيخة . قال عَبِيد (٣) :

* كأنّها شَيْخةٌ رَقُوبُ (٤) *

وقد شاخ الرجل يَشيخ شَيَخا بالتحريك على أصله وشَيْخوخة ، وأصل الياء متحركة فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فعْلول . وشَيَّخ تَشْيِيخا أى شاخ . [وشَيَّخته (٥)] دعوته شيخا للتبجيل . وتصغير الشيخ شُيَيخ وشِيَيخ أيضا بكسر الشين ولا تقل شُوَيخ . النحاس : وإن آضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن فى عين ؛ لأنها مؤنثة . والشيخ من جاوز أربعين سنة . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ قال مجاهد : أى من قبل أن يكون شيخا ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سِقْطا . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ قال مجاهد : الموت للكل . واللام لام العاقبة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره .

(١) راجع ج ١٢ ص ١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو عبيد بن الأبرص .

(٤) الرقوب : التى ترقب ولدها خوف أن يموت . والبيت فى وصف فرسه ؛ وتمامه :

* باتت على أرم عذوبا *

(٥) الزيادة من كتب اللغة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة . ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أي أراد فعله قال ﴿ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ونصب « فيكون » ابن عامر على جواب الأمر . وقد مضى في « البقرة »(1) القول فيه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ . وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدرية . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية

(1) راجع جـ ٢ ص ٨٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

فلا أدرى فيمن نزلت . قال أبو قبيل : لا أحسب المكذّبين بالقَدَر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا . وقال عقبة بن عامر: قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نزلت هذه الآية فى القَدَرية" ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم . قال التيمى : لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وضع على جبل لوَهصه حتى يبلغ الماء الأسود . ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفا على الأغلال . قال أبو حاتم : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ مستأنف على هذه القراءة . وقال غيره : هو فى موضع نصب على الحال ، والتقدير « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » مسحوبين . وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود « والسلاسِلَ » بالنصب "يَسْحَبُونَ" بفتح الياء والتقدير فى هذه القراءة ويسحبون السلاسل . قال ابن عباس : إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم . وحكى عن بعضهم « وَالسَّلَاسِلِ » بالجر وجهه أنه محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أعناقهم فى الأغلال والسلاسلِ ؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : ومن قرأ « والسلاسِلِ يُسْحَبُونَ » بالخفض فالمعنى عنده وفى « السلاسِلِ يُسْحَبُونَ » . قال ابن الأنبارى : والخفض على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت زيد فى الدار لم يحسن أن تضمر«فى»فتقول زيد الدارِ،ولكن الخفض جائز على معنى إذ أعناقهم فى الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسلَ على النسق على تأويل الأغلال ؛ لأن الأغلال فى تأويل الخفض ؛ كما تقول: خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين ، ويجوز رفعهما؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه؛ أنشد الفراء :

قد سالَمَ الحيّاتِ منه القَدَما * الأُفْعُوَانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما[(١)]

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم . فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها . و « الحميم » المتناهى فى الحر . وقيل : الصديد المغلى . ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ

---

(١) الشجعم : الضخم من الحيات .

Marfat.com

يُسْجَرُونَ ﴾ أى يطرحون فيهـا فيكونون وقودا لها ؛ قاله مجاهد . يقال : سجرت التنور أى أوقدته، وسجرته ملأته ومنه « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » أى المملوء. فالمعنى على هذا تملأ بهم النار. وقال الشاعر يصف وعلا :

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً ✽ تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّمْسَمَا

أى عينا مملوءة . ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى هلكوا وذهبوا عنا وتركونا فى العـذاب ؛ من ضلّ المـاءُ فى اللبن أى خفى . وقيـل : أى صاروا بحيث لا نجدهم . ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أى شيئا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع . وليس هـذا إنكارا لعبادة الأصنام، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى ذلكم العذاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ بالمعاصى يقال لهم ذلك توبيخا . أى إنمـا نالكم هذا بمـا كنتم تظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المـال والأتباع والصحة . وقيـل إن فرحهم بمـا عندهم أنهم قالوا للرسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذّب . وكذا قال مجاهد فى قوله جل وعز: « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَـا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » . ﴿ وَبِمَـا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أى تبطرون وتأشرون . وقد مضى فى « سبحان »[1] بيانه . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العـدوان . وروى خالد عن ثور عن معاذ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لحِمِين ويبغض كل حبر سمين"[2] فأما أهـل بيت لحِمِين فالذين يأكلون لحوم النـاس بالغيبة . وأما الحبر السمين فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه النـاس؛ يعنى المستكثر من علمـه ولا ينتفع به الناس . ذكره المـاوردى . وقـد قيل فى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠ طبعة أولى أو ثانيـة .

(٢) الحـديث فى النهاية "إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين" .

Marfat.com

اللحمين : أنهم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ ومنه قول عمر : اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة(١) كضراوة الخمر . ذكره المهدوى . والأول قول سفيان الثورى . ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك اليوم ، وقد قال الله تعالى : « لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ »(٢) . ﴿ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تقدم جميعه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ هذا تسلية للنبى عليه السلام ؛ أى إنا لننتقم لك منهم إما فى حياتك أو فى الآخرة . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ فى موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبنى الفعل على الفتح . ﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف عليه ﴿ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ الجواب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ﴾ عزاه أيضا بما لقيت الرسل من قبله . ﴿ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم . ﴿ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ ﴾ أى من قبل نفسه ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ أى إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم ، ولمن فى أصلابهم من المؤمنين . وقيل : أشار بهذا إلى القتل ببدر . ﴿ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أى الذين يتبعون الباطل والشرك .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل ﴿ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن

(١) الضراوة فى قول عمر العادة فى النفس الطلابة لأكل اللحم ، وهى حال ناشئة عن الاعتياد .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الله عز وجل قال فى الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وقال فى الخيل : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا » ولم يذكر إباحة أكلها . وقد مضى هذا فى « النحل »(١) مستوفى .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ فى الوبر والصـوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أى تحمل الأثقال والأسفار. وقد مضى فى «النحل»(٢) بيان هذا كله فلا معنى لإعادته . ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعنى الأنعام فى البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ فى البحر ﴿ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر . ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ﴾ نصب « أيا » بـ« تُنْكِرُونَ » ؛ لأن الآستفهام له صـدر الكلام فلا يعمل فيه ماقبـله ، ولو كان مع الفعل هاء لكان الآختيار فى « أىّ » الرفع ، ولو كان الآسـتفهام بألف أو هل وكان بعـدهما آسم بعده فعل معـه هاء لكان الآختيار النصب ؛ أى إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر .

قوله تعـالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع ؛ يقـال : دلوت بفلان إليك أى آستشفعت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

به إليك . وعلى هذا « ما » للجحد أى فلم يغن عنهم ذلك شيئا . وقيل : « ما » للآستفهام أى أىّ شىء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا . ولم ينصرف « أَكْثَرَ » ؛ لأنه على وزن أفعل . وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه فى شعر ولا غيره إذا كانت معه من . قال أبو العباس : ولو كانت من المانعة من صرفه لوجب ألا يقال : مررت بخير منك وشر [منك و](١) من عمرو .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ فى معناه ثلاثة أقوال . قال مجاهد : إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . وقيل : الذين فرحوا الرسل لما كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين فـ « فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » بنجاة المؤمنين ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى بالكفار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب آستهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى عاينوا العذاب . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى بالأوثان التى أشركناهم فى العبادة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ ﴾ بالله عند معاينة العذاب وحين رأوا البأس . ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سنّ يسنّ سنّا وسُنّة ؛ أى سنّ الله عز وجل فى الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب . وقد مضى هذا مبينا فى « النساء »(٢) و « يونس »(٣) وأن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضرورى . وقيل : أى آحذروا يأهل مكة سنة الله فى إهلاك الكفرة فـ « سنة الله » منصوب على التحذير والإغراء . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بيّن لنا الخسران لما رأوا العذاب . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى « لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » كسنتنا فى جميع الكافرين فـ « سنةَ » نصب بنزع الخافض أى كسنّة الله فى الأمم كلها . والله أعلم . تم تفسير سورة « غافر » والحمد لله .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

سورة فصلت مكية في قول الجميع

وهي أربع وخمسون، وقيل : ثلاث وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الزجاج : « تَنْزِيلٌ » رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين . وقال الفراء : يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا . ويجوز أن يقال « كِتَابٌ » بدل من قوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : نعت لقوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : « حمٓ » أي هذه « حمٓ » كما تقول باب كذا أي هو باب كذا ف « حمٓ » خبر ابتداء مضمر أي هو « حمٓ » وقوله « تَنْزِيلٌ » مبتدأ آخر وقوله « كِتَابٌ » خبره . « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أي بينت وفسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته . الحسن : بالوعد والوعيد . سفيان : بالثواب والعقاب . وقرئ « فَصَلَتْ » أي فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك فصل أي تباعد من البلد . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ في نصبه وجوه؛ قال الأخفش : هو نصب على المدح . وقيل : على إضمار فعل أي أذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على إعادة الفعل أي فصلنا « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على الحال أي « فُصِّلَتْ آياته » في حال كونه « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : لما شغل « فُصِّلَتْ » بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب « قُرْآنًا » لوقوع البيان عليه . وقيل : على القطع . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك : أي إن

Marfat.com

القرآن منزل من عنــد الله . وقال مجاهد : أى يعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل . وقيل : يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربىّ لمــا علموه .

قلت : هذا أصح والسورة نزلت تقريعا وتو بيخا لقريش فى إعجاز القرآن. ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ حالان من الآيات والعامل فيه « فصلت » . وقيل : همــا نعتان للقرآن « بَشِيرًا » لأولياء الله « نَذِيرًا » لأعدائه . وقرئ « بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » صــفة للكتاب . أو خبر مبتــدإ محذوف . ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعنى أهــل مكة ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سمــاعا ينتفعون به . وروى أن الريان بن حرملة قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل قــد ٱلتبس علينا أمر محمد ، فلو ٱلتمستم رجلا عالمــا بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ؛ فقال عتبــة ابن ربيعة : والله لقــد سمعت الكهانة والشــعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى على إن كان كذلك . فقالوا : إيتــه فحدّثه . فأتى النبى صلى الله عليــه وسلم فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصىّ بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبــد المطلب ؟ أنت خير أم عبــد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسـفه أحلامنا ، وتذم ديننــا ؟ فإن كنت إنمــا تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، و إن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنــات قريش شئت ، و إن كنت تريد المــال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، و إن كان هــذا الذى يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنــا فى طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك . والنبى صلى الله عليــه وسلم ساكت ، فلمــا فرغ قال : " قــد فرغت يا أبا الوليد " قال : نعم . [قال فٱسمع منى](١) قال يا بن أخى أسمــع [قال] « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحِيم . حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » إلى قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فوثب عتبة ووضع يده على فم النبى صلى الله عليــه وسلم ، وناشده الله والرحم ليسكتن ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل ؛ فقال :

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام .

Marfat.com

أصبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبكَ طعامه ؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله : «مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ؛ يعنى الصاعقة . وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد له عن محمد بن كعب القرظى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ «حمٓ . فُصِّلَتْ» حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغٍ يستمع ، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره . فلما قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة قال له : " يا أبا الوليد قد سمعتَ الذى قرأتُ عليك فأنت وذاك " فانصرف عتبة إلى قريش فى ناديها فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم . ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى ؛ خلّوا محمدا وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدى غيركم ، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ؛ لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمد يا أبا الوليد . وقال : هذا رأيى لكم فاصنعوا ما شئتم .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ الأكنة جمع كِنان وهو الغطاء . وقد مضى فى «البقرة»(1) . قال مجاهد : الكِنان للقلب كالجنة للنبل . ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى صمم ؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا ، وقلوبنا مستورة عن فهمه . ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أى خلاف فى الدين ؛ لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل . قال معناه الفراء وغيره . وقيل : ستر مانع عن الإجابة . وقيل : إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا وبينك حجاب . استهزاء منه . حكاه النقاش وذكره القشيرى . فالحجاب هنا

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

الثوب . ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أى آعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك ؛ قاله الكلبى . وقال مقاتل : آعمل لإلهك الذى أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها . وقيل : آعمل بما يقتضيه دينك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا . ويحتمل خامسا(١) : فآعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى لست بملك بل أنا من بنى آدم . قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع . ﴿ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى من السماء على أيدى الملائكة ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ فـ ﴾ آمنوا به و﴿ اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أى وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسئلة إليه ، كما يقول الرجل : آستقم إلى منزلك ؛ أى لا تعرج على شيء غير القصد إلى منزلك . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى من شرككم . ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قال آبن عباس : لا يشهدون « أن لا إله إلا الله » وهى زكاة الأنفس . وقال قتادة : لا يقرون بالزكاة أنها واجبة . وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة . قرّعهم بالشح الذى يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه . وقال الفراء وغيره : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ويطعمونهم ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهم هذه الآية . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلهذا لا ينفقون فى الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون .

(١) لم يذكر المصنف إلا أربعة أقوال ولعل الخامس ما ذكره الكشاف : « فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك » .

Marfat.com

الزمخشري : فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته [واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته] (١) ألا ترى إلى قوله عز وجل : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أي يثبتون أنفسهم ، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة (٢) من الدنيا ، فقويت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ؛ وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير مقطوع ؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته ؛ ومنه قول ذي الإصبع :

إِنِّى لَعَمْرُكَ ما بابى بِذِى غَلَقٍ * على الصَّدِيقِ ولا خَيْرِى بِمَمْنُونِ (٣)

وقال آخر :

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والْوَقْـ * ـعِ مَنِيناً كأَنَّهُ أَهْبَاءُ

يعني بالمنين الغبار المنقطع الضعيف . وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : غير منقوص . ومنه المنون ؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسان أي قوته ؛ وقاله قطرب ؛ وأنشد قول زهير :

فَضْلَ الجِيادِ على الخَيْلِ البِطاءِ فلا * يُعْطِى بذلك مَمْنُوناً ولا نَزِقَا (٤)

قال الجوهري : والمَنّ القطع ، ويقال النقص ؛ ومنه قوله تعالى : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » . وقال لبيد :

* غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا * (٥)

(١) الزيادة من تفسير الزمخشري . (٢) اللظة في اللغة : النكتة من بياض أو سواد ، والمراد بها هنا الشيء اليسير من حطام الدنيا . (٣) ويروى : ولا زادى بممنون . (٤) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . (٥) صدر البيت : * لمعفر قهد تنازع شلوه *

وقد وقع هذا البيت غلطا في بعض نسخ الجوهري فراجع تحقيقه في اللسان مادة « من » .

Marfat.com

وقال مجاهد : «غَيْرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب . وقيل : «غَيْرُ مَمْنُونٍ» عليهم به . قال السدى : نزلت فى الزَّمْنَى والمَرْضى والهَرْمَى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه .

قوله تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ «أَئِنَّكُمْ» بهمزتين الثانية بين بين و «أَائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ . أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم ، أى لم تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض ؟! «فِي يَوْمَيْنِ» الأحد والاثنين . ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أى أضدادا وشركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أى فى الأرض ﴿رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعنى الجبال . قال وهب : لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء ، فقال لجبريل : ثَبِّتْها يا جبريل . فنزل فأمسكها فغلبته الرياح ، قال : يا رب أنت أعلم لقد غُلِبت فيها فثبتها بالجبال وأرساها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع . قال السدى : أنبت فيها شجرها . ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها فى يوم الثلاثاء والأربعاء . وقال عكرمة والضحاك : معنى «وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» أى أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من

Marfat.com

التجارات والأشجار والمنافع فى كل بلدة ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد . قال عكرمة : حتى إنه فى بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلاً بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابرىّ من سابور والطيالسة من الرى والحِبَر اليمانية من اليمن . ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعنى فى تتمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ؛ أى فى تتمة خمسة عشر يوما . قال معناه ابن الأنبارى وغيره . ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى ؛ وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . واختاره الطبرى . وقرأ الحسن البصرى ويعقوب الحضرمى « سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ » بالجر . وعن ابن القعقاع « سَوَاءٌ » بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و « سَوَاءً » بمعنى استواء أى استوت استواء . وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أى « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » مستوية تامة . والرفع على الابتداء والخبر « لِلسَّائِلِينَ » أو على تقدير هذه « سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ » . وقال أهل المعانى : معنى « سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » ولغير السائلين أى خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ؛ ويعطى من سأل ومن لا يسأل .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها . والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال ؛ يدل عليه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » وقد مضى القول هناك (١) . وروى أبو صالح عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » يعنى صعد أمره إلى السماء ؛ وقاله الحسن . ومن قال : إنه صفة ذاتية زائدة قال استوى فى الأزل بصفاته . و « ثُمَّ » ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة ، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ على ما مضى فى « البقرة » عن ابن مسعود وغيره . ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلقى . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقّى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وفى الكلام حذف أى أتينا أمرك « طَائِعِينَ » . وقيل : معنى هذا الأمر التسخير ؛ أى كونا فكانتا كما قال تعالى : «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فعلى هـذا قال ذلك قبل خلقهما . وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما . وهو قول الجمهور . وفى قوله تعالى لهما وجهان ؛ أحدهما أنه قول تكلم به . الثانى أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام فى بلوغ المراد ؛ ذكره الماوردى . ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فيه أيضا وجهان ؛ أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ؛ ومنه قول الراجز :

امْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْنِي * مَهْلاً رُوَيْدا قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

يعنى ظهر ذلك فيه . وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى ؛ قال أبو نصر السكسكى : فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحيالها ، فوضع الله تعالى فيه حرمه . وقال : « طَائِعِينَ » ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى ؛ لأنهما سموات وأرضون ؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما . وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما فى الكناية مجرى من يعقل ، ومثله « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » وقد تقدّم[(١)]. وفى حديث : إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما « ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ قال : كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما . قال : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : فى مرج من مروجى . قال : يا رب وأين ذلك المرج؟ قال : علم من علمى . ذكره الثعلبى . وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة « آتِيَا » بالمدّ والفتح . وكذلك قوله : « آتَيْنَا طَائِعِينَ » على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما « قَالَتَا » أعطينا « طَائِعِينَ » فحذف المفعولين جميعا . ويجوز وهو أحسن أن يكون « آتَيْنَا » فاعلنا فحذف مفعول واحد . ومن قرأ « أَتَيْنَا » فالمعنى جئنا بما فينا ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير ما موضع والحمد لله .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ و جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أكملهن وفرغ منهن . وقيل : أحكمهن كما قال[(١)] :

وعليهما مسرودتان قضاهما　＊　داود أو صنع السوابغ تبع

﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ كما قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » على ما تقدم فى « الأعراف »[(٢)] بيانه . قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون . وعن عبد الله بن سلام قال : خلق الله الأرض فى يومين ، وقدر فيها أقواتها فى يومين ، وخلق السموات فى يومين ؛ خلق الأرض فى يوم الأحد والاثنين ، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وآخر ساعة فى يوم الجمعة خلق الله آدم فى عجل ، وهى التى تقوم فيها الساعة ، وما خلق الله من دابة إلا وهى تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن . على هذا أهل التفسير ؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : " خلق الله التربة يوم السبت " الحديث وقد تكلمنا على إسناده فى أول سورة « الأنعام »[(٣)] . ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وخلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد والثلوج . وهو قول ابن عباس ؛ قال : ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذى فى السماء الدنيا هو البيت المعمور . وقيل : أوحى الله فى كل سماء ؛ أى أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها . والإيحاء قد يكون أمرا ؛ لقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » أى أمرتهم وهو أمر تكوين . ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أى بكواكب تضىء . وقيل : إن فى كل سماء كواكب تضىء . وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا . ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أى وحفظناها حفظا ؛ أى من الشياطين الذين يسترقون السمع . وهذا

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . والصنع بفتحتين الحاذق .　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الحفظ بالكواكب التي ترجم بها الشياطين على ما تقدّم في « الحجـر »[(١)] بيانه . وظاهر هـذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبـل السماء . وقال في آية أخرى : « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا » ثم قال : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » وهذا يدل على خلق السماء أوّلا . وقال قوم : خلقت الأرض قبـل السماء ؛ فأما قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » فالدحو غير الخلق ؛ فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أى مدّها و بسطها ؛ قاله آبن عباس . وقد مضى هذا المعنى مجودا في « البقرة »[(٢)] والحمد لله . ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قوله تعـالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُـلْ أَنذَرْتُـكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْـلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُـودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَـا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعنى كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان . ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أى خوفتكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود . ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُـلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعنى من أرسـل إليهم و إلى من قبلهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض أى بـ « أَلَّا تَعْبُدُوا » و ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ بدل الرسل ﴿ فَإِنَّا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل : هذا آستهزاء منهم . وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب، وقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا . وذلك أنهم كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم . وقد مضى فى « الأعراف »(١) عن ابن عباس : أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعا . فقال الله تعالى ردا عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة، وإنما يقدر العبد بإقدار الله فالله أقدر إذا . ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى بمعجزاتنا يكفرون .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ هذا تفسير الصاعقة التى أرسلها عليهم، أى ريحا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب . ويقال : أصلها صَرَّر من الصِّر [وهو البرد](٢) فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل ؛ كقولهم كبكبوا أصله كبّبوا وتجفجف الثوبُ أصله تجفّف . أبو عبيدة : معنى صَرْصَر شديدة عاصفة . عكرمة وسعيد بن جبير : شديدة البرد . وأنشد قطرب قول الحطيئة :

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ * والحامِلون إذا آستُودُوا على النَّاس

آستودوا إذا سئلوا الدية . مجاهد : الشديدة السموم . وروى معمر عن قتادة قال : باردة . وقاله عطاء؛ لأن « صَرْصَرًا » مأخوذ من صرّ والصرّ فى كلام العرب البرد كما قال(٣) :

لها عُذَرٌ كقُرونِ النِّسا * ءِ رُكِّبْنَ فى يومِ ريحٍ وصِرْ

وقال السدى : الشديدة الصّوت . ومنه صَرَّ القلمُ والباب يَصِرّ صريرا أى صَوَّت . ويقال : درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذى له صوت إذا نُقِد . قال آبن السِّكِّيت : صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر وهو البرد، ويجوز أن يكون من صَرير الباب ، ومن الصَّرَّة وهى الصيحة ومنه « فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ » . وصَرْصَر آسم نهر بالعراق . ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ أى مشئومات؛

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من اللسان عن ابن السكيت لأن هذا الكلام له . (٣) هو امرؤ القيس يصف فرسه .

Marfat.com

قاله مجاهد وقتادة . كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » قال ٱبن عباس : ما عُذِّب قوم إلا في يوم الأربعاء . وقيل : « نَحِسَاتٍ » باردات ؛ حكاه النقاش . وقيل : متتابعات ؛ عن ٱبن عباس وعطية . الضحاك : شِداد . وقيل : ذات غبار ؛ حكاه ٱبن عيسى . ومنه قول الراجز :

قَدِ اغْتَدِى قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ * لِلصَّيْدِ في يَوْمٍ قَلِيلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره : أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، ودرّت الرياح عليهم في غير مطر ، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد ، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه ، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى ، مختلفة أديانهم ، وكلهم مُعظِّم لمكة ، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى . وقال جابر بن عبد الله والتيمي : إذا أراد الله بقوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، و إذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح . وقرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو « نَحْسَاتٍ » بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذي هو مصدر وصف به . الباقون « نَحِسَاتٍ » بكسر الحاء أي ذوات نحس . ومما يدل على أن النحس مصدر قوله : « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه ؛ و بهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته ؛ وٱختاره أبو حاتم . وٱختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال : لا تصح حجة أبي عمرو ؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن ، و إنما كان يكون حجة لو نون اليوم ونعت وأسكن ؛ فقال : « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه . وقال المهدوي : ولم يسمع في « نَحْسٍ » إلا الإسكان . قال الجوهري : وقرئ في قوله : « فِي يَوْمٍ نَحِسٍ » على الصفة ، والإضافة أكثر وأجود . وقد نَحِس الشيءُ بالكسر فهو نَحِس أيضا ؛ قال الشاعر :

أبلغ جذاما ولخما أن إخوتهم * طيا وبهراء قوم نصرهم نحس

ومنه قيل : أيام نَحِسات . « لِنُذِيقَهُمْ » أي لكى نذيقهم « عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » بالريح العقيم . « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى » أي أعظم وأشد « وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أى بينا لهم الهدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره. وقرأ الحسن وابن أبى إسحق وغيرهما « وَأَمَّا ثَمُودَ » بالنصب وقد مضى الكلام فيه فى «الأعراف» (١) . ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أى اختاروا الكفر على الإيمان . وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان . السدى : اختاروا المعصية على الطاعة. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ « الهون » بالضم الهوان . وهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر أخو كنانة وأسد . وأهانه استخف به . والاسم الهوان والمهانة. وأضيف الصاعقة إلى العذاب؛ لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك، فكأنه قال مهلك العذاب؛ أى العذاب المهلك. والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر؛ فكأنه قال : صاعقة الهون . وهو كقولك : عندى علم اليقين، وعندى العلم اليقين . ويجوز أن يكون الهون اسما مثل الدون ؛ يقال : عذاب هون أى مُهين ؛ كما قال : « مَالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ » . وقيل : أى صاعقة العذاب ذى الهون . ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة، على ما تقدم. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى صالحا ومن آمن به؛ أى ميزناهم عن الكفار، فلم يحل بهم ماحل بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمنى قومك وكفارهم.

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قرأ نافع « نَحْشُرُ » بالنون « أَعْدَاءَ » بالنصب . الباقون « يُحْشَرُ » بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع ومعناهما بيّن . وأعداء الله الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره . « فَهُمْ يُوزَعُونَ » يساقون و يدفعون إلى جهنم . قال قتادة والسدى : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما . وقد مضى فى « النمل »(١) الكلام فى « يُوزَعُونَ » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ «ما» زائدة ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الجلود يعنى بها الجلود بأعيانها فى قول أكثر المفسرين . وقال السدى وعبيد الله بن أبى جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جؤية(٢) :

المـرءُ يسعى لِلسـلا * مـةِ والسلامةُ حسبه
أو سالم من قـد تـ * ـنّى جِلدُه وآبيضَّ رأسُه

وقال : جلده كناية عن فرجه . ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى الكفار ﴿ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل . ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا، فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء . وقيل : «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» آبتداء كلام من الله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون ممّ أضحك" قلنا : الله ورسوله أعلم، قال : "من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه آنطقى فتنطق بأعماله قال ثم يُخلّى بينه وبين الكلام قال فيقول بعدًا لكنّ وسُحقا فعنكنّ كنت أناضل" وفى حديث أبى هريرة ثم يقال : "الآن نبعث شاهدنا

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٧ وما بعدها طبعة أولى وثانية .
(٢) كذا فى الأصول، ولم نعثر على هذين البيتين .

عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد على فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه][1] انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه[2] وذلك المنافق وذلك الذى سخط الله عليه " خرجه أيضا مسلم .

قوله تعالى : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ؛ ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ؛ قرشيان وثقفى أو ثقفيان وقرشى ؛ قليلٌ فقهُ قلوبهم كثيرٌ شحمُ بطونهم ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ؛ وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله عز وجل : " وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ " الآية ؛ خرجه الترمذى فقال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر . ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال : حديث حسن صحيح ؛ حدثنا هناد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة ابن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال قال عبد الله : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة

(١) الزيادة من صحيح مسلم .	(٢) ليعذر من نفسه : على بناء الفاعل من الإعذار ؛ والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه ، ولشهادة أعضائه عليه ، بحيث لم يبق له عذر . (هامش مسلم) .

Marfat.com

نفـرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقـهُ قلوبهم قرشيّ وختناه ثقفيان، أو ثقفيّ وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه ؛ فقـال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هـذا ، فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله ؛ فقال عبـد الله : فذكرت ذلك للنبي صـلى الله عليه وسـلم فأنزل الله تعـالى : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ » إلى قوله : « فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الثعلبي : والثقفيّ عبدُ يَالِيل وختناه ربيعة وصفوان بن أمية . ومعنى « تَسْتَتِرُونَ » تستخفون في قول أكثر العلماء ؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم ؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفى من نفسه عمله ، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية . وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ » أي تظنون «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ» بأن يقول سمعت الحقّ وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعـاصي « وَلاَ أَبْصَارُكُمْ » فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجـوز « وَلاَ جُلُودُكُمْ » تقـدّم . ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم . روى بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ » قال : " إنكم تُدْعون يوم القيامة مُفَدَّمة أفواهكم بِفِدام فأول ما يبين عن الإنسان فخـذه وكفه " قال عبـد الله بن عبد الأعلى الشامي (١) فأحسن :

العُمْرُ يَنْقُصُ والذنوبُ تزيـدُ * وتُقالُ عثراتُ الفتى فيعـودُ
هل يستطيعُ جُحُودَ ذنبٍ واحِدٍ * رجـلٌ جوارِحُه عليـه شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنِيه فيشتهي * تقليلَهـا وعنِ الممـاتِ يحيـدُ

(١) كذا في الأصول وفي كتاب « أدب الدنيا والدين » : عبد الأعلى بن عبد الله الشامي .

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل فيّ خيرا أشهد لك به غدا فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا ويقول الليل مثل ذلك" ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال . وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أمسُك الأدْنى شَهيدا معدَّلا * ويومُك هذا بالفِعالِ شهيدُ
فإنْ تكُ بالأمسِ ٱقترفتَ إساءةً * فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حَميدُ
ولا تُرْجِ فِعلَ الخيرِ منك إلى غدٍ * لعلّ غدًا يأتي وأنْتَ فقيدُ

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي أهلككم فأوردكم النار . قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما أساءوا الظن بربهم فأهلكهم" فذلك قوله : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال الحسن البصري : إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ » . وقال قتادة : من ٱستطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن ٱثنان ظنّ ينجي وظنّ يردي . وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم . نظيره « فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ »(1) على ما تقدم . ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ ﴾ في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ . وقيل : المعنى « فَإِن يَصْبِرُوا۟ »

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٣٦ طبعة ثانية .

Marfat.com

فى النار أو يجزعوا « فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله : « وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا »؛ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة :

فإنْ أَكُ مَظْلُومًا فعبدٌ ظَلَمْتَه * وإنْ تكُ ذا عُتبَى فمِثْلُكَ يُعتِبُ

أى مثلك مَن قبِل الصلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة . تقول : عاتبته معاتبة ، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها . يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . وأعتبنى فلان إذا عاد إلى مَسرَّتى راجعا عن الإساءة، والاسم منه العُتبَى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . واستعتب وأعتب بمعنى ، واستعتب أيضا طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبنى أى استرضيته فأرضانى. فمعنى « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا » أى طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار . وفى التفاسير : وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين . وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية « وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا » بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ » بكسر التاء أى إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم فى علم الله من الشقاء ، قال الله تعالى: « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» ذكره الهروى . وقال ثعلب : يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضى .

قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ قال النقاش: أى هيأنا لهم شياطين . وقيل : سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصى ، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا؛ أى سببنا لهم قرناء؛ يقال : قيض الله فلانا لفلان أى جاءه به وأتاحه له ، ومنه قوله تعالى: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ» . القشيرى : و يقال قيض الله لى رزقا أى أتاحه كما كنت أطلبه ، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة ، قايضت الرجل مقايضة أى عاوضته بمتاع ، وهما قيّضان كما تقول بيِّعان . ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا فحسّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ حسّنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ؛ عن مجاهد . وقيل : المعنى « قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » فى النار «فَزَيَّنُوا لَهُمْ» أعمالهم فى الدنيا؛ والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم . وقيل : المعنى أحوجناهم إلى الأقران؛ أى أحوجنا

Marfat.com

الفقير إلى الغني لينال منه، والغنى إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصي . وليس قوله : « وَمَا خَلْفَهُمْ » عطفا على « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار . قال ابن عباس : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » تكذيبهم بأمور الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » التسويف والترغيب في الدنيا . الزجاج : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ما عملوه « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما عزموا على أن يعملوه . وقد تقدّم قول مجاهد . وقيل : المعنى لهم مثل ما تقدّم من المعاصي « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما يعمل بعدهم . ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ أي وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم . وقيل : « في » بمعنى مع ؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه . وقيل : «فِي أُمَمٍ» في جملة أمم ، ومثله قول الشاعر(١) :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ * فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

يريد فأنت في جملة آخرين لست في ذلك بأوحد . ومحل «فِي أُمَمٍ» النصب على الحال من الضمير في « عَلَيْهِمْ » أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

(١) هو عمرو بن أذينة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيـهِ ﴾ لمـا أخبر تعالى عن كفر قوم هـود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا القـرآن فقالوا « لَا تَسْمَعُوا » . وقيـل : معنى « لَا تَسْمَعُوا » لا تطيعوا ؛ يقال سمعت لك أى أطعتك . « وَالْغَوْا فِيهِ » قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى مايقول . وقيل : إنهم فعلوا ذلك لمـا أعجزهم القرآن . وقال مجاهد : المعنى « وَالْغَوْا فِيهِ » بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصـير لغوا . وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول . وقال أبو العالية وابن عباس أيضا : قعوا فيه وعيبوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب . وقرأ عيسى بن عمر والجحدرى وابن أبى إسحق وأبو حيوة وبكر بن حبيب السهمى « وَالْغُوا » بضـم الغين وهى لغـة من لغا يلغو . وقراءة الجماعة من لَغِىَ يَلْغَى . قال الهروى : وقوله « وَالْغَـوْا فِيهِ » قيـل : عارضوه بكلام لا يفهم . يقـال : لغوت ألغو وألْغَى ولغِى يَلْغَى ثلاث لغات . وقـد مضى معنى اللغـو فى « البقرة »(١) وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَـدِيدًا ﴾ قد تقـدم أن الذوق يكون محسوسا ، ومعنى العذاب الشديد ما يتوالى فلا ينقطع . وقيل : هو العذاب فى جميع أجزائهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء قبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وأسوأ الأعمال الشرك .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ ﴾ أى ذلك العذاب الشديد ثم بينه بقـوله « النَّارُ » . وقرأ ابن عباس « ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُـلْدِ » فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية . و « ذَٰلِكَ » ابتداء و « جَزَاءُ » الخبر و « النَّارُ » بدل من « جَزَاءُ » أو خبر مبتدإ مضمر والجملة فى موضع بيان للجملة الأولى .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٩٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى فى النار فذكره بلفظ الماضى والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعنى إبليس وآبن آدم الذى قتل أخاه . عن آبن عباس وآبن مسعود وغيرهما ؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : " ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على آبن آدم الأول كفل من ذنبه لأنه أول من سنّ القتل " خرجه الترمذى . وقيل : هو بمعنى الجنس وبنى على التثنية لآختلاف الجنسين . ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم «لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» فى النار وهو الدرك الأسفل . سألوا أن يُضعِّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس . وقرأ آبن محيصن والسوسى عن أبى عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل « أَرْنَا » بإسكان الراء وعن أبى عمرو أيضا بآختلاسها . وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدم فى «الأعراف»[1] .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال عطاء عن آبن عباس : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله فآستقام . وفى الترمذى عن أنس آبن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا » قال : " قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن آستقام " قال : حديث غريب . ويروى فى هذه الآية عن النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ معنى « آستقاموا » ؛ ففى صحيح مسلم

(١) هكذا فى نسخ الأصل وصوابه فى البقرة فى جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — وفى رواية — غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم آستقم " زاد الترمذى قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ . فأخذ بلسان نفسه وقال: " هذا " . وروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : « ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » لم يشركوا بالله شيئا . وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون فى هاتين الآيتين « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا» و «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » فقالوا: آستقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل « قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » فلم يلتفتوا إلى إله غيره « وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ » بشرك « أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » . وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » فقال : آستقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب . وقال عثمان رضى الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله . وقال علىّ رضى الله عنه : ثم أدوا الفرائض . وأقوال التابعين بمعناها . قال آبن زيد وقتادة : آستقاموا على الطاعة لله . الحسن : آستقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته وآجتنبوا معصيته . وقال مجاهد وعكرمة : آستقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا . وقال سفيان الثورى : عملوا على وفاق ما قالوا . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل بن عياض : زهدوا فى الفانية ورغبوا فى الباقية . وقيل : آستقاموا إسرارا كما آستقاموا إقرارا . وقيل : آستقاموا فعلا كما آستقاموا قولا . وقال أنس لما نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " هم أمتى وربِّ الكعبة " . وقال الإمام بن فورك : السين سين الطلب مثل آستسقى أى سألوا من الله أن يثبتهم على الدين . وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فآرزقنا الآستقامة .

قلت : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها: آعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا وداموا على ذلك . « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ » قال آبن زيد ومجاهد : عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث . وقال آبن عباس : هى بشرى تكون لهم من

Marfat.com

الملائكة فى الآخرة . وقال وكيع وابن زيد : البشرى فى ثلاثة مواطن عند الموت وفى القبر وعند البعث . ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أى بـ«ألا تخافوا» فحذف الجار . وقال مجاهد : لا تخافوا الموت ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم . وقال عكرمة : ولا تخافوا أمامكم ، ولا تحزنوا على ذنوبكم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » قال مجاهد : أى نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة . وقال السدى : أى نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا وأولياؤكم فى الآخرة . ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى ؛ والله ولى المؤمنين ومولاهم . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أى من الملاذ . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تسألون وتتمنون . ﴿ نُزُلًا ﴾ أى رزقا وضيافة . وقد تقدم فى « آل عمران »(١) وهو منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلا . وقيل : على الحال . وقيل : هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين فيكون حالا من الضمير المرفوع فى « تَدَّعُونَ » أو من المجرور فى « لَكُمْ » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ هـذا توبيخ للذين تواصوا باللغو فى القرآن . والمعنى أىّ كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته وهو محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن سيرين والسدى وآبن زيد والحسن : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولىّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحبّ أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه . وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذّنين . قال فضيل بن رفيدة : كنت مؤذّنا لأصحاب عبد الله بن مسعود ، فقال لى عاصم بن هبيرة إذا أذّنت فقلت : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقل وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية؛ قال آبن العربى : والأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدنى؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا بأنه كان المقصود وقت القول؛ ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ » وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان .

قلت : وقول ثالث وهو أحسنها ؛ قال الحسن : هـذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم قال : نزلت فى كل مؤمن . قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة . وقاله أبو أمامة ؛ قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلى وصام . وقال الكلبى : أدى الفرائض .

قلت : وهذا أحسنها مع آجتناب المحارم وكثرة المندوب . والله أعلم . ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال آبن العربى : وما تقدّم يدل على الإسلام، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة ، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص ، دل على أنه لا بدّ من التصريح بالاعتقاد لله فى ذلك كله ، وأن العمل لوجهه .

مسألة — لما قال الله تعالى : « وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ولم يقل له آشترط إن شاء الله، كان فى ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ قال الفراء : « لا » صلة أى « ولا تستوى الحسنة » والسيئة وأنشد :

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُمُ * والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمر ؛ أى لا يستوى ما أنت عليه من التوحيد وما المشركون عليه من الشرك . قال ابن عباس : الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . وقيل : الحسنة الطاعة والسيئة الشرك . وهو الأول بعينه . وقيل : الحسنة المداراة والسيئة الغلظة . وقيل : الحسنة العفو والسيئة الانتصار . وقال الضحاك : الحسنة العلم والسيئة الفحش . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : الحسنة حبّ آل الرسول والسيئة بغضهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ نسخت بآية السيف وبقى المستحب من ذلك ؛ حسن العشرة والاحتمال والإغضاء . قال ابن عباس : أى ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك . وعنه أيضا : هو الرجل يسبّ الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك . وكذلك يروى فى الأثر أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال ذلك لرجل نال منه . وقال مجاهد : « بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ » يعنى السلام إذا لقى من يعاديه ؛ وقاله عطاء . وقول ثالث ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى الأحكام وهو المصافحة . وفى الأثر : "تصافحوا يَذهبِ الغِلّ" . ولم ير مالك المصافحة ، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان : قد صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرا حين قدم من أرض الحبشة ؛ فقال له مالك : ذلك خاص . فقال له سفيان : ما خَصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصّنا ، وما عَمّه يعمّنا ، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها . وقد روى قتادة قال قلت لأنس : هل كانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وهو حديث صحيح . وفى الأثر : "من تمام المحبة الأخذ باليد" . ومن حديث محمد بن إسحق وهو إمام مقدّم ، عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فقرع الباب، فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه — والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده — فاعتنقه وقبله .

Marfat.com

قلت : قد روى عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء . وقد مضى ذلك في «يوسف»(١) وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا ألقيت ذنوبهما بينهما".

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي قريب صديق . قال مقاتل : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له وليا بعد أن كان عدوا بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فصار وليا في الإسلام حميما بالقرابة . وقيل : هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام ، كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ؛ ذكره الماوردي . والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » . وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم . وروى أن رجلا شتم قنبرا مولى علي ابن أبي طالب فناداه علي يا قنبر ! دع شاتمك ، واله عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . وأنشدوا :

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّمًا * أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ

وقال آخر :

وما شَيْءٌ أَحَبُّ إلى سَفِيهٍ * إذا سَبَّ الكَرِيمَ من الجَوَابِ
مُتَارَكَةُ السَّفِيهِ بلا جوابٍ * أَشَدُّ على السَّفِيهِ من السِّبَابِ

وقال محمود الوراق(٢) :

سَأُلْزِمُ نفسي الصَّفْحَ عن كلِّ مُذْنِبٍ * وإِنْ كَثُرَتْ منه لَدَيَّ الجَرَائِمُ
فما النَّاسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ * شريفٌ ومَشْرُوفٌ ومِثْلٌ مُقَاوِمُ

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٦ طبعة أولى أو ثانية
(٢) الأبيات التالية معزوة في كتاب «أدب الدنيا والدين» ص ٢٤٢ طبع وزارة المعارف إلى الخليل بن أحمد .

Marfat.com

فأمّا الذى فوقى فأَعْرِفُ قَدْرَه * وأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ
وأمّا الذى دونى فإنْ قال صُنْتُ عن * إجابتِه عِرْضِى وإنْ لامَ لائِمُ
وأمّا الذى مِثلِى فإنْ زَلَّ أو هَفا * تفضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْمِ حاكِمُ

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعنى هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الخير ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة . وقيل : الكناية فى « يُلَقَّاهَا » عن الجنة أى ما يلقاها إلا الصابرون ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ تقدم فى آخر «الأعراف»(1) مستوفى . ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من كيده وشره ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعالك وأقوالك .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وقد مضى فى غير موضع(2) . ثم نهى عن السجود لهما ؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما فى أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله ؛ لأن خالقهما هو الله

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(2) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما . ﴿ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ وصوّرهنّ وسخرهنّ ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار . وقيل : للشمس والقمر خاصة ؛ لأن الاثنين جمع . وقيل : الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل . ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ يعنى الكفار عن السجود لله ﴿ فَٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أى لا يملون عبادته . قال زهير :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ * ثمانِينَ حَوْلًا لا أبالَكَ يَسْأَمِ

مسألة — هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ؛ واختلفوا فى موضع السجود منها . فقال مالك : موضعه « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » ؛ لأنه متصل بالأمر . وكان علىّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله « تَعْبُدُونَ » . وقال ابن وهب والشافعى : موضعه « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال . وبه قال أبو حنيفة . وكان ابن عباس يسجد عند قوله « يَسْأَمُونَ » . وقال ابن عمر : اسجدوا بالآخرة منهما . وكذلك يروى عن مسروق وأبى عبد الرحمن السُّلَمى وإبراهيم النَّخَعى وأبى صالح ويحيى بن وثاب ، وطلحة وزبيد اليامِيَّيْن (١) والحسن وابن سيرين . وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . قال ابن العربى : والأمر قريب .

مسألة — ذكر ابن خُوَيْزِمَنْداد : إن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ؛ وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ، فصلى النبىّ صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف .

قلت : صلاة الكسوف ثابتة فى الصحاح البخارى ومسلم وغيرهما . واختلفوا فى كيفيتها اختلافا كثيرا ، لاختلاف الآثار ، وحسبك ما فى صحيح مسلم من ذلك ، وهو العمدة فى الباب . والله الموفق للصواب .

(١) هذه النسبة إلى يامة بطن من همدان .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخطاب لكل عاقل أى « ومن آياته » الدالة على أنه يحيي الموتى « أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى يابسة جدبة ؛ هذا وصف الأرض بالخشوع ؛ قال النابغة :

رمادٌ ككحلِ العينِ لأْياً أُبينُهُ * ونُؤْيٌ كجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ [(١)]

والأرض الخاشعة الغبراء التى تنبت . وبلدة خاشعة . أى مغبرة لا منزل بها . ومكان خاشع . ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى بالنبات ؛ قاله مجاهد . يقال : اهتز الإنسان أى تحرك ؛ ومنه :

تراه كنَصْلِ السَّيفِ يهتزُّ للنَّدى * إذا لم تجدْ عند امرئِ السَّوْءِ مَطْمَعا

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى انتفخت وعلت قبل أن تنبت ؛ قاله مجاهد . أى تصعدت عن النبات بعد موتها . وعلى هذا التقدير يكون فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت واهتزت . والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض ، وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض ؛ فربوها ارتفاعها . ويقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية ؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد فى جسمه بالكبر طولا وعرضا . وقرأ أبو جعفر وخالد « وَرَبَأَتْ » ومعناه عظمت من الربيئة . وقيل « اهْتَزَّتْ » أى استبشرت بالمطر « وَرَبَتْ » أى انتفخت بالنبات . والأرض إذا انشقت بالنبات وصفت بالضحك ، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضا . ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد ؛ وهى حالة خروج النبات . وقد مضى هذا المعنى فى « الحج » [(٢)] ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدم فى غير موضع [(٣)] .

---

(١) شبه الرماد بكحل العين لسواده ؛ فانه يسود متى تقادم عهده و إصابته الأمطار . والنؤى حفير حول الخيمة . والجذم الأصل . وأثلم مهدوم . وخاشع تداعت آثاره واستوى بالأرض . يريد أن ذلك الرماد تغير ولم أتبينه إلا بعد لأى ؛ أى بعد جهد ومشقة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أى يميلون عن الحق فى أدلتنا والإلحاد الميل والعدول . ومنه اللحد فى القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه . يقال ألحد فى دين الله أى حاد عنه وعدل . ولحد لغة فيه . وهذا يرجع إلى الذين قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » وهم الذين ألحدوا فى آياته ومالوا عن الحق فقالوا : ليس القرآن من عند الله أو هو شعر أو سحر ؛ فالآيات آيات القرآن . قال مجاهد : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء . وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه فى غير موضعه . وقال قتادة : « يلحدون فى آياتنا » يكذبون فى آياتنا . وقال السدى : يعاندون ويشاقون . وقال ابن زيد : يشركون ويكذبون . والمعنى متقارب . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل . وقيل : الآيات المعجزات وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز . ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ على وجهه وهو أبو جهل فى قول ابن عباس وغيره . ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : النبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله مقاتل. وقيل : عثمان . وقيل : عمار ابن ياسر : وقيل : حمزة . وقيل : عمر بن الخطاب . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وقيل : المؤمنون . وقيل : إنها على العموم؛ فالذى يلقى فى النار الكافر، والذى يأتى آمنا يوم القيامة المؤمن . قاله ابن بحر . ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر تهديد أى بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء . ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بتهديد وتوعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الذكر ها هنا القرآن في قول الجميع ؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام . والخبر محذوف [تقديره](١) هالكون أو معذبون . وقيل : الخبر « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » واعترض قوله « مَا يُقَالُ لَكَ » ثم رجع إلى الذكر فقال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » ثم قال : « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ » والأول الاختيار ؛ قال النحاس : عند النحويين جميعا فيما علمت . ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي عزيز على الله ؛ قاله ابن عباس ؛ وعنه : عزيز من عند الله . وقيل : كريم على الله . وقيل : «عَزِيزٌ» أي أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل . وقيل : ينبغي أن يعز ويُجَلّ وألا يلغى فيه . وقيل : «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يبدله ؛ قاله السدى . مقاتل : منع من الشيطان والباطل . السدى : غير مخلوق فلا مثل له . وقال ابن عباس أيضا : « عَزِيزٌ » أي ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله . ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه ؛ قاله الكلبي . وقال السدى وقتادة : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » يعني الشيطان ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص . وقال سعيد بن جبير : لا يأتيه التكذيب « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » . ابن جريج : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون . وعن ابن عباس : « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » من الله تعالى « وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » يريد من جبريل صلى الله عليه وسلم ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس : « حَكِيمٍ » في خلقه « حَمِيدٍ » إليهم . قتادة : « حكيم » في أمره « حَمِيدٍ » إلى خلقه .

قوله تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزى نبيه ويسليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد لأعدائك وجيعا . وقيل : أي ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك ، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد ؛ وهو كقوله : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » أى لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك . وقيل : هو آستفهام أى أىّ شيء يقال لك « إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقيل : « إِنَّ رَبَّكَ » كلام مبتدإ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا . وقيل : هو متصل بـ « مَا يُقَالُ لَكَ » . « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى إنما أمرت بالإنذار والتبشير .

قوله تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾

فيه ثلاث مسائل

الأولى — قوله تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » أى بلغة غير العرب « لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية . فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا . وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله . ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان .

الثانية — وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربى، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا .

الثالثة — قوله تعالى : « أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى « أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » بهمزتين مخففتين ، والعجمى الذى ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح . والأعجمى الذى لا يفصح كان من العرب أو من العجم . فالأعجم ضد الفصيح وهو الذى لا يبين كلامه . ويقال للحيوان غير الناطق أعجم، ومنه " صلاة النهار عجماء " أى لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد، لأن الرجل العجمى الذى ليس من العرب قد يكون

Marfat.com

فصيحا بالعربية، والعربيّ قد يكون غير فصيح فالنسبة إلى الأعجميّ آكد فى البيان . والمعنى أقرآن أعجميّ و نبيّ عربيّ؟ وهو ٱستفهام إنكار . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ٱبن عامر « أَعْجَمِيٌّ » بهمزة واحدة على الخبر . والمعنى « لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » . فكان منها عربيّ يفهمه العرب وأعجميّ يفهمه العجم . وروى سعيد بن جبير قال قالت قريش : لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا و بعض آياته عربيا فنزلت الآية . وأنزل فى القرآن من كل لغة فمنه « السجِّيل » وهى فارسية وأصلها سنك كِيل أى طين وحجر ، ومنه « الفردوس » رومية وكذلك « القِسطاس » . وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وٱبن ذكوان وحفص على الاستفهام إلا أنهم لينوا الهمزة على أصولهم . والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع . ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أى صمم عن سماع القرآن، ولهذا تواصوا باللغو فيه . ونظير هذه الآية «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً » وقد مضى مستوفى (١) . وقراءة العامة ﴿ عَمًى ﴾ على المصدر . وقرأ ٱبن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قتة « وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ » بكسر الميم أى لا يتبين لهم . وٱختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لإجماع الناس فيها ؛ ولقوله أولا : « هُدًى وشِفَاءٌ » ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر فى « عَمًى » أجود؛ ليكون نعتا مثلهما؛ تقديره : « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » فى ترك قبوله بمنزلة من فى آذانهم « وَقْرٌ وَهُوَ » يعنى القرآن « عَلَيْهِمْ » ذو عمى ؛ لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف . وقيل : المعنى والوقر عليهم عمى . ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل . وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب . و يقال للذى لا يفهم : أنت تنادَى من بعيد . أى كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

ولا يفهمه . وقال الضحاك : « يُنَادَوْنَ » يوم القيامة بأقبح أسمائهم « مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم . وقيل : أى من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادى عنه وهو لم يسمع . وقال على رضى الله عنه ومجاهد : أى بعيد من قلوبهم . وفى التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . وحكى معناه النقاش .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى آمن به قوم وكذب به قوم . والكناية ترجع إلى الكتاب ، وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، أى لا يحزنك آختلاف قومك فى كتابك، فقد آختلف من قبلهم فى كتابهم . وقيل : الكناية ترجع إلى موسى . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فى إمهالهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بتعجيل العذاب . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى شديد الريبة . وقد تقدم[1] . وقال الكلبى فى هذه الآية : لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم . وقيل : تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد ، فمن أطاع فالثواب له ، ومن أساء فالعقاب عليه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا آنتفت المبالغة آنتفى غيرها ، دليله قوله الحق : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » وروى العدول الثقات،

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» الحديث. وأيضا فهو الحكيم المالك، وما يفعله المالك فى ملكه لا اعتراض عليه، إذ له التصرف فى ملكه بما يريد.

قوله تعالى: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى قيام الساعة فنزلت: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ «من» زائدة أى وما تخرج ثمرة. ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أى من أوعيتها، فالأكمام أوعية الثمرة، واحدها كُمَّة وهى كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمى قشر الطَّلْع أعنى كُفُرّاه الذى ينشق عن الثمرة كُمَّة؛ قال ابن عباس: الكُمَّة الكُفُرَّى قبل أن تنشق، فإذا انشقت فليست بكمة. وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الرحمن»[(1)]. وقرأ نافع وابن عامر وحفص «من ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباقون «ثَمَرَةٍ» على التوحيد والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ والمراد الجمع، يقول: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» كما يرد إليه علم الثمار والنتاج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أى ينادى الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين زعمتم فى الدنيا أنها آلهة تشفع. ﴿قَالُوا﴾ يعنى الأصنام. وقيل: المشركون. ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ﴿آذَنَّاكَ﴾ أسمعناك وأعلمناك. يقال آذن يؤذن إذا أعلم قال[(2)]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

(1) فى تفسير قوله تعالى: «والنخل ذات الأكمام» آية ١١. (2) هو الحرث بن حلزة، والبيت مطلع معلقته.

Marfat.com

﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أى نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا . لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدم في غير موضع (١) . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ أى أيقنوا وعلموا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أى فرار عن النار . و « ما » هنا حرف وليس بآسم ؛ فلذلك لم يعمل فيه الظن وجعل الفعل ملغى ؛ تقديره : وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب . يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب . وقيل : إن الظن هنا الذى هو أغلب الرأى . لا يشكون في أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها . وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا .

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أى لا يمل من دعائه بالخير . والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان ها هنا يراد به الكافر . وقيل : الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأمية بن خلف . وفي قراءة عبد الله «لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ» . ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَئُوسٌ﴾ من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته . وقيل : « يَئُوسٌ » من إجابة الدعاء « قَنُوطٌ » بسوء الظن بربه . وقيل : « يَئُوسٌ » أى يئس من زوال ما به من المكروه « قَنُوطٌ » أى يظن أنه يدوم ؛ والمعنى متقارب .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ عافية ورخاء وغنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر . ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي ﴾ أى هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملى ؛ فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى ، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ؛ ليتبين شكره وصبره . وقال ابن عباس : « هَـٰذَا لِي » أى هذا من عندى . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أى الجنة واللام للتأكيد . يتمنى الأمانى بلا عمل . قال الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب : للكافر أمنيتان أما فى الدنيا فيقول : « لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » وأما فى الآخرة فيقول : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » و « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى لنجزينهم . قسم أقسم الله عليه . ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ يريد الكافر ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ . وقال ابن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه . ومعنى « نَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى ترفع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله . وقيل « نَأَىٰ » تباعد . يقال : نأيته ونأيت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه وأنأيته فانتأى أبعدته فبعد . وتناءوا تباعدوا والمنتأى الموضع البعيد ؛ قال النابغة :

فإنَّك كاللَّيلِ الَّذِى هو مُدْرِكى * وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأَى عنكَ واسِعُ

وقرأ يزيد بن القعقاع و « نَاءَ بِجَانِبِهِ » بالألف قبل الهمزة . فيجوز أن يكون من « نَاءَ » إذا نهض . ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى أصابه المكروه ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة . يقال : أطال فلان فى الكلام وأعرض فى الدعاء إذا أكثر . وقال ابن عباس : « فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فذو تضرع واستغاثة . والكافر يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أى قل لهم يا محمد «أَرَأَيْتُمْ» يا معشر المشركين ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ﴾ أى فأى الناس أضل أى لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم . وقيل : قوله «إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ» يرجع إلى الكتاب المذكور فى قوله : «آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» والأول أظهر وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أى علامات وحدانيتنا وقدرتنا «فِي الْآفَاقِ» يعنى خراب منازل الأمم الخالية ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراض . وقال ابن زيد : «فِي الْآفَاقِ» آيات السماء «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» حوادث الأرض . وقال مجاهد : «فِي الْآفَاقِ» فتح القرى ؛ فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه فى آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما ، وفى ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» فتح مكة . وهذا آختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى . وقال قتادة والضحاك : «فِي الْآفَاقِ» وقائع الله فى الأمم «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» يوم بدر . وقال عطاء وآبن زيد أيضا «فِي الْآفَاقِ» يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات

Marfat.com

والأشجار والجبال والبحار وغيرها . وفى الصحاح : الآفاق النواحى ، واحدها أُفْقٌ وأُفُقٌ مثل عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقِيٌّ بفتح الهمزة والفاء إذا كان من آفاق الأرض . حكاه أبو نصر . و بعضهم يقول : أُفُقِيٌّ بضمهما وهو القياس . وأنشد غير الجوهرى :

أخَذْنَا بآفاقِ السَّماء عليكُمُ * لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة و بديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد و يتميز ذلك من مكانين ، و بديع صنعة الله وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، و فى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة . وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . وقيل : « فِي أَنْفُسِهِمْ » من كونهم نطفا إلى غير ذلك من آنتقال أحوالهم كما تقدم فى «المؤمنون»(١) بيانه . وقيل : المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن وأخبار الغيوب ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن . والثانى الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه . والثالث أن ما يريهم الله و يفعل من ذلك هو الحق . والرابع أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق . ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ فى موضع رفع بأنه فاعل بـ « يَكْفِ » و﴿ أَنَّهُ ﴾ بدل من « رَبِّكَ » فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع ، وجر إن قدرته بدلا على اللفظ . ويجوز أن يكون نصبا بتقدير حذف اللام ، والمعنى أو لم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده ؛ لأنه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وإذا شهده جازى عليه . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » فى معاقبته الكفار . وقيل . المعنى «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » شاهدا على أن القرآن من عند الله . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما يفعله العبد « شَهِيدٌ » والشهيد بمعنى العالم ، أو هو من الشهادة التي هى الحضور ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ فى شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ فى الآخرة . وقال السدى : أى من البعث . ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أى أحاط علمه بكل شيء .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قاله السدى . وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء . وقال الخطابي: هو الذى أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذى أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا . وهذا الاسم أكثر ما يجيء في معرض الوعيد، وحقيقته الإحاطة بكل شيء ، وآستئصال المحاط به ، وأصله مُحْيِطٌ نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحيطة ومن ذلك حائط الدار ، يحوطها أهلها، وأحاطت الخيل بفلان إذا أُخِذ مأخذا حاصرا من كل جهة؛ ومنه قوله تعالى : « وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » والله أعلم بصواب ذلك .

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس عشر، وأوله :

" سورة الشورى "

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس عشر

أعادت طبعه بالأوفست
دار إحياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

فهرس الجزء السادس عشر

ســـورة الشـــورى

صفحة

تفسير قوله تعالى : « حم . عسق » وبيان ما جاء فى معنى هذه الحروف... ... ١

تفسير قوله تعالى : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ ... » الآيات . الكلام على معنى استغفار الملائكة للؤمنين ٤

تفسير قوله تعالى : « فاطر السموات والأرض ... » الآيات . القول فى معنى « ليس كمثله شيء » ٧

تفسير قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ... » الآيات . بيان ما شرعه الله لعباده ٩

تفسير قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب ... » الآيات . اختلاف العلماء فى معنى « الميزان » ١٥

تفسير قوله تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ... » الآيات . معنى لطف الله بعباده . وأن فى تفضيل قوم بالمال حكمة ١٦

تفسير قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ... » الآية . القول فى حرث الآخرة وحرث الدنيا ١٨

تفسير قوله تعالى : « ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا ... » الآية . الكلام على قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى » وهل الخطاب لقريش أو لغيرهم . وهل « القربى » هنا قرابة الرسول أو التقرب إلى الله تعالى بالطاعة . بيان ما ورد فى حب آل البيت . اختلاف العلماء فى سبب نزول هذه الآية ٢٠

تفسير قوله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده ... » الآية . فيه مسألتان : الأولى — سبب نزولها . الثانية — بيان أن أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ٢٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ... » الآيات . ٢٨
تفسير قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ... » الآيات .
القول فى أن معاصى الانسان سبب فى مصائبه ٣٠
تفسير قوله تعالى : « ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام ... » الآيات... ... ٣٢
تفسير قوله تعالى : « والذين يجتنبون كبائر الإثم ... » فيه مسألتان : معنى كبائر
الإثم . سبب نزول هذه الآية ٣٥
تفسير قوله تعالى : « والذين استجابوا لربهم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
من هم الذين استجابوا إلى الإيمان بالرسول . الكلام فى الشورى وما ورد فيها
من آثار... ... ... ٣٦
تفسير قوله تعالى : « والذين إذا أصابهم البغى ... » الآيات . فيه إحدى عشرة
مسألة : القول فى الانتصار من الباغى ، وبيان حدّ الانتصار . جعل الله
تعالى المؤمنين صنفين : صنف يعفو عن الظالم ، وصنف ينتصر من ظالمه .
بيان أن العفو من الأعمال الصالحة . بيان أن المسلم إذا انتصر من الكافر
فلا سبيل إلى لومه . بيان الحقوق التى يجب فيها الانتصار . اختلاف العلماء
فى السلطان يضع على أهل بلد مالا معلوما يؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هل لمن
قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل . اختلافهم فى التحليل من المال والعرض .
هل تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم ، بيان أن العفو مندوب إليه ، ثم قد
ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا إليه ٣٨
تفسير قوله تعالى : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ... » الآية . بيان
أن المشركين تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم . ما يقوله المؤمنون فى الجنة حين
يعاينون ما حل بالكفار ٤٥
تفسير قوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ... » الآيات .
فيه أربع مسائل : بيان أن من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر . معنى
« أو يزوجهم ذكرانا و إناثا » . معنى العقيم . قول العلماء : اذا سبق ماء
الرجل ماء المرأة أشبه الولد أخواله وأذكرا . واذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أشبه
الولد أعمامه وآنثا . أقوال العلماء فى توريث الخنثى... ... ... ٤٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وَحْياً ... » الآية . فيه مسألتان : سبب نزول الآية . اختلاف العلماء فى الرجل يحلف ألا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ٥٢

تفسير قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمرنا ... » الآيات . فيه أربع مسائل : معنى «روحا» . القول فى عصمة الأنبياء قبل النبوّة . هل كان نبينا صلى الله عليه وسلم متعبدا بدين قبل الوحى أم لا . اختلاف العلماء فى تأويل قوله تعالى : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمانُ » ٥٤

سورة الزخرف

تفسير قوله تعالى : « حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا ... » الآيات . هل المراد بالكتاب جميع الكتب أم القرآن ٦١

تفسير قوله تعالى : « وكم أرسلنا من نبىّ فى الأوّلين ... » الآيات... ... ... ٦٣

تفسير قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ... » الآيات . بيان أن الكفار إذا سئلوا عن الخالق أقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم ٦٤

تفسير قوله تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها ... » الآيات . فيه خمس مسائل : اختلاف العلماء فى معنى « الأزواج » . ما يقوله الراكب إذا ركب دابة أو سفينة ٦٥

تفسير قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءا ... » الآية . بيان أن الكفار أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى ثم جعلوا له شريكا أو ولدا . اختلافهم فى معنى « جزءا » ٦٩

تفسير قوله تعالى : « أو من يُنَشّأ فى الحِلْيَة ... » الآيات . فيه مسألتان : معنى « ينشأ » . المراد بالحلية . الرد على الكفار وبيان جهلهم فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله... ... ... ٧١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ... » الآيات . فيه مسألتان : معنى « على أمة » . الدليل على إبطال تقليد الكفار لآبائهم ٧٤

تفسير قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى الكلمة الباقية فى عقب إبراهيم عليه السلام . أقوال العلماء فى معنى «العقب» وأن هذه الكلمة ترد على أحد عشر لفظا ٧٦

تفسير قوله تعالى : « بل متعت هؤلاء وآباءهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى مَتّع الكفار بالإمهال فى الدنيا . تعنتهم وتمنيهم أن ينزل القرآن على أحد رجلين منهم . من هو أحد الرجلين ٨٢

تفسير قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ... » الآية . فيه خمس مسائل : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها عند الله تعالى . أقوال العلماء فى « سَقْفًا ومعارِج » وما فيهما من اللغات . استدلال العلماء بهذه الآية على أن السقف لاحق فيه لصاحب العلو واختلافهم فى السفل . ذكر شيء من أحكام العلو والسفل ٨٤

تفسير قوله تعالى : « ولبيوتهم أبوابا وسُرُرًا ... » الآيات . الكلام على التزهيد فى الدنيا ٨٧

تفسير قوله تعالى : « ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن ... » الآيات . بيان أن من أعرض عن ذكر الله تعالى قيّض الله له شيطانا يأمره بالمعصية . الفرق بين العَشْو والعَشَا ، وما فيهما من اللغات ٨٨

تفسير قوله تعالى : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ... » الاية . بيان أن الله تعالى منع أهل النار التأسّى كما يتأسّى أهل المصائب فى الدنيا ٩١

تفسير قوله تعالى : « فاستمسك بالذى أوحى اليك ... » الآيات . بيان أن القرآن شرف لمن عمل به ، كان من قريش أو من غيرهم ٩٣

تفسير قوله تعالى : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ... » الآية . بيان أن هذا السؤال كان ليلة أسرى به صلى الله عليه وسلم . القول فى أن الأمر

Marfat.com

صفحة

بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبي عليه السلام : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك 94

تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ... » الآيات . ذكر قصة موسى وفرعون . ما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به وبقومه من الإغراق 96

تفسير قوله تعالى : « ولما ضُرب ابن مريم مثلا ... » الآيات . مناظرة عبد الله ابن الزِّبَعْرَى حالة كفره مع النبي صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى عليه السلام وهل هو من حصب جهنم والرد عليه 102

تفسير قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة ... » الآيات . بيان أن خروج عيسى عليه السلام من أشراط الساعة 105

تفسير قوله تعالى : « ولما جاء عيسى بالبينات ... » الآيات 107

تفسير قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من بينهم ... » الآيات . اختلاف أهل الكتاب فى عيسى هل هو ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة 108

تفسير قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ... » الآية . الكلام على سبب نزول هذه الآية 109

تفسير قوله تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ... » الآيات . الكلام على نعيم أهل الجنة، وأنهم يأكلون ويشربون . النهى عن لبس الحرير والديباج، وعن الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة . اختلاف العلماء فى استعمالها فى غير ما ذكر . إذا كان الإناء مُضَبَّبًا بهما أو فيه حلقة منهما . القول فى أن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه . الكلام على الصحاف والأكواب 110

تفسير قوله تعالى : « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ... » الآيات . بيان أحوال أهل النار، واستغاثتهم بالخزنة فلما يئسوا نادوا مالكا فسكت عنهم مدة ثم أجابهم . الكلام على ترخيم الاسم فى النداء 115

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أم أبرموا أمرا ... » الآيات . ما أراده المشركون بالمكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فى دار النّدوة حين استقر أمرهم على أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه صلى الله عليه وسلم ١١٨

تفسير قوله تعالى : « قل إن كان للرحمن ولد ... » الآيات . بيان أن هذا مبالغة فى الاستبعاد . معنى « العابدين » وما فيها من اللغات ١١٩

تفسير قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا و يلعبوا ... » الآيات . تكذيب المشركين فى أن لله تعالى شريكا أو ولدا... ... ... ١٢١

تفسير قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ... » الآية . فيه مسألتان : بيان أن آلهة المشركين لا يملكون الشفاعة . شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام ... » الآية ١٢٤

سورة الدخان

بيان فضلها ١٢٥

تفسير قوله تعالى : « حم . والكتاب المبين ... » الآيات . الكلام على الليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن . ما جاء فى فضل ليلة النصف من شعبان . ما يكون فى ليلة القدر ١٢٥

تفسير قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ... » الآيات . بيان الدخان ومتى حصوله . دعاء الكفار أن يكشفه عنهم ليؤمنوا ثم عودهم إلى الكفر بعد كشفه . بيان البطشة الكبرى... ... ... ١٣٠

تفسير قوله تعالى : ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ...» الآيات... ... ... ١٣٤

تفسير قوله تعالى : « فأسر بعبادى ليلا ... » الآية . فيه مسألتان : أمر موسى أن يسرى ليلا بمن آمن من بنى إسرائيل . الترفق بالدواب فى حالة السفر . الكلام على قوله « واترك البحر رهوا » وما فيه من اللغات... .. .. ١٣٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض ... » الآية . القول فى بكاء السماء والأرض ١٣٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد نجينا بنى إسرائيل ... » الآيات . استعباد القبط لبنى إسرائيل بأمر فرعون . الكلام على تفضيل بنى إسرائيل على العالمين . ابتلاء بنى إسرائيل بالآيات، والمعنى المراد من الآيات... ... ... ١٤٢

تفسير قوله تعالى : « إن هؤلاء ليقولون . إن هى إلا موتتنا الأولى ... » الآيات . قول الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت صادقا فابعث رجلين من آبائنا أحدهما قصيي لنسأله عما يكون بعد الموت الخ... ... ... ١٤٣

تفسير قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تُبّع ...» الآيات . الاختلاف فى « تُبّع » هل هو رجل بعينه ، أو المراد به ملوك اليمن . ذكر التبابعة . القول فى أنه رجل بعينه هو أبو كرب والآثار الواردة فيه . اختلف هل كان نبيا أو ملكا ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « إن شجرة الزّقّوم . طعام الأثيم...» الآيات . هل يجوز إبدال الكلمة من القرآن بغيرها إذا كانت مؤدّية معناها . الكلام على شجرة الزقوم ... ١٤٨

تفسير قوله تعالى : « ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم ... » بيان أن هذه الآية نزلت فى أبى جهل على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ١٥١

تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى مقام أمين ... » الآيات . الكلام على نزل المؤمنين ونعيمهم ، وعلى الحور العين . الاختلاف فى أيهما أفضل فى الجنة نساء الآدميات أم الحور العين . الكلام على الموتة الأولى... ... ... ١٥٢

سورة الجاثية

تفسير قوله تعالى : « حم . تنزيل الكتاب من الله ...» الآيات . بيان أوجه الإعراب فى قوله « آيات » ١٥٦

تفسير قوله تعالى : « ويل لكل أفاك أثيم ... » الآيات . بيان أن هذا وعيد لكل من ترك الاستدلال بآياته ١٥٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « الله الذى سخر لكم البحر ... » الآيات ١٦٠

تفسير قوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله...» الآية .
الاختلاف فى سبب نزول هذه الآية ١٦٠

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب ... » الآيات ١٦٢

تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر...» الآية . فيه مسألتان :
بيان معنى الشريعة ، وأن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع فى التوحيد والمصالح ،
وإنما خالف بينها فى الفروع . الرد على من قال إن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ١٦٣

تفسير قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ... » الآية . القول
فى سبب نزول هذه الآية... ... ... ١٦٥

تفسير قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه ... » الآية . أقوال العلماء
فى ذم الهوى . بيان أن هذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم
فى الاعتقاد ١٦٦

تفسير قوله تعالى : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا ... » الآية . إنكار الكفار
للبعث وقولهم إن الدهر هو الذى يهلكنا . أقوال العلماء فى الدهر والنهى عن
سبّه . بيان أنه حدث فى الإسلام أقوام يتأولون ويرون أن القيامة موت البدن ،
ويردّون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم... ... ... ١٧٠

تفسير قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ... » الآيات . الرد على
المشركين فى إنكارهم البعث ١٧٢

تفسير قوله تعالى : « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ... » الآية .
تأويل العلماء فى معنى جاثية ، وهل هذا خاص بالكفار ، أم عام للمؤمن والكافر ١٧٤

تفسير قوله تعالى : « هـذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ... » الآية . بيان
ما تستنسخه الحفظة من أعمال العباد ١٧٥

تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق ... » الآيات... .. .. ١٧٦

Marfat.com

ســورة الأحقــاف

صفحة
تفسير قوله تعـالى : « حم . تنزيل الكتاب من الله ... » الآيات... ... ... ١٧٨
تفسير قوله تعـالى : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ... » الآية . فيه خمس مسائل : توبيـخ المشركين . معنى « أو أثارة من علمٍ » . بيان أن الله تعالى نهى عن التخرص وادعاء الغيب . كيفية خطهم فى الرمل . القول فى أن الرؤيا جزء من النبوة ... الكلام على الفأل والطيرة... ... ... ١٧٩
تفسير قوله تعـالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله ... » الآيات . بيان أنه لا أحد أضـل من المشركين . بيان أن الآلهة التى يعبـدها الكفار تكون لهم أعداء يوم القيامة ١٨٣
تفسير قوله تعـالى : « قـل ما كنت بِدْعًا من الرسل ... » الآية . معنى البـدع وما فيه من اللغات . أقوال العلماء فى معنى قوله «وما أدرى مايفعل بى ولا بكم » هل هو فى الدنيا أو فى الآخرة، وهل الآية منسوخة أم لا ١٨٥
تفسير قوله تعـالى : « قل أرأيتم إن كان من عنـد الله وكفرتم به ... » الآية . شهادة عبد الله بن سَلَام للنبى صلى الله عليه وسلم أنه مذكور فى التوراة وأنه نبىّ . القول فى أن الشاهد غير ابن سـلام ١٨٨
تفسير قوله تعـالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنـوا ... » الآية . اختلف فى سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال ١٨٩
تفسير قوله تعـالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ... » الآية . فيـه سبع مسائل : وجه اتصال هذه الآية بمـا قبلها . بيان مدّة الحمل والفطام . صحبة أبى بكر للنبى صـلى الله عليه وسلم وهم يريدون الشام للتجارة وقصـة الراهب . الكلام على بلوغ الأشُدّ . نسب أبى بكر رضى الله عنه وفضله . لم يَكن أحد من الصحابة أسلم هو وأبواه وأولاده و بناته كلهم إلا أبو بكر ١٩٢
تفسير قوله تعـالى : « أولئك الذين نَتَقَبّل عنهم أحسن ما عمـلوا ... » الآية . بيان أن الله تعالى وعد أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم و يتجاوز عن مسيئهم وعد الصـدق ١٩٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما ... » الآيات . القول فيمن نزلت فيه هذه الآية . بيان أن لكل واحد من المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم ١٩٧

تفسير قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ... » الآية . توبيخ الكفار على قضاء شبابهم فى المعاصى واتباع الشهوات ولم يعملوا للآخرة . الحض على الزهد وقول عمر رضى الله عنه فى ذلك . معنى : الصلاء، والصناب، والصلائق ، والكراكر ١٩٩

تفسير قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ... » الآية . ذكر قصة هود مع قومه . الكلام على الأحقاف والعارض . ما فُعِل بقوم عاد من التدمير والهلاك ٢٠٣

تفسير قوله تعالى : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا ...» الآية . التهكم بالمشركين حيث لم تنصرهم آلهتهم التى تقربوا بها إلى الله لتشفع لهم . بيان أوجه القراءات فى قوله « إفكهم » ٢٠٩

تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن ... » الآية . توبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالقرآن فى حالة أن الجنّ لما سمعوه آمنوا به وعلموا أنه من عند الله تعالى . خروج الرسول عليه السلام إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة وقصة عدّاس معه . بيان ما جاء فى جنّ نَصِيبِين واستماعهم للقرآن و إسلامهم وأسمائهم وعددهم . من حضر من الصحابة ليلة الجنّ ٢١٠

تفسير قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ... » الآيات . ما قاله الجنّ عند رجوعهم إلى قومهم . بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الجنّ والإنس، وهذا خاصة له ولم تكن لنبىّ غيره . القول فى أن هذه الآى تدل على أن الجنّ كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب ٢١٦

تفسير قوله تعالى : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ... » الآية . بيان أن هذه الآية احتجاج على منكرى البعث . معنى «ولم يَعْىَ» وتصريفها ٢١٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ... » الآية . أقوال العلماء فى أولى العزم من الرسل وعدّتهم وأسمائهم وما صبروا عليه . فائدة تكتب إذا عسر على المرأة ولادتها... ... ... ٢٢٠

سورة القتال

تفسير قوله تعالى : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ... » الآية . بيان أن الله تعالى أبطل أعمال الكافرين . القول فى سبب نزول هذه الآية ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد ... » الآيات ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب ... » الآية . فيه أربع مسائل : الأمر بجهاد الكفار . جواز المَنّ على الأسارى أو المفاداه . اختلاف العلماء فى تأويل هذه الآية على خمسة أقوال ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ... » الآية . القول فى أن نصرة دين الله سبب فى النصر على الكفار ٢٣١

تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا فتَعْسًا لهم ... » الآيات . بيان أن سبب إضلال الكفار و إتعاسهم كونهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع . فى معنى « التعس » عشرة أقوال ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « مثل الجنة التى وُعِد المتقون ... » الآية . بيان صفة الجنة المعدّة للمتقين ، وبيان الأنهار التى فيها . معنى « آسن » ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك ... » الآية . بيان أن الله تعالى طبع على قلوب الكفار لاتباعهم أهواءهم و إعراضهم عن الحق . معنى « آنفا » . القول فى الذين اهتدوا للإيمان ، ومعنى الهدى الذى زادهم ٢٣٨

تفسير قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ... » الآية . الكلام على أمارات الساعة، ومعنى أشراطها ٢٤٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ... » الآيات ٢٤١

تفسير قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ... » الآيات. فيه أربع مسائل : بيان المعنى المراد فى قوله « إن توليتم » . القول فى حرمة قطع الرحم ووجوب صلتها . بيان أن الرحم على وجهين : خاصة وعامة ، والكلام على كل منهما ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم ... » الآيات . بيان حال الكفار، وأن الله تعالى أملى لهم حتى يتمادوا فى الكفر . الكلام على أضغان المشركين . معنى « الضغن » . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف المنافقين بسيماهم ويعرفهم إذا سمع كلامهم . القول فى معنى اللحن ٢٤٩

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ... » الآية . الأمر بلزوم الطاعة فى أوامر الله تعالى والرسول فى سننه . القول فى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصى تخرج عن الايمان . احتجاج العلماء بهذه الآية على أن التحلل من التطوع بعد التلابس به لا يجوز ٢٥٤

تفسير قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى الوهن . اختلاف العلماء فى حكم هذه الآية . معنى « يتركم » ٢٥٥

تفسير قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ... » الآيات ٢٥٧

سورة الفتح

بيان الوقت الذى نزلت فيه سورة الفتح، وأنها نزلت فى شأن الحديبية . بيان فضلها ٢٥٩

تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » اختلف العلماء فى هذا الفتح ماهو ٢٦٠

تفسير قوله تعالى : «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ...» الآية . اختلاف أهل التأويل فى معنى الآية . المعنى المراد بالذنب بالنسبة للرسول عليه السلام... ... ٢٦١

تفسير قوله تعالى : «هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا ...» الآية . القول فى زيادة الإيمان ٢٦٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ... » الآيات . الكلام على شهادة الرسول عليه السلام على أمته . الأمر بتوقير الرسول وتعزيره . معنى التعزير . اختلف فى الضمائر هل هى راجعة إلى الله تعالى أو إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ٢٦٦

تفسير قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ... » الآية . بيان أن هذه المبايعة هى بيعة الرضوان... ... ... ٢٦٧

تفسير قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب ... » الآيات . الكلام على الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان استنفرهم واعتلوا باشتغالهم بأموالهم وأهليهم . الكلام على معنى « البور » . بيان ما وعده الله تعالى أهل الحديبية من مغانم خيبر وطلب المخلفين اشتراكهم فى القتال طمعا فى المغانم ٢٦٨

تفسير قوله تعالى : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون ... » الآية . فيه أربع مسائل : الكلام على القوم أصحاب البأس الشديد . الدليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . حكم المشرك أن تؤخذ منه الجزية أو يسلم ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » الآية . بيان أنه لا إثم على أهل الزمانة فى التخلف عن الجهاد ٢٧٣

تفسير قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين ... » الآية . الكلام على بيعة الرضوان وما حصل فيها ٢٧٤

تفسير قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ... » الآية . بيان ما وعده الله المؤمنين من المغانم ٢٧٨

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم ... » الآيات . الكلام على ما حصل من المشركين فى الحديبية . منعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام حين أحرم مع أصحابه بعمرة . القول فى الهدى . الكلام على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن... ... ... ٢٨٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ... » الآية . الكلام على معنى الحمية . المعنى المراد من « كلمة التقوى » ٢٨٨

تفسير قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ... » الآية . الكلام على رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة ٢٨٩

تفسير قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ... » الآية . فيه خمس مسائل : الكلام فى إعرابها . القول فى سيما السجود . معنى « الشطء » . الكلام على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . النهى عن الطعن فى أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنقيصه . انتصاف عمر بن حبيب للصحابة فى مجلس هارون الرشيد وقصته معه ٢٩٢

سورة الحجرات

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن السورة نزلت فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . اختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة . النهى عن التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، ووجوب اتباعه والاقتداء به ٣٠٠

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ... » الآية . فيه ست مسائل : النهى عن رفع الصوت والجهر بالقول فى حضرة الرسول . بيان أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا، وإنما نهوا عن جهر مخصوص، وهو الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم . القول فى أن الآية أمر بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته . القول فى أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه . ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف، وإنما الغرض صوت ليس مناسبا لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء ٣٠٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ... » الآية . بيان ما كان يفعله بعض وفود الأعراب من مناداة الرسول من وراء حجراته ٣٠٩

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ... » الآية . فيه سبع مسائل : سبب نزول الآية . فى الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا . الكلام على إمامة الفاسق وأحكامه إن كان واليا ، هل يصح أن يكون رسولا عن غيره . الدليل على فساد قول من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة ٣١١

تفسير قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله ... » الآية ٣١٣

تفسير قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... » الآية . فيه عشر مسائل : بيان سبب نزول الآية . ما يجب لو اقتتل فئتان من المسلمين . الدليل على وجوب قتال الفئة الباغية وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين . القول فى أن هذه الآية أصل فى قتال المسلمين وعليها عوّل الصحابة . جواز تأخير القصاص للإمام إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . بيان أن قتال الفئة الباغية فرض على الكفاية . القول فيما إذا خرجت على الامام العدل خارجة باغية . القول فيما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا . لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ٣١٥

تفسير قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن هذا فى الدين والحرمة لا فى النسب . المعنى المراد من « أخويكم » . حكم أهل البغى من أهل الجمل وصفين ٣٢٢

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ... » الآية . فيه سبع مسائل : معنى السخرية . الاختلاف فى سبب نزول الآية . النهى عن سخرية الشخص بغيره وعن اللمز . معنى التنابز بالألقاب والنهى عنه . المنع من تلقيب الإنسان بما يكره وجواز تلقيبه بما يحب ٣٢٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ... » الآية . فيه عشر مسائل : سبب نزول الآية . النهى عن الظن . بيان أن للظن حالتين . النهى عن التجسس وعن تتبع عورات الناس . الفرق بين التجسس والتحسس . النهى عن الغيبة . بيان أن الغيبة من الكبائر . القول فى استحلال المغتاب . الكلام فى غيبة الفاسق... ... ... ٣٣٠

تفسير قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... » الآية . فيه سبع مسائل : الكلام على سبب نزول الآية . بيان أن الله تعالى خلق الخلق من الذكر والأنثى ولو شاء لخلقه دونهما . القول فى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده . الكلام على الشعوب والقبائل . بيان أن التقوى هى المراعى عند الله تعالى دون الحسب والنسب . القول فى الكفاءة فى النكاح ... ٣٤٠

تفسير قوله تعالى : «قالت الأعراب آمنا ... » الآيات . الكلام على سبب نزولها ٣٤٨

Marfat.com

إصلاح خطأ

جزء	ص	س	خطأ	صواب
١	٤٩	٢١	طِرْزان	طِرّان
١	٢٠٨	٢٢	الإهلالة	الإهالة
١	٢٣٥	١٦	عن مسعود	عن ابن مسعود
١	٣٦٧	٢	لا تنهى عن	لا تنه عن
١	٣٩٧	١٨	كى تشكرون	كى تشكروا
٢	١٢١	١٤	الُحليمى	الَحليمى
٢	١٢٤	١٧	وارتق	وارتق
٢	٢٦٧	٧	ما انهى النبي	ما نهى النبي
٢	٢٩٩	١٢	عُبَيدة السّلمانى	عَبِيدة السّلمانى
٢	٣١١	١٢	بألا قادر	بأن لا قادر
٤	٣٢٦	١٨	« مدح »	« ح »
٥	٣٠١	١١	عليك سلام الله من	عليك سلام من
٥	٣٧٧	٦	عن عَضُد	عن عَضُد

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء فى الأجزاء الماضية أثبتناها هنا للفائدة .

هذا و إنا لا نزال نذكر بالحمد والثناء تلك اليد التى أسداها إلينا حضرة الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا بإعارته لنا نسخته الخطية ، التى كانت عونا لنا فى المراجعة والتصحيح م

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى

بدار الكتب المصرية

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشّورى

مكيّة فى قول الحسن وعِكْرِمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»[1] إلى آخرها. وهى ثلاث وخمسون آية.

قوله تعالى: حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ. عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لم قطع «حمٓ» من «عٓسٓقٓ» ولم تقطع «كهيعص» و «المٓرٓ» و «المٓصٓ»؟ فقال: لأن «حم. عسق» بين سُوَرٍ أوّلها «حم» فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها؛ فكأن «حم» مبتدأ و «عسق» خبره. ولأنها عدّت آيتين، وعدّت أخواتها اللواتى كتبت جملة آية واحدة. وقيل: إن الحروف المعجمة كلها فى المعنى واحد، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام؛ ذكره الجُرْجَانِيّ. وكتبت «حم. عسق» منفصلا و «كهيعص» متصلا لأنه قيل: حمّ؛ أى حمّ ما هو كائن، ففصّلوا بين ما يقدّر فيه فعل و بين ما لا يقدّر. ثم لو فُصل هذا ووُصل ذا لجاز؛ حكاه القُشيرِيّ. وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس «حم. سق» قال ابن عباس:

(١) آية ٢٣

Marfat.com

وكان عليّ رضى الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنذر : قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرنى عن تفسير قوله تعالى : « حم . عسق »؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثا فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمان : أنا أنبئك بها، قد عرفت لِمَ تركها؛ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداءَ مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها، فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت ! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا؛ فذلك قوله : «حم . عسق» . أى عزمة[1] من عزمات الله وفتنة وقضاء حُمَّ : حمّ . « ع » : عدلاً منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقع فى هاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَلِيّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُبنى مدينة بين دجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل[2] والصَّراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبي إليها الخزائن يخسف بها — وفى رواية بأهلها — فلَهِيَ أسرع ذهابا فى الأرض من الوَتِد الجيد فى الأرض الرِّخوة" . وقرأ ابن عباس «حمَ . سَقَ» بغير عين . وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبرى . وروى نافع عن ابن عباس : « الحاء » حلمه[3] ، و « الميم » مجده، و «العين» علمه، و « السين » سَناه، و « القاف » قدرته؛ أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومَجْده وعلوّه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن، و « الميم » من المجيد، و «العين» من العليم، و «السين» من القدّوس ، و «القاف» من القاهر . وقال مجاهد : فواتح السور. وقال عبدالله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا. وذكر القشيريّ واللفظ للثعلبيّ : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا نزلت هذه الآية عُرفت الكآبة فى وجهه؛

(١) أى حق من حقوقه . (٢) وروى بفتح أوله وثانيه . (٣) فى بعض النسخ . «حكمه» بالكاف .

Marfat.com

فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : " أخبرت ببلايا تنزل بأمتى من خسف وقذف ونار تحشرهم وريح تقذفهم فى البحر وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال" . والله أعلم . وقيل : هذا فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود، و « الميم » ملكه الممدود، و « العين » عزّه الموجود ، و « السين » سناه المشهود ، و « القاف » قيامه فى المقام المحمود، وقربه فى الكرامة(١) من الملك المعبود . وقال ابن عباس : ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : «حمٓ . عسٓقٓ» ؛ فلذلك قال : « يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدويّ : وقد جاء فى الخبر أن " « حم . عسق » معناه أوحيت إلى الأنبياء المتقدمين". وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد «يوحَى» (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعله ؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الجار والمجرور فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون اسم ما لم يسمّ فاعله مضمرا ؛ أى يوحى إليك القرآن الذى تضمّنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعل، التقدير : يوحيه الله إليك؛ كقراءة ابن عامر وأبى بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ » أى يسبّحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ بخصومة ❊ وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح(٢)

فقال : لِيُبْكَ يزيدُ ، ثم بيّن من ينبغى أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ؛ كأنه قال : الله يوحيه . أو على تقدير إضمار مبتدأ أى الموحى الله . أو يكون مبتدأ والخبر « العزيزُ الحكيمُ » . وقرأ الباقون « يوحِى إليك » بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل . ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ تقدّم فى غير موضع(٣) .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « وقربه يوم القيامة من الملك ... » .

(٢) رواية البيت كما فى كتاب سيبويه وخزانة الأدب :

لِيُبك يزيد ضارع لخصومة ❊ ومختبط مما تطيح الطوائح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك . ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حرىّ فى مرثية يزيد ؛ (راجع الشاهد الخامس والأربعين) . (٣) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . وجـ ٣ ص ٢٧٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة بالتاء . وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائىّ بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد فى الطاء، وهى قراءة العامة . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد « ينفطرن » من الانفطار، كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقد مضى فى سورة « مريم » بيان هذا[1] . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ » أى تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التى تليها ؛ من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا[2] » . وقال الضّحاك والسُّدّى : «يتفطرن» أى يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن . وقيل : «فوقهن» ، فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى ينزّهونه عما لا يجوز فى وصفه وما لا يليق بجلاله . وقيل : يتعجّبون من جراءة المشركين؛ فيُذكر التسبيح فى موضع التعجّب . وعن على رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» بأمر ربهم؛ قاله السُّدّى . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن فى الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدى . بيانه فى سورة المؤمن : «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا[3]» . وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبىّ . وقال وهب ابن منبّه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا » . قال المهدوىّ : والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للمؤمنين . وقال أبو الحسن الماوَرْدىّ عن الكلبىّ : ان الملائكة لما رأت المَلَكين اللّذين اختُبِرا وبُعثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزّهرة

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٦ . (٢) آية ١١٦ سورة البقرة . (٣) آية ٧

Marfat.com

وهربا إلى إدريس — وهو جدّ أبي نوح عليهما السلام — وسألاه أن يدعُوَ لهما ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض . الماوردىّ : وفي استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهر قول مقاتل. الثاني — أنه طلب الرزق لهم والسّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ .

قلت : وهو أظهر، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوى في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سَلْمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله في السّراء فنزلت به الضّراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدميّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء؛ فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت منكر من آدميّ كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء؛ فلا يستغفرون . وهذا يدلّ على أن الآية في الذاكر لله تعالى في السراء والضراء ، فهي خاصّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى : « إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والأرضَ أنْ تَزُولَا(١) — إلى أن قال — إنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً » ، وقوله تعالى : « وَإنّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم(٢) » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاما ؛ قاله الزمخشريّ . وقال مُطَرِّف : وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدّم(٣) . ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : هيّب وعظّم جلّ وعزّ في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

(١) آية ٤١ سورة فاطر . (٢) آية ٦ سورة الرعد . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما يعبدونها . ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف . وفى الخبر : " أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط " أى صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله ؛ وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًّا بيّناه بلغة العرب . وقيل : أى أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك ؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد . ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى مكة . وقيل لمكة أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق . ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى بيوم الجمع ، وهو يوم القيامة . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الكسائى النصب على تقدير : لتنذر فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى . ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : فى الإسلام . ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ رفع على الابتداء ، والخبر ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ . ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع على الموضع و « من » زائدة .

Marfat.com

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا ﴾ أى بل اتخذوا . ﴿ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما . ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أى وليك يا محمد وولى من آتبعك ، لا ولى سواه . ﴿ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ يريد عند البعث . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء .

قوله تعالى : وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين ؛ أى وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين ، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره ، وأمور الشرائع إنما تُتَلَقّى من بيان الله . ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى الموصوف بهذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه إضمار : أى قل لهم يا محمد ذلكم الله الذى يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربى . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالرفع على النعت لآسم الله ، أو على تقدير هو فاطر . ويجوز النصب على النداء ، والجر على البدل من الهاء فى « عليه » . والفاطر : المبدع والخالق . وقد تقدم (١) . ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قيل معناه إناثا . وإنما

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٧ ، جـ ٩ ص ٢٧٠ و ٣٤٦ ، جـ ١٤ ص ٢٤ وما بعدها و ٣١٩

Marfat.com

قال : « مِن أنفسِكم » لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم . وقال مجاهـد : نَسْلًا بعد نسـل . ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى الثمـانية التى ذكرها فى « الأنعام »[1] ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يخلقكم وينشئكم «فيه» أى فى الرحم . وقيل : فى البطن. وقال الفرّاء وآبن كَيْسان : « فيه » بمعنى به . وكذلك قال الزجاج : معنى « يذرؤكم فيه » يكثركم به ؛ أى يكثركم يجعلكم أزواجا ، أى حلائل ؛ لأنهن سبب النسل . وقيـل : إن الهـاء فى « فيه » للجعل ، ودلّ عليـه « جَعَل » ؛ فكأنه قال : يخلقكم ويكثركم فى الجعل . آبن قُتيبة : « يذرؤكم فِيهِ » أى فى الزوج ؛ أى يخلقكم فى بطون الإناث . وقال : ويكون « فيه » فى الرحم ، وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لهـا ذكر . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد ؛ أى ليس مثله شىء . قال :

* وصالياتٍ كَكَما يُؤَثْفَيْنْ[2] *

فأدخل على الكاف كافاً تأكيدا للتشبيه . وقيـل : المثل زائدة للتوكيد ؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شىء ؛ نحو قوله تعـالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا[3] » . وفى حرف ابن مسعود « فإن آمنوا بمـا آمنتم به فقد اهتدوا » قال أَوْس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخـ * ـيلِ يغشاهم مطـر منهمر

أى كجذوع . والذى يُعتقد فى هذا الباب أن الله جل آسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمـائه وعلىّ صـفاته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشـبّه به ، وإنمـا جاء ممـا أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ؛ إذ صفات القـديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمـائه وبصفاته على ما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الصاليات : الأثافى ، وهى الأحجار التى ينصب عليها القـدر . ومعنى يؤثفين : ينصبن للقدر . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الخامس والثلاثين بعد المـائة وكتاب سيبويه) . (٣) آية ١٣٧ سورة البقرة .

Marfat.com

أسماء الله الحسنى) ، وكفى فى هذا قوله الحق : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطى رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم فى « الزُّمَر »(1) بيانه . النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح : إقليد ، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن . ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدم أيضا فى غير موضع(2) .

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ . (2) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٩ ص ٣١٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ أى الذى له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ؛ قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » وقد تقدّم القول فيه[1] . ومعنى « شرع » أى نهج وأوضح وبيّن المسالك . وقد شَرَع لهم يَشْرَع شَرْعًا أى سنّ . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شَرَع المنزلُ اذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شققت ما بين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِية . وشرعت فى هذا الأمر شروعا أى خضت . ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ « أنْ » فى محل رفع ، على تقدير والذى وصّى به نوحا أن اقيموا الدّين ، ويوقف على هذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب ، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جرّ بدلا من الهاء فى « به » ؛ كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ؛ مثل أن آمشوا ، فلا يكون لها محلّ من الإعراب .

الثانيــة — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى حديث الشفاعة الكبير المشهور : " ولكن ائتوا نوحا فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ... " وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أوّل نبىّ[2] بغير إشكال ؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نُبوّة ، ولم تُفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم ، وإنما كان تنبيها على بعض

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) فى نسخ الأصل : « كما أن آدم أوّل رسول نبى بغير إشكال ، إلا أن آدم » والتصويب عن ابن العربى .

Marfat.com

الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش ، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء ، واستقر المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظّف عليه الواجبات وأوضح له الآداب فى الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر[1] بالأنبياء — صلوات الله عليهم — واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا ؛ يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة ، وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزّلَف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات ؛ فهذا كله مشروع دينًا واحدا وملة متحدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى اجعلوه قائما ؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق مَن وفى بذلك ومنهم من نَكَث ؛ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه . واختلفت الشرائع وراء هذا فى معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه فى الأزمنة على الأمم » . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيا قطّ إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذى شرع لهم ؛ وقاله الوالبيّ عن ابن عباس ، وهو قول الكلبيّ . وقال قتادة : يعنى تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضى يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عظُم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كَبُر على المشركين فاشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويُعليها ويظهرها على من

(١) فى ابن العربى : « ويتناشر » .

Marfat.com

ناوأها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يختار . والاجتباء الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى يستخلص لدينه من رجع إليه . ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعنى قريشا . ﴿ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى فى سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ »[1] يريد نبيًا . وقال فى سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »[2] على ما تقدّم بيانه هناك . وقيل : أمم الأنبياء المتقدّمين ؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال ابن عباس أيضا : يعنى أهل الكتاب ؛ دليله فى سورة المُنْفَكِّين « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » . فالمشركون قالوا : لم خُصّ بالنبوّة! واليهود حسدوه لما بُعث؛ وكذا النصارى . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بغيًا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فى تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »[3] . وقيل : إلى الأجل الذى قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد المختلفين فى الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ ﴾ من الذى أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : «إن الذين أورثوا الكتاب» قريش . «من بعدهم» من بعد اليهود والنصارى . « لفى شك » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « من بعدهم » من قبلهم؛ يعنى من قبل مشركى مكة؛ وهم اليهود والنصارى .

(١) آية ٤٢ راجع جـ ١٤ ص ٣٥٧

(٢) آية ٨٩ راجع جـ ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

(٣) آية ٤٦ سورة القمر .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١٥)

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ . لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أى فتبيّنت شكّهم فادع إلى الله؛ أى إلى ذلك الدّين الذى شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » أى إليها . و « ذلك » بمعنى هذا . وقد تقدّم أول « البقرة »(١) . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذى تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أى إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ وَٱسْتَقِمْ ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة : أى استقم على أمر الله . وقال سفيان : أى استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أى لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى أن أعدل؛ كقوله تعالى : « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) . وقيل : هى لام كى، أى لكى أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوّى بينكم فى الدّين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل فى جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل فى الأحكام . وقيل فى التبليغ . ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود؛ أى لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نُسخت بقوله « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »(٣) الآية . قال مجاهد : ومعنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ؛

(١) راجع جـ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٦٦ سورة غافر . (٣) آية ٢٩ سورة التوبة .

Marfat.com

لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، و بعد العناد لا حجة ولا جدال. قال النحاس : ويجوز أن يكون معنى « لا حُجّة بيننا و بينكم » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتج عليكم ويقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحوّل القبلة : لا تصلّ الى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى فهو يحكم بيننا اذا صرنا إليه ، ويجازى كُلّا بما كان عليه . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه الى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بآبنته .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ رجع الى المشركين . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهّموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون فى الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » (١) فقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى لا ثبات لها كالشىء الذى يزلّ عن موضعه . والهاء فى « له » يجوز أن يكون لله عز وجل؛ أى من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دَحَضت حجته دُحوضًا بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإزلاق . ومكان دَحْض ودَحَض أيضا

(١) آية ٧٣ سورة مريم .

Marfat.com

(بالتحريك) أى زَلِق . ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت . ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت . ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد فى الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد فى الآخرة عذاب دائم .

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة .﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بين فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »[(١)] . قال مجاهد : هو الذى يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به] . وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم، يقضى بينكم بكتاب الله . ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فلم يخبره بها. يحضّه على العمل بالكتاب والعدل والسوية، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال، فيوفى لمن أوفى ويطفّف لمن طفف . ف« لعلّ الساعة قريب » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قريب » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل مجىء الساعة قريب . وقال الكسائى : « قريب » نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[(٢)] . قال الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة * فلما وصلنا نُصْب أعينهم غبنا

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) آية ٥٦ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعنى على طريق الاستهزاء ، ظنًّا منهم أنها غير آتيـة ، أو إيهاما للضَّعَفة أنها لا تكون . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد فى الطاعة؛ كما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون »(١) . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى التى لا شك فيها . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى يشكّون ويخاصمون فى قيام الساعة . ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا، قادر على أن يبعثهم .

قوله تعالى : اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حَفِىٌّ بهم . وقال عكرمة : بارٌّ بهم . وقال السُّدّىّ : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبرّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال القُرَظىّ : لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . قال :

غدًا عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ * يسائلهم فيـه الجليـل ويلطف

وقال جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين : يلطف بهم فى الرزق من وجهين : أحدهما — أنه جعل رزقك من الطيبات . والثانى — أنه لم يدفعه إليك مَرّةً واحدة فتبذّره . وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم فى القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الجُنيد : لطيف

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون .

Marfat.com

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه . وقال محمد بن عليّ الكتّانيّ : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكّل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويُقبل عليه. وجاء في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جلّ وعزّ امحت آثارهم واضمحلّت صُوَرهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خفّفوا عنهم العذاب فيخفَّف عنهم العذاب" . قال أبو عليّ الثقفيّ رضي الله عنه :

أمرّ بأفناء القبـور كأنني * أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شـقّ فاه الله قـدّر رزقه * وربّي بمن يلجأ إليـه لطيف

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب ؛ وعلى هـذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا من أظهر الجميل وستر القبيح" . وقيل : هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل . وقيل : هو الذي يجبر الكسير وييسّر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله . وقيـل : هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » (١) ، « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » (٢) ، وقال : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (٣) ، « يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ » (٤) . وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المِدْحة . وقيـل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيّب من رجاه . وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وقيـل : هو الذي يعفو عمن يهفو . وقيـل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وقيـل : هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجًا ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجًا ، وأجزل لهم من سحائب برّه ماء ثجّاجًا . وقـد مضى في « الأنعام » قول أبي العاليـة والجُنيد أيضا (٥) . وقد ذكرنا جميع هـذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عنـد اسمه اللطيف، والحمـد لله . ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ويحرم من يشاء . وفي تفضيل قوم بالمـال حكمةٌ؛ ليحتاج

(١) آية ٣٤ سـورة إبراهيم . (٢) آية ٢٠ سـورة لقمان . (٣) آية ٧٨ سـورة الحج .
(٤) آية ٢٨ سـورة النساء . (٥) راجع جـ ٧ ص ٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

البعض إلى البعض؛ كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا »(١)، فكان هـذا لطفا بالعباد . وأيضا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »(٢) على ما تقدّم بيانه . ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمـر : واحْرُث لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . ومنـه سمى الرجل حارثا . والمعنى : أى من طلب بمـا رزقناه حرثًا لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق فى إعزاز الدِّين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر. ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أى طلب بالمـال الذى آتاه الله ريـاسـة الدنيا والتوصّل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظّ له فى الآخرة من ماله ؛ قال الله تعالى: « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَـا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْـلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »(٣) . وقيـل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليـه . وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أى من أطاع فله الثواب . وقيل : « نزد له فى حرثه » أى نعطيه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية فى الغَزْو؛ أى من أراد بغَزْوِه الآخرة أوتى الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتى منها . قال القُشيرىّ : والظاهر أن الآية فى الكافر؛ يوسع له فى الدنيا ؛ أى لا ينبغى له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضا : يقول الله تعالى : " من عمل لآخرته زدناه فى عمله وأعطيناه من الدنيـا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبًا فى الآخرة

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . (٢) آية ٢٠ سورة الفرقان . راجع جـ ١٣ ص ١٨
(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء .

Marfat.com

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار ". وروى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : وقوله عز وجل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرةِ » من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه » أى فى حسناته . « ومن كان يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا » أى من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا « نُؤْتِه مِنها » ثم نسخ ذلك فى سبحان : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »(١). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عزّوجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يقل أحدكم اللّهمّ اغفرلى إن شئت اللّهمّ ارحمنى إن شئت ". وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ . وقد ذكرنا فى « هود »(٢) أن هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل فى الأخبار . والله المستعان .

مسـألة : هذه الآية تبطل مذهب أبى حنيفة فى قوله : إنه من توضأ تبردًا أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربى.

قوله تعالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أى ألهم ! والميم صلة والهمزه للتقريع . وهذا متصل بقوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا »، وقوله تعالى : «اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيزَانَ » كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله ! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به . ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

(١) آية ١٨ (٢) راجع جـ ٩ ص ١٤

Marfat.com

القيامة حيث قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» . ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فى الدنيا، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع . ﴿وإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا القتلُ والأسر والقهر ، وفى الآخرة عذاب النار . وقرأ ابن هُرْمُز « وأنّ » بفتح الهمزة على العطف على « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ » والفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب « لولا » جائز . ويجوز أن يكون موضع « أنّ » رفعا على تقـدير : وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ؛ فيكون منقطعا ممـا قبله كقراءة الكسر؛ فاعلمه .

قوله تعـالى : ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّـا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِـعٌ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أى خائفين ﴿مِمَّـا كَسَبُوا﴾ أى من جزاء ما كسبوا . والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِـعٌ بِهِمْ﴾ أى نازل بهم . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الرَّوْضة : الموضع النَّزِه الكثير الخضرة . وقد مضى فى « الروم »(١) . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى من النعيم والثواب الجزيل . ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى لا يوصف ولا تهتـدى العقول إلى كُنْه صفته ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذى يقدر قدره .

قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِـلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُـرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْـتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَـكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرئ « يُبَشِّر » من بشّره ، « ويُبْشِر » من أبشره ، « ويَبْشُر » من بَشَره ، وفيه حذف ؛ أى يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجدًا فى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى قل يامحمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلًا . ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قال الزجاج : «إلا المودة» استثناء ليس من الأول ؛ أى إلا أن تَوَدُّونى لقرابتى فتحفظونى . والخطاب لقريش خاصّةً ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم . قال الشعبيّ : أكْثَرَ الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ؛ فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسطَ الناس فى قريش ، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد ولَدَه ؛ فقال الله له : « قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » إلا أن تَوَدُّونى فى قرابتى منكم ؛ أى تراعوا ما بينى و بينكم فتصدّقونى . ف « الْقُرْبَىٰ » ها هنا قرابة الرَّحِم ؛ كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة . قال عكرمة : وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته ؛ فقال : " صِلُونى كما كنتم تفعلون " . فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكّركم قرابتى ؛ على أنه استثناء ليس من الأوّل ؛ ذكره النحاس . وفى البخاريّ عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : « إلا المودّةَ فِى القُرْبَى » فقال سعيد بن جُبير : قُرْبَى آل محمد ؛ فقال ابن عباس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ؛ فقال : إلا أن تَصِلوا ما بينكم من القرابة . فهذا قول . وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدّوا قرابتى وأهل بيتى ، كما أمر بإعظامهم ذوى القربى . وهذا قول على بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدّى . وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما أنزل الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّةَ فِى القُرْبَى » قالوا : يا رسول الله ، من

Marfat.com

هؤلاء الذين نَوَدُّهم ؟ قال : " علىّ وفاطمة وأبناؤهما ". ويدل عليه أيضا ما روى عن علىّ رضى الله عنه قال : شكوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى. فقال: "أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا" . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " حُرِّمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عِتْرتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقينى يوم القيامة " . وقال الحسن وقتادة : المعنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليه بطاعته . فـ« القُرْبَى » على هذا بمعنى القربة . يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى ؛ كالزُّلْفة والزُّلْفَى . وروى قَزَعة بن سُوَيد عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن توادّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة" . وروى منصور وعوف عن الحسن «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة فِى القُرْبَى » قال : يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته . وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه ؛ فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[1] » ؛ فأنزل الله تعالى « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ[2] » فنسخت بهذه الآية وبقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[3] » ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ[4] »، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ[5] » ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل . ورواه جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الثعلبيّ : وليس بالقوىّ ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول : إن التقرب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٧ سورة سبأ . (٣) آية ٨٦ سورة ص . (٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون . (٥) آية ٤٠ سورة الطور وآية ٤٦ سورة القلم .

Marfat.com

قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " من مات على حُبّ آل محمد مات شهيدا . ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمـة . ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغْض آل محمد لم يَرِح(١) رائحة الجنة . ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى " .

قلت : وذكر هذا الخبر الزَّمَخْشَرِيّ فى تفسيره بأطول من هذا فقال : وقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألَا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمـان . ألَا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنـة ثم مُنْكَر ونكير . ألَا ومن مات على حب آل محمد فُتح له فى قبره بابان إلى الجنـة . ألا ومن مات فى حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا . ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة " . قال النحاس : ومذهب عِكْرِمة ليست بمنسوخة؛ قال : كانوا يَصِلون أرحامهم فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا أن تَوَدُّونى وتحفظونى لقرابتى ولا تكذبونى " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس فى البُخارِيّ والشَّعْبِيّ عنه بعينه؛ وعليه لانسخ. قال النحاس : وقول الحسن حسن ، ويدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدى قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادى قال أخبرنا أسد ابن موسى قال حدّثنا قَزَعة — وهو ابن يزيد(٢) البصرى — قال حدّثنا عبد الله بن أبى نَجِيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا أسئلكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادّوا الله عز وجل وأن تتقرّبوا إليه بطاعته". فهذا المبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صـلى الله عليهم قبله : « إِنْ أَجْرِىَ إلا على الله » .

(١) أى لم يشم ريحها؛ يقال : راح يَرِيح ، وراح يَرَاح ، وأراح يُرِيح . والثلاثة قد روى بها الحديث .
(٢) تقدم أنه قزعة بن سويد؛ وهو ممن يروى عن ابن ابى نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

Marfat.com

الثانيـــة — واختلفوا فى سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه فنجمع له؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مِقْسم عن ابن عباس قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فخطب فقال للأنصار : " ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى . ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله بى . ألم تكونوا خائفين فأمّنكم الله بى ألا تردّون علىّ" ؟ فقالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : "تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك . ألم يكذبك قومك فصدّقناك ... " فعدّد عليهم . قال : فجثَوْا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك؛ فنزلت : « قل لا أسئلكم عليه أجرًا إلا المَوَدّةَ فى القُرْبَى » . وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمدا فيما يتعاطاه يطلب أجرا؛ فنزلت هذه الآية؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه . قال الثعلبيّ : وهذا أشبه بالآية ؛ لأن السورة مكية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب . وأصل القرف الكسب؛ يقال : فلان يَقْرِف لعياله؛ أى يكسب . والاقتراف الاكتساب؛ وهو مأخوذ من قولهم : رجل قرفة ، إذا كان محتالا . وقد مضى فى « الأنعام »(1) القول فيه . وقال ابن عباس : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة : «غفور» للذنوب، «شكور» للحسنات . وقال السُّدّى : «غفور» لذنوب آل محمد عليه السلام، «شكور» لحسناتهم .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(1) راجع جـ ٧ ص ٧٠

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ الميم صلة، والتقدير أيقولون افترى . واتصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال : « وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ »(١)، وقال « اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ »(٢) قال إتماما للبيان : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » يعنى كفار قريش قالوا : إن محمدا اختلق الكذب على الله . ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به فى هذه الآية . وقال مجاهد ومقاتل : « إن يشأ الله » يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقةٌ من قولهم . وقيل : المعنى إن يشأ يزل تمييزك . وقيل : المعنى لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب . فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيرى . ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ قال ابن الأنبارى : « يختم على قلبك » تام . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : والله يمحو الباطل ؛ فحذف منه الواو فى المصحف ، وهو فى موضع رفع . كما حُذفت من قوله « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ »(٣)، « وَيَدْعُ الْإِنسَانُ »(٤) ولأنه عطف على قوله « يختم على قلبك » . وقال الزجاج : قوله « أم يقولون افترى على الله كذباً » تام؛ وقوله « ويمح الله الباطل » احتجاج على من أنكر ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته فى المفترين . ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ أى الإسلام فيثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بما أنزله من القرآن . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ عام، أى بما فى قلوب العباد . وقيل خاص . والمعنى أنك لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) آية ١٥ من هذه السورة .
(٢) آية ١٧ من هذه السورة .
(٣) آية ١٨ سورة العلق .
(٤) آية ١١ سورة الإسراء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » قال قوم في نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنهم قد اتّهموه فأنزل «أم يقولون افترى على الله كذبا » الآية ؛ فقال القوم : يا رسول الله، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب . فنزلت : «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده» . قال ابن عباس : أي عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة . وقد مضى الكلام في معنى التّوبة وأحكامها(١)، ومضى هذا اللفظ في «براءة»(٢) . ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي عن الشرك قبل الإسلام . ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي من الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين خبرين : الأوّل وهو «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده» والثاني «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَالْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

«الذين» في موضع نصب؛ أي ويستجيب الله الذين آمنوا، أي يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه . وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دعوه . وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في «البقرة»(٣) . وقال ابن عباس : «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» يشفّعهم في إخوانهم . « وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » قال : يشفّعهم في إخوان إخوانهم . وقال المبرّد : معنى « ويستجيب الذين آمنوا » وليستدع الذين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ«الذين » في موضع رفع . ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٠ وما بعدها .
(٢) آية ١٠٤ راجع جـ ٨ ص ٢٥٠ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى — فى نزولها؛ قيل: إنها نزلت فى قوم من أهل الصُّفّة تمنّوا سَعة الرزق . وقال خَبّاب بن الأرَتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بنى النَّضير وقُريظة و بنى قَيْنُقَاع فتمنّيناها فنزلت .﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع . و بَسَط الشيء نشره . و بالصاد أيضا . ﴿لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا . وقال ٱبن عباس : بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة.ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس . وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه ، لقوله : " لو كان لٱبن آدم واديان من ذهب لٱبتغى إليهما ثالثا " وهذا هو البَغْىُ ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء فى المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع . وقيل : أراد بالرزق المطر الذى هو سبب الرزق ؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقبِض تارة ليتضرّعوا و يبسُط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغى على هذا . الزَّمَخْشَرِىّ : « لبغَوْا » من البغى وهو الظلم؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرة . ومنه قوله عليه السلام : " أخوَف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها " . ولبعض العرب :

وقد جعل الوَسْمِىُّ يُنْبِت بيننا * وبين بنى دُودَان نَبْعًا وشَوْحطا[(١)]

يعنى أنهم أحيَوْا لحدّثوا أنفسهم بالبغى والتغابن . أو من البَغْى وهو البَذْخ والكبر؛ أى لتكبّروا فى الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد . ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أى ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم . وقال مقاتل : « ينزّل بقدر ما يشاء » يجعل من يشاء غنياً ومن يشاء فقيرا .

(١) الوسمى : مطر أول الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسى . وفى نسخ الأصل وبعض كتب التفسير : « ... بنى رومان » . ودودان : أبو قبيلة من أسد .

Marfat.com

الثانيـــة ــ قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزْوِى عنه الدنيا؛ مصلحةً له . فليس ضيق الرزق هواناً ولا سَعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه فى الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح فى كل فعل من أفعال الله تعالى . وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : "من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى وإنى لأغضب لهم كما يغضب اللّيْث الحَرِد . وما تردّدت فى شىء أنا فاعله تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه . وما تقرّب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى المؤمن يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيِّدًا فإن سألنى أعطيته وإن دعانى أجبته . وإن من عبادى المؤمنين من يسألنى الباب من العبادة وإنى عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى . وإنى لأدبّر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير" . ثم قال أنس : اللهم إنى من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرنى برحمتك .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصن وُحَميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « يُنزِل » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن وَثّاب أيضا والأعمش وغيرهما « قَنِطوا » بكسر النون؛ وقد تقدّم جميع هذا (١) . والغيث المطر؛ وسمى الغَيْث غيثًا لأنه يغيث

(١) راجع جـ : ١ ص ٣٦ ، ٦٧ ، وجـ ١٤ ص ٣٤

Marfat.com

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثاً . وغِيثت الأرضُ تُغـاث غَيْثاً فهى أرض مَغيثة ومَغْيُوثة . وعن الأصمعيّ قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا فسألت عجوزا منهم : أتاكم المطر ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثاً؛ أى مُطرنا . وقال ذو الرُّمّة : قاتل الله أَمَةَ بنى فلان ما أفصحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالت : غِثْنا ما شئنا . ذكر الأوّل الثعلبي والثانى الجوهرى . وربمـا سمى السحاب والنبات غَيْثاً . والقنوط الإياس؛ قاله قتادة وغيره . قال قتادة : ذُكِر أنّ رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين، قَحَط المطرُ وقَلّ الغيث وقَنَط النـاس ؟ فقال : مطرتم إن شاء الله؛ ثم قرأ « وهو الذى يُنَزّل الغيث من بعد مَا قَنَطوا » . والغيث ما كان نافعا فى وقته، والمطر قد يكون نافعا وضارًّا فى وقته وغير وقتــه ؛ قاله المـاوَرْدِيّ . ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَــهُ ﴾ قيل المطـر؛ وهو قول السُّدِّى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر؛ ذكره المهدَوِى . وقال مقاتل : نزلت فى حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر . وقيل : نزلت فى الأعرابى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة فى خبر الاستسقاء؛ ذكره القشيرى، والله أعلم. ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ «الولى» الذى ينصر أولياءه . «الحميد» المحمود بكل لسان.

قوله تعـالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علاماته الدّالة على قدرته . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[1] . وقال الفرّاء : أراد ما بثّ فى الأرض دون السماء؛ كقوله « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » و إنما يخرج من الملح دون العَذْب . وقال أبو عليّ : تقديره وما بث فى أحدهما؛ فحذف المضاف . وقوله « يخرج منهما » أى من أحدهما . ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) آية ٨ سورة النحل .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « بما كسبت » بغير فاء . الباقون « فبما » بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم الزيادة فى الحرف والأجر . قال المهدوى : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء و إثباتها، والإثبات أحسن . و إن قدرتها التى للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصى؛ قاله الحسن . وقال الضحاك : ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » ثم قال : وأىّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبى روّاد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك، فأما الذى هو دائب فى تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك فى شئ . ومما يحقق ذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشئ من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل فى المسجد فقال : " ما له رحمه الله لقد أذكرنى آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا " . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، والمعنى الذى أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . و إذا كان يكفّر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضى الله عنه ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدّثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الآية . " يا علىّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام .

Marfat.com

فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه ". وقال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلّا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر". وقال الحسن : دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل : لا بد أن أسالك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران : يا أخى لا تفعل ! فوالله إنى لأحبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله ، قال الله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير» فهذا مما كسبت يدى ، وعَفْوُ ربى عما بقى أكثر . وقال مُرّة الهَمْدانى : رأيت على ظهر كف شُريح قُرحة فقلت : يا أبا أمية ، ما هذا ؟ قال : هذا بما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير . وقال ابن عَون : إن محمد بن سِيرين لما ركبه الدَّين آغتم لذلك فقال : إنى لأعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة . وقال أحمد ابن أبى الحَوَارِى (١) قيل لأبى سليمان الدّارانى : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وقال عِكْرِمة : ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها . وروى أن رجلا قال لموسى : يا موسى سل الله لى فى حاجة يقضيها لى هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزّق السَّبُع لحمه وقتله ؛ فقال موسى : ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له : "ياموسى إنه سألنى درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له فى نيل تلك الدرجة " . فكان أبو سليمان الدارانى إذا ذكر هذا الحديث يقول : سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية فى المعنى قوله تعالى «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» وقد مضى القول فيه (٢) . قال علماؤنا : وهذا فى حق المؤمنين ، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة الى الآخرة . وقيل : هذا خطاب للكفار، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

(١) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحوار يين (شرح القاموس) .	(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦

Marfat.com

بشـؤم كفركم . والأول أكثر وأظهر وأشهر . وقال ثابت البُنَانِيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما — أنها خاصة فى البالغين أن تكون عقوبة لهم، وفى الأطفال أن تكون مثوبة لهم. الثانى— أنها عقوبة عامة للبالغين فى أنفسهم والأطفال فى غيرهم من والد ووالدة . ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ أى عن كثير من المعاصى ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهـم بالعقوبة . ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بفـائتين الله؛ أى لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١) تقدّم فى غير موضع .

قوله تعـالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى من علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية فى البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبـال، وواحد الجـوارى جارية ، قال الله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَـاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ» (٢) . سُمّيت جارية لأنهـا تجرى فى المـاء . والجارية : هى المرأة الشابة؛ سُمّيت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصـور ، واحدها علم؛ ذكره الثعلبى . وذكر المـاوَرْدى عنه أنهـا الجبال . وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. قالت الخنساء ترثى أخاها صَخْرا:

وإنّ صخـرا لتأتمّ الهُـداة به * كأنه عـلَمٌ فى رأسـه نار

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ كذا قرأه أهل المدينـة « الرياح » بالجمع . ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى . رَكَد المـاء ركودا سكن . وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهـيرة . وكلّ ثابت فى مكان فهـو راكد . وركَد

(١) راجع جـ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة الحاقة .

Marfat.com

الميزان آستوى . وركَد القوم هدءوا . والمراكد : المواضع التى يَرْكُد فيها الإنسان وغيره . وقرأ قتادة « فَيَظْلِلْنَ » بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثل ضَلِلت أَضِل (١) . وفتح اللام هى اللغة المشهورة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى صبار على البَلْوى شكور على النعماء . قال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطِى شكر وإذا ٱبْتُلِيَ صبر . قال عَوْن بن عبد الله : فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن، أى يغرقهن بذنوب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردي . وقيل : « ويعفو عن كثير » أى ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القُشيري : والقراءة الفاشية « ويعفُ » بالجزم ، وفيها إشكال؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يعف» على هذا، لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك بل المعنى الاخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « ويعفو » بالرفع، وهى جيدة فى المعنى . ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ يعنى الكفار ؛ أى إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع (٢) ، ومضى القول فى ركوب البحر فى « البقرة (٣) » وغيرها بما يغنى عن إعادته . وقرأ نافع وابن عامر

(١) فى الأصول : « ظللت أظل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ وجـ ١٣ ص ٢٢٣ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .

Marfat.com

« ويعلمُ » بالرفع ، الباقون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء ؛ كقوله في سورة التوبة « ويُخْزِهِمْ وينصُرْكُمْ عليهِمْ »(١) ثم قال « ويَتُوبُ اللهُ على مَنْ يَشاءُ » رفعا . ونظيره في الكلام إن تأتني آتك وينطلقُ عبد الله . أو على أنه خبر ابتداء محذوف . والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى : « ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهَدُوا مِنكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »(٢) صرف من حال الجزم الى النصب استخفافا كراهيةً لتوالي الجزم؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يهلِكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ(٣)
ويُمسِكْ بعده بذِناب عَيْشٍ * أَجَبِّ الظَّهرِ ليس له سَنامُ(٤)

وهذا معنى قول الفَرّاء، قال : ولو جزم « ويعلم » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزما؛ تقول : ما تصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك . وإن شئت قلت: وأكرمْك بالجزم . وفي بعض المصاحف « وليعلم » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو علي والمبرّد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي ويكون منه عفوٌ وأن يعلم، فلما حمله على الاسم أضمر أن، كما تقول : إن تأتني وتعطيني أكرمك ، فتنصب تعطيني ؛ أي إن يكن منك إتيان وأن تعطيني . ومعنى ﴿ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب . السُّدّي : من ملجأ . وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) آية ١٤ (٢) آية ١٤٢ سورة آل عمران . (٣) أبو قابوس : كنيته النعمان بن المنذر ؛ يريد أنه كان كالربيع في الخصب لمجتديه ، وكالشهر الحرام لجاره ؛ أي لا يوصل إلى من أجاره . والمعنى : إن يمت النعمان يذهب خير الدنيا لأنها كانت تعمر به وبجوده وعدله ونفعه للناس ، ومن كان في ذمته وسلطانه فهو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس في الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (٤) ذناب كل شيء : عقبه ومؤخره . وأجب الظهر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا في طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وخيره ، وقد بقي منه ذنبه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسّعة في الدنيا . ﴿ فَمَتَاعُ ﴾ أى فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضى وتذهب ؛ فلا ينبغى أن يتفاخر به . والخطاب للشركين . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدّقوا ووحّدوا ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت في أبي بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله في طاعة الله فلامه الناس . وجاء في الحديث أنه : أنفق ثمانين ألفا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين في موضع جرّ معطوف على قوله : « خيرٌ وأبقى للذين آمنوا » أى وهو للذين يجتنبون ﴿ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾ وقد مضى القول في الكبائر في « النساء »(١) . وقرأ حمزة والكسائيّ « كبير الإثم » والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »(٢) ، وكما جاء في الحديث : "منعت العراق درهمها وقفيزها" . الباقون بالجمع هنا وفي « النجم »(٣) . ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ قال السُّدّى : يعني الزنى . وقاله ابن عباس ، وقال : كبير الإثم الشرك . وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها . والفواحش داخلة في الكبائر ، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة الى الجرح ، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد ، فكرر لتعدد اللفظ ؛ أى يجتنبون المعاصى لأنها كبائر وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم . قيل : نزلت في عمر حين شُتم بمكة . وقيل في أبي بكر حين لامه الناس على

(١) آية ٣١ راجع جـ ٥ ص ١٥٨ وما بعدها .	(٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم . و ١٨ سورة النحل .
(٣) آية ٣٢

Marfat.com

انفاق ماله كله وحين شُتم فحَلُم . وعن علىّ رضى الله عنه قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة، فتصدّق به كله فى سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت « وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — الى قوله — وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئا ؛ فنزلت الآية . وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهِل عليهم ؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى فى آل عمران « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » (١) . وهو أن يتناولك الرجل فتكظِم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إنى عفوت لظالمى ظلمى * ووهبت ذاك له على علمى
ما زال يظلمنى وأرحمه * حتى بكيت له من الظلم

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال عبد الرحمن ابن زيد : هم الأنصار بالمدينة ؛ استجابوا الى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يتشاورون فى الأمور . والشُّورَى مصدر شاورته ؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمرا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أى إنهم لانقيادهم الى الرأى فى أمورهم متفقون لا يختلفون ؛ فمدحوا باتفاق كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم . وقال

(١) آية ١٣٤ راجع ج ٤ ص ٢٠٦

Marfat.com

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم فى دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له . وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربي : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب الى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا . وقد قال الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى لبيب أو مشورة حازم(١)
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخَوَافِيَ(٢) قوة للقوادم

فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك . وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك فى الآراء كثير . ولم يكن يشاورهم فى الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة . وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه(٣) . وقال عمر رضى الله عنه : نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا . وتشاوروا فى أهل الردة فاستقر رأى أبي بكر على القتال . وتشاوروا فى الجَدّ وميراثه ، وفى حدّ الخمر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وفَد عليه مسلما فى المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وإن شُدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان . والرأسُ كِسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس ؛ فمُر المسلمين فلينفروا الى كِسْرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قطُّ ! إذا حزبَني أمر شاورت قومى ففعلت الذى يرون؛ فإن أصبت فهم المصيبون ، وإن أخطأت فهم المخطئون .

(١) البيتان لبشار بن برد . والخوافى : ريشات إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت . والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح وهى كبار الريش . (٢) فى الأصول « نافع » . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢٤

Marfat.com

الثالثة — قد مضى فى « آل عمران » ما تضمنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى «وشَاوِرْهُمْ فى الأمر» (١) . والمَشُورة بركة . والمَشْورة : الشُّورَى، وكذلك المشورة (بضم الشين) ؛ تقول منه : شاورته فى الأمر واستشرته بمعنًى . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سمحاءَكم وأمرُكم شُورَى بينكم فظَهْر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شرارَكم وأغنياؤكم بخلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها". قال حديث غريب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أى ومما أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدّم فى « البقرة » (٢) .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أى أصابهم بغى المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم فى الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ؛ وذلك قوله فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) آية ١٥٩ راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

Marfat.com

لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا[(١)] ... » الآيات كلها . وقيل : هو عام فى بَغْى كل باغ من كافر وغيره ؛ أى إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظالمه . وهذه إشارة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربى : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم فى موضع آخر فى معرض المدح ؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا الى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغى معلنا بالفجور، وَقِحاً فى الجمهور، مؤذيا للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفى مثله قال إبراهيم النَّخَعِىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية — أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة و يسأل المغفرة ؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزلت « وأنْ تَعفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى[(٢)] » . وقوله : « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ[(٣)] » . وقوله : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ[(٤)] » .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكِيَا الطبرى فى أحكامه قال : قوله تعالى « وَالَّذِين إذا أَصابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرون» يدل ظاهره على أن الانتصار فى هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى و إقام الصلاة ؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِىّ أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق ؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجانى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » . و يقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » . وهو محمول على الغفران عن غير المُصِرّ ، فأما المصرّ على البغى والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التى قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغى تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم و يدفعوه؛ قاله ابن بحر . وهو راجع الى العموم على ما ذكرنا .

---

(١) آية ٣٩ راجع جـ ١٢ ص ٦٧　　(٢) آية ٢٣٧ سورة البقرة .　　(٣) آية ٤٥ سورة المائدة .　　(٤) آية ٢٢ سورة النور .

Marfat.com

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين ؛ صنفٌ يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم فى قوله : « وَإِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وصنف ينتصرون من ظالمهــم . ثم بين حدّ الانتصار بقوله : « وَجزاء سيّئةٍ سيئةٌ مِثلُهـا » فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا فى المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم . وقاله الشافعى وأبو حنيفة وسـفيان . قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام . وتأول الشافعى فى هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ؛ واستشهد فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبى سفيان : "خذى من ماله مايكفيك وولدك" فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفًى فى « البقرة »[(1)] . وقال ابن أبى نَجيح : إنه محمول على المقابلة فى الجراح . واذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثـله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السُّدِّى : إنمـا مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتـداء بالزيادة على مقـدار ما فعل به ؛ يعنى كما كانت العرب تفعله . وسمى الجزاء سيئةً لأنه فى مقابلتها ؛ فالأول ساء هذا فى مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا ؛ وقد مضى هذا كله فى « البقرة »[(1)] مستوفى .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه و بين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمـال الصالحة . وقد مضى فى « آل عمـران »[(2)] فى هذا ما فيه كفاية ، والحمـد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضى الله عنهـم قال : إذا كان يوم القيـامة نادى منادٍ أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجـنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا مَن أنتم ؟ قالوا أهل الفضـل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حَلمنا

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٠٧

Marfat.com

وإذا ظُلمنا صَبَرْنا وإذا سِيء إلينا عفونا ؛ قالوا ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وذكر الحديث . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى مَن بدأ بالظلم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن ٱنتصر الظالم من المسلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا فى بدن يستحقه آدمى ، فلا حرج عليه إن ٱستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام فى تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو فى الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب . القسم الثانى — أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لآدمى فيه كحدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فان لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نُظر ، فان كان قطعا فى سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه فى ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا فى مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستسرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففى جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعى . الثانى — المنع ؛ وهو قول أبى حنيفة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أى بعدوانهم عليهم ؛ فى قول أكثر العلماء . وقال ٱبن جُريج : أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

Marfat.com

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى فى النفوس والأموال؛ فى قول الأكثرين . وقال مقاتل : بغيهم عملهم بالمعاصى . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحدّ قال ٱبن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بيناه والحمد لله .

السابعــة — قال ٱبن العربى : هذه الاية فى مقابلة الآية المتقدّمة فى « براءة » وهى قوله « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » (١) ؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها (٢) على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنــة — وٱختلف علماؤنا فى السلطان يضع على أهـل بلد مالاً معلوما يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هـل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا . وقيل : نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص؛ و إليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ثم المالكى. قال : و يدل عليـه قول مالك فى الساعى يأخذ من غنم أحـد الخلطاء شاة وليس فى جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشىء . قال : ولست آخذ بما روى عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه فى ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » .

التاســعة — وٱختلف العلمـاء فى التحليل ؛ فكان ابن المسيّب لا يحـلل أحدا من عرض ولا مال . وكان سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين يحللان من العرض والمـال . ورأى مالك التحليل من المـال دون العرض . روى ٱبن القاسم وٱبن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب « لا أحلل أحدا » فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يا أبا عبد الله ، الرجل يسلف الرجل فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندى ؛ فان الله تعـالى يقول « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

(١) آية ٩١ (٢) فى ابن العربى : « أثبتها » .

Marfat.com

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندي مخالف للأول ؛ يقول الله تعالى « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس » ويقول تعالى « ما على المحسنين من سبيل » فلا أرى أن يجعله من ظلمه في حل . قال ابن العربي : فصار في المسئلة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلله بحال؛ قاله سعيد ابن المسيب . الثاني — يحلله؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث — إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله؛ وهو قول مالك . وجه الأول ألا يحلل ما حرم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمه وعرضه . ووجه الثالث الذى اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله ، وإن كان ظالما فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا[1] في أفعالهم القبيحة . وفي صحيح مسلم حديث أبي اليسر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أخرج الي ، فقد علمت أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك ، وان أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت والله معسرا . قال قلت : آلله ؟ قال الله[2]؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدت قضاء فاقض ، وإلا فأنت في حل ... وذكر الحديث . قال ابن العربي : وهذا في الحي الذى يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التمحل[3]، فكيف بالميت الذى لا محالة له ولا ذمة معه .

العاشرة — قال بعض العلماء : إن من ظلم وأخذ له مال فإنما له ثواب ما احتبس عنه الى موته ، ثم يرجع الثواب الى ورثته ، ثم كذلك الى آخرهم ؛ لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودي المالكي : هذا صحيح في النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل من ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك مالم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم الى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

---

(١) في بعض الأصول : « ويستسرون » وفي البعض الآخر : « ويستشرون » .　(٢) قال النووي « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام ، والثاني بلا مد ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضي : ورويناه بفتحهما معا ، وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » .　(٣) في ابن العربي : « التحلل » وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط الناسخ : « يقال تمحل أى احتال فهو متمحل قاله الجوهري » .

Marfat.com

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أى صبر على الأذى و « غفر » أى ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سبّ رجلا فى مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويَعْرَق فيمسح العَرَق ، ثم قام فتلا هـذه الآية؛ فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون . وبالجملة العفو مندوب اليـه ، ثم قد ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا اليه كما تقـدّم؛ وذلك إذا آحتيج الى كفّ زيادة البغى وقطع مادّة الأذى ، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم مايدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت عائشـة رضى الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهى ؛ فقال لعائشـة : " دونك فانتصرى " خرجه مسلم فى صحيحه بمعناه . وقيل : « صَبَر » عن المعاصى وستر على المساوئ . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أى من عزائم الله التى أمر بها . وقيل من عزائم الصواب التى وفق لها . وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه مع ثلاث آيات قبلها، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك . وهى المدنيات من هذه السـورة . وقيل : هذه الآيات فى المشركين، وكان هـذا فى ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول آبن زيد، وقد تقدّم . وفى تفسير آبن عباس « وَلَمَن آنتصر بعد ظلمه » يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكلّ من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد بالظلم والكفر . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعالى : وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أى يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة فى القربى ، ولم يصدّقه فى البعث وأن متاع الدنيا قليل . أى من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ.

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى جهنم. وقيل رأوا العذاب عند الموت . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُردّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون الى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار لأنها عذابهم ؛ فكنّى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون. وقيل : آل فرعون خصوصا ، تُحبس أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم ، ويعرضون على العذاب فى قبورهم ؛ وهـذا معنى قول أبى الحجاج . ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خاشعين » . وقوله : « مِنَ الذُّلِّ » متعلق بـ« ينظرون » . وقيل : متعلق بـ« خاشعين » . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تاما ؛ لأنهم ناكسو الرءوس. والعرب تصف الذليل بغَضّ الطرف ، كما يستعملون فى ضدّه حديد النظر إذا لم يُتّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا ، وعين القلب طرفٌ خفيٌّ . وقال قتادة والسدّى والقُرَظىّ وسعيد بن جُبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

Marfat.com

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « مِن » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفى ، أى ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لمـا يرون من أصناف العذاب . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يقول المؤمنون فى الجنة لمـا عاينوا ماحل بالكفار إن الخسران فى الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فانهم خسروا أنفسهم لأنهم فى العـذاب المخلد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا فى النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينه و بينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل فى الجنـة من الحور العين . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى « أولئك هم الوارثون »". وقد تقدّم[1] . وفى مسند الدّارمىّ عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنـة إلا زوّجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العـين وسبعين من ميراثه من أهل النـار وما منهنّ واحدة إلا ولهـا قُبُـلٌ شهىّ وله ذكر لا ينثنى " . قال هشـام ابن خالد : " من ميراثه من أهل النار" يعنى رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون . ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى دائم لا ينقطع . ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ (٤٦)

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى أعوانا ونصراء ﴿ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من عذابه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى طريق يصل به إلى الحق فى الدنيا والجنة فى الآخرة؛ لأنه قد سدّت عليه طريق النجاة .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبوا لِرَبكم ﴾ أى أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنى؛ وقد تقدّم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِىَ يَومٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ يريد يوم القيامة؛ أى لا يردّه أحد بعد ماحكم الله به وجعله أجلا ووقتا . ﴿ مَا لَكُمْ مِن ملجأ ﴾ أى من ملجأ ينجيكم من العذاب . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر ، كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب ؛ حكاه ابن أبى حاتم ، وقاله الكلبي . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها . وقيل : « من نكير » أى إنكار ما ينزل بكم من العذاب ، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى عن الايمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها . وقيل: موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إكراههم على الايمان . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقيل : نسخ هذا بآية القتال . ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإنْسَانَ ﴾ الكافر . ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وصحة . ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطر بها . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدّة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لما تقدّم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم .

Marfat.com

قوله تعالى : لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف . وقال واثلة بن الأسقع : إن من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أنّ الله تعالى قال : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالإناث . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوْءَمًا ، غلاما وجارية ، أو يزوّجهم ذكرانا وإناثا . قال القُتَبِيّ : التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوّجت إبلى إذا جمعت بين الكبار والصغار . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى لا يولد له؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعَقِمت المرأة تَعْقَم عَقْمًا؛ مثل حَمِدَ يَحْمَد . وعَقُمت تَعْقُم، مثل عُظم يعظم . وأصله القطع ، ومنه المُلْك العقيم ، أى تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم؛ أى لا تلقح سحابا ولا شجرا . ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عُقْم وعُقَّم؛ قال الشاعر (١) :

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهَه * إن النساء بمثله عُقُمُ

(١) فى لسان العرب : « قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومى . وقيل هو للحزين الليثى » .

Marfat.com

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى الأنبياء خصوصا وإن عمّ حكمها . وَهَب لُلوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيي عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر . قال إسحاق : نزلت فى الأنبياء ، ثم عمّت . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يعنى لوطا عليه السلام، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ يعنى ابراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعنى يحيي بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربى : قال علماؤنا « يهب لمن يشاء إناثا » يعنى لوطا كان له بنات ولم يكن له ابن . « ويهب لمن يشاء الذكور » يعنى إبراهيم ، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله « أو يزوّجهم ذكرانا وإناثا » يعنى آدم، كانت حوّاء تلد له فى كل بطن توءمين ذكرا وأنثى ، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحريم فى شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[(1)] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضى الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق، وينفذ الوعد ، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففى الحديث : "إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه[(2)]، فتقول قطِ قطِ[(3)] . وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لها خلقا آخر" .

الثانيـــة — قال ابن العربى : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شيء لا عن حاجة؛ فانه قدّوس

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وابراهيم . راجع شرح المواهب اللدنية . (٢) قال القسطلانى : « أى يذللها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم : سقط فى يده » . (٣) قوله : « قط قط » بكسر الطاء وسكونها فيهما ، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى : حسبي حسبي قد اكتفيت .

Marfat.com

عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حواء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا فى الجنين بالوضع؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: "إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل آنثا"[1]. وكذلك فى الصحيح أيضا "إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله".

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال "نعم" فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلّت[2]؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعيها وهل يكون الشبه إلا من قِبل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه". قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضى الشبه؛ وقد جاء فى حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لليهودى: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فاذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذكرا باذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا باذن الله ..." الحديث. فجعل فى هذا الحديث أيضا العلو يقتضى الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِي المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا علّة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذى يتعين تأويله الذى فى حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقنى فلان فسبقته أى غلبته؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) روى بالمد وتخفيف النون وبالقصر وتشديد النون. (٢) قوله: «تربت يداك». معناه: ما أصبت! وهو فى الأصل بمعنى صار فى يدك التراب ولا أصبت خيرا أى افتقرت، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون: قاتله الله؛ إلى غير ذلك. وقوله «وألت»: أى صاحت لما أصابها من شدة هذا الكلام. وروى بضم الهمزة مع التشديد؛ أى طعنت بالألة وهى الحربة. قال ابن الأثير: وفيه بعد؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث.

Marfat.com

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين قيل عليه : علا . و يؤيد هذا التأويل قوله فى الحديث : "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا" . وقد بنى القاضى أبو بكر بن العربى على هذه الأحاديث بناء فقال: إن للماءين أربعة أحوال : الأول أن يخرج ماء الرجل أولا، الثانى أن يخرج ماء المرأة أولا ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولا و يكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولا و يكون أكثر . و يتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة. وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة . وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة. وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم .

الثالثة — قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع فى الجاهلية الأولى الخنثى فأتى به فريض العرب ومعمرها[1] عامر بن الظرب فلم يدر ما يقول فيه وأرجاهم عنه؛ فلما جن عليه الليل تنكر موضعه، وأقض عليه مضجعه، وجعل يتقلى ويتقلب، وتجىء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قصدت به فلم أدر ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها : رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله فى الميراث ؟ قالت له الأمة : ورثه من حيث يبول ؛ فعقلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الاسلام على ذلك فلم تنزل إلا فى عهد على رضى الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفرضيون عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قبل وذكر من أين يورث ؟ قال : من حيث يبول . وروى

(١) فى ابن العربى : « ومعتمدها » . ويقال أنه عاش ثلثمائة عام .

Marfat.com

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال : " ورثوه من أول ما يبول " . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علي، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المزني عن الشافعي . وقال قوم : لا دلالة في البول ؛ فان خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر . وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيله ! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكما . وحكى عن علي والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه، فان المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء في هذا في آية المواريث في « النساء »[1] مجوّداً والحمد لله .

الرابعة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنثى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فانه واسع عليم ، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء » . فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذُكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيماً » فهذا إخبار عن الغالب في الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول ، والوجود يشهد له والعيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله ، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(١) راجع ج ٥ ص ٦٥ فما بعدها .

Marfat.com

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ألّا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه ؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن موسى لن ينظر إليه " فنزل قوله « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والثعلبي . ﴿ وَحْيًا ﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَث فى قلبه فيكون إلهاما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القُدُس نَفَث فى رُوعِى[1] إنّ نَفْسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . خذوا ما حَلّ ودعُوا ما حَرُم " . ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ كارساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إلا وحيا » رؤيا يراها فى منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أو من وراءِ حجاب » كما كلم موسى . « أو يرسل رسولا » قال زهير هو جبريل عليه السلام . ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وهذا الوحى من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا ويرونه عيانا . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وذكرياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما فى المنام . وقيل « إلا وحيا » بارسال جبريل « أومن وراء حجاب » كما كلّم موسى « أو يرسل رسولا » إلى الناس كافّة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أو يرسلُ رسولا فيوحِى » برفع الفعلين . الباقون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل . وقيل « يرسل » بالرفع فى موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحى ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى أو يرسل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة . ويكون فى موضع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسل رسولا . ولا يجوز أن يعطف « أو يرسل » بالنصب على « أن يكلمه » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولا ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

(١) الروع (بالضم) : القلب والعقل . والروع (بالفتح) : الفزع .

Marfat.com

الثانيــة — احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث ؛ لأن المرسل قد سُمّي فيها مكلّما للمرسَل إليه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا في الرجل يحلف ألّا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال الثّوري : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعي : لا يبين أن يحنث . وقال النَّخَعيّ : والحكم في الكتاب يحنث . وقال مالك : يحنث في الكتاب والرسول . وقال مَرّة : الرسول أسهل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو ثور : لا يحنث في الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنث في الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامدا أو ساهيا ، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كله عند مالك . وإن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه في الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث في الرسول إلا أن ينوى المشافهة ؛ للآية ، وهو قول مالك وابن الماجشُون . وقد مضى في أول « سورة مريم »(1) هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي نبوة ؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عندنا . السُّدّي : وحيًا . الكلبي : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(1) راجع جـ ١١ ص ٨٦

Marfat.com

مالك بن دينار . وسمّاه روحا لأن فيه حياةً من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله « ويسئلونك عن الروح » على القرآن أيضا « قل الروح من أمر ربى » أى يسئلونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ؛ ذكره القُشَيْرى . وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القشيرى : وهو من مجوّزات العقول ، والذى صار إليه المعظم ان الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة . وفيه تحكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به . قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن (١) قبل النبوّة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوّة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى « وآتيناه الْحُكْمَ صَبِيًّا (٢) » قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه . قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : أَلِلعب خُلقت ! وقيل فى قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ (٣) » صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه . وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله « لا تَحْزَنى » على قراءة من قرأ « مَنْ

(١) كذا فى الأصل .　(٢) آية ١٢ سورة مريم .　(٣) آية ٣٩ سورة آل عمران .

Marfat.com

تحتها » ، وعلى قول من قال إن المنادى عيسى ونص على كلامه فى مهده فقال « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا » . وقال : « ففهمناها سليمان وكلًا آتينا حكمًا وعلمًا »(١) وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبى يلعب فى قصة المرجومة وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وقال المفسرون فى قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل »(٢) : أى هديناه صغيرا ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل ابداء خلقه . وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه ملكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلتُ ؛ ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة . وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين . وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة(٣) . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبى عند ما هم إخوته بإلقائه فى الجب بقوله تعالى : « وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا »(٤) الآية ؛ إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السير أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه صلى الله عليه وسلم : " لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد " . ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمًا وعلمًا »(٥) . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نبئ واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند هذا الباب النقل . وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

---

(١) آية ٧٩ سورة الأنبياء . (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء . (٣) فى الأصول : «خمسة عشر شهرا» راجع جـ ٧ ص ٢٥ . (٤) آية ١٥ سورة يوسف . (٥) آية ١٤ سورة القصص .

Marfat.com

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليـه السلام بكل ما آفترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وآختلقته ، مما نص الله عليـه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ، وبتلونه في معبوده محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظع وأقطع في الحجـة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِم التي كانوا عَلَيْهَا » كما حكاه الله عنهم .

الثالثـة — وتكلم العلماء في نبينا صلى الله عليه وسلم؛ هل كان مُتَعَبَّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرِف تابعا ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليـه بشيء في ذلك ، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا آستبان عنـدها (1) في أحدهما طريق النقل ، وهـذا مذهب أبي المعالي . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبلـه وعاملا به ؛ ثم آختلف هؤلاء في التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجـوز أن يكون النبي على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعـتزلة إلى أنه لا بدّ أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هـذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه . والذي يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعز . وأنه

(1) في الأصول : « عندهما » .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمر ، ولا شهد السامر (١) ولا حضر حِلف المطر (٢) ولا حلْف المطيِّبين (٣) ؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك. فإن قيل : فقد روى عثمان بن أبى شيبة حديثا بسنده عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم ، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : آذهب حتى تقوم خلفه ؛ فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًّا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع . وقال الدّارَقُطْنى : إن عثمان وَهِم فى إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه ؛ والمعروف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله : " بُغِّضت إلىّ الأصنام " وقوله فى قصة بَحيرا حين استحلف النبيّ صلى الله عليه وسلم باللّات والعُزّى إذ لَقِيَه بالشام فى سَفْرته مع عمه أبى طالب وهو صبىّ ، ورأى فيه علامات النبوّة فآختبره بذلك ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطُّ بُغْضَهما " فقال له بَحيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه؛ فقال : " سل عما بدا لك " . وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلِفة فى الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان

---

(١) الموضع الذى يجتمعون للسمر فيه . (٢) كذا فى الأصول . (٣) فى الأصول : «المطيب» . قال ابن الأثير : «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذى ورد النهى عنه فى الاسلام بقوله صلوات الله عليه : "لا حِلْف فى الاسلام" . وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : " وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة " يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق ؛ وبذلك يجتمع الحديثان ، وهذا هو الحلف الذى يقتضيه الاسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الاسلام » .

ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم : "شهدت غلاما مع عمومتى حلف المطيبين" . اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتَيْم فى دار ابن جدعان فى الجاهلية وجعلوا طيبا فى جَفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم ؛ فسموا المطيبين . وقال عليه السلام : "شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إلى مثله فى الاسلام لأجبت" . قال ابن الأثير : يعنى حلف الفضول . (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف . طيب . فضل) .

Marfat.com

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم »[١] وقال : « أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم »[٢] وقال « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبِّدًا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد و إقامة الدِّين ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ »[٣] والحمد لله .

الرابعة — إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا فى تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » . فقال جماعة: معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل . ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيرى : وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى مَن الذى يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن علىّ بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ؛ وهو محتمل . وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوّته . والثانى — أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة .

---

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة .　(٢) آية ١٢٣ سورة النحل .　(٣) آية ١٣ من هذه السورة .

Marfat.com

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدم . وقيل : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمـان » أى كنت من قوم أُمّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ؛ وهو كقوله تعالى: «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(١) . روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعنى الإيمان . السُّدّى : القرآن . وقيل الوحى . أى جعلنا هـذا الوحى ﴿ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى من نختاره للنبوة؛ كقوله تعالى : «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ»(٢) . ووحّد الكناية لأن الفعل فى كثرة أسمائه بمنزلة الفعل فى الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك و إدبارك يعجبنى؛ فتوحّد، وهما اثنان . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ أى تدعو وترشـد ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه . وقال علىّ : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجَحْدرِىّ وحَوْشب « و إنك لَتُهْـدَى » غير مُسَمّى الفاعل؛ أى لتُـدْعَى . الباقون « لتهدى » مسمى الفاعل . وفى قراءة أُبَىّ « و إنك لتدعو » . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد، و إنمـا يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال « و إنك لتهدى » أى لتدعو . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى «و إنك لَتَهْدِى إلى صراط مستقيم» قال : « ولكل قوم هاد » . ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة . قال علىّ : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواه النوّاس بن سمعان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبدا وخلقا. ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبى الجعد : احترق مصحف فلم يبق إلا قوله «ألا إلى الله تصيـر الأمو ر » وغرق مصحف فامّحَى كله إلا قوله « ألا إلى الله تصـير الأمو ر » . والحمد لله وحده .

---

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت . (٢) آية ١٠٥ سورة البقرة .

Marfat.com

سورة الزخرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قوله « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا »(١) . وهي تسع وثمانون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ تقدّم(٢) الكلام فيه . وقيل : « حم » قسم . « والكتاب المبين » قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بما شاء . والجواب « إنا جعلناه » . وقال ابن الأنبارى : من جعل جواب «والكتاب» « حم » — كما تقول نزل والله وَجَب والله — وقف على «الكتاب المبين» . ومن جعل جواب القسم «إنا جعلناه» لم يقف على «الكتاب المبين» . ومعنى «جعلناه» أى سميناه ووصفناه؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين؛ كقوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »(٣) . وقال السدى : أى أنزلناه قرآنا . مجاهد : قلناه . الزجاج وسفيان الثّورى : بيّناه . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى أنزلناه بلسان العرب؛ لأن كل نبىّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربىّ . وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكناية فى قوله « جعلناه » ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر فى هذه السورة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى تفهمون أحكامه ومعانيه . فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه؛ على ما تقدّم فى غير موضع .

(١) آية ٤٥ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ (٣) آية ١٠٣ سورة المائدة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أى رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض؛ قال الله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ»(١) وقال تعالى : «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ»(٢) . وقال ابن جريج: المراد بقوله تعالى « وإنه » أى أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . «لَعَلِيٌّ» أى رفيع عن أن ينال فيبدّل « حَكِيمٌ » أى محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وإنه فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » . وكسر الهمزة من « أم الكتاب » حمزة والكسائى . وضم الباقون، وقد تقدّم(٣) .

قوله تعالى : أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ افنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ يعنى : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب؛ أى أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدى ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به . وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدى أيضا : المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم . وعنه أيضا : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طَيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون . وقيل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين؛ فى قراءة من فتح. ومن كسر جعلها للشرط

(١) آية ٧٧ سورة الواقعة . (٢) آية ٢١ سورة البروج . (٣) راجع جـ ٥ ص ٧٢

Marfat.com

وما قبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل فى اللفظ. ونظيره «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[(١)] وقيل: الجواب محذوف دلّ عليه ما تقدّم؛ كما تقول: أنت ظالم إن فعلت. ومعنى الكسر عند الزجاج الحال؛ لأن فى الكلام معنى التقرير والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحًا﴾ إعراضا؛ يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه. وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته. والأصل فيه صفحة العنق؛ يقال: أعرضت عنه أى وليته صفحة عنق. قال الشاعر[(٢)]:

صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت

وانتصب «صَفْحا» على المصدر لأن معنى «أفنضرب» أفنصفح. وقيل: التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين، كما يقال: جاء فلان مَشْياً. ومعنى ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح فى «أنْ» وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

قوله تعالى: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ «كم» هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»[(٣)] أى ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ أى لم يكن يأتيهم نبى ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك. يعزى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم ويسلّيه. ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أى قوما أشدّ منهم قوة. والكناية فى «منهم» ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله «أفنضرب عنكم الذكر صفحا» فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نصب على الحال. وقيل هو مفعول؛ أى فقد أهلكنا

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة. (٢) هو كثير عزة. (٣) آية ٢٥ سورة الدخان.

Marfat.com

أقوى من هؤلاء المشركين فى أبدانهم وأتباعهم . ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ أى عقوبتهم ؛ عن قتادة . وقيل : صفة الأولين؛ نخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم؛ حكاه النقاش والمهدوى . والمَثَلُ : الوصف والخبر .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعنى المشركين . ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم . وقد مضى فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبارٍ منه عن نفسه ، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذى جعل لنا الأرض . ﴿ مِهادا ﴾ فراشا و بساطا . وقد تقدّم (٢) . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » ﴿ وجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى معايش . وقيل طرقا ، لتسالكوا منها إلى حيث أردتم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته . وقيل « لعلكم تهتدون » فى أسفاركم؛ قاله ابن عيسى . وقيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ قال ابن عباس : أى لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٩

Marfat.com

يكون معاشا لكم ولأنعامكم. ﴿ فَأَنْشَرْنَا ﴾ أى أحيينا. ﴿ بِهِ ﴾ أى بالماء. ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ أى مقفرة من النبات. ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أى من قبوركم؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى فى «الأعراف»(1) مجوّدا. وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر «يَخْرُجُون» بفتح الياء وضم الراء. الباقون على الفعل المجهول.

قوله تعالى: وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ أى والله الذى خلق الأزواج. قال سعيد بن جبير: أى الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أراد أزواج النبات؛ كما قال تعالى: «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»(2) و«مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»(3). وقيل ما يتقلّب فيه الانسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قلت: وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإبل ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ فى البر والبحر. ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ ذكّر الكناية لأنه ردّه إلى ما فى قوله «ما تركبون»؛ قاله أبو عبيد. وقال الفرّاء: أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد فى معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند؛ فلذلك ذكّر، وجمع الظهور، أى على ظهور هذا الجنس.

(1) راجع ج ٧ ص ٢٣٠ (2) آية ٧ سورة ق. (3) آية ٧ سورة الشعراء.

Marfat.com

الثانيـــة — قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله عليه السلام: " بينما رجلٌ راكب بقرة إذ قالت له لمْ أخلق لهذا إنما خلقت للحرث " فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر "(١). وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أول سورة « النحل »(٢) مستوفىً والحمد لله.

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ يعني به الابل خاصة بدليل ما ذكرنا، ولأن الفلك إنما تركب بطونها، ولكنه ذكرهما جميعا في أول الآية وعطف آخرها على أحدهما. ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما؛ لأن الماء غمره وستره وباطنهما ظاهرا؛ لأنه انكشف للظاهرين وظهر للبصرين.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ركبتم عليه. وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي ذلّل لنا هذا المركب. وفي قراءة عليّ بن أبي طالب « سبحان من سخر لنا هذا ». ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين؛ في قول ابن عباس والكلبي. وقال الأخفش وأبو عبيدة: « مقرنين » ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيد والقوة؛ من قولهم: هو قِرْن فلان إذا كان مثله في القوة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان أي ضابط له. وأقرنت كذا أي أطقته. وأقرن له أي أطاقه وقوِيَ عليه؛ كأنه صار له قِرْنا. قال الله تعالى: « وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أي مطيقين. وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب:

لقد علم القبائل ما عُقيلٌ * لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر:

ركبتم صَعْبَتي أشَرًا وحَيْفًا * ولستم للصّعاب بمقرنينا

والمُقْرِن أيضا: الذي غلبته ضَيعته؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها، أو يكون يسقي إبله ولا ذائد له يذودها. قال ابن السِّكِّيت: وفي أصله قولان: أحدهما — أنه مأخوذ من الإقران؛ يقال: أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه جعله

(١) أي أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين. (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٢

Marfat.com

فى قرن — وهو الحبل — فأوثقه به وشدّه . والثانى — أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامسـة — علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ؛ وهى قوله تعالى : « وقال ٱركَبُوا فِيهـا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها ومُرْساها إنّ رَبِّى لغفـورٌ رحِيمٌ »[1] فكم من راكب دابة عثرت به أو شَمَسَت أو تَقَحّمت[2] أو طاح من ظهرها فهلك[3] . وكم من راكبين فى سفينة آنكسرت بهم فغـرقوا . فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور وآتصالا بأسباب من أسـباب التلف أمر ألا ينسى عنـد آتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقـاء الله بإصلاحه من نفسه . والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سـفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنا له مُقْـرِنين » وكان فيهم رجل على ناقة له رازم[4] — وهى التى لا تتحـرك هزالا — فقال : أمّا أنا فإنى لهذه لمقرِن، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إنى لمقرن له فركضت به القعود[5] حـتى صرعته فآندقّت عنقه . ذكر الأول الماوردى والثانى آبن العـربى . قال : وما ينبغى لعبد أن يدع قول هـذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقول متى ركب وخاصة فى السفر إذا تذكر : « سبحانَ الذى سخّر لَنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين. وإنّا إلى رَبّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمـال، اللهم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقلَب، والحَوْر بعد الكوْر، وسوء المنظر فى الأهل والمـال . يعنى بـ « الحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعـد آجتماعه . وقال عمرو بن دينار : ركبت مع أبى جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة، فركب

(١) آية ٤١ سورة هود . (٢) تقحم الفرس براكبه ألقاه على وجهه . (٣) فى الأصول : «فهلكت» . (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه : «الرازم من الإبل : الثابت على الأرض الذى لا يقوم من الهزال . وقد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوما ورُزاما قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك فهى رازم . قاله الجوهرى فى الصحاح» . (٥) هذه عبارة ابن العربى والأصول ؛ ويلاحظ أن القعود مذكر .

Marfat.com

على جمل صَعْب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا آسم الله كما أمركم ثم آمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله" . وقال عليّ بن ربيعة : شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله في الركاب قال : باسم الله ، فلما آستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذي سخّر لنا هـذا وما كنا له مُقْرِنِين . وإنا إلى ربنا لَمُنْقَلِبُونَ » ثم قال : الحمد لله والله أكبر — ثلاثا — اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعتُ ، وقال كما قلت ، ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : "العبد — أو قال — عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاْغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره" . خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد في أحكامه . وذكر الثعلبيّ نحوه مختصرا عن عليّ رضي الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله في الركاب قال : "باسم الله — فإذا استوى قال — الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين" . وروى آبن أبي نَجيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » قال له الشيطان تَغَنّه ، فإن لم يحسن قال له تمنّه ؛ ذكره النحاس . ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوْا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم[(1)] وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . الزّمَخْشَريّ : ولقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يَصْحُ إلا بعد ما آطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية ! ؟

(١) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ؛ يريد بذلك تحسين اسمها .

Marfat.com

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا له مِن عِبادِهِ جُزْءًا ﴾ أى عِدلًا ؛ عن قتادة . يعنى ما عبد من دون الله عز وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات؛ عجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكا أو ولدا، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص . قال الماوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات؛ قال الشاعر :

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوما فلا عجبٌ * قدتجزئ الحُرَّةُ المِذكار أحيانا

الزمخشرى : ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وآدّعاء أن الجزء فى لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتا، وبيتا :

* إن أجزأت حرة يوما فلا عجب *

* زُوِّجتُها من بنات الأوس مُجْزِئة (١) *

وإنما قوله « وَجعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » متصل بقوله « ولئن سَألتَهمْ » أى ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِن عِبادِهِ جُزْءًا » أن قالوا الملائكة بنات الله؛ فجعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءا له . وقرئ « جزُؤا » بضمتين . ﴿ إنّ الإنسانَ ﴾ يعنى الكافر . ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب وينسى النعم . « مُبِينٌ » مظهر الكفر .

(١) وتمامه كما فى اللسان مادة جزأ : * للعوسج اللدن فى أبياتها زجل *

Marfat.com

قوله تعالى : أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ الميم صلة؛ تقديره أتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . ﴿ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أى اختصكم وأخلصكم بالبنين؛ يقال : أصفيته بكذا؛ أى آثرته به . وأصفيته الودّ أخلصته له . وصافيته وتصافينا تخالصنا . عجب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ؛ وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ »(١) .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أى بأنه ولدت له بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أى صار وجهه ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ قيل ببطلان مثله الذى ضرب به. وقيل : بما بُشّر به من الأنثى؛ دليله فى سورة النحل « و إذا بُشِّرَ أحدُهم بِالأنثى »(٢) . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم وآربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت :

ما لأبى حمزة(٣) لا يأتينا * يظلّ فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا * وإنما نأخذ ما أعطينا .

وقرئ « مسودٌ ، ومسوادٌ » . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه اسم «ظل» و « مسودا » خبر « ظل » . ويجوز أن يكون فى « ظل » ضمير عائد على أحد وهو اسمها ، و « وجهه »

---

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) فى رواية «حمزة» بالجيم. وفى بلوغ الأرب للآلوسى : « لأبى الذلفاء » .

Marfat.com

بدل من الضمير . و « مسودا » خبر «ظل» . ويجوز أن يكون رفع « وجهه » بالابتداء، ويرفع « مسودا » على أنه خبره،وفى «ظل» آسمها والجملة خبرها . ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى حزين؛ قاله قتادة . وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبى حاتم ؛ وذلك لفساد مثله و بطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى فى « النحل » فى معنى هذه الآية ما فيه كفاية(١) .

قوله تعالى : أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ﴾ أى يُرَبَّى ويَشِبّ . والنُّشوء : التربية؛ يقال : نشأت فى بنى فلان نَشْئًا ونشوءا إذا شَبَبْت فيهم . ونُشِّئ وأنشِئ بمعنًى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمزة والكسائى وخَلَف « يُنَشَّأ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أى يربى ويكبر فى الحلية . وآختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقون « يَنْشأ » بفتح الياء و إسكان النون ، وآختاره أبو حاتم ؛ أى يرسخ وينبت ؛ وأصله من نشأ أى ارتفع ؛ قاله الهَرَوِى . فـ«يُنَشّأ» متعد، و «ينشأ» لازم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ أى فى الزينة . قال ابن عباس وغيره : هنّ الجوارى زِيُّهن غير زِىّ الرجال. قال مجاهد: رُخِّص للنساء فى الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية. قال الكيا: فيه دلالة على إباحة الحُلِيّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٦

Marfat.com

قلت — روى عن أبى هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياك والتحلّى بالذهب ! فإنى أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى فى المجادلة والإدلاء بالحجة . قال قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها . وفى مصحف عبد الله « وهو فى الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أيضاف إلى الله من هذا وصفه ! أى لا يجوز ذلك . وقيل : المنشأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب وفضة وحلّوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وهو فى الخصام غير مبين » على هذا القول : أى ساكت عن الجواب . و « مَن » فى محل نصب ؛ أى اتخذوا لله من ينشأ فى الحلية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر؛ قاله الفرّاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أول الكلام وهو قوله « بما ضَرَب » ، أو على « ما » فى قوله « مما يخلق بنات » . وكون البدل فى هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ قرأ الكوفيون « عباد » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم فى قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عُبّاد الرحمن » ، فقال سعيد بن جبير : إن فى مصحفى « عبد الرحمن » فقال : امحها واكتبها « عباد الرحمن » . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « بل عِبادٌ مُكْرَمُونَ »(١) . وقوله تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ »(٢) . وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »(٣) . وقرأ الباقون « عند الرحمن » بنون ساكنة ، واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »(٤) وقوله « وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ »(٥) . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠٢ سورة الكهف . (٣) آية ١٩٤ سوه الأعراف .
(٤) آخر سورة الأعراف . (٥) آية ١٩ سورة الأنبياء .

Marfat.com

فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ؛ ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله . وذكر العباد مدح لهم ؛ أى كيف عبدوا من هو فى نهاية العبادة ، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل . والجعل هنا بمعنى القول والحكم ؛ تقول : جعلت زيدا أعلم الناس ؛ أى حكمت له بذلك . ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث . وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألهم وقال : "فما يدريكم أنهم إناث" ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم إناث ، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أى يسئلون عنها فى الآخرة . وقرأ نافع « أَؤُشْهِدوا »(١) بهمزة آستفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة ، ولا يمدّ سوى ماروى المسيّبي عنه أنه يمدّ . وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقّق الهمزتين . والباقون « أشهدوا » بهمزة واحدة للاستفهام . وروى عن الزهرى « أُشهِدوا خَلْقَهُمْ » على الخبر، «ستكتب» قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول « شهادتهم » رفعا . وقرأ السُّلمي وآبن السَّمَيْقع وهُبيرة عن حفص « سنكتب » بنون ، « شهادتهم » نصبا بتسمية الفاعل . وعن أبى رجاء « ستكتب شهاداتهم » بالجمع .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعنى قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ماعبدنا هذه الملائكة . وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شيء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ماحصل منهم . وقد مضى هذا المعنى فى الأنعام عند قوله «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»(٢) وفى يس : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ »(٣) . وقوله ﴿ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويرا للنطق . (٢) راجع ج ٧ ص ١٢٨ (٣) راجع ج ١٥ ص ٣٧

Marfat.com

قوله « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا » أى مالهم بقولهم : الملائكة بنات الله؛ من علم ؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جريج : يعنى الأوثان ؛ أى مالهم بعبادة الأوثان من علم . « مِن » صلة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يَحْدِسون ويكذبون ؛ فلا عذر لهم فى عبادة غير الله عز وجل . وكان فى ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضى ذلك منا، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

هذا معادل لقوله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله ؛ أى من قبل القرآن بما آدعوه؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أى على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بن عبد العزيز. وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة « على إِمَّةٍ » بكسر الألف . والأمة الطريقة . وقال الجوهرى : والإمة (بالكسر) : النعمة . والإمة أيضا لغة فى الأُمّة، وهى الطريقة والدّين؛ عن أبى عبيدة . قال عَدِىّ بن زيد فى النعمة :

ثم بعد الفَلاح والمُلْكِ والإمّـة وارتْهُمُ هناك القبور

عن غير الجوهرى . وقال قتادة وعطية : « على أمة » على دِين؛ ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

كنا على أمة آبائنا * ويقتدى الآخر بالأوّل

Marfat.com

قال الجوهري : والأمّة الطريقة والدِّين، يقال : فلان لا أمة له ؛ أى لا دين له ولا نِحْلة .
قال الشاعر :

* وهل يستوى ذو أمّة وكَفُورُ *

وقال مجاهد وقطرب : على دِين على ملة . وفى بعض المصاحف « قالوا إنا وجدنا آباءنا على مِلة » وهذه الأقوال متقارِبة . وحكى عن الفرّاء على ملة على قِبْلة . الأخفش : على استقامة ، وأنشد قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبةً * وهل يأثَمَنْ ذو أُمة وهو طائع

الثانيــة — ﴿وَ إنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى نهتدى بهم . وفى الآية الأخرى « مقتدون » أى نقتدى بهم ؛ والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفى هـذا دليل على إبطال التقليد ؛ لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة » مستوفًى[(١)] . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش ؛ أى وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضا . يُعزّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ[(٢)] » . والمترَف : المنعَّم ؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعالى : قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى ﴾ أى قل يا محمد لقومك : أو ليس قد جئتكم من عند الله بأهدى ؛ يريد بأرشد . ﴿ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ يعنى بكل ما أرسل به الرسل . فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه . وقرئ « قل وقال وجئتكم وجئناكم » يعنى أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى . وقد مضى فى « البقرة » القول فى التقليد وذمه فلا معنى لإعادته[(١)] .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١١ فما بعدها ، طبعة ثانية . (٢) آية ٤٣ سورة فصلت .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل . [وقراءة العامة «قل أولو جئتكم» (١) . وقرأ ابن عامر وحفص «قال أوَ لَوْ» على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر «قل أو لو جئنا كم» بنون وألف ، على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أى ذكرهم إذ قال . ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنّى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون ؛ لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء . قال الجوهري : وتبرّأت من كذا ، وأنا منه بَراء ، وخَلاء منه ، لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر في الأصل ؛ مثل : سَمِع سَماعاً . فاذا قلت : أنا بريء منه وخَلِيّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت ، وقلت في الجمع : نحن منه بُرآء مثل فقيه وفقهاء ، وبِراء أيضا مثل كريم وكِرام ، وأبراء مثل شريف وأشراف ، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، وبريئون . وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات وبرايا . ورجل بريء وبُراء مثل عجيب وعُجاب . والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر ، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس . ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم . قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا ، مع عبادة الأوثان . ويجوز أن يكون منقطعا ؛ أى لكن الذى فطرنى فهو يهدين . قال ذلك ثقةً بالله وتنبيها لقومه إن الهداية من ربه .

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾

---

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة .

Marfat.com

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير فى « جعلها » عائد على قوله « إلا الذى فطرنى » . وضمير الفاعل فى «جعلها» لله عز وجل؛ أى وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية فى عقبه، وهم ولده و ولد ولده ؛ أى إنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضا فى ذلك . والعقب من يأتى بعده . وقال السدى : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله « فى عقبه » أى فى خلفه . وفى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية فى عقبه . أى قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله . قال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله . عكرمة : الإسلام؛ لقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »(١) . القرظى : وجعل وصية إبراهيم التى وصى بها بنيه وهو قوله «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ» — الآية المذكورة فى البقرة(٢) — كلمة باقية فى ذريته وبنيه . وقال ابن زيد : الكلمة قوله « أسلمت لرب العالمين » وقرأ « هو سماكم المسلمين من قبل » . وقيل : الكلمة النبوّة . قال ابن العربى : ولم تزل النبوّة باقية فى ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانية — قال ابن العربى : إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين ؛ إحداهما فى قوله « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ »(٣) فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد . ثانيهما قوله « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »(٤) . وقيل : بل الأولى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »(٥) فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح .

الثالثة — قال ابن العربى : جرى ذكر العقب ها هنا موصولا فى المعنى ، وذلك مما يدخل فى الأحكام وترتب عليه عقود العُمْرى(٦) والتحبيس . قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) آخر سورة الحج . (٢) آية ١٣٢ (٣) آية ١٢٤ سورة البقرة . (٤) آية ٣٥ سورة إبراهيم . (٥) آية ٨٤ سورة الشعراء . (٦) العمرى (كحبلى) : تمليك الشيء مدة العمر.

Marfat.com

" أيّمـا رَجُلٍ أُعْمِرَ عُمْرَى له ولعقبه فإنها للذى أعطيها لا ترجـع إلى الذى أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " . وهى تَرِد على أحد عشر لفظا :

اللفظ الأول — الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته فى الإناث والذكور . وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعا ؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا فى الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك فى المجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك و جميع أصحابه المتقدمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعـالى « يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أولادِكم »[(1)] . وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون فى الأحباس؛ يقول المحبِس : حبست على ولدى أو على عقِبى . وهـذا اختيار أبى عمر بن عبد البر وغيره؛ واحتجوا بقول الله جل وعز : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ»[(2)] . قالوا : فلما حَرّم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنهـا بنت ووجب أن تدخل فى حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام »[(3)] مستوفًى .

اللفظ الثانى — البنون؛ فإن قال : هذا حبس على ابنى؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد. ولو قال ولدى، لتعدّى وتعدّد فى كل من ولد. و إن قال على بنىّ، دخل فيه الذكور والإناث. قال مالك من تصدّق على بنيـه و بنى بنيه فإن بناته و بنات بناته يدخلن فى ذلك . روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن فى ذلك مع بنات صلبه . والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون فى البنين . فإن قيل فقد قال النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى الحسن ابن ابنته : " إن ابنى هـذا سيّدٌ واعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . قلنا : هذا مجاز، وإنمـا أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل فى ولد بنته ليس بابنى ؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ؛

---

(1) آية ١١ سورة النساء . (2) آية ٢٣ سورة النساء . (3) راجع جـ ٧ ص ٣١

Marfat.com

لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها[1]. ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيـه دون أمه ؛ ولذلك قيل فى عبد الله بن عباس : إنه هاشمى وليس بهلالى و إن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة فى اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهـل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعـالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » . وقال تعالى « ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسليمان — الى قوله — مِن الصالحين»[2] فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدّم بيانه هناك . فان قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنـو أبنائنا ، وبناتنـا * بنوهن أبنـاء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه فى الموارثة والنسب ، و إن ولد بناته ليس لهم حكم بناته فى ذلك ؛ اذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم فى التسميه ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل فى ولده ليس هو بابنى إذ لا يطيعنى ولا يرى لى حقا ، ولا يريد بذلك نفى اسم الولد عنه و إنما يريد أن ينفى عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ اذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن فى اللسان العربى ابنا ، ولا يسمى ولد الابنة ابنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التى اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى ، لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، و ولد الابن انما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة . ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده فى اللسان ، وانما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا فى «الأنعام»[2] والحمد لله .

اللفظ الثالث — الذرية ؛ وهى مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله « ومن ذُرِّيَّته داود وسليمان — الى أن قال — وزكريا ويحيى وعيسى » . و إنمـا كان من ذريته من قبـل أمه . وقد مضى فى « البقرة »[3] اشتقاق الذرية وفى « الأنعام » الكلام على « ومن ذريته » الآية ؛ فلا معنى للاعادة .

(١) فى نسخة من الأصل : « مشبهاتها » . وفى ابن العربى « مسمياتها » .
(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٣١ .   (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طابعة ثانية .

Marfat.com

اللفظ الرابع — العقب، وهو فى اللغة عبارة عن شيء بعـد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال : أعقب الله بخير، أي جاء بعد الشدّة بالرخاء . وأعقب الشيبُ السواد . وعَقَب يَعقُب عقوبا وعَقْبًا اذا جاء شيئا بعد شيء؛ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبه . والمِعْقاب من النساء : التي تلد ذكرا بعـد أنثى، هكذا أبدا . وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده . والعاقبة الولد؛ قال يعقوب : فى القرآن «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فى عَقِبِه» . وقيل : بل الورثة كلهم عَقِب . والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا . وقال ابن زيد : هاهنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد و ولد الولد . وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدى . وفى الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القـدم وهي مؤنّثـة . وعقب الرجل أيضا ولده وولد ولده . وفيـه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهى أيضا مؤنثة، عن الأخفش . وعَقَب فـلان مكان أبيه عاقبة أى خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى « لَيسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »(١) . ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعنى . واختلف فى الذرّية والنسل فقيل إنهما بمـنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيـل : إنهم يدخلون فيهما . وقد مضى الكلام فى الذرية هنا وفى « الأنعام »(٢) .

اللفظ الخامس . نسلى ؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدى و ولد ولدى؛ فانه يدخل فيـه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجه، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقِبي ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيـه ولد البنات ؛ إلا أن يقول المحبس نسلي ونسل نسلي، كما اذا قال عقبي وعقب عقبي . وأما اذا قال ولدى أو عقبي مفردا فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس — الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم : هما سواء، وهم العَصبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الخالات . وأصل أهـل الاجتماعُ ،

(١) آية ٢ سورة الواقعة .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣١ .

Marfat.com

يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومن دخل فى القُعْدُد[1] من النساء، والعصبة مشتقة منه وهى أخص به . وفى حديث الإفك : يا رسول الله ، أَهلُكَ ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعنى عائشة . ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها ويحل بالطلاق . وقد قال مالك : آل محمد كلُّ تقى ؛ وليس من هذا الباب . وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسى : يدخل فى الأهل كل من كان من جهة الأبوين؛ فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعانى إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ؛ فهذان لفظان .

اللفظ الثامن — قرابة ؛ فيه أربعة أقوال : الأول — قال مالك فى كتاب محمد وابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات . الثانى — يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه؛ قاله علىّ بن زياد . الثالث — قال أشهب : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء . الرابع — قال ابن كنانة : يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت . وقد قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى[2] » قال : إلا أن تصلوا قرابة ما بينى وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التاسع — العشيرة؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما أنزل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[3] » دعا النبى صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم — كما تقدّم ذكره — وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشيرة فى الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد، كما تقدّم من قول علمائنا .

(١) فى الأصول : « ومن دخل فى العقد » . وفى ابن العربى : « ومن دخل فى العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استئناسا بما فى شرح الباجى على الموطأ ؛ وعبارته : « ... ولا يدخل فى ذلك الخالات . ومعنى ذلك عندى العصبة أو من كان فى تعددهن من النساء » . والقعدد (بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه وفتحه) : القربى .

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى . (٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع جـ ١٣ ص ١٤٣

Marfat.com

اللفظ العاشر — القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء، وإن كان الشاعر قد قال :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حِصْن أم نساء

ولكنه أراد أن الرجل إذا دعا قومه للنصرة عنى الرجال ، وإذا دعاهم للحُرْمة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصّصه القرينة .

اللفظ الحادى عشر — الموالى؛ قال مالك : يدخل فيه موالى أبيه وابنه مع مواليه . وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربى : والذى يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة المبيّنة له ؛ والتفريع والتتميم فى كتاب المسائل، والله أعلم .

قوله تعالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ
عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقرئ « بل متعنا » . ﴿ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا بالإمهال . ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أى محمد صلى الله عليه وسلم بالتوحيد والإسلام الذى هو أصل دين إبراهيم . وهو الكلمة التى بقّاها الله فى عقبه . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أى يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة . ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا هَٰذَا … إنا به كافرون ﴾ جاحدون . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أى هلّا نزل ﴿ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾

Marfat.com

وقـرئ « على رجْل » بسكون الجيـم . ﴿ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : « يَخْـرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أى من أحدهما . أو على أحد رجلين من القريتين . القريتان : مكة والطائف . والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبى جهل . والذى من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى ؛ قاله قتـادة. وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد . وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى . وقال السدى : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة — وكان يسمى ريحانة قريش — كان يقول : لو كان مايقوله محمد حقا لنزل علىّ أو على أبى مسعود ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوة فيضعونها حيث شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهـم فكيف يفوّض أمر النبوّة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القـوة قليل الحيلة عيّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شـديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصن فى رواية عنه « معايشهم » . وقيل : أى نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علىّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأى فضل وقدر لهما . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فاضلنا بينهم ؛ فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل . وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغـنى والفقر ؛ فبعضهم غنى وبعضهم فقـير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قال السدى وابن زيد : خوَلًا وخدّاما ، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك : يعنى ليملك بعضهم بعضا . وقيل : هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء ؛ أى ليستهزئ الغنى بالفقير . قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وبه ؛ كلٌّ يقال ، والاسم السُّخرِية (بالضم) . والسُّخْرِىّ والسِّخْرِى (بالضم والكسر) . وكل الناس ضمّوا « سخريا » إلا ابن مُحَيْصن ومجاهد فإنهما قرأا « سِخريا » . ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أى أفضل مما يجمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوة، وقيل الجنة . وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودَرَجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب؛ فيحمل ذلك على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ماوصفناه؛ لهوان الدنيا عند الله عز وجل . وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدى وغيرهم . وقال ابن زيد : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » فى طلب الدنيا واختيارها على الآخرة « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » . وقال الكسائى : المعنى لولا أن يكون فى الكفار غنىٌّ وفقير وفى المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانية — قرأ ابن كثير وأبو عمرو « سَقْفًا » بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع؛ اعتبارا بقوله تعالى «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع؛ مثل رَهْن ورُهُن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما . وقيل : هو جمع سقيف؛ مثل كَثيب وكُثب، ورَغيف ورُغُف؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سُقوف؛ فيصير جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف، نحو فَلْس وفُلُوس . ثم جعلوا فُعُولا كأنه اسم واحد فجمعوه على فُعُل . وروى عن مجاهد « سَقْفًا » بإسكان القاف . وقيل : اللام فى « لبيوتهم » بمعنى على؛ أى، على بيوتهم . وقيل : بدل؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته؛ قال الله تعالى « وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » كذلك قال هنا « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ » .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ يعنى الدَّرَج ؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور. واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليلة المعراج . والجمع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتان . « ومعاريج » قرأ أبو رجاء العُطَارِدِى وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهي المراق والسلاليم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى على المعارج يرتقون و يصعدون؛ يقال : ظهرت على البيت أى علوت سطحه . وهذا لأن من علا شيئا وآرتفع عليه ظهر للناظرين . و يقال : ظهرت على الشيء أى علمته . وظهرت على العدوّ أى غلبته . وأنشد نابغة بنى جَعْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَلَوْنا السماء عِزّةً ومهابةً　＊　وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا (١)

أى مصعدا؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " إلى أين " ؟ قال إلى الجنة ؛ قال " أجل إن شاء الله " . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لاحقّ فيه لرب العُلُو؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله. قال ابن العربى : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف و باب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العلو له الى السماء . واختلفوا فى السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهم من قال ليس له فى باطن الأرض شيء . وفى مذهبنا القولان . وقد بيّن حديث الاسرائيلى الصحيح فيما تقدّم: أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جَرّة من ذهب، فجاء بها الى البائع فقال : إنما اشتريت الدار دون الجرّة؛ وقال البائع : إنما بعت الدار بما فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يزوّج أحدهما ولده من بنت

(١) رواية البيت كما فى كتاب الأغانى ج ٥ ص ٨ طبع دار الكتب المصرية : ＊ بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ＊
وروايته كما فى جمهرة أشعار العرب : ＊ بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا ＊
وروايته كما فى اللسان مادة «ظهر» : ＊ بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ＊

Marfat.com

الآخر ويكون المال لهما . والصحيح أن العُلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع؛ فاذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للمبتاع منه .

الخامسة — من أحكام العُلْو والسُّفل . إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه ، فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبني علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو ؛ لئلّا ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبني على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذى لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب : وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبني السفل ؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبني . وروى ابن القاسم عن مالك فى السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثانى على صاحب الأوسط . وقد قيل: إن تعليق العلو الثانى على رب العلو حتى يبنى الأسفل. وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجَوْا جميعا" — أصلٌ فى هذا الباب . وهو حجة لمالك وأشهب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجَوْا جميعا " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من احداث

Marfat.com

ما لا يجوز له فى السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وقد مضى فى « الأنفال »(١) . وفيه دليل على جواز القرعة وآستعمالها ، وقد مضى فى « آل عمران »(٢) فتأمل كُلًّا فى موضعه تجده مبيِّناً ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى وجعلنا لبيوتهم . وقيل : « لبيوتهم » بدل اشتمال من قوله « لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ » . « أَبْوَابًا » أى من فضة . ﴿ وَسُرُرًا ﴾ كذلك؛ وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأسِرّة، والأسرّة جمع السرير؛ فيكون جمع الجمع . ﴿ يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا ﴾ الاتكاء والتوكّؤ : التحامل على الشيء ؛ ومنه « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » . ورجل تُكَأَة ؛ مثال هُمَزَة ؛ كثير الاتكاء . والتُّكَأة أيضا : ما يُتّكأ عليه . وآتكأ على الشيء فهو متّكِئ؛ والموضع متّكأ . وطعنه حتى أتكأه (على أفعله) أى ألقاه على هيئة المتّكِئ . وتوكّأت على العصا . وأصل التاء فى جميع ذلك واو، ففُعل به ما فُعل بآتّزن وآتّعد . ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ الزخرف هنا الذهب ؛ عن آبن عباس وغيره . نظيره : « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ »(٣) وقد تقدّم . وقال آبن زيد : هو ما يتخذه الناس فى منازلهم من الأمتعة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ؛ وأصله الزينة . يقال : زخرفت الدار؛ أى زينتها . وتزخرف فلان؛ أى تزين . وانتصب «زخرفا» على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا . وقيل : بنزع الخافض ؛ والمعنى فجعلنا لهم سُقُفًا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب؛ فلما حذف «من» قال «وزخرفا» فنصب . ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن آبن عامر « وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف؛ وقد ذُكر هذا . وروى عن أبى رجاء كسر اللام من « لمَّا »؛ ف « ما » عنده بمنزلة الذى، والعائد عليها محذوف؛ والتقدير : وإن كل ذلك للذى

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ فما بعدها. (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ فما بعدها. (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

Marfat.com

هو متاع الحياة الدنيا ، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه فى قراءة من قرأ « مَثَلًا ما بعوضةٌ فما فوقها »[1] و « تماماً على الذى أحسنُ »[2] . أبو الفتح : ينبغى أن يكون « كُلّ » على هذه القراءة منصوبة ؛ لأن « إن » مخففة من الثقيلة ، وهى إذا خففت و بطل عملها لزمتها اللام فى آخر الكلام للفرق بينها وبين « إن » النافية التى بمعنى ما ؛ نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة . ﴿ وَالآخِرةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن اتقى وخاف . وقال كعب : إنى لأجد فى بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يحزن عبدى المؤمن لكللت رأس عبدى الكافر بالإكليل، ولا يتصدّع ولا ينبض منه عرق بوجع . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء" . وفى الباب عن أبى هريرة، وقال: حديث حسن غريب. وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جــزاءً لمحسن * إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقــد جاع فيها الأنبياء كرامةً * وقــد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخــر :

تمتّع من الأيام إن كنت حازما * فإنــك فيها بين ناهٍ وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَــه * فما فاتــه منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضــة * ولا وزن زِفٍّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن * ولا رضى الدنيا عقابا لكافــر

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٢

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا . فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة «وَمَنْ يَعْشَ» بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عشًا إذا عَمِيَ . ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجــلًا غائب الوافِــدَيْـ * ـنِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضَــرِيرا[(١)]

وقــوله :

أأن رأت رجــلًا أعشَى أضَرَّ به * رَيْبُ المنـونِ ودَهْرٌ مُفْنِـدٌ خَبِـلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقـه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد :

مـتى تأتِه تَعْشُـو إلى ضَـوْء ناره * تَجِــد خيرَ نارٍ عنـدها خيرُ مُوقِـدِ[(٢)]

وقال آخــر :

لنعـم الفــتى يعشو إلى ضـوء ناره * إذا الريح هبّت والمـكان جـديب

الجَوْهَرِيّ : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان . وأعشاه الله فعشِي (بالكسر) يَعْشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا يَعْشوان؛ لأن الواو لـمـا صارت فى الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُرِكت فى التثنيـة على حالهـا . وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى . والنسبة إلى أَعْشَى أَعْشَوِيّ . والى العَشِيّة عَشَوِيّ . والعشواء : الناقــة التى لا تبصر أمامها فهى تَخْبِط بيديها كلّ شيء . وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة . وفلان خابطٌ خبطَ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا »[(٣)] أى نواصل لكم الذكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل فى الدنيا ، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قول ابن عباس .

(١) فى اللسان مادة «وفد» : « والوافدان اللذان فى شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عند المضغ ؛ فاذا هرم الانسان غاب وافداه » .   (٢) البيت للحطيئة .   (٣) آية ٥

Marfat.com

وقيل في الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرِي . وفي الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشْفع بمَلَك حتى يقضي الله بين خلقه ؛ ذكره المهدوي . وقال القشيري : والصحيح فهو له قرين في الدنيا والآخرة . وقال أبو الهيثم والأزهري : عَشَوْت إلى كذا أي قصدته . وعشوت عن كذا أي أعرضت عنه ، فتفرق بين «إلى» و «عن» ، مثل : مِلْتُ إليه ، ومِلْتُ عنه . وكذا قال قتادة : يَعْشُ ، يُعْرِض ، وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف في اللغة . وقال القُرَظي : يولّي ظهره ؛ والمعنى واحد . وقال أبو عبيدة والأخفش : تُظْلِم عينُه . وأنكر العُتْبيّ عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت . والقول قول أبي الهيثم والأزهري . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السُّلَميّ وابن أبي إسحاق ويعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش «يقيّض» (بالياء) لذكر «الرحمن» أوّلا ؛ أي يقيّض له الرحمن شيطانا . الباقون بالنون . وعن ابن عباس « يُقَيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فهو له قَرِينٌ » أي ملازم ومصاحب . قيل : «فهو» كناية عن الشيطان ؛ على ما تقدّم . وقيل : عن الإعراض عن القرآن ؛ أي هو قرين للشيطان[(1)] . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي وإن الشيطان ليصدونهم عن سبيل الهدى ؛ وذُكر بلفظ الجمع لأن « مَن » في قوله « ومن يعش » في معنى الجمع . ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي ويحسب الكفار ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ؛ يعني الكافر يوم القيامة . الباقون « جاءانا » على التثنية ، يعني الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة ، فيقول الكافر ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »[(2)] ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعا ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقّت مآقيهما من أُخُرْ[(3)]

---

(1) في الأصول : «عن التعرض» . (2) آية ١٧ سورة الرحمن . (3) البيت لامرئ القيس : وحدرة : مكتنزة صلبة ، وقيل الواسعة الجاحظة . وبدرة : تبدر بالنظر ، وقيل تامة كالبدر .

Marfat.com

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْـدَ مَشْرِقِ أطـول يوم فى السنة إلى مَشْرِق أقصر يوم فى السنة ، ولذلك قال « بُعْدَ المشرقين » . وقال الفـراء : أراد المشرق والمغرب فغَلَّب آسم أحدهما، كما يقال : القمران للشمس والقمر، والعُمَران لأبى بكر وعمر، والبصرتان للكوفـة والبصرة، والعصران للغداة والعصر . وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجَرِير :

ما كان يرضى رسـول الله فعلهم * والعُمَران أبو بكر ولا عمـر

وأنشد سيبو يه :

* قَدْنِىَ من نَصْر الخُبَيْبَيْن قَدِى *

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير ، وإنمـا أبو خبيب عبد الله . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى فبئس الصاحب أنت؛ لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخُدْرِىّ : إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعـالى : وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ « إذ » بدل من اليوم ؛ أى يقـول الله للكافر لن ينفعكم اليـوم إذ أشركتم فى الدنيا هـذا الكلام ؛ وهو قول الكافر « يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » أى لا تنفع الندامة اليوم . «إنكم» بالكسر ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنـه . الباقون بالفتح . وهى فى موضـع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّى كما يتأسّى أهل المصائب فى الدنيا، وذلك أن التأسّى يستروِحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى فى البلاء والمصيبة أسـوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فـلولا كثرة الباكين حـولى * على إخوانهـم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن * أعزّى النفس عنـه بالتأسّى

Marfat.com

فإذا كان فى الآخرة لم ينفعهم التأسّى شيئا لشغلهم بالعذاب . وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قُرَناءكم وأنتم فى العذابِ مشترِكون كما اشتركتم فى الكفر .

قوله تعالى : أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَنْ كَانَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان فى القلب خَلْقُ الله تعالى ، يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء .

قوله تعالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش . ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقام منهم فى حياتك . ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفتن . و « نَذْهَبَنَّ بك » على هذا نتوفينّك . وقد كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يُرِه فى أمته إلا التى تَقَرّ به عينه وأبقى النقمة بعده، وليس من نبيّ إلا وقد أُرِى النّقمة فى أمته . و روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُرِى ما لقيت أمته من بعده، فما زال منقبضا، ما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل . وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطًا وسَلَفا . و إذا أراد الله بأمة عذابا عذّبها ونبيُّها حيٌّ لتقرّ عينه لما كذّبوه وعصَوْا أمره" .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْـكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب؛ فـ ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابه . ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعنى القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ (١)» أى شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم ؛ لأن أهل كل لغـة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذى عنى به من الأمر والنهى وجميع ما فيه من الأنباء ، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمّى عربيًّا . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : « وإنه لذكر لك ولقومك » يعنى الخلافة فإنهـا فى قريش لا تكون فى غيرهم ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الناس تَبَعٌ لقريش فى هذا الشأن مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" . وقال مالك : هو قول الرجل حدّثنى أبى عن أبيه، حكاه ٱبن أبى سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر المـاوردىّ والثعلبىّ وغيرهما . قال ابن العربى : ولم أجد فى الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بنى التميمى بها يقولون : حدّثنى أبى قال حدّثنى أبى، إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم، وعظّم الناس شأنهـم، وتهمّمت الخلافة بهـم . ورأيت بمدينة السلام ٱبنى أبى محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبى الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أُكَيْنة بن عبـد الله التميمى وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقـول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت علىّ بن أبى طالب

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء .

Marfat.com

يقول وقد سئل عن الحنّان المنّان فقال : الحنان الذى يُقبل على من أعرض عنـه ، والمنّان الذى يبـدأ بالنوال قبل السؤال . والقائل سمعت عليًا : أ كَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله « و إنه لذِكْرٌ لك ولقومك » يعنى القرآن ؛ فعليه انبنى الكلام و إليه يرجع المصير، والله أعلم . قال المـاوَرْدىّ : « ولقومك » فيهم قولان : أحدهما — من اتبعك من أمتك ؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن . الثانى — لقومك من قريش ؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أىّ العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد .

قلت — والصحيح أنه شرف لمن عمِل به ، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال : أقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم من سَرِيّة أو غَزاة فدعا فاطمة فقال: "يافاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لا أُغْنِي عنك من الله شيئا " وقال مثل ذلك لِنسْوته ، وقال مثل ذلك لعِترته ، . ثم قال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم: " ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا قريش بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الموالى بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقـون . إنمـا أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجُمام(1) الصاع ليس لأحد على أحد فضـل إلا بالتقوى". وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجِعلان التى تدفع النَّتْن بأنفها كلّكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنـكم عَيْبة الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقىٌّ وفاجر شـقى . حهما الطبرى . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى الحُجُرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ سـ ونَ ﴾ أى عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفرّاء . وقال ابن جُريج : أى تسألون أنت و.ن سئت على ما أتاك . وقيل تسألون عما عملتم فيه ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(1) الجمام (بالتثليث) : ما علا رأس المكيال من الطفاف .

Marfat.com

قال ابن عبـاس وابن زيد : لمـا أسرى برسول الله صـلى الله عليه وسـلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — وهو مسجد بيت المقدس — بعث الله له آدم ومَن وُلد من المرسلين، وجبريل مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فأذّن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدّم فصل بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسـلم : " سـل يا محمد من أرسلنا مِن قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا أسأل قد اكتفيت ". قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّـا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم . فى غير رواية ابن عباس : فصلّوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل (١) قام فقال : "إن ربّى أوحى إلىّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله " ؟ فقالوا : يا محمد، إنا نشهد. إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبـدون من دونه باطل و إنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبىّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى بن مريم فإنه مأمور أن يتبّع أثرك" . وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى « وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال : لِقِيَ الرّسلَ ليلة أسرى به . وقال الوليد بن مسلم فى قوله تعالى «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قال: سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثنى عن قتادة قال سألهم ليلة أسرى به، لقى الأنبياء ولقى آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح فى تفسير هذه الآية . و « مِن » التى قبل « رسلنا » على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجمـاعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا. وروى أن فى قراءة ابن مسعود « واسأل الذى أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» .

---

(١) انفتل عن الصلاة : اذا انصرف عنها .

Marfat.com

وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ«ـمن » على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسُّدّى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وآبن عباس أيضا. أى واسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل : المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت « عن » ، والوقف على « رسلنا » على هــذا تام ، ثم ابتــدأ بالاستفهام على طريق الإنكار . وقيل : المعنى واسأل تُبّاع من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهــة كما أخبر عمن يعقل فقال « يعبدون » ولم يقــل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلهــة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل .

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهــة التوقيف والتقرير ؛ لا لأنه كان فى شك منه . وآختلف أهل التأويل فى سؤال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم على قولين : أحدهما — أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدى . الثانى — أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل؛ حتى حكى آبن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشد إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك" . وقد تقدّم هذا المعنى فى الروايتين حسبما ذكرناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ لمّـا أعلم النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوه، وأقام الحجـة بآستشهاد الأنبيـاء وآتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصـة موسى وفرعون ، وما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به و بقومه من الإغراق والتكذيب ؛ أى أرسلنا موسى بالمعجزات وهى التسع الآيات فكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت . ومعنى ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحـر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها . وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى كانت آيات موسى من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها . وقيل: « إلا هى أكبر من أختهـا » لأن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح . ومعنى الأُخُوة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أى هما قريبتان فى المعنى . ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أى على تكذيبهم بتلك الآيات؛ وهوكقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ »(١) . والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع . وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآياتٍ لموسى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم . ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَـا السَّاحِرُ ﴾ لمـا عاينوا العذاب قالوا يأيها الساحر ؛ نادَوْهُ بمـا كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل: كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : « يأيها الساحر » يأيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيما يوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم . وقيل : يأيها الذى غَلَبَنَا بسحره ، يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبتـه بالسحر ؛ كقول العـرب : خاصمته فخصمته أى غلبتـه بالخصومة ، وفاضلته ففضلته؛ ونحوها . ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معـنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا . وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب « أيُّهُ الساحر» بغير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذى أوجبه النداء المفرد . وأنشد الفرّاء :

يأيُّهُ القلبُ اللَّجُـوجُ النفس * أفق عن البيض الحسانِ اللُّعْسِ

(١) آية ١٣٠ سورة الأعراف .

Marfat.com

فضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى فى «النور»(١) معنى هذا . ووقف أبو عمرو وآبن أبى إسحاق ويحيى والكسائى « أيها » بالألف على الأصل . الباقون بغير ألف ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أى بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى فيما يستقبل . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ أى فدعا فكشفنا . ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا . وقيل : قولهم « إننا لمهتدون » إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدّوا .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ؛ فنادى بمعنى قال ؛ قاله أبو مالك . فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه فى جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم . وقيل: إنه أمر من ينادى فى قومه؛ قاله آبن جريج . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أى لا ينازعنى فيه أحد . قيل : إنه ملك منها أربعين فرسخا فى مثلها؛ حكاه النقاش . وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية . ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ يعنى أنهار النيل، ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنّيس(٢) . قال قتادة : كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره . وقيل: من تحت سريره . وقيل: «من تحتى» أى تصرّفى نافذ فيها من غير صانع . وقيل: كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجرى . قال القُشَيْرى: ويجوز ظهور خوارق العادة على مدّعى الرُّبوبية؛ إذ لا حاجة فى تمييز الإله من غير الإله إلى فعل خارق للعادة . وقيل : معنى « وهذه الأنهار تجرى من تحتى » أى القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الضحاك . وقيل : أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . وقوله « تجرى من تحتى » أى أفرّقها على من يتبعنى ؛ لأن الترغيب والقدرة فى الأموال دون

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨

(٢) فى كتاب روح المعانى للألوسى : « والأنهار : الخلجان التى تخرج من النيل المبارك ؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ، ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك ، لكنه اندرس فجدده أحمد بن طولون ملك مصر فى الاسلام » .

Marfat.com

الأنهار . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتى وقوتى وضَعْف موسى . وقيـل قدرتى على نفقتكم وعجز موسى . والواو فى « وهذه » يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على « مُلك مِصر » و «تجرى» نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، وآسم الإشارة مبتدأ ، و « الأنهـار » صفة لاسم الإشارة ، و « تجرى » خبر للبتدأ . وفتحَ الياء من « تحتىَ » أهل المدينة والبَزّى وأبو عمرو، وأسكن الباقون . وعن الرشـيد أنه لمـا قرأها قال : لأوَلِّيَنّها أحسن عبيدى ، فولّاها الخَصيبَ، وكان على وضوئه.وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التى آفتخربها فرعون حتى قال «أليس لى ملك مصر»؟! والله لهى عنـدى أقلّ من أن أدخلها! فثنى عِنانه . ثم صرّح بحاله فقال ﴿ أم أنَا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدِّى : «أم» بمعنى «بل» وليست بحرف عطف، على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أى لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه فى حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعنى ما كان فى لسانه من العقـدة ، على ما تقدّم فى « طـه »(١) . وقال الفراء : فى « أم » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله «أليس لى ملك مصر». وقيل : هى زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أم » زائدة، والمعنى أنا خير من هـذا الذى هو مهين . وقال الأخفش : فى الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون، كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ * و بين النَّقا آأنتِ أمْ أمّ سالِم (٢)

أى أنت أحسن أمْ أمّ سالم . ثم آبتـدأ فقال أنا خير . وقال الخليـل وسيبو يه : المعنى أفلا تبصرون، أم أنتم بصراء، فعطف بـ « أم » على «أفلا تبصرون» لأن معنى «أم أنا خير» أى أم تبصرون، وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء . وروى عن عيسى

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ .

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعساء : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

Marfat.com

الثقفي و يعقوب الحضرمي أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون، فحذف تبصرون الثاني . وقيل : من وقف على « أم » جعلها زائدة، وكأنه وقف على « تبصرون » من قوله « أفلا تبصرون » . ولا يتم الكلام على « تبصرون » عند الخليل وسيبويه ؛ لأن « أم » تقتضي الاتصال بما قبلها . وقال قوم : الوقف على قوله « أفلا تبصرون » ثم ابتدأ « أم أنا خير » بمعنى بل أنا خير ؛ وأنشد الفرّاء :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى * وصورتها أم أنت في العين أملح

فمعناه : بل أنتِ أملح . وذكر الفرّاء أن بعض القراء قرأ « أمَا أنا خير » ؛ ومعنى هذا ألست خيرا . وروى عن مجاهد أنه وقف على « أم » ثم يبتدئ « أنا خير » وقد ذُكر .

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا﴾ أي هلّا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزيّ أهل الشرف . وقرأ حفص « أسْوِرة » جمع سِوار، كخمار وأخمرة . وقرأ أُبيّ « أساور » جمع إسوار . وابن مسعود « أساوير » . الباقون « أساورة » جمع الأسورة ؛ فهو جمع الجمع . ويجوز أن يكون « أساورة » جمع « إسوار » وألحقت الهاء في الجمع عوضا من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه . وقال أبو عمرو ابن العلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار ، وهي لغة في سُوار . قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلا سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ! ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني متتابعين؛ في قول قتادة . مجاهد : يمشون معًا . ابن عباس : يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى : هلّا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم و يصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أهيَب في القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا

Marfat.com

كرسل الملوك فى الشاهـد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيِّدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا — فى قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — فى قول الكلبي — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف، وقد كان فى الجائز أن يُكَذَّب مع مجئ الملائكة كما كُذّب مع ظهـور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعـالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال ابن الأعرابى : المعنى فاستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلّة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أى أزعجه ، وٱستخفه أى حمـله على الجهل ؛ ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ »(١) . وقيل : استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيـل : استخفّ قـومه أى وجدهم خفاف العقول . وهـذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه، فلابدّ من إضمارٍ بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيـل : استخف قومه وقهرهم حتى ٱتبعوه ؛ يقال استخفه خلاف استثقله ، وٱستخف به أهانه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله .

قوله تعـالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا آسَـفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عبـاس : أى غاظونا وأغضبونا . وروى عنـه علىّ بن أبى طلحة : أى أسخطونا . قال الماوردى : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهـة ، والغضب إرادة الانتقام . القُشَيْرى : والأسف ها هنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قول المـاوردى .

(١) آية ٦٠ سورة الروم .

Marfat.com

وقال عمر بن ذَرّ : يأهل معاصى الله، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، وآحذروا أسفه ؛ فإنه قال « فلمّا آسَفُونا انتقمنا منهم » . وقيل : «آسفونا» أى أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ؛ نحو السحرة وبنى اسرائيل . وهو كقوله تعالى : « يُؤْذُونَ اللهَ »(١) و « يحاربون الله »(٢) أى أولياءه ورسله .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَـلًا لِّلْأَخِرِينَ ﴾ (٥٦)

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ﴾ أى جعلنا قوم فرعون سَلَفًا . قال أبو مِجْلَز : «سَلَفًا» لمن عمل عملهم، «ومَثَلًا» لمن يعمل عملهم. وقال مجاهد : «سلفا» إخبارًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، «ومثلا» أى عبرة لهم . وعنه أيضا «سلفا» لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار . قتادة : « سلفا » إلى النار، « ومثلا » عِظةً لمن يأتى بعدهم . والسلف المتقدّم ؛ يقال : سَلَف يَسْلُف سَلَفًا ؛ مثل طلب طلبا؛ أى تقدّم ومضى . وسلف له عمل صالح أى تقدّم . والقوم السُّلّاف المتقدّمون . وسَلَفُ الرجل : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلّاف . وقراءة العامة « سَلَفًا » (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس . وقرأ حمزة والكسائى «سُلُفا» (بضم السين واللام) . قال الفراء : هو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر . وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر ؛ ومعناهما واحد . وقرأ علىّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعى وحُميد بن قيس «سُلَفًا» (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة ، أى فِرقة متقدّمة . قال المؤرّج والنّضر بن شُمَيل : « سُلَفًا » جمع سُلْفة ، نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧)

لمّا قال تعالى : « وَآسأل مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهًا؛ قاله قتادة . ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشا قالت إن محمدا

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب . (٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

Marfat.com

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لما قالت له قريش إن محمدا يتلو « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (١) » الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ؛ قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عُزَيْرًا ، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ؛ وذلك معنى قوله « يَصِدُّونَ » . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (٢) » . ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ؛ لأنه قال « وما تعبدون » ولم يقل ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين . وقد مضى هذا فى آخر سورة « الأنبياء (٣) » . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : "يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله" . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيًّا وعبدا صالحا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله ! . فأنزل الله تعالى « ولَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » أى يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قرأ نافع وابن عامر والكسائى « يَصُدُّون » (بضم الصاد) ومعناه يُعرِضون ؛ قاله النَّخَعِيّ ، وكسر الباقون . قال الكسائى : هما لغتان ، مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون ، ويَنِمّون ويَنُمّون ، ومعناه يَضِجّون . قال الجوهرى : وصَدَّ يَصُدّ صديدا ، أى ضَجّ . وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج ؛ قاله قُطْرُب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون . الفَرّاء : هما سواء ؛ منه وعنه . ابن المُسَيّب : يصدون يضجون . الضحاك يعجون . ابن عباس : يضحكون . أبو عبيدة : مَن ضَمّ فمعناه يعدلون ؛ فيكون المعنى : من أجل المَيْل يعدلون . ولا يُعَدّى « يصدون » بمن ، ومن كسر فمعناه يضجون ؛ فـ « مِن » متصلة بـ « يصدون » والمعنى يضجون منه .

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ فما بعدها .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالُوٓا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أى آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السُّدّى . وقال : خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله فى النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى «إنّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» الآية . وقال قتادة : « أم هو » يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة ابن مسعود « آلهتنا خير أم هذا » . وهو يقوّى قول قتادة ، فهو استفهام تقرير فى أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون و يعقوب « أآلهتنا » بتحقيق الهمزتين، ولَيّن الباقون . وقد تقدم . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ «جدلا» حال؛ أى جدلين . يعنى ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل . وفى صحيح الترمذىّ عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية — «ما ضربوه لك إلا جَدَلًا بل هم قوم خَصِمون» " .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى ما عيسى الا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة، وجعله مَثَلًا لبنى إسرائيل؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب ، ثم جعل إليه من إحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يُجعل لغيره فى زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبّه إلى الله عز وجل ، والناس دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلهم . وقيل: المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم؛ والأول أظهر . ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أى بدلًا منكم ﴿مَلَائِكَةً﴾ يكونون خلفاً عنكم؛ قاله السدى . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم . وقال الأزهرى : إن «من» قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية .

قلت: قد تقدم هذا المعنى فى «براءة»(١) وغيرها . وقيل: لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف ؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : يريد القرآن ؛ لأنه يدل على قرب مجىء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام ، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك «وإنه لَعَلَمٌ للساعة» (بفتح العين واللام) أى أمارة . وقد روى عن عكرمة «وإنه للعلم» (بلامين) وذلك خلاف للصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عُهد إلىّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل ؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث، خرجه ابن ماجه فى سننه . وفى صحيح مسلم "فبينما هو — يعنى المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقىّ

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤١

Marfat.com

دِمَشْق بين مَهْرُودَتَين(١) واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسه قَطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهى] حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ(٢) فيقتله ... " الحديث ... وذكر الثعلبيّ والزمخشريّ وغيرهما من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق(٣) بين مُمَصَّرَتين(٤) وشعر رأسه دَهين و بيده حربة يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر والإمام يؤمّ بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى و يصلّى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البِيَع والكنائس و يقتل النصارى إلّا من آمن به " . وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتُهم شَتّى ودينهم واحد وأنا أَوْلَى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بينى و بينه نبيّ و إنه أوّل نازل فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يقاتل الناس على الإسلام " . قال الماوَرْديّ : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى و ينهاهم . وهذا قول مردود لثلاثة أمور ؛ منها الحديث ، ولأن بقاء الدنيا يقتضى التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمرًا بمعروف وناهيًا عن منكر . وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

قلت : ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَيَنْزِلَنّ عيسى بن مريم حَكَمًا عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وليَقْتُلَنّ الخنزيرَ وَلَيَضَعَنّ الجزيةَ ولَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشحناء والتَّباغُضُ والتحاسد ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامُكم منكم " وفى رواية " فأمّكم منكم " قال ابن أبى ذئب : تدرى " ما أمّكم

(١) أى شقتين أو حلتين . (٢) لد (بالضم والتشديد) : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .
(٣) فى روح المعانى : « أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ... » .
(٤) المصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة .

Marfat.com

منكم" ؟ قلت : تخـبرنى ؛ قال : فأمّكم بكتاب ربكم وسُـنّة نبيّكم صلى الله عليه وسـلم" .
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نصٌّ على أنه ينزل مجدِّدًا لدين النبيّ صلى الله عليه وسلم للذى دُرس منـه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باقٍ ؛ على ما بيناه هنا وفى كتاب التذكرة . وقيـل : « وإنه لَعِـلْمٌ للسّاعة » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليـل على الساعة وبعث المـوتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وإنه » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعـلم للساعة ؛ بدليل قوله عليـه السلام : "بُعثت أنا والساعةُ كهاتين" وضمّ السـبابة والوسطى ؛ خرّجه البخارى ومسـلم . وقال الحسن : أوّل أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشـكُّون فيها ؛ يعنى فى الساعة ، قاله يحيى بن سـلام . وقال السُّدّى : فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها فانها كائنـة لا محالة . ﴿ وَاتَّبِعُـونِ ﴾ أى فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله . ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى طريق قويم إلى الله ، أى إلى جنّته . وأثبت الياء يعقوب فى قوله « واتبعون » فى الحـالين ، وكذلك « وأطيعون » . وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع فى الوصل دون الوقف ، وحذف الباقون فى الحالين . ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لا تغترّوا بوساوسه وشبه الكفار المجـادلين ؛ فان شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيـد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) وغيرها

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤)

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخَلْق الطير والمـائدة وغيرها ، والإخبـار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

Marfat.com

هنا الإنجيل. ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى النبوة؛ قاله السُّدى. ابن عباس: علم ما يؤدى إلى الجميل ويكف عن القبيح. وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيرى والماوردى. ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال مجاهد: من تبديل التوراة. الزجاج: المعنى لأبين لكم فى الإنجيل بعض الذى تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبين لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا فى أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل: إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم. ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى: « يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ »(١): وأنشد الأخفش قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو تعتلق بعض النفوس حِمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. ويقال للمنية: عَلُوق وعَلّاقة. قال المفضل البكرى:

وسائلة بثعلبة بن سَيْر(٢) * وقد علقت بثعلبة العَلُوق

وقال مقاتل: هو كقوله « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »(٣). يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله. ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادة الله صراط مستقيم، وما سواه معوج لا يؤدى سالكه إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) ﴾

(١) آية ٢٨ سورة غافر. (٢) يريد ثعلبة بن سيار. (٣) آية ٥٠ سورة آل عمران.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة : يعني ما بينهم ، وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضا ؛ قاله مجـاهد والسدى . الثاني — فرق النصارى من النُّسْطُورِية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقـد مضى هـذا في سورة « مريم »(١) . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا وأشركوا ؛ كما في سورة « مريم »(١) . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أي ينام فيه . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون . ﴿ إلا الساعة ﴾ يريد القيامة . ﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجـأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنـون . وقد مضى في غير موضع(٢) . وقيـل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة . و يكون « الأحزاب » على هذا ، الذين تحزبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . و يتصل هـذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »(٣) .

قوله تعـالى : ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء ، يعادي بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكى النقاش أن هـذه الاية نزلت في أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحيّ وعُقْبة بن أبي مُعَيط ، كانا خليلين ؛ وكان عقبة يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبي معيط ؛ فقال له أميـة : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تَتْفُل في وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبيّ صلى الله عليـه وسلم قتله فقتله يوم بَدْرٍ صبرا(٤) ، وقُتل أميّـة في المعركة ؛ وفيهم نزلت هـذه الآية . وذكر الثعلبيّ رضي الله عنه في هذه الآية قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب ،

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٥٨ من هذه السورة . (٤) الصبر : نصب الإنسان للقتل .

Marfat.com

إن فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرنى بالخير و ينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ، يا رب فلا تُضلّه بعدى ، وآهده كما هديتنى، وأ كرمه كما أ كرمتنى ؛ فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول يا رب، إنه كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، و يأمرنى بالخير و ينهانى عن الشر، و يخبرنى أنى ملاقيك ؛ فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان . قال : و يموت أحد الكافرَيْن فيقول : يا رب ، إن فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يا رب ألّا تَهْدِه بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول : يا رب ، إنه كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، و يأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملاقيك، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت . فيلعن كلّ واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة فى كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضِل .

قوله تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٨)

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العَرَصات "يا عبادِى لا خوف عليكم اليوم" ، فيرفع أهل العَرْصة رءوسهم؛ فيقول المنادى : « ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبي فى الرعاية : وقد روى فى هذا الحديث أن المنادى ينادى يوم القيامة : «يا عبادِى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» فيرفع الخلائق رءوسهم، يقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا بِآياتنا وكانوا مسلِمين » فينكّس الكفار رءوسهم و يبقى الموحدون رافعى رءوسهم . ثم ينادى الثالثة : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة . وقرئ « يا عباد » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قال الزجاج : « الذين» نصب على النعت لـ « عبادى » لأن «عبادى» منادى مضاف. وقيـل : « الذين آمنوا » [خبر لمبتدإ محذوف أو][1] ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا، أو الذين آمنوا يقال لهم «ٱدخلوا الجنة » . وقرأ أبو بكروزِرّ بن حُبيش « يا عِبادِىَ » بفتح اليـاء وإثباتها فى الحـالين، ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة فى الحالين . وحذفها الباقون فى الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة فى مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة. ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات فى الدنيا . وقيـل : قرناؤكم من المؤمنين . وقيـل : زوجاتكم من الحُـور العين . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله آبن عباس ؛ والكرامة فى المنزلة . الحسن : تفرحون، والفرح فى القلب . قتادة : تنعمون؛ والنعيم فى البدن . مجاهد : تسرّون؛ والسرور فى العين . آبن أبى نجيح : تعجبون؛ والعجب هاهنا درك ما يستطرف . يحيى بن أبى كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا فى « الروم »[2] .

قوله تعـالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى لهـم فى الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم فى صِحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعـلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شىء . وذكر الذهب فى الصحاف واستغنى به عن الإعادة فى الأكواب ؛ كقوله تعـالى :

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إلا بها .   (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢

Marfat.com

« والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِراتِ » (١) . وفى الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تلبَسوا الحرير ولا الدِّيباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها (٢) فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة". وقد مضى فى سورة « الحج » (٣) أن من أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يُغْدَى عليه بها ، فى كل واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا، ويراح عليه بمثلها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضا. ﴿وأَكْوَابٍ﴾ أى ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : « وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأَكْوابٍ » (٤) . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبي قِلابة قال : يُؤْتَوْن بالطعام والشراب ، فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك ؛ ثم قرأ « شرابا طهورا » . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفِلُون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخطون] قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميد والتكبير — فى رواية — كما يلهمون النَّفَس" .

الثانية — روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر فى بطنه نار جهنم" وقال : "لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها" وهذا يقتضى التحريم، ولا خلاف فى ذلك .

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب . راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ (٢) قوله « فى صحافها » على حدّ قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ... . فالضمير » عائد على الفضة ، ويلزم حكم الذهب بطريق الأولى .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩ . (٤) آية ١٥ سورة الإنسان .

Marfat.com

واختلف النـاس فى استعمالها فى غيرذلك . قال آبن العـربى : والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها فى شيء ؛ لقول النبي صلى الله عليـه وسلم فى الذهب والحرير : "هذان حرام لذكور أمتي حلّ لإناثها" . والنهى عن الأكل والشرب فيهـا يدل على تحريم استعمالها ؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز . أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة فى ذلك استعجال أمر[1] الآخرة ، وذلك يستوى فيـه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : "هى لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة" فلم يجعل لنا فيها حظا فى الدنيا .

الثالثـــة — إذا كان الإناء مُضَبَّبا بهما أو فيه حَلْقة منهما ، فقال مالك : لا يعجبنى أن يُشرب فيه ، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبنى أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبي صلى الله عليـه وسلم . قال آبن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغير شيئا ممـا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعـــة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2] . وفى كتب علمائنا أنه يلزم الغُرم فى قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها فى الزكاة بحال . وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعـالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهرى : الصحفة كالقَصْعة والجمـع صِحاف . قال الكسائى : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشـبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تشـبع الرجلين والثـلاثة ، ثم الصُّحَيفة تُشبع الرجل . والصحيفة الكتاب والجمـع صحف وصحائف .

قوله تعالى : ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهرى : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى يصف الخمر :

(١) فى آبن العربى : « أجر » .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس ؛ معرّب .

Marfat.com

صَرِيفِيَّـةٌ طَيِّبٌ طَعْمُهـا * لهـا زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ[(١)]

وقال آخـر[(٢)]:

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه * يسعى عليه العبدُ بالكُوب

وقال قتادة: الكُوب المدوّر القصير العنق القصير العروة. والإبريق المستطيـل العنق الطويل العروة. وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قُطْرُب: هي الأباريق التي ليست لها عُرًى. وقال مجاهد: إنها الآنية المدورة الأفواه. السُّدّي: هي التي لا آذان لها. ابن عَزيز: «أكواب» أباريق لا عُرَى لها ولا خراطيم، واحدها كوب.

قلت: وهو معنى قول مجاهد والسُّدّي، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لهـا ولا عُرًى.

قوله تعـالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ روى الترمذيّ عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هل في الجنـة من خيل؟ قال: " إنِ اللهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [في الجنة][(٣)] حيث شئت". قال: وسأله رجل فقال يا رسول الله، هل في الجنـة من إبل؟ قال: فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال: " إنْ يُدخلك الله الجنـة يكن لك فيهـا ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك". وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام «وفيها ما تشتهيه الأنفس»، الباقون « تشتهى الأنفس » أي تشتهيه الأنفس؛ تقول: الذي ضربت زيد؛ أي الذي ضربته زيد. ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ تقـول: لَذّ الشيءُ يَـلَذّ لذاذا، ولذاذة. ولَذِذت بالشيء ألَذّ (بالكسر في المـاضي والفتح في المستقبل) لذاذا ولذاذة؛ أي وجدته لذيـذا. والتذذت به وتلذذت به بمعنًى. أي في الجنـة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر. وقال سعيد بن جبير: «وتلذ الأعين» النظر إلى الله عز وجل؛ كما في الخبر: " أسألك لذة النظر إلى وجهك ". ﴿ وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت.

(١) الصريفية: الخمر المنسوبة الى صريفون، وهي قرية عند عكبراء، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع).
(٢) هو عدي بن زيد.
(٣) زيادة عن سنن الترمذي.

Marfat.com

قوله تعـالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ أى يقال لهم هـذه تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا . وقال ابن خالَوَيْه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه ؛ ليخوف بجهنم ويؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التى ينظر إليها . ﴿ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدم هذا مرفوعا فى « قد أفلح المؤمنون »(١) من حديث أبى هريرة، وفى « الأعراف »(٢) أيضا .

قوله تعـالى : لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكِهانى الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هى الثمار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أى لهـم فى الجنة سـوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لمـا ذكر أحوال أهل الجنـة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصى . ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لا يخفف عنهم ذلك العـذاب . ﴿ وَهُمْ فِيـهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى آيسون من الرحمـة . وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقـد مضى فى « الأنعام »(٣) . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالشرك . ويجوز «ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان .

قوله تعـالى : وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨　　(٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يا مالِكُ ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا . وقرأ عليّ وابن مسعود رضى الله عنهما « ونادوا يا مالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « ونادوا يا مال » باللام خاصة ؛ يعنى رخم الاسم وحذف الكاف . والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم فى النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى مالك : يا مال ، وفى حارث : يا حار ، وفى فاطمة : يا فاطم ، وفى عائشة : يا عائش ، وفى مروان : يا مرو ، وهكذا . قال :

يا حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية * لم يَلْقَها سُوقَةٌ قَبْلى ولا مَلِكُ (١)

وقال آمرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقًا أُرِيك وَمِيضه * كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ (٢)

وقال أيضا :

أفاطِم مَهْلًا بعضَ هذا التدلُّلِ * وإن كنت قد أزمعتِ صُرْمِى فأجْمِلِى (٣)

وقال آخر : (٤)

يا مَرْوَ إن مَطِيّتى محبوسةٌ * ترجو الحِباء ورَبُّها لم ييأس

وفى صحيح الحديث "أى فل ، هَلُمّ" . ولك فى آخر الاسم المرخّم وجهان : أحدهما — أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر — أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيد ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف . وذكر أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنا محمد بن يحيى المروزىّ قال حدّثنا محمد — وهو ابن سعدان — قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوى وكان أغار على بنى عبدالله ابن غطفان فغنم وأخذ ابل زهير وراعيه يسارا ، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية . (٢) يروى « أصاح » . والحبى : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل : المتراكب . (٣) فاطمة هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) : القطيعة . (٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحا له ، فأبطأ عليه جائزته ... والحباء (بكسر الحاء المهملة) : العطاء . وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا . (شرح الشواهد للشنتمرى) .

Marfat.com

عيينة عن مجاهـد قال : كنا لا ندرى ما الزخرف حتى وجدناه فى قـراءة عبد الله « بيت من ذهب »[١] ، وكنا لا ندرى « ونادوا يا مالك » أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « ونادوا يا مالِ » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هـذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله فى الرواية عن الرسول عليه السلام، و كتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل .

قلت : وفى صحيح البخارى عن صَفْوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر «ونادَوْا يامالِكُ لِيَقْضِ علينا ربك» بإثبات الكاف . وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى — أوذكر لى — أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الّذين فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِن العذابِ»[٢] فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيـه العذاب، فردّتْ عليهـم « أوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلَّا فِي ضَلَالٍ » قال : فلما يَئِسوا مما عند الخزنة نادَوْا مالكًا، وهو عليهم وله مجلس فى وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب؛ فهـو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « يامالك ليقض علينا رَبُّك » قال : سألوا الموت ، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة ،قال: والسنة ستون وثلثمائة يوم،والشهر ثلاثون يوما،واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعـد الثمانين فقال : « إنكم ماكثون » وذكر الحديث ؛ ذكره ابن المبـارك . وفى حديث أبى الدَّرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” فيقولون ادعوا مالكا فيقولون يامالك لِيَقْضِ علينا رَبُّك قال إنكم ماكثون“ . قال الأعمش : نُبِّئت أن بين دعائهم و بين إجابة مالك إياهم ألف عام ؛ خرّجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ماكثون . وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِىّ : بين ندائهم و إجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك .

---

(١) فى قوله تعالى : « أو يكون لك بيت من زخرف » آية ٩٣ سورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

(٢) آية ٤٩ سورة غافر .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (٧٨)

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم؛ أى إنكم ما كثون فى النار لأنا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم؛ أى بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : « ولكن أكثركم » أى ولكن كلكم . وقيل : أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم، وأما الأتباع فما كان لهم أثر . ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ أى للإسلام ودين الله ﴿ كَارِهُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ (٧٩)

قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار النَّدْوَة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجلٌ ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر . « أَبْرَمُوا » أحكموا . والإبرام الإحكام . أبرمت الشيء أحكمته . وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثانى، والأول سَحِيل؛ كما قال :

* ... ... من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[(١)] *

فالمعنى أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد . قتادة : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث . الكلبي : أم قضَوْا أمرًا فإنا قاضون عليهم بالعذاب . وأم بمعنى بل . وقيل : « أَمْ أَبْرَمُوا » عطف على قوله «أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ[(٢)] » . وقيل : أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم فى أنفسهم أبرموا أمرا أمنوا به العقاب .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٨٠)

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبى سلمى . والبيت كما فى ديوانه :

يمينا لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

والسحيل، الغزل الذى لم يبرم . (٢) آية ٤٥ من هذه السورة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُـمْ ﴾ أى ما يسرّونه فى أنفسهم ويتناجَوْن به بينهــم . ﴿ بَلَى ﴾ نسمع ونعلم . ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . وروى أن هذا نزل فى ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثانى : إذا جهَـرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى . وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود فى سورة « فُصِّلت »(١) .

قوله تعـالى : قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُـلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ اختلف فى معنـاه ؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّى : المعنى ما كان للرحمن ولد ؛ فـ«إن » بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدئ «فأنا أول العابِدِين» أى الموحِّدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « العابدين » تام . وقيل : المعنى قل يامحمد إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ؛ وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلتَ بالدليل فأنا أول من يعتقده ؛ وهذا مبالغة فى الاستبعاد ؛ أى لا سبيل إلى اعتقاده . وهذا ترقيق فى الكلام ؛ كقوله : « وإنَّا أوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٢) . والمعنى على هذا : فأنا أول العابدين لذلك الولد ، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . وقال السُّدِّى أيضا : المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده ؛ على أن له ولدا ولكن لا ينبغى ذلك . قال المَهْدَوِى : فـ«إن » على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود ، وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « العابدين » الآنفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبِدِين .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ (٢) آية ٢٤ سورة سبأ . راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

Marfat.com

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني « فأنا أوّل العَبِدين » بغير ألف ، يقال ، عَبِدَ يَعْبَد عَبَدًا (بالتحريك) إذا أنِف وغضب فهو عَبِد ، والاسم العَبَدة مثل الأنفة ، عن أبي زيد . قال الفرزدق :

أولئك أجلاسي فجئني بمثلهم * وأعبُد أن أهجو كُلَيبًا بدارم

وينشد أيضا :

أولئك ناس إن هَجَوْنِي هجوتهم * وأعبَدُ أن يهجى كُلَيبٌ بدارم

قال الجوهري : وقال أبو عمرو وقوله تعالى «فأنا أوّل العابدين» من الأَنَف والغضب ؛ وقاله الكسائي والقُتَبي ، حكاه الماوردي عنهما . وقال الهَرَوي : وقوله تعالى « فأنا أوّل العابدين » قيل هو من عَبِد يَعْبَد ؛ أي من الآنفين . وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعبدُ فهو عَبِد ؛ وقلّما يقال عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أوّل من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له . وروى أن آمرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان رضي الله عنه فأمر برجمها ؛ فقال له عليّ : قال الله تعالى « وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال في آية أخرى « وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ » فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ . قال عبد الله بن وهب : يعني ما استنكف ولا أنِف . وقال ابن الأعرابي : «فأنا أوّل العابِدين» أي الغضاب الآنفين . وقيل : «فأنا أوّل العابدين» أي أنا أوّل من يعبده على الوحدانية مخالفًا لكم . أبو عبيدة : معناه الجاحدين ؛ وحكى : عَبَدَني حَقّي أي جحدني . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « وُلْد » بضم الواو وإسكان اللام . الباقون وعاصم « وَلَد » وقد تقدّم[(١)] . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي تنزيها له وتقديسا . نزّه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث ، وأمرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه . ﴿ عما يصفون ﴾ أي عما يقولون من الكذب .

قوله تعالى : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يعنى كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة ، أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ إمّا العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو مُحْكَم ، وإنما أخرج مخرج التهديد . وقرأ ابن مُحَيْصن ومجاهد وحُميد وابن القَعْقاع وابن السَّمَيْقَع « حتى يَلْقَوا » بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ، وفتح القاف هنا وفى « الطور »(١) و « المعارج »(٢) . الباقون « يُلَاقُوا » .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾

هذا تكذيب لهم فى أن لله شريكا وولدا ؛ أى هو المستحق للعبادة فى السماء والأرض . وقال عمر رضى الله عنه وغيره : المعنى وهو الذى فى السماء إلٰه فى الأرض(٣) ؛ وكذلك قرأ . والمعنى أنه يعبد فيهما . وروى أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما « وهو الذى فِى السماءِ اللهُ وفِى الأرضِ اللهُ » وهذا خلاف المصحف . و « إلٰهٌ » رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أى وهو الذى فى السماء هو إلٰه ؛ قاله أبو على . وحسن حذفه لطول الكلام . وقيل : « فى » بمعنى على ؛ كقوله تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى على جذوع النخل ؛ أى هو القادر على السماء والأرض . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدّم(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ؛ وقد تقدّم(٥) . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى وقت قيامها . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « وإليه يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . وكان ابن مُحَيْصن وحُميد ويعقوب وابن أبى إسحاق يفتحون أوله على أصولهم . وضم الباقون .

(١) آية ٤٥ (٢) آية ٤٢ (٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... فى السماء اله وفى الأرض ... »
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ « مَن » فى موضع الخفض . وأراد بـ « الذين يدعون مِن دونِهِ » عيسى وعُزَيرًا والملائكة . والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم و بصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله إلا الله . وقيل : « من » فى محل رفع ؛ أى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعنى الآلهة — فى قول قتادة — أى لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعنى عُزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله . ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما شهدوا به . وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث وَنَفَرًا من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولّى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله « وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِد بِالحق » أى اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة . ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى المؤمنين إذا أُذِن لهم . قال ابن عباس : « إلا من شهِد بِالحق » أى شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : أى لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و « إلا » بمعنى لكن ؛ أى لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأن فى جملة « الذين يدعون مِن دونِهِ » الملائكة . ويقال : شَفَعْتُه وشَفَعْتُ له ؛ مثل كِلْتُه وكِلْت له . وقد مضى فى « البقرة » معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها[١] . وقيل : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحق » إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق فى الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِـدَ بِالْحَقِّ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدل على معنيين : أحدهما — أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى — أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالمـا بها . ونحوه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فَدَعْ" . وقد مضى فى « البقرة »[1] .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُـم مَّنْ خَلَقَهُـمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُـمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى لأقرّوا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنهـا حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكًا؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا»[2] . وقيل : أى ولئن سألت الملائكة وعيسى « من خلقهم» لقالوا الله . « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فأنّى يُؤفك هؤلاء فى آدعائهم إياهم آلهة .

قوله تعـالى : وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فى « قِيـلِهِ » ثلاث قراءات : النصب ، والجرّ ، والرفع . فأمّا الجرّ فهى قراءة عاصم وحمزة . وبقية السبعة بالنصب . وأما الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب . فمن جرّحمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه . ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه ؛ وهذا اختيار الزجاج . وقال الفرّاء والأخفش : يجوز أن يكون « قيله » عطفا على قوله « أَنَّا لَا نَسْـمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ »[3] . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس محمد آبن يزيد المبرد بأىّ شيء تنصب القيل؟ فقال : أنصبه على « وعنده علم الساعة ويعلم قيله » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجعون » ، ولا على « يعلمون » . ويحسن الوقف على « يكتبون »[4] . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القِيل على معنى : لا نسمع سِرّهم ونجواهم

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٩ .	(٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف .	(٣) آية ٨٠ من هذه السورة .
(٤) فى آية ٨٠ .

Marfat.com

وقِيلَه ؛ كما ذكرنا عنهما . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « يكتبون » . وأجاز الفراء والأخفش أيضا : أن ينصب على المصدر ؛ كأنه قال : وقال قِيله ، وشكا شكواه إلى الله عزّ وجلّ ، كما قال كعب بن زُهير :

تمشي الوُشاةُ جَنابَيها[(١)] وقِيلَهُم * إنّك يابنَ أبي سُلْمى لَمقتولُ

أراد : ويقولون قيلهم . ومن رفع « قيله » فالتقدير : وعنده قِيلُه ، أو قِيلُه مسموع ، أو قِيلُه هذا القول . الزمخشري : والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه . والرفع على قولهم : أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ، ويكون قوله « إنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون » جواب القسم ؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يارب ، أو قيله يارب قسمى ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . وقال ابن الأنباري : ويجوز في العربية «وقيله» بالرفع ، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون . المَهْدَوِيّ : أو يكون على تقدير وقيلُه قِيلُه يارب ؛ فحذف قيله الثاني[(٢)] الذي هو خبر ، وموضع « يارب » نصب بالخبر المضمر ، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقى بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور . والهاء في « قِيله » لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى ذكره إذ قال « قل إن كان للرحمن وَلَدٌ » . وقرأ أبو قِلابة « يارَبَّ » بفتح الباء . والقيل مصدر كالقول ؛ ومنه الخبر "نهى عن قيل وقال" . ويقال : قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا . وفي النساء « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا[(٣)] » .

قوله تعالى : فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال قتادة : أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم ؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف . ونحوه عن ابن عباس قال : « فاصفح عنهم » أى أعرض عنهم . ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى معروفا ؛ أى قل لمشركى أهل مكة « فسوف تعلمون » ثم نُسخ هذا في سورة «براءة» بقوله تعالى : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[(٤)]» الآية . وقيل : هى مُحكَمة لم تنسخ . وقراءة العامة « فسوف

(١) أى ناحيتيها . (٢) في الأصول : «الأول» . (٣) آية ١٢٢ . (٤) آية ٥ .

Marfat.com

يعلمون » (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيّه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر « تعلمون » (بالتاء) على أنه من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للمشركين بالتهديد . و « سَلَامٌ » رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيّة لهم ؛ حكاه النقاش . وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق، إلا قوله تعالى : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا »(1) . وهى سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفى مسند الدارمىّ عن أبى رافع قال : " من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفوزا له وزوّج من الحور العين " . رفعه الثعلبيّ من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وفى لفظ آخر عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " . وعن أبى أمامة قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ حم الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة بَنى الله له بيتا فى الجنة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣)

إن جعلت «حم» جواب القسم تمّ الكلام عند قوله «المبين» ثم تبتدئ « إنّا أنزلناه » . وإن جعلت « إنّا كُنّا مُنْذِرِين » جواب القسم الذى هو « الكتاب » وقفت على «منذرين» وابتدأت «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم» . وقيل : الجواب «إنا أنزلناه»، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقسَم به، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقَسَم، والهاء فى « أنزلناه »

(1) آية ١٥ .

Marfat.com

للقــرآن . ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله « إنا أنزلناه » كنّى به عن غير القــرآن؛ على ما تقدّم بيانه فى أوّل « الزخرف »[١] . والليلة المباركة ليلة القــدر . ويقال : ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصَّك، وليلة القدر . ووصفها بالبركة لمــا ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب . وروى قتادة عن واثلة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم فى أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لِستّ مضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان". ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا فى هذه الليلة . ثم أنزل نجماً نجماً فى سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب . وقيل : كان ينزل فى كل ليلة القدر ما ينزل فى سائر السنة . وقيل كان ابتــداء الإنزال فى هذه الليلة . وقال عكرمة : الليلة المباركة هاهنا ليلة النصف من شعبان . والأوّل أصح لقوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » . قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القــدر من أم الكتاب إلى بيت العِزّة فى سمــاء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة . وهــذا المعنى قد مضى فى « البقرة »[٢] عند قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الذِى أُنزِلَ فِيهِ القرآن »، و يأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

قوله تعــالى : فِيهَــا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

ابن عباس : يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق . وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم . وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران؛ قاله ابن عمر . قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون فى ذلك العام ولم يزل ذلك فى علمه عز وجل . وقال عكرمة : هى ليلة النصف من شعبان يُبْرَم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، و يكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وروى عثمان بن المغيرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان

(١) راجع ص ٦١ من هذا الجزء . (٢) آية ١٨٥ راجع جـ ٢ ص ٢٩٠ طبعة ثانية .

Marfat.com

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج آسمه في الموتى " . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر " ذكره الثعلبي . وخرج الترمذي بمعناه عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب ". وفي الباب عن أبي بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرْطاه عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة ، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث ، وقال : يحيى بن أبي كثير لم يَسمع من عروة والحجاج بن أرطاه لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير .

قلت : وقد ذكر حديثَ عائشة مطولا صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان ، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه في غير هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هي ليلة القدر على ما بيناه . روى حماد آبن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفي كل رمضان هي؟ قال : أيْ والذي لا إله إلا هو ، إنها في كل رمضان ، إنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضي الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج ؛ يقال : يحج فلان ويحج فلان . وقال في هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فنص على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله « في ليلة مباركة » ؛

Marfat.com

فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفِرْية على الله ، وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه لا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها . الزمخشرىّ : « وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر ؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله ؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه ، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ « نفَرّق » بالتشديد ، و « يَفْرق » كلٌّ على بنائه للفاعل ونصب « كل » ؛ والفارق الله عز وجل . وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه « نفرق » بالنون . ﴿ كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ كلّ شأن ذى حكمة ؛ أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده . وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . وهو مصدر فى موضع الحال . وكذلك ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهما عند الأخفش حالان ؛ تقديرهما : أنزلناه آمرين به وراحمين . المبرد : « أمرًا » فى موضع المصدر ؛ والتقدير : أنزلناه إنزالا . الفرّاء والزجاج : « أمرا » نصب بـ « يُفْرَق » ؛ مثل قولك : يفرق فرقا . فأمرٌ بمعنى فرق فهو مصدر ؛ مثل قولك : يضرب ضربا . وقيل : « يفرق » يدلّ على يؤمر ؛ فهو مصدر عمل فيه ما قبله . ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال الفرّاء : « رحمة » مفعول بـ« مرسلين » . والرحمة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج : « رحمة » مفعول من أجله ؛ أى أرسلناه للرحمة . وقيل : هى بدل من قوله « أمرا » . وقيل : هى مصدر . الزمخشرىّ : « أمرا » نصب على الاختصاص ؛ جعل كلّ أمر جزلا فخمًا بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه

Marfat.com

لخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لَدُنّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . وفى قراءة زيد بن علىّ « أمْرٌ من عنـدنا » على هو أمر، وهى تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن « رحمةٌ » على تلك هى رحمة، وهى تنصر انتصابها بأنه مفعول له .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قرأ الكوفيون « رَبِّ » بالجر . الباقون بالرفع ؛ رَدًّا على قوله «إنه هو السميع العليم» . وإن شئت على الابتداء، والخبر لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو رب السموات والأرض . والجر على البدل من « ربِّك » وكذلك « ربِّكم وربِّ آبائكم الأولين » بالجر فيهما ؛ رواه الشَّيْزَرِيّ[(١)] عن الكسائى . الباقون بالرفع على الاستئناف . ثم يحتمل أن يكون هـذا الخطاب مع المعترف بأن الله خلق السموات والأرض ؛ أى إن كنتم موقنين به فاعلموا أن له أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب . ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق؛ أى ينبغى أن يعرفوا أنه الخالق ، وأنه الذى يحيي ويميت . وقيل : الموقن ها هنا هو الذى يريد اليقين ويطلبه؛ كما تقول : فلان يُنْجِد؛ أى يريد نجدا. ويُتْهِم؛ أى يريد تِهامة . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى هو خالق العالم ؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شىء . و « هو يحيي ويميت » أى يحيي الأموات و يميت الأحياء . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مالككم ومالك من تقدم منكم. واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أى ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار فى قولهم : إن الله خالقهم؛ و إنما

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازى ، كان حجازيا ثم انتقل الى شيزر (كحيدر، بلدة قرب حماة) وأقام بها الى أن مات فنسب اليها ، أخذ القراءة عرضا وسماعا من الكسائى، وله عنه انفرادات . (غاية النهاية) .

Marfat.com

يقولونه لتقليد آبائهـم من غير علم فهم فى شـك . وإن توهّموا أنهـم مؤمنون فهـم يلعبون فى دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يلعبون » يضيفون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء . ويقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب؛ وهوكالصبي الذى يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)﴾

قوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه انتـظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين؛ قاله قتادة . وقيـل : معناه احفظ قولهم هـذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمّيَ الحافظ رقيبا . وفى الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعـدُ ، وأنه يمكث فى الأرض أربعـين يوما يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة . وممن قال إن الدخان لم يات بعـدُ : علىّ وآبن عبـاس وآبن عمر وأبو هريرة وزيد بن علىّ والحسن وآبن أبى مليكة وغيرهم . وروى أبو سـعيد الخُدْرِيّ مرفوعا أنه دخان يهيج بالنـاس يوم القيامة ، يأخذ المؤمن منه ؛ كالزَّكْمَة . وينفخ الكافرَ حتى يخرج من كل مسمع منه؛ ذكره الماوردى . وفى صحيح مسلم عن أبى الطُّفَيل عن حُذيفـة بن أَسِـيد الغِفَارِيّ قال : آطّلع النبيّ صـلى الله عليه وسـلم علينا ونحن نتذاكر فقـال : "ما تذكرون"؟ قالوا : نذكر السـاعة ؛ قال : "إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات — فذكر — الدخانَ والدّجالَ والدابةَ وطـلوعَ الشمس من مغربها ونزولَ عيسى بن مريم وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسُوف خَسْفٌ بالمَشْرِق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العـرب وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمن تَطْرد الناس إلى مَحْشرهم" . فى رواية عن حُذيفة "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خَسْفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسف فى جزيرة العرب والدُّخانُ والدّجالُ

Marfat.com

ودابةُ الأرض و يأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس". وخرجه الثعلبي أيضا عن حُذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوّل الآيات خروجًا الدّجالُ ونزولُ عيسى بن مريم ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أَبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمْسى معهم إذا أمسوا". قلت: يا نبيّ الله، وما الدخان؟ قال هذه الآية: " «فَٱرْتَقِبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخانٍ مُبِينٍ» يمـلأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليـلة أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره". فهذا قول. القول الثاني — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا؛ قاله ابن مسعود. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم. والحديث عنه بهذا فى صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ. قال البخاريّ: حدثنى يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال قال عبد الله: إنما كان هـذا لأن قريشا لما استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كَسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْـطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينـه و بينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعـالى: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مبِينٍ. يَغْشَى النَّـاسَ هَـذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال: فأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، استسق اللهَ لِمُضَرَ فإنها قد هلكت. قال: "لِمُضَرَ! إنك لجرىء". فاستسقى فسُقُوا؛ فنزلت: «إِنَّكُمْ عائِدُونَ». فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ». قال: يعنى يوم بدر. قال أبو عبيدة: والدُّخَان الجَدْب. القُتَبيّ: سُمّى دخانا ليبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان. القول الثالث — إنه يوم فتح مكة لما حجبت السماءَ الغبرة؛ قاله عبـد الرحمن الأعرج. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ فى موضع الصفة للدخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين مـن أهل مكةِ، و إن كان من

Marfat.com

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى يقول الله لهم : « هـذا عذاب أليم » . فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هـذا عذاب أليم » حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هذا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

قوله تعـالى : رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أى يقولون ذلك ؛ اكشف عنـا العذاب فـ « إنا مؤمنون » ؛ أى نؤمن بك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشا أتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هـذا القول . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان . وقيل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذى أصابهم ؛ على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ؛ ليبس الأرض فى سنة الجَدْب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ؛ ولهذا يقال لسَنة الجَدْب : الغبراء . وقيل : إن العذاب هنا الثلج . قال المـاوردىّ وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنمـا يكون فى الآخرة أو فى أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ؛ غير أنه مقول لحكيناه .

قوله تعـالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ أى من أين يكون لهم التذكُّر والاتعاظ عند حلول العذاب . ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذِّكرى والذِّكْر واحد ؛ قاله البخارىّ . ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعـد تولّيهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إيّاه . وقيل : أى أنّى ينفعهم

Marfat.com

قولهم : « إنا مؤمنون » بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة، فقد صارت المعارف ضرورية . وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة . ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أى علّمه بَشَرٌ أوعلمه الكَهَنة والشياطين، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أى وقتا قليلا، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ؛ أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هذا فى القيامة قال : أى لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلينا ؛ أى مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليه ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ؛ أى ننتقم منهم يوم نَبْطِش . وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد « إنّ » لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه « منتقمون » . وهو بعيد أيضا ؛ لأن ما بعد « إن » لا يعمل فيما قبلها . ولا يحسن تعلّقه بقوله : « عائدون » ولا بقوله : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ » ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكّرهم أو اذكر . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى . ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : « إِنَّا كَاشِفو العذابِ قليلا إنكم عائدون » كلام تام . ثم ابتدأ « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » أى ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش ، فحذف واو العطف ؛

Marfat.com

كما تقول : آتق النار اتق العذاب . و ﴿ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ فى قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأُبَىّ بن كعب ومجاهد والضّحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا ، واختاره الزجاج . وقيل : دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع أو قَحْط يقع قبل يوم القيامة . الماوردىّ : ويحتمل أنها قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . ويقال : انتقم الله منه ؛ أى عاقبه . والاسم منه النّقمة والجمع النّقِمات (١) . وقيل بالفرق بين النّقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة . والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والانتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

أى ٱبتليناهم . ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا ؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أى أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجىء الرسل . والواو لا ترتّب . ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى كريم فى قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوّة وإسماع الكلام .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال اتبعونى . فـ « عِبادَ الله » منادى . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معى عباد الله وأطلقوهم من العذاب . فـ « عِبادَ الله » على هذا مفعول . وقيل : المعنى أدُّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالةَ ربى . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى أمين على الوحى فٱقبلوا نصحى . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) فى كتب اللغة : « النقمة بالكسر والفتح وكفرحة جمع نقم ككلم وعنب وكلمات » .

Marfat.com

منكم فلا أخون فيه . ﴿ وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا تتكبّروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . آبن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافتراء أن البغى بالفعل والافتراء بالقول . وقال ابن جُريج : لا تَعْظُمُوا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبارَ ترفعُ المحتقر؛ ذكره الماوردى . ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن . وقال يحيى بن سلام : بحجة بيّنة . والمعنى واحد؛ أى برهان بيّن .

قوله تعالى : وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعّدوه بالقتل فآستجار بالله . قال قتادة : « تَرْجُمُونِ » بالحجارة . وقال آبن عباس : تشتمونِ؛ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من « عُذْتُ » نافع وآبن كثير وآبن عامر وعاصم ويعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنى عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال : « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا »[(١)] . وقيل : إنى أعوذ؛ كما تقول : نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي ﴾ أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى؛ فاللام فى « لى » لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بى؛ كقوله : « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »[(٢)] أى به . ﴿ فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى دعونى كَفافًا[(٣)] لا لِيَ ولا عَلَيَّ؛ قاله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : فخلّوا سبيلى وكُفُّوا عن أذاى . والمعنى متقارب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) آية ٣٥ سورة القصص .	(٢) آية ٢٦ سورة العنكبوت .	(٣) أى مكفوفا عنى شركم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أى فكفروا فدعا ربه . ﴿ أَنَّ هٰؤُلَاءِ ﴾ بفتح «أنّ» أى بأن هؤلاء . ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أى مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بنى إسرائيل ومن الإيمان .

قوله تعالى : فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى؛ أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل . ﴿ لَيْلًا ﴾ أى قبل الصباح . ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز « فاسر » بوصل الألف . وكذلك ابن كثير؛ من سرى . الباقون « فأسر » بالقطع؛ من أسرى . وقد تقدم[1] . وتقدّم خروج فرعون وراء موسى فى « البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس[2] » وإغراقه وإنجاء موسى؛ فلا معنى للإعادة .

الثانيــة — أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا . وسَيْرُ الليل فى الغالب إنما يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليــل سترا مُسْـدلًا ؛ فهو من أستار الله تعالى . وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّ أو جَدْب؛ فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَسْرِى ويُدْلِج[3] ويترفّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حَظّها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها[4]" . وقد مضى فى أول « النحل[5] » ؛ والحمد لله .

قوله تعالى : وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعـدها . وجـ ٨ ص ٣٧٧ وما بعدها . وجـ ١١ ص ٢٢٧ وما بعدها . وجـ ١٣ ص ١٠٥ وما بعدها . (٣) قوله : « يسرى » أى يسير عامة الليل . و « يدلج » أى سار من أول الليل . وربما استعمل لسير آخر الليل . (٤) قوله : « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ ؛ ومعناه أسرعوا فى السير الإبل اتصلوا الى المقصد وفيها بقية من قوتها . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٧٣

Marfat.com

قال ٱبن عباس : ﴿ رَهْوًا ﴾ أى طريقا . وقاله كعب والحسن . وعن ٱبن عباس أيضا سمتا . الضحّاك والربيع : سهلا . عكرمة : يَبَسًا ؛ لقوله : « فَٱضْرِبْ لهم طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » . وقيل : مفترقا . مجاهد : منفرجا . وعنه يابسا . وعنه ساكنا ؛ وهو المعروف فى اللغة . وقاله قتادة والهَرَوِىّ . وقال غيرهما : منفرجا . وقال ٱبن عرفة : وهما يرجعان إلى معنًى واحد وإن اختلف لفظاهما ؛ لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام . والرَّهْوُ عند العرب : الساكن ؛ يقال : جاءت الخيل رَهْوًا ؛ أى ساكنة . قال :

والخيل تَمْزَع رَهْوًا فى أعنّتها * كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَد (١)

الجوهرى : ويقال ٱفعل ذلك رَهْوًا ؛ أى ساكنا على هِينَتِك (٢) . وعيشٌ راهٍ ؛ أى ساكن رافه. وخِمْسٌ راهٍ ؛ إذا كان سهلا . ورها البحر أى سكن . وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا أى فتح ؛ ومنه قوله تعالى : « وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » . والرَّهْوُ : السير السهل ؛ يقال : جاءت الخيل رهوا . قال ٱبن الأعرابى : رَهَا يَرْهُو فى السير أى رَفَق . قال القطامى فى نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذلةٌ * ولا الصدورُ على الأعجاز تتّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء ؛ وهو من الأضداد . وقال أبو عبيد : الرَّهْو : الجَوْبة تكون فى مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفى الحديث أنه قضى أن "لا شفعة فى فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبة ولا رُكْحٍ ولا رَهْوٍ (٣)" . والجمع رِهاء . والرَّهو : المرأة الواسعة الهَنِ ؛ حكاه النَّضر بن شُمَيل . والرَّهو : ضرب من الطير ؛ ويقال :

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى . و « تمزع » : تمرّ مرًّا سريعا . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل محرفة ؛ ففى بعضها « تمرح » بالراء والحاء . وفى البعض الآخر : « تمرع » بالراء والعين . ويروى : « غربا » بدل « رهوا » أى حدة . و « الشؤبوب » : السحاب العظيم القطر . (٢) الهينة (بالكسر) : السكينة والوقار .

(٣) الفناء : فناء الدار، وهو ما امتد معها من جوانبها . والمنقبة : هى الطريق بين الدارين . وقيل : هو الطريق الذى يعلو أنشاز الأرض . والركح (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ؛ وربما كان فضاء لا بناء فيه .

Marfat.com

هو الكُركِيّ . قال الهَرَوِيّ : ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى — وقاله القشيريّ — أى سِرْ ساكنا على هِينَتِك ؛ فالرّهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر . وعلى الأوّل هو من نعت البحر؛ أى آتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لما قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هـذا . وقيل : ليس الرَّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أى فرج . فقوله : « رهوا » أى منفرجا . وقال الليث : الرهو مَشْيٌ فى سكون؛ يقال : رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ . وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض . وآفعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا؛ أى ساكنا بغير شدّة . وقد ذكرناه آنفا . ﴿إِنَّهُمْ﴾ أى إن فرعون وقومه . ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى «الشعراء» مستوفًى[1] . ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ النَّعْمة (بالفتح) التنعيم ؛ يقال : نعّمه الله وناعَمه فتنعّم . وآمرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمَة ؛ بمعنًى . والنِّعمة (بالكسر) اليَـدُ والصَّنِيعة والمِنة وما أنعم به عليـك . وكذلك النُّعْمَى . فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء . والنعيم مثله . وفلان واسع النِّعمة؛ أى واسع المـال . جميعه عن الجوهرىّ . وقال ابن عمر : المراد بالنَّعمة نيل مصر . ابن لَهِيعة : الفيوم . ابن زياد: أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعة . وقد يقال : نَعْمَة ونِعْمة (بفتح النون وكسرها) ؛ حكاه المـاوردىّ . قال : وفى الفرق بينهما وجهان : أحدهما — أنها بكسر النون فى المِلْك، وبفتحها فى البَدَن والدِّين؛ قاله النَّضْر بن شُمَيل . الثانى — أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة، وبالفتح من التنعيم وهو سَعة العيش والراحة؛ قاله ابن زياد .

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

Marfat.com

قلت : هذا الفرق هو الذى وقع فى الصّحاح وقد ذكرناه . وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة « فَكِهِين » بغير ألف؛ ومعناه أَشِرين بَطِرين . قال الجوهرى : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيّب النفس مَزّاحا . والفكِه أيضا الأشِر البطِر . وقرئ « وَنَعْمَةٍ كانوا فِيها فَكِهِين » أى أَشِرين بطِرين . و « فاكهين » أى ناعمين. القشيرى : « فاكهين » لاهين مازحين؛ يقال : إنه لفاكه أى مَزّاح . وفيه فُكاهة أى مزح . الثعلبىّ : وهما لغتان كالحاذر والحَذِر ، والفاره والفَرِه . وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة : فضلٌ عن القوت الذى لا بدّ منه .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾

قال الزجاج : أى الأمر كذلك ؛ فيوقف على « كذلك » . وقيل : إن الكاف فى موضع نصب ، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبى : « كذلك » أفعل بمن عصانى . وقيل : « كذلك » كان أمرهم فأهلكوا . ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا (١) » الآية .

قوله تعالى : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ أى لكفرهم . ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ . أى مؤخرين بالغرق . وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أى عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالى الشاتيات . قال الشاعر :

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

Marfat.com

فالريح تبكي شجوها * والبرق يلمع في الغمامه[1]

وقال آخر[2] :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة * تُبكي عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية[3] :

أيا شجر الخابور مالك مُورِقًا * كأنك لم تجزع على ابن طَرِيف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه . والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد . وقيل : في الكلام إضمار ؛ أي ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : « واسأل القرية » بل سرّوا بهلاكهم ؛ قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ــ ثم تلا ــ «فما بكت عليهم السماء والأرض» ". يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله ، ولا صعِد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فَقْدَ ذلك . وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد يَعْمُرُها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيّ كدوِيّ النحل ! . وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما : إنه يبكي عليه مُصَلّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض . وهو معنى قول سعيد بن جُبير . وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان . ويشبه أن يكون قولَ مجاهد . وقال شُريح الحضرمي قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغُرَباء يوم القيامة ــ

(١) البيت ليزيد بن مُفرِّغ الحميري . وقد ورد هذا البيت في الأصول محرفا ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان وشرح الكامل . (٢) هو جرير . (٣) الخارجية هي ليلى بنت طريف الشيباني ترثي أخاها الوليد ابن طريف ؛ وكان رأس الخوارج وأشدهم بأسا وصولة .

Marfat.com

قيل : من هم يارسول الله؟ قال ـ هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا ـ ثم قال ـ ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبـا عنه بواكيه إلا بكت عليـه السماء والأرض ـ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ « فما بكت عليهم السماء والأرض » ـ ثم قال ـ ألا إنهما لا يبكيان على الكافر " .

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحَرّانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعىّ قال حدثنى عطاء الخراسانى قال : ما من عبد يسجد لله سجـدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقيل: بكاؤهما حمرة أطرافهما؛ قاله علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وعطاء والسُّدّى والترمذى محمد ابن علىّ وحكاه عن الحسن . قال السُّدّى : لمـا قُتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما بكت عليه السماء؛ وبكاؤها حمرتها . وحكى جرير عن يزيد بن أبى زياد قال : لمـا قتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما احمرّ له آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وقال محمد بن سِيرين : أخبرونا أن الحمـرة التى تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطِرْنا دمًا يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدّارَقُطنىّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمـرة " . وعن عُبادة بن الصامت وشداد ابن أوس قالا : الشفق شفقان، الحمـرة والبياض ؛ فإذا غابت الحمرة حَلّت الصلاة . وعن أبى هريرة قال : الشفق الحمـرة . وهذا يردّ ما حكاه ابن سِـيرين . وقد تقدم فى « سبحان »(١) عن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علىّ، وحمـرتها بكاؤها . وقال محمد بن على الترمذى : البكاء إدرار الشىء فإذا أدرّت العين بمائها قيل بكت، وإذا أدرّت السماء بحمرتها قيل بكت، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت ؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك ، فإن فقدت نور المـؤمن اغبرّت فدرّت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ .

Marfat.com

بإبرارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن ؛ فإذا قبض المؤمن منها درّت بغبرتها . وقال أنس : لما كان اليوم الذى دخل فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه أظلم كلّ شيء ، وإنا لفى دفنه ما نفضنا الأيدى منه حتى أنكرنا قلوبنا . وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن . وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنما ذلك لدنو الساعة ، فتدرّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسف وحزن .

قلت : والقول الأول أظهر ؛ إذ لا استحالة فى ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم — كما بيناه فى « سبحان ومريم وحم فصلت »(١) — فكذلك تبكى ؛ مع ما جاء من الخبر فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ ﴾

يعنى ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهم وتكليفهم الأعمال الشاقة . ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من « العذابِ المهينِ » فلا تتعلق « مِن » بقوله : « مِن العذابِ » لأنه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل . وقيل : أى أنجيناهم من العذاب ومن فرعون . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى جبارا من المشركين . وليس هذا عُلُوَّ مَدح بل هو عُلُوٌّ فى الإسراف ؛ كقوله : « إن فرعون علا فى الأرضِ »(٢) . وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أى على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم . ﴿ على العالَمِينَ ﴾ أى عالمى زمانهم ؛ بدليل قوله لهذه الأمة : « كنتم خيرَ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ و جـ ١١ ص ١٥٧ و جـ ١٥ ص ٣٤٤ (٢) آية ٤ سورة القصص .

Marfat.com

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١) » . وهذا قول قتادة وغيره . وقيل على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما . ويكون قوله : « كنتم خير أمة » أى بعد بنى إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ ﴾ أى من المعجزات لموسى . ﴿ ما فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المَنّ والسَّلْوَى . ويكون هذا الخطاب متوجِّها إلى بنى إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفرّاء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذى كفّهم عنه والخير الذى أمرهم به ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معًا من قوم فرعون و بنى إسرائيل . وفى قوله : « بَلَاءٌ مُبِينٌ » أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة ؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا (٢) » . وقال زُهير :

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذى يَبْلُو (٣)

الثانى — عذاب شديد ؛ قاله الفرّاء . الثالث — اختيار يتميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنه أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (٤) » .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران . (٢) آية ١٧ سورة الأنفال . (٣) صدره :
* رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم * (٤) آية ٣٥ سورة الأنبياء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿إنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعنى كفار قريش ﴿إنْ هِيَ إلا مَوْتَتُنَا الأولى﴾ ابتداء وخبر . مثل « إنْ هِيَ إلا فِتْنَتُكَ »(١) ، « إن هِيَ إلا حياتُنَا الدُّنيا »(٢) ﴿وما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾(٣) أي بمبعوثين . ﴿فأتُوا بآبائِنَا إن كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم . والمنشورون المبعوثون . قيل : إنّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال : يا محمد، إن كنت صادقا فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا؛ أحدهما — قُصَىّ بن كِلَاب فإنه كان رجلا صادقا؛ لنسأله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف؛ فكأنه قال: إن كنت صادقا فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء ؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردى . ثم قيل : «فأتوا بآبائنا» مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ كقوله : « رَبِّ ٱرْجِعُونِ »(٤) قاله الفرّاء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أم قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهام إنكار؛ أى إنهم مستحقون فى هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء . وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تُبَّع . وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تبع . وليس المراد بتُبّع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة . فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين، وكِسْرَى للفُرْس، وقَيْصر للروم . وقال أبو عبيدة : سُمِّى كل واحد منهم تُبّعًا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهرى : والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبّع . والتُّبّع أيضا الظِّل؛ وقال :

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٩ سورة الأنعام . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٧٨
(٤) آية ٩٩ سورة المؤمنون .

Marfat.com

تَرِد المياه حَضِيرةً ونَفيضةً * وِرْدَ القَطاةِ إذا آسْمَالَّ التُّبَّعُ[1]

والتبع أيضا ضرب من الطير . وقال السهيلي : تُبّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت، وإن مَلَكَ اليمن وحدها لم يقل له تبع؛ قاله المسعودي . فمن التبابعة : الحارث الرائش، وهو ابن همال ذي سدد[2] . وأبرهة ذو المنار . وعمرو ذو الأذعار . وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد . وأفريقيس بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما اراد واحدا من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره؛ ولذلك قال عليه السلام : "ولا أدرى أتُبّع لَعِينٌ أم لا" . ثم قد روى عنه أنه قال : "لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمنا". فهذا يدلّك على أنه كان واحدا بعينه، وهو — والله أعلم — أبو كرب الذى كسا البيت بعد ما أراد غَزْوَه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ آسمه أحمد . وقال شعرا أودعه عند أهلها؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدَّوْه إليه . ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب خالد بن زيد . وفيه :

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدّ عمرى إلى عمره * لكنت وزيرًا له وآبنَ عَمّ

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنه حُفر قبر له بصنعاء — ويقال بناحية حمير — فى الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبّى ولَمِيس" ويروى أيضا : حبي وتماضر، ويروى أيضا : هذا قبر رضوى وقبر حُبّى ابنتا تبع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

(١) البيت لسعدى — وقيل لسلمى — الجهنية ترثى أخاها أسعد . والحضيرة والنفيضة : جماعة القوم، وقيل : النفر يغزى بهم . وقيل غير هذا . واسمآل الظل : قصر وضمر؛ وذلك عند نصف النهار .

(٢) وردت هذه الأسماء محرفة .

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فى الكتاب الذى كتبه : « أما بعد، فإنى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنتك ، وآمنت بربك ورب كل شىء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام؛ فإن أدركتك فيها ونعمت، وإن لم أدركك فآشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة ؛ فإنى من أمتك الأولين وبايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام » . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : « لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » . وكتب على عنوانه « إلى محمد بن عبد الله نبىّ الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول ربّ العالمين صلى الله عليه وسلم . من تُبّع الأول » . وقد ذكرنا بقيّة خبره وأوله فى « اللمع اللؤلؤية فى شرح العشر بينات النبوية[1] » للفارابى رحمه الله . وكان من اليوم الذى مات فيه تبع إلى اليوم الذى بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نَبيًّا أو ملِكا؛ فقال ابن عباس : كان تبع نبيًّا . وقال كعب : كان تبع ملِكا من الملوك، وكان قومه كُهّانًا وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرّب كل فريق منهم قُرْبَانًا ففعلوا، فتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تسبّوا تُبّعًا فإنه كان رجلا صالحا . وحكى قتادة أن تبعًا كان رجلا من حِمير، سار بالجنود حتى عَبَر الحِيرة وأتى سَمَرْقند فهدمها ؛ حكاه الماوردى . وحكى الثعلبى عن قتادة أنه تبع الحِميرى، وكان سار بالجنود حتى عبر الحِيرة . وبنى سَمَرْقَنْد وقتل وهدم البلاد . وقال الكلبى : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمى تبعا لأنه تَبِع مَن قبله . وقال سعيد بن جُبير : هو الذى كسا البيت الحِبَرات[2] . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمّه، وضرب بهم لقريش مثلًا لقربهم من دارهم وعِظمهم فى نفوسهم ؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم — لأنهم كانوا مجرمين — كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش . وقيل : سُمّى أولهم تبعًا لأنه اتبع قرن الشمس وسافر فى الشرق مع العساكر .

(١) اضطربت الأصول فى هذا الكتاب وفى اسم مؤلفه، ولم نعثر عليه .

(٢) الحبرات (بكسر ففتح جمع حِبَرة وحَبَرة) : ضرب من برود اليمن مُنَمَّر .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع عطف على « قَوْمُ تُبَّعٍ » . « أهلكناهم » صلته . ويكون « مِنْ قبلِهم » متعلقًا به . ويجوز أن يكون « مِن قبلهم » صلة « الذين » ويكون فى الظرف عائد إلى الموصول . وإذا كان كذلك كان «أهلكناهم» على أحد أمرين : إمّا أن يقدّر معه «قد» فيكون فى موضع الحال . أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم . والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاءِ المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين . ويجوز أن يكون « والذين من قبلِهم » ابتداء خبره «أهلكناهم» . ويجوز أن يكون « الذين » فى موضع جر عطفا على « تبع » كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم . ويجوز أن يكون « الذين » فى موضع نصب باضمار فعل دل عليه « أهلكناهم » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا عِبِينَ ﴾ أى غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل : لا هين ؛ وهو قول الكلبي . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنبياء »(١) . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى أكثر الناس . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »(٢) . ونظيره قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »(٣) . فـ«يوم الفصل » ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »(٤) أى الوقت المجعول لتمييز المسيء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا غاية فى التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القرّاء فى رفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٦ . (٢) آية ٣ سورة الممتحنة . (٣) آية ١٤ سورة الروم .
(٤) آية ١٧ سورة النبأ .

Marfat.com

« مِيقَاتُهُم » على أنه خبر « إنّ » واسمها « يَوْمَ الفَصْلِ » . وأجاز الكسائى والفَرّاء نصب « ميقاتهم » . بـ « إن » و « يوم الفصل » ظرف فى موضع خبر « إن » ؛ أى إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول. والمَوْلَى : الوَلِىّ وهو ابن العمّ والناصر . أى لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ، ولا قريبٌ عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته . ونظير هذه الآية « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا »(١) الآية . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ «مَن» رفع على البدل من المضمر فى « يُنْصَرُون » ؛ كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغنى عنه ويشفع وينصر . أو على البدل من « مَوْلًى » الأول ؛ كأنه قال : لا يغنى إلا من رحم الله . وهو عند الكسائى والفَرّاء نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين . ويجوز أن يكون استثناء متصلا ؛ أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحيمُ بأوليائه ؛ كما قال « شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ »(٢) فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء ، إلا حرفا واحدا فى سورة الدخان « إن شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » ؛ قاله

(١) آية ٤٨ سورة البقرة . (٢) آية ٣ سورة غافر .

Marfat.com

ابن الأنبارى . و ﴿ الْأَثِيمِ ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء . وكذلك قرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » والرجل يقول : طعام اليتيم ؛ فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنبارى : حدثنى أبي قال حدثنا نصر قال حدثنا أبو عبيد قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : علّم عبد الله بن مسعود رجلا « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم ؛ فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى ؛ قال فافعل . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزيغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للتعلم ، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمخشرى : « وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى أن يؤدى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى على بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسماها الشجرة الملعونة ؛ فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل ، وهو النحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِي » بالتاء حملا على الشجرة . وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن ورويس عن يعقوب « يغلى » بالياء حملا على الطعام ؛ وهو فى معنى الشجرة . ولا يحمل على المهل لأنه

Marfat.com

ذكر للتشبيه . و « الأثيم » الآثم ؛ من أَثِم يأثَم إثمًا ؛ قاله القشيري وابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب للإثم ؛ قاله يحيى بن سلام . وفي الصحاح : وقد أثِم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع في الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا . فمعنى « طَعَامُ الْأَثِيمِ » أي ذي الإثم الفاجر ؛ وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يَعِدُنا محمد أن في جهنم الزقّوم ، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر ؛ فبيّن الله خلاف ما قاله . وحكى النقّاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة « الصافات وسبحان »(١) أيضا .

قوله تعالى : خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي يقال للزبانية خذوه ؛ يعني الأثيم . ﴿ فَاعْتِلُوهُ ﴾ أي جُرّوه وسُوقوه . والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله ؛ أي تجرّه إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة . عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا إذا جذبته جَذْبا عنيفا . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال يصف فرسًا :

* نَفْرَعُهُ فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه(٢) *

وفيه لغتان : عَتَلَه وعَتَنه (باللام والنون جميعا) ؛ قاله ابن السكيت . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « فاعتِلوه » بالكسر . وضم الباقون . ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسط الجحيم . ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبي جهل بمقمع من حديد ؛ فيتفتّت رأسه عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ وجـ ١٥ ص ٨٥

(٢) القائل هو أبو النجم ؛ وقبله :

طار عن المهر نسيل ينسله * عن مفرع الكتفين حرّ عَطَلُه

Marfat.com

ثم يصبّ الملك فيه ماء حميا قد انتهى حره فيقع فى بطنه؛ فيقول الملك : ذُقِ العذاب . ونظيره « يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءوسِهِمُ الحَمِيمُ »(١) .

قوله تعالى : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنبارىّ : أجمعت العوام على كسر « إنّ » . وروى عن الحسن عن علىّ رحمه الله «ذق أنك» بفتح «أن» ، وبها قرأ الكسائىّ . فمن كسر « إن » وقف على « ذُقْ » . ومن فتحها لم يقف على « ذق » ؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم . قال قتادة : نزلت فى أبى جهل وكان قد قال : ما فيها أعزّ منّى ولا أكرم؛ فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم . وقال عكرمة : التقى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرنى أن أقول لك أوْلَى لك فأولى" فقال : بأى شىء تهدّدنى ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية . أى يقول له الملك : ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك . وقيل : هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أى قال له : إنك أنت الذليـل المهان . وهو كما قال قـوم شعيب لشعيب : « إنك لأنت الحليمُ الرَّشيدُ »(٢) يعنون السفيه الجاهل فى أحد التأويلات على ما تقدّم(٣) . وهذا قول سعيد بن جبير . ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أى تقول لهم الملائكة : إن هذا ما كنتم تشكون فيه فى الدنيا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

(١) آية ١٩ سورة الحج.
(٢) آية ٨٧ سورة هود .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٨٧

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نزل المؤمنين ونعيمهم . وقرأ نافع وابن عامر « في مُقام » بضم الميم . الباقون بالفتح . قال الكسائى : المَقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال :

* عفت الديارُ مَحَلُّها فمُقامُها (١) *

قال الجوهرى : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج وهذا مُدَحْرَجُنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس، و(بالضم) يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدرا ويقدّر فيه المضاف، أى فى موضع إقامة . ﴿ أمين ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل « من مقام أمين » . ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا . والسُّندُس : مارَقّ من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى فى « الكهف » (٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك الذى ذكرناه . فيوقف على « كذلك » . وقيل : أى كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُورًا عِينًا . وقد مضى الكلام فى العين فى « والصافات » (٣) . والحُور : البيض، فى قول قتادة والعامة، جمع حوراء . والحَوْراء : البيضاء التى يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه فى كعبها؛ كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها فى حرف ابن مسعود « بعِيس (٤) عِين » . وذكر أبو بكر الأنبارى أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدّثنا حسين

---

(١) هذا أوّل معلقة لبيد . وتمامه : * بمنًى تأبد غولها فرجامها *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكسر) : بياض يخالطه شىء من شقرة .

Marfat.com

قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ فى « حـم » الدخان « بِعِيس عِين . لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى » . والعِيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس، واحدها بعير أَعْيَس وناقة عَيْساء . قال امرؤ القيس :

يَرُعْنَ إلى صوتى إذا ما سمعنه * كما تَرْعوِى عِيطٌ إلى صوت أَعْيَسا(١)

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات(٢) البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحُور العين ليرى مُخّ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلّة، كما يُرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سُمِّيت الحُور حورا لأنهنّ يحار الطرف فى حسنهنّ وبياضهنّ وصفاء لونهنّ . وقيل : إنما قيل لهنّ حور لحوَر أعينهنّ . والحَوَر : شدّة بياض العين فى شدّة سوادها . امرأة حَوْراء بيّنة الحَوَر . يقال : احورّت عينه احورارا، واحورّ الشيء ابيضّ . قال الأصمعى : ما أدرى ما الحَور فى العَين؟ وقال أبو عمرو : الحَور أن تسودّ العين كلّها مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس فى بنى آدم حَوَر ؛ وإنما قيل للنساء : حُور العين لأنهنّ يشبّهن بالظباء والبقر . وقال العَجّاج :

* بأعينٍ مُحَوَّراتٍ حُورِ(٣) *

يعنى الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحَدَق . والعِين جمع عَيْناء ؛ وهى الواسعة العظيمة العينين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مهور الحُور العِين قبضات التمر وفِلَق الخبز " . وعن أبى قِرصافة(٤) سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القُمامة من المسجد مهور الحور العِين " . وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) العيط (جمع عيطاء) . الناقة الفتية التى لم تحمل . (٢) الثاقب : المضىء .

(٣) فى الأصول :

* بأعين محورات بيض *

والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله :

* إذ ترمى من خلل الخدور *

وبعده :

* خزر بألباب إلى صُور *

(٤) أبو قرصافة (بكسر أوله) اسمه جندرة بن خيشنة الكنانى .

Marfat.com

قال : " كنس المساجد مهور الحور العِين " ذكره الثعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا فى (كتاب التذكرة) والحمد لله .

واختلف أيمـا أفضل فى الجنـة؛ نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر آبن المبارك قال : وأخبرنا رِشْـدِين عن آبن أنْعُم عن حِبّان بن أبى جَبَـلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهنّ الجنـة فُضّلن على الحُور العِين بمـا عملن فى الدنيا . وروى مرفوعا إن " الآدميـات أفضل من الحُور العِين بسبعين ألف ضعف " . وقيل : إن الحور العين أفضل؛ لقوله عليه السلام فى دعائه : " وأبدله زوجًا خيرا من زوجه ". والله أعلم . وقرأ عكرمة « بِحُورِ عِينٍ » مضاف . والإضافة والتنوين فى « بحور عين » سواء .

قوله تعـالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ ﴾

قال قتادة : « آمنين » من المـوت والوَصَب والشيطان . وقيـل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعـالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧ ﴾

قوله تعـالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أى لا يذوقون فيها الموت ألبتّة لأنهم خالدون فيها . ثم قال : ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وأنشد سيبويه :[1]

من كان أسرع فى تفَـرُّق فالج * فلَبُونه جَرِبتْ معًا وأغـدّتِ

(١) فى كتاب سيبويه : * من كانـ أشرك *

والقائل هو عز بن دجاجة المـازنى . وفالج هذا؛ هو فالج بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بنى مازن وأساء اليه حتى رحل عنهم، ولحق ببنى ذكوان بن بهثة فنسب اليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم الى بنى أسد، فدعا هذا الشاعر المـازنى على بنى مازن حيث اضطروه فألجئ الى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم؛ لأنه لم يرض فعلهم، ولأنه قد امتحن محنة « فالج » بهم . واللبون : ذوات اللبن، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الغـدة ، وهى من أدواء الإبل كالذبحة . والفلواء : النماء والارتفاع . والمتنبت : المنمى والمغذى . و يروى بكسر الباء، ومعناه النابت النامى . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال :

إلا كاشِرةَ الذى ضيّعتمُ * كالغصن فى غُلَوائه المتنبِّت

وقيل : إن « إلا » بمعنى بعد؛ كقولك : ما كلّمت رجلا اليوم إلا رَجلا عندك؛ أى بعد رجل عندك . وقيل : « إلا » بمعنى سوى؛ أى سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »(١) . وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس . وقال القُتَبِيّ : « إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الرَّوح والرَّيحان، وكان موته فى الجنة لاتصافه بأسبابها ؛ فهو استثناء صحيح . والموت عَرَض لا يذاق ، ولكن جعل كالطعام الذى يكره ذوقه ، فاستعير فيه لفظ الذوق . ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم . ف « فضلا » مصدر عمل فيه « يَدْعُون » . وقيل : العامل فيه « ووقاهم » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذى قبله ؛ لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة . وقيل : هو من قولك فاز بكذا؛ أى ناله وظَفِر به .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى سهّلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون ويتزجرون . ونظيره « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »(٢) . ختم السورة بالحثّ على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا؛ كما قال فى مفتتح السورة : « إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ، « إنا أنزلناه فِى ليلةِ القَدْرِ » على ما تقدم . ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه

(١) آية ٢٢ سورة النساء .

(٢) آية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ سورة القمر .

Marfat.com

النقاش . وقيــل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك و بينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان . والمعنى متقارب . وقيل : ارتقب ما وعدتك من الثـواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيــل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، و إن لم يعتقدوا وقوع القيامة؛ جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم .

ســـورة الجاثيـــــة

مكّية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عبـاس وقتادة : إلا آية ، هى : « قُـلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ »[(1)] نزلت بالمدينـة فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ ذكره المـاوردى ، وقال المهدوى والنحاس عن ابن عبـاس : إنها نزلت فى عمر رضى الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبـل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ » ثم نسخت بقوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُـمْ »[(2)] . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهى سبع وثلاثون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ حمٓ ﴾ مبتدأ و ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ خبره . وقال بعضهم : « حمٓ » اسم السورة . و« تنزيل الكتاب » مبتدأ . وخبره «من الله» . والكتاب القرآن . و« العزيز» المنيع . « الحكيم » فى فعله . وقد تقدّم جميع هذا[(3)] .

قوله تعـالى : إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ

(١) آية ١٤ . (٢) آية ٥ سورة التوبة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

Marfat.com

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى فى خلقهما ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعنى المطر . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدّم جميعه مستوفًى فى «البقرة» وغيرها (١). وقراءة العامة « وما يبث من دابة آياتٌ » « وتصريف الرياح آياتٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بكسر التاء فيهما . ولا خلاف فى الأوّل أنه بالنصب على اسم « إنّ » وخبرها «فى السموات» . ووجه الكسر فى «آيات» الثانى العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ . فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكرير « آيات » لما طال الكلام ؛ كما تقول : ضربت زيدا زيدا . وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه «إنّ » على تقدير حذف «فى» ؛ التقدير: وفى اختلاف الليل والنهار آيات . فحذفت « فى » لتقدّم ذكرها . وأنشد سيبويه فى الحذف :

أكُلَّ امرئٍ تَحْسِبِين امرأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا (٢)

فحذف « كل » المضاف إلى نار المجرورة لتقدّم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على عاملين . ولم يجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «اختلاف» على قوله : « وفى خلقكم » ثم قال : « وتصريف الرياح آيات » فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا فى حال . وأما قراءة الرفع فحملا على موضع « إن » مع ما عملت فيه . وقد ألزم النحويون فى ذلك أيضا العطف على عاملين ؛ لأنه عَطَف على « واختلاف » على «وفى خلقكم» ، وعطف «آيات» على موضع «آيات» الأوّل ، ولكنه يقدّر على تكرير «فى» . ويجوز أن يرفع

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها . وجـ ١٤ ص ٥٨ (٢) البيت لأبى دؤاد الأيادى .

Marfat.com

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة . وحكى الفراء رفع « اختلاف » و « آيات » جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ أى هذه آيات الله ؛ أى حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ « يتلوها » بالياء . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن مُحَيْصِن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى « تؤمنون » بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ « ويلٌ » وادٍ فى جهنم . توعّد من ترك الاستدلال بآياته . والأفّاك : الكذاب . والإفك الكذب . « أثيم » أى مرتكب للإثم . والمراد فيما رُوى النضرُ بن الحارث . وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة . وحكى الثعلبي أنه أبو جهل وأصحابه . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى آيات القرآن . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدّها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة[1] ، وهو أن ينحَى عليها صارًّا أذنيه . و « أنْ » من « كأنْ » مخففة من الثقيلة ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضمير الشأن ؛ كما فى قوله : * كأنْ ظَبْيَة تعطُو إلى ناضر السَّلَم[2] *

(١) العانة : الأتان (الحمارة) . (٢) ويروى : الى وارق السلم . وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكرى . وصدره كما فى كتاب سيبويه والمقاصد النحوية : * ويوما توافينا بوجه مقسم * والمقسم : المحسن . و « تعطو » : تتناول . و « السلم » : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى .

Marfat.com

ومحل الجملة النصب؛ أى يصرّ مثل غير السامع . وقد تقدّم فى أوّل « لقمان » القول فى معنى هذه الآية [١] . وتقدّم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فى « البقرة » [٢] .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله فى الزقوم : إنه الزبد والتمر، وقوله فى خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذلٌّ مُخزٍ . ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز فى الدنيا والتكبر عن الحـق جهنمُ . وقال ابن عباس : « من ورائهـم جهنم » أى أمامهم ؛ نظيره « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ » [٣] أى من أمامه . قال :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى　＊　أدبّ مع الولدان أزحف كالنّسر

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أى من المـال والولد ؛ نظيره « لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » [٤] أى من المـال والولد . ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى دائم مؤلم .

قوله تعـالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر ؛ يعنى القرآن . وقال ابن عباس : يعنى كل ما جاء به محمد صلى الله عليـه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جحـدوا دلائله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٥٧　　(٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم .　　(٤) آية ١٠ سورة آل عمران .

Marfat.com

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز العذاب ؛ أى لهم عذاب من عذاب أليم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السماءِ »(١) أى عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ »(٢) أى لهم عذاب من تجرع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن مُحَيْصِن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص « اليم » بالرفع ؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز . الباقون بالخفض نعتا للرجز .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ يعنى أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام . وقرأ ابن عباس والجَحْدَرِىّ وغيرهما « جميعا مِنَّةً » بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوبا على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنَّةً » أى تفضلا وكرما . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جميعا مَنُّهُ » على إضافة المَنّ إلى هاء الكناية . وهو عند أبى حاتم خبر ابتداء محذوف ؛ أى ذلك، أو هو مَنُّه . وقراءة الجماعة ظاهرة . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ جزم على جواب « قل » تشبيها بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم .

Marfat.com

لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه ؛ قاله علىّ بن عيسى واختاره ابن العربىّ . ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به . قال ابن العربىّ : وهـذا لم يصح . وذكر الواحدىّ والقشيرىّ وغيرهما عن ابن عبـاس أن الآية نزلت فى عمر مع عبد الله بن أبىّ فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لهـا المُرَيْسِيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى ، وأبطأ عليه فقال : ما حبسك؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قِرب النبىّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبى بكر ، وملأ لمولاه . فقـال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيـل : سَمِّن كلبك يأكلك . فبلغ عمرَ رضى الله عنه قولُه فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مِهران قال : لمـا نزلت « مَنْ ذا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا[(١)] » قال يهودىّ بالمدينة يقال له فِنْحاص : احتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج فى طلبـه ؛ فجاء جبريل عليـه السلام إلى النبىّ صـلى الله عليه وسلم فقال : " إن ربّك يقول لك قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ " . وأعلم أن عمـر قد اشتمل على سيفه وخرج فى طلب اليهودى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه ، فلما جاء قال : " يا عمر ، ضع سيفك " قال : يا رسول الله ، صدقت ، أشهد إنك أرسلت بالحق . قال : " فإن ربك يقول قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله " قال : لا جرم ! والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى .

قلت : وما ذكره المهـدوىّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عبـاس ، وهو قول القُرَظىّ والسُّدّى وعليـه يتوجه النسخ فى الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينـة أو فى غزوة بنى المُصْطَلِق فليست بمنسوخة . ومعنى « يغفروا » : يعفوا ويتجاوزوا . ومعنى « لا يرجون أيام الله » : أى لا يرجون ثوابه . وقيل : أى لا يخافون بأس الله ونقمه . وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ؛ كقوله : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا[(٢)] » أى لا تخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٣ سورة نوح .

Marfat.com

مثل عذاب الأمم الخالية . والأيام يعبّر بها عن الوقائع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخافون البعث.﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قراءة العامة «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى ليجزى الله. وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر «لنجزى» بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة «لِيُجْزَى» بياء مضمومة وفتح الزاى على الفعل المجهول، «قوما» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائى : معناه ليجزى الجزاء قوما ، نظيره «وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ» على قراءة ابن عامر وأبى بكر فى سورة «الأنبياء»(1) . قال الشاعر :

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ جَرْوَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا(2)

أى لَسُبَّ السَّبُّ .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

تقدم(3) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة.﴿ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الحكم : الفهم فى الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . «والنبوة» يعنى الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الحلال

---

(1) راجع ج ١١ ص ٣٣٤ (2) قائله جرير يهجو الفرزدق . وقفيرة (بكهينة) : أم الفرزدق .

Marfat.com

من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام . وقيل : يعني المنّ والسلوى في التيه . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي على عالَمي زمانهم ؛ على ما تقدّم في « الدخان » (١) بيانه . ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس: يعني أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهل يثرب . وقيل : بيّنات الأمرِ شرائعُ واضحات في الحلال والحرام ومعجزات . ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : « إلا من بعد ما جاءهم العلم » نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسدًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : معنى « بَغْياً » أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة في اللغة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة الماء — وهي مورد الشاربة — : شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع . والشرائع في الدين : المذاهب التي شرعها الله لخلقه . فمعنى « جعلناك على شريعة من الأمر » أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق . وقال ابن عباس : « على شريعة » أي على هدًى من الأمر . قتادة: الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . مقاتل : البينة؛ لأنها

(١) راجع جـ ١٦ ص

Marfat.com

طريق إلى الحق . الكلبي : السُّـنة ؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء . ابن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة . قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغـة بمعنيين : أحدهما — بمعنى الشأن كقوله : « فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » (١) . والثاني — أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي . وكلاهما يصح أن يكون مرادا ها هنا ؛ وتقديره : ثم جعلنـاك على طريقة من الدِّين وهي ملّة الإسلام ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (٢) .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانيـــة — قال ابن العربي : ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة ، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة ، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين . وقال ابن عباس : قُريظة والنَّضير . وعنه : نزلت لمـا دعته قريش إلى دين آبائه .

قوله تعـالى : إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي ناصرهم ومعينهم . والمتقون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

(١) آية ٩٧ سورة هود . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل .

Marfat.com

قوله تعالى : هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى هذا الذى أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس فى الحدود والأحكام . وقرئ « هـذه بصائر » أى هـذه الآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشد وطريق يؤدى إلى الجنة لمن أخذ به . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى اكتسبوها . والاجتراح : الاكتساب ؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدّم فى المائدة[1] . ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ ﴾ قال الكلبي : « الذين اجترحوا » عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتبة . و « الذين آمنوا » علىّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث — رضى الله عنهم — حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم . وقيـل : نزلت فى قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون فى الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن ؛ كما أخبر الرب عنهم فى قوله : « ولئن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى[2] » . وقوله « أم حسب » استفهام معطوف معناه الإنكار . وأهل العربيـة يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقـوم يقولون : فيـه إضمار ؛ أى والله ولىّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّى بينهم . وقيل : هى أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة « سواءٌ » بالرفع على أنه خبر ابتداء مقـدّم ، أى محياهم ومماتهم سواء . والضمير فى « محياهم ومماتهم » يعود على الكفار ؛ أى محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش « سواء » بالنصب ، واختاره أبو عبيد قال : معناه

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٦   (٢) آية ٥٠ سورة فصلت .

Marfat.com

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر «ومماتهم» بالنصب؛ على معنى سواء فى محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون «محياهم ومماتهم» بدلا من الهاء والميم فى نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم. ويجوز أن يكون الضمير فى «محياهم ومماتهم» للكفار والمؤمنين جميعا. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى الضحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الدارى، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكى «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية كلها. وقال بشير: بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلى فمر بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعرى! من أى الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَى﴾ أى ولكى تجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى فى الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذى يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن

Marfat.com

شـيئا وهويه اتخذه إلهـا . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبـد الآخر . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن قيس السهمى أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . وقال سفيان بن عيينة : إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوى العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ، مجازه : أفرأيت من اتخذ هواه إلهه . وقال الشَّعْبيّ : إنما سُمِّي الهوى [هوًى] لأنه يهـوى بصاحبه فى النـار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوًى فى القرآن إلا ذمه ، قال الله تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ» (١) . وقال تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (٢) . وقال تعالى «بَلِ ٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» (٣) . وقال تعالى : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» (٤) . وقال تعالى : «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» (٥) . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لمـا جئت به " . وقال أبو أمامة سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى " . وقال شدّاد بن أوس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الكَيِّس من دان نفسه وعمِل لمـا بعد الموت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله " . وقال عليه السـلام : " إذا رأيت شُحّاً مطاعا وهوًى مُتَّبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة " . وقال صلى الله عليه وسـلم : " ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع وإعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب" . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ، فإن كان عمله

---

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) آية ٢٩ سورة الروم . (٤) آية ٥٠ سورة القصص .
(٥) آية ٢٦ سورة ص .

Marfat.com

تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح . وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب آسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ * فإذا هَويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد كَسَبت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى * فآخضع لحبّك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة * ألا يُرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها * والحر يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق
فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما * هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُّوسيّ :

والنفس إن أعطيتها مناها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوَارَى : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له : أنت عليل . قال نعم . قلت مذ كم؟ قال : مذ عرفت نفسي! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعياني الدواء ، وقد عزمت على الكَيّ . قلت وما الكي ؟ قال : مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

Marfat.com

وللعلماء في هذا الباب في ذم الهـوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيـه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى »(١) .

قوله تعـالى : ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أي على علم قد سـبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « على علم » يجوز أن يكون حالا من الفاعل ؛ المعنى : أضله على علم منه به ، أي أضله عالما بأنه من أهل الضلال في سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول ؛ فيكون المعنى : أضله في حال علم الكافر بأنه ضال . ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾(٢) أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى . ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمـزة والكسائي « غَشْوة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى في « البقرة »(٣) . وقال الشاعر :

أما والـــذى أنـا عبـــدٌ له ✽ يمينًـا ومالك أبدى اليمـــينا
لـئن كنت ألبستنى غَشْوة ✽ لقد كنت أصـفيتك الوُدّ حينا

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْـدِ اللهِ﴾ أي من بعد أن أضـله . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإماميـة ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد ؛ إذ هي مصرحة بمنعهم من الهداية . ثم قيل : «وختم على سمعه وقلبه» إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدّم في أوّل «البقرة»(٤) . وحكى ابن جريج أنها نزلت

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات . (٢) في بعض نسخ الأصل : « الهوى » بالواو .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٨٦ .

Marfat.com

فى الحـارث بن قيس من الغياطلة[(١)] . وحكى النقاش أنها نزلت فى الحـارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليـلة ومعه الوليد ابن المغـيرة ؛ فتحدثا فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَهْ ! وما دلّك على ذلك ! ؟ قال : يا أبا عبـد شمس ، كنا نسمّيه فى صباه الصادق الأمين ؛ فلما تمّ عقله وكَمُل رشـده ، نسمّيه الكذاب الخائن ! ! والله إنى لأعلم أنه لصادق ! قال : فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال : تتحدّث عنى بنـات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كِسْرة ، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا . فنزلت « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِـهِ وَقَلْبِهِ » .

قوله تعـالى : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هـذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث و إبطال للجزاء . ومعنى « نموت ونحيا » أى نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبي . وقرئ « ونُحيا » بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أى نحيا ونموت؛ وهى قراءة ابن مسعود . ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال مجاهد : يعنى السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد . وقرئ « إلا دهر يمر » . وقال ابن عيينة كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذى يهلكنا وهو الذى يحيينا و يميتنا ؛ فنزلت هـذه الآية . وقال قُطْرُب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبى ذُؤيب :

أمِن المَنُـونِ ورَيْبِهـا تَتوجَّعُ * والدهرُ ليس بمعتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : « بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل ، وكان قيس سـيد قريش فى دهره غير مدافع » . قال : « والغياطل : جمع غيطلة ، وهو الشـجر الملتف واختلاط الظلام » .

Marfat.com

وقال عكرمة : أى وما يهلكنا إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يُهْلِكنا إلا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبّون الدهر قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهرَ وأنا الدهرُ بيدى الأمر أقلّب الليل والنهار".

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصّ البخارى ولفظه . وخرجه مسلم أيضا وأبو داود. وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولنّ أحدكم ياخَيْبَة الدهر فإن الله هو الدهر" . وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب فى جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم فى هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فَنُهُوا عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم ..." الحديث . ولقد أحسن من قال، وهو أبو علىّ الثقفىّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ * لا تَلُم الدهرَ على غَدْرِه
الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ * وينتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافرٍ أموالُه جَمّةٌ * تزداد أضعافًا على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ * يزداد إيمانًا على فقره

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنىّ وذِكْرَ الدهر ! وأنشد :

فما الدهر بالجانى لشىء لحَيْنِه * ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهرا
ولكن متى ما يبعث الله باعثًا * على معشر يجعلْ مياسيرهم عُسْرا

Marfat.com

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر" ! ؟
فقلت : وهل كان أحد يسب الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إنّ محلّا وإنّ مُرْتَحَلا * وإنّ فى السَّفْر إذ مَضَوْا مَهَلا
استأثر الله بالوفاء وبالعدل * وولّى الملامةَ الرَّجُلا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قَمِيئة :

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى * فكيف بمن يُرْمَى وليس برام
فلو أنها نَبْل إذًا لاتّقيتها * ولكننى أُرْمَى بغير سهام
على الراحتين مَرّة وعلى العصا * أَنُوءُ ثلاثًا بعدهن قيامى

ومثله كثير فى الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا ربّ سواه . ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى علم . و «من» زائدة ؛ أى قالوا ما قالوا شاكين . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث فى الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين ؛ فيتأوّلون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم ؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يُلبسون على الحق، ويُغترّ بتلبيسهم الظاهر . والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر . وقيل أشاروا إلى التناسخ ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة فى جواز البعث لم يكن ثَمَّ دَفْعٌ ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبر كان، والاسم «إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا» الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردّ الله عليهم بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعنى بعد كونكم نُطَفًا أمواتا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كما أحياكم فى الدنيا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم . الزمخشرى : « فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدْلَوْا به كما يُدْلِي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسُمِّيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تَحِيَّةُ بينهم ضَرْبٌ وَجِيعُ *(١)

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجة ألْبَتَّةَ . فإن قلت : كيف وقع قوله « قل الله يحييكم » جواب « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكِّت ألزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغَوْا إلى داعى الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه » .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ « يوم » الأول منصوب بـ « يَخْسَر » و « يومئذ » تكرير للتأكيد

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب . وصدره :		* وخيل قد دلفت لها بخيل *

يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا بدلا من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليف : مقاربة الخطو فى المشى .

Marfat.com

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل في « يومئذ » « يَخْسَر » ، ومفعول « يَخْسَر » محذوف ؛ والمعنى يَخْسَرُون منازلهم في الجنة .

قوله تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي من هَوْل ذلك اليوم . والأُمّة هنا : أهلُ كل ملة . وفي الجاثية تأويلات خمس : الأول — قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثاني — مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث — متميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع — خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُؤَرِّج . الخامس — باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجَثْوُ : الجلوس على الركب . جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى في « مريم »[1] . وأصل الجثوة[2] : الجماعة من كل شيء . قال طَرَفة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَين من تراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ[3]

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيي بن سلام . وقيل : إنه عام للؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كأني أراكم بالكَوْم[4] جاثين دون جهنم" ذكره الماوردي . وقال سلمان : إن في يوم القيامة لساعة هي عشر سنين يَخِرّ الناس فيها جُثاةً على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي "لا أسألك اليوم إلا نفسي" . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيي ابن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ؛

---

(١) راجع ج ١١ ص ١٣٢ . (٢) مثلثة الجيم .

(٣) الصم : الصلب . والمنضد : الذي جعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : المواضع المشرفة .

Marfat.com

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كتابها » ما كتبت الملائكة عليها . وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمى « كُلَّ أمةٍ » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما فى الثانية من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جُثُوها شيء من حال شرح الجثو كما فى الثانية من ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها . وقيل : انتصب بإعمال « ترى » مضمرا . والرفع على الابتداء . ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعالى : هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى يشهد . وهو استعارة؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أى بيّن . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم؛ دليله قوله : « وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »(١) . وفى المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٢) وقد تقدّم(٣) . و « يَنْطِقُ » فى موضع الحال من الكتاب، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا، أو يكون « كتابنا » بدلا من « هذا » و « ينطق » الخبر . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى نأمر بنسخ ما كنتم تعملون . قال علىّ رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بنى آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكّل ملائكة مطهّرين فينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمال بنى آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظة

(١) آية ٤٩ سورة الكهف   (٢) آية ٦٢ سورة المؤمنون .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ و جـ ١٢ ص ١٣٤ .

Marfat.com

على بنى آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نُسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحول المباحات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم ذلك . وهو استفهام توبيخ . ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن قبولها . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين تكسبون المعاصى . يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم ؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصى . وقد قال الله تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »(١) فالمجرم ضد المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى البعث كائن . ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة « والساعةَ » بالنصب عطفا على « وَعْدَ » . الباقون بالرفع على الابتداء ، أو العطف

---

(١) آية ٣٥ سورة القلم .

Marfat.com

على موضـع « إن وعد الله » . ولا يحسن على الضمير الذى فى المصـدر ؛ لأنه غير مؤكد ، والضمير المرفوع إنمـا يعطف عليه بغير تأكيد فى الشعر . ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ هل هى حق أم باطل . ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ تقديره عنـد المبرد : إن نحن إلا نظن ظنـاً . ﴿ وما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أن الساعة آتية .

قوله تعـالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَبَدا لَهـُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أى ظهر لهـم جزاء سيئات ما عملوا . ﴿ وحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى نزل بهم وأحاط . ﴿ ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من عذاب الله .

قوله تعـالى : وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم لقاء يومكم هـذا ؛ أى تركتم العمل له . ﴿ ومَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى مسكنكم ومستقركم . ﴿ وَما لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ من ينصركم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَـذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يعنى القـرآن . ﴿ هُزُوًا ﴾ لعبـا . ﴿ وغَرَّتْكُمُ الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى خدعتـكم بأباطيلها و زخارفها ؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها ، وأن لا بعث . ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون . وقد تقدّم (١) . وقرأ حمزة والكسائى « فاليوم لا يَخْرُجُون » بفتح الياء وضم الراء ؛ لقوله تعالى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٦٢ و جـ ١٤ ص ٤٩ و جـ ١٥ ص ٣٥٣

Marfat.com

« كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا »[١] الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا » . ونحوه .

قوله تعالى : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن « رَبُّ السموات وربُّ الأرض رَبُّ العالمين » بالرفع فيها كلها على معنى هو رَبُّ . ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ والله أعلم .

ســورة الأحقاف

مكية فى قول جميعهم . وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدّم[٢] . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ تقدّم أيضا . ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى القيامة ؛ فى قول ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

(١) آية ٢٠ سورة السجدة . (٢) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

Marfat.com

المقدور لكل مخلوق . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا ﴾ خُوِّفُوه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ مُوَلُّون لاهون غير مستعدّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أى عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أى نصيب ﴿ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى فى خلق السموات مع الله . ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى من قبل هذا القرآن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة « أو أثارة » بألف بعد الثاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب فى الأرض " . ذكره المهدوى والثعلبي . قال ابن العربى : ولم يصح . وفى مشهور الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " كان نبيّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك " ولم يصح أيضا .

قلت : هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمى ؛ خرجه مسلم . وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجى)(١) قال حدّثنا محمد بن بندار قال حدّثنا يحيي بن سعيد عن سفيان الثورى عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل « أو أثارة من علم » قال " الخط " وهذا صحيح أيضا . قال ابن العربى : واختلفوا فى تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه النسبة .

Marfat.com

ومنهم من قال جاء للنهى عنـه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبيّ المتقدّم فيه ؛ فإذًا لا سبيل إلى العمل به . قال :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا (١) * ولا زاجراتُ الطـير ما الله صانـع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليـه تلك الكواكب من سـعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظناً مبنياً على ظن ، وتعلقاً بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها فى درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مزاحمته فى ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهى ؛ فإذ وقـد ورد النهى فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ما اختاره هو قول الخطابى . قال الخطابى : قوله عليـه السلام : " فمن وافق خطه فذاك " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطى لذلك . قال القاضى عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة — فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذى يجدون إصابتـه ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم . وحكى مكى فى تفسـير قوله : "كان نبى من الأنبياء يخط" أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى فى الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس فى تفسير قوله " ومنـا رجال يخطون" : هو الخط الذى يخطه الحازى (٢) فيعطى حُلوانا فيقول : اقعد حتى أخط لك ؛ وبين يدى الحازى غلام معه ميـل ثم يأتى إلى أرض رخوة فيخط الأسـتاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين ، فإن بقى خطان فهو علامة النجح ، وإن بقى خط فهو علامة الخيبة . والعرب تسميه الأسحم وهو مشئوم عندهم .

(١) البيت للبيد . والرواية فيه : « الطوارق » بدل « الضوارب » . والطارق : الضرب بالحصا . والطوارق المتكهنات . (٢) الحازى : الكاهن .

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْق من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوّة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما . والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ؛ فإن سمع مكروها فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسرورا . وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجْله ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللَّهُمّ لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك". وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم * مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى في الطِّيَرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في « المائدة »(١) وغيرها . ومضى في « الأنعام »(٢) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على مَجْرَى العادة . وقد يختلف مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر ؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر . وكما أنه جائز أيضا ألا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدّم في « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنداد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » يريد الخط . وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه . وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيَل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : "يحدث الناس فجورا فتحدث لهم أقضية" . فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه ، أشهدنا على

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢

Marfat.com

ما فيه وإن لم يعلموا ما في الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك — فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به . وقيل : « أو أثارة من علم » أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفي الصحاح «أو أثارة من علم» بقية منه . وكذلك الأثَرة (بالتحريك) . ويقال : سمِنت الإبل على أثارة؛ أي بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردي والثعلبي قول الراعي :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها * نباتا في أكِمَّته ففارا

وقال الهَرَوِيّ : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ما ثَمّ عين ولا أثر . وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » خاصة من علم . وقال مجاهد : روايةٌ تأثرونها عمن كان قبلكم . وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء . وقال القُرَظي : هو الإسناد . الحسن : المعنى شيء يثار أوْ يستخرَج . وقال الزجاج : «أَوْ أَثَارَةٍ» أي علامة . والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأثْر، وهي الرواية ؛ يقال : أثرت الحديث آثُرُه أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك . ومنه قيل : حديث مأثور ؛ أي نقله خَلَف عن سَلَف . قال الأعشى :

إن الذى فيه تماريتُما * بُيِّنَ للسامع والآثر

ويروى « بَيَّن » وقرئ « أَوْ أُثْرَة » بضم الهمزة وسكون الثاء . ويجوز أن يكون معناه بقية من علم . ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأوّلين . والمأثور : ما يتحدّث به مما صح سنده عمن تحدث به عنه . وقرأ السُّلَمي والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أي خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم . وروى عن الحسن أيضا وطائفة « أَثْرة » مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبي والثانيةَ الماوردي . وحكى الثعلبي عن عكرمة : أو ميراث من علم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأولها المعقول، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

Marfat.com

الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائتوني بِكِتَابٍ مِن قبلِ هذا » فيه بيان أدلة السمع « أو أثارة من علم » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أى لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهي الأوثان . ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم ؛ إذ قد مثّلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم .

قوله تعالى : وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أى هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . فالملائكة أعداء الكفار ، والجنّ والشياطين يتبرءون غدًا من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »[1] . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

---

(١) آية ٦٣ سورة القصص .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أى تقوّله محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا . ومعنى الهمزة فى « أم » الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا وٱسمع قولهم المستنكر المقضىّ منه العجب . وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريَه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى لا تقدرون على أن تردّوا عنى عذاب الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تقولونه ؛ عن مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفاضة فى الشىء : الخوض فيه والاندفاع . أفاضوا فى الحديث أى اندفعوا فيه . وأفاض البعير أى دفع جِرّته من كَرِشه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

* وأفضن بعد كُظومهنّ بجِرّة * (1)

---

(1) هذا عجز بيت للراعى ، وصدره كما فى معجم البلدان لياقوت فى « حقيل » :

* من ذى الأبارق إذ رعين حقيلا *

وذو الأبارق وحقيل : موضع واحد . يقول : كن كظوما من العطش (والكاظم من الإبل الذى أمسك عن الجرة) ، فلما ابتل ما فى بطونها أفضن بجرة .

Marfat.com

وأفاض الناس من عرفاتٍ إلى مِنًى أى دفعوا، وكل دَفعة إفاضة . ﴿ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا ﴾ نصب على التمييز . ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى هو يعلم صدق وأنكم مبطلون . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى أول من أرسل، قد كان قبلى رسل ؛ عن ابن عباس وغيره . والبِدْع : الأوّل . وقرأ عكرمة وغيره « بِدَعا » بفتح الدال ، على تقدير حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بدَع . وقيل : بِدْع وبديع بمعنًى ؛ مثل نصف ونصيف . وأبدع الشاعر : جاء بالبديع . وشيء بِدْع (بالكسر) أى مبتدَع . وفلان بِدْعٌ فى هذا الأمر أى بديع . وقوم أبداع ؛ عن الأخفش . وأنشد قُطْرُب قول عدىّ بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادثَ تعترى ＊ رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعدِ[1]

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يُفعل به؛ فنزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[2] فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»[3] الآية . ونزلت «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا»[4] . قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك . وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

(١) هذا رواية البيت كما فى نسخ الأصل . والذى فى شعراء النصرانية :

فلست بمن يخشى حوادث تعترى ＊ رجالا فبادروا بعد بؤس وأسعد

(٢) آية ٢ سورة الفتح .　(٣) آية ٥ سورة الفتح .　(٤) آية ٤٧ سورة الأحزاب .

Marfat.com

ابن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتُوُفِّي، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب! إن الله أكرمك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله أكرمه" ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟ ! قال: "أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني لأرجو له الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي ولا بكم" . قالت : فوالله لا أزكّي بعده أحدًا أبدًا . ذكره الثعلبي، وقال : وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه، وإنما غفر الله له ذنبه في غَزْوَة الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمِّ العلاء خرّجه البخاريّ ، وروايتي فيه : "وما أدري ما يُفعل به" ليس فيه "بي ولا بكم" وهو الصحيح إن شاء الله، على ما يأتي بيانه . والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر . قال النحاس : محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أوّل السورة إلى هذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين "ما أدري ما يفعل بي ولا بكم" في الآخرة ؛ ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أوّل مبعثه إلى ممـاته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان وآتبعه وأطاعه فهو في الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم في الآخرة . وليس يجوز أن يقول لهم ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب . والصحيح في الآية قول الحسن ، كما قرأ على بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا أبو بكر الهذلي عن الحسن «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا» قال أبو جعفر : وهذا أصح قول وأحسنه ، لا يدري صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»(1) . وذكر الواحدي وغيره عن الكلبي عن أبي صالح عن

(1) آية ١٨٨ سورة الأعراف .

Marfat.com

ابن عباس : لمـا اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنـام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجـر وماء ؛ فقصّها على أصحـابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا ممـا هم فيـه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهـاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت النبيّ صلى الله عليـه وسلم فأنزل الله تعـالى : « وما أدرِى ما يُفعل بِى ولا بِكم » أى لا أدرى أأخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أم لا . ثم قال : " إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحَى إلىّ " أى لم يوح إلىّ ما أخبرتكم به . قال القُشَيرى : فعلى هذا لا نسخ فى الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض علىّ وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخَّرون .

قلت : وهو معنى قـول الحسن والسُّدِّى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه فى الجنة حين أخذ ميثاقه فى الرسل ، ولكن قال ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلى ؛ ولا أدرى ما يفعل بكم ؛ أأمتى المصدّقة أم المكذّبة ، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قذْفًا ، أو مخسوفٌ بها خسْفًا ؛ ثم نزلت « هو الذِى أرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » (١) . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال فى أمته : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » (٢) فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته ؛ ولا نسخ على هذا كله ، والحمد لله . وقال الضحاك أيضا : " ما أدرى ما يفعـل بى ولا بكم " أى ما تؤمرون به وتنهون عنـه . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى القيامة ؛ ثم بيّن الله تعالى ذلك فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » وبيّن فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأول ؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان ، وأنه أمر أن يقول ذلك للؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره . و « ما » فى « ما يفعل » يجوز أن

(١) آية ٣٣ سورة التوبة . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

Marfat.com

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقرئ « يوحِى » أى الله عز وجل . تقدّم فى غير موضع .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعنى القرآن . ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سَلَام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور فى التوراة، وأنه نبىّ من عند الله . وفى الترمذى عنه : ونزلت فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ « وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (١) . وقد تقدّم فى آخر سورة «الرعد» . وقال مسروق : هو موسى والتوراة، لا ابن سَلَام؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية . وقال : وقوله « وكفرتم به » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بنى إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين، والسورة مكية . قال القُشَيْرِىّ : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سَلَام قبل موت النبىّ صلى الله عليه وسلم بعامين . ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع فى سورة مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبىّ صلى الله عليه وسلم ضعوها فى سورة كذا . والآية فى محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود فى أشياء ، أى شهادتهم لهم وشهادة نبيّهم لى من أوضح الحجج . ولا يبعد أن تكون السورة فى محاجة اليهود، ولما جاء ابن سَلَام مُسْلمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله، اجعلنى حَكَمًا بينك وبين اليهود؛ فسألهم عنه : " أىّ رجلٍ هو فيكم " قالوا : سيّدُنا وعالمنا . فقال : " إنه قد آمن بى " فأساءوا القول فيه .. الحديث،

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥

Marfat.com

وقد تقدّم (١) . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سَلاَم ، وقالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك؛ فسئل فشهد ثم أسلم. ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أى على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن . وقال الجُرْجَانى . « مِثْل » صلة ، أى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . ﴿ فَآمَنَ ﴾ أى هذا الشاهد. ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن الإيمان. وجواب « إن كان » محـذوف تقديره : فآمن أتؤمنون؛ قاله الزجاج . وقيل : « فآمن واستكبرتم » ألَيس قد ظلمتم؛ يبيّنه ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقيل : «فآمن واستكبرتم» أفتأمنون عذاب الله . و « أرأيتم » لفظ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضى مفعـولا . وحكى النقاش وغيره : إن فى الآية تقديما وتأخيرا، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْـهِ ﴾ اختلف فى سبب نزولها على ستّة (٢) أقوال :

الأوّل — أن أباذرّ الغفارى دعاه النبيّ صلى الله عليـه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومـه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه؛ فنزلت هذه الآية، قاله أبو المتوكل .

الثـانى — أن زِنِّيرة (٣) أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللاتُ والعُزّى ؛ فردّ الله عليها بصرها . فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنِّيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ قاله عروة بن الزبير .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥ (٢) كذا فى نسخ الأصل . و يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر خمسة أقوال .

(٣) زنيرة (بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات الى الاسلام ، وممن يعذب فى الله ، وكان أبو جهل يعذبها ، وهى من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصدّيق وأنقذهم من التعذيب .

Marfat.com

الثالث — أن الذين كفروا هم بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشجع ، قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة : لوكان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رعاة البهم إذ نحن أعز منهم ؛ قاله الكلبي والزجاج ، وحكاه القشيري عن ابن عباس . وقال قتادة : نزلت فى مشركى قريش ، قالوا : لوكان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بلال وصهيب وعمار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس — أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبـد الله بن سلام وأصحابه : لوكان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبي . وقال مسروق : إن الكفار قالوا لوكان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ؛ فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار فى قولهم : لوكان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لوكان ما أنتم عليـه خيرا ما عدلنا عنه ، لوكان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه ؛ ذكره المـاوردى . ثم قيل : قوله « ما سبقونا إليه » يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ، كقوله تعالى « حَتَّى إذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »(١) . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ يعنى الإيمان . وقيل القرآن . وقيل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أى لمـا لم يصيبوا الهـدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادوه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا هذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأولين . وقيـل لبعضهم : هل فى القرآن : من جهل شيئا عاداه ؟ فقال نعم ؟ قال الله تعالى : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ومثله « بل كَذَّبوا بمـا لم يُحيطوا بعلمه »(٢) .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) آية ٢٢ سورة يونس . (٢) آية ٣٩ سورة يونس .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أى ومن قبل القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ أى التوراة ﴿إِمَاماً﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله . وفى الكلام حذف؛ أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان فى التوراة نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمانُ به فتركوا ذلك . و « إماماً » نصب على الحال؛ لأن المعنى : وتقدّمه كتاب موسى إمامًا . «ورحمةً» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل؛ أى أنزلناه إماما ورحمة . وقال الأخفش : على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألفا ولاما صارت معرفة . ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ يعنى للتوراة ولما قبله من الكتب . وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿لِسَاناً عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أى مصدّق لما قبله عربيا ، و « لسانا » توطئة للحال أى تأكيد ؛ كقولهم : جاءنى زيد رجلا صالحا ؛ فتذكر رجلا توكيدا . وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدّق أعنى لسانا عربيا . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربى . وقيل : إن لسانا مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه معجزته ؛ والتقدير : مصدّق ذا لسان عربى . فاللسان منصوب بمصدّق، وهو النبى صلى الله عليه وسلم . ويبعد أن يكون اللسان القرآن ؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه . ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قراءة العامة « لينذر » بالياء خبرا عن الكتاب ؛ أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقرأ نافع وابن عامر والبَزّى بالتاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » . ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ « بشرى » فى موضع رفع؛ أى وهو بشرى . وقيل : عطفًا على الكتاب؛ أى وهذا كتاب مصدّق وبشرى . ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض ؛ أى لينذر الذين ظلموا وللبشرى ؛ فلما حذف الخافض نصب . وقيل : على المصدر ؛ أى وتبشر المحسنين بشرى؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب ؛ كما تقول : أتيتك لأزورك ، وكرامة لك وقضاء لحقك ؛ يعنى لأزورك وأكرمك وأقضى حقك؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية تقدم معناها[1] . وقال ابن عباس : نزلت فى أبى بكر الصديق . والآية تعم . ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه ، فقد يطيعهما وقد يخالفهما ؛ أى فلا يبعد مثل هذا فى حق النبىّ صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض ؛ قاله القشيرىّ .

الثانيــة — قوله تعالى : « حسنا » قراءة العامة « حُسْنًا » وكذا هو فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إِحْسَانًا » وحجتهم قوله تعالى فى سورة (الأنعام وبنى إسرائيل) : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[2] وكذا هو فى مصاحف الكوفة . وحجة القراءة الأولى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »[3]

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧ (٢) آية ١٥١ سورة الأنعام، ٢٣ سورة الإسراء . (٣) آية ٨

Marfat.com

ولم يختلفوا فيها . والحُسْن خلاف القُبح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر . وقد مضى القول فى هذا وفيمن نزلت[١] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أى بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . واختاره أبو عبيد، قال : وكذلك لفظ الكره فى كل القرآن بالفتح إلا التى فى سورة البقرة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ »[٢] لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرْهًا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعف والشُّهْد والشَّهْد؛ قاله الكسائى، وكذلك هو عند جميع البصريين. وقال الكسائىّ أيضا والفرّاء فى الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره؛ أى قهرا وغصبا؛ ولهذا قال بعض أهل العربية : إن كرها (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، و إن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا . وروى أن عثمان قد أُتِىَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضى عليها بالحدّ؛ فقال له علىّ رضى الله عنه : ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها . وقد مضى فى « البقرة »[٣] . وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر فى ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نُطْفَة وعَلَقَة ومُضْغَة فلا يكون له ثقل يُحَس به ، وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ »[٤] . والفصال الفطام . وقد تقدّم فى « لقمان »[٥] الكلام فيه . وقرأ الحسن و يعقوب وغيرهما « وفَصْله » بفتح الفاء وسكون الصاد . وروى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق، وكان حمله وفصاله فى ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا . وفى الكلام إضمار؛

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ (٢) آية ٢١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ وما بعدها .
(٤) آية ١٨٩ سورة الأعراف . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٦٤ وما بعدها .

Marfat.com

أي ومدّة حمله ومدّة فصاله ثلاثون شهرا ؛ ولولا هـذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغيّر المعنى .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال ابن عباس : ثمانى عشرة سنة . وقال فى رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سـنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلا فيـه سدرة ، فقعد النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدِّين . فقال الراهب : مَن الرجل الذى فى ظل الشـجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبـد الله ابن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبيّ ، وما آستظل أحد تحتها بعد عيسى . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ؛ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره وحضره . فلما نُبِّئ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن أربعين سـنة ، صدّق أبو بكر رضي الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن ثمانية وثلاثين سـنة . فلما بلغ أربعين سـنة قال : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ » الآية . وقال الشـعبيّ وابن زيد : الأشُدّ الحُلُم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنه قيام الحجة عليه . وقد مضى فى « الأنعام » الكلام(١) فى الآية . وقال السدى والضحاك : نزلت فى سعد بن أبى وقاص . وقد تقدّم(٢) . وقال الحسن : هى مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى ألهمنى . ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ فى موضع نصب على المصـدر ؛ أى شكر نعمتك ﴿ عَلَيَّ ﴾ أى ما أنعمت به علىّ من الهـداية ﴿ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربيانى صغيرا . وقيـل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية وعلى والدىّ بالغنى والثروة . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ! أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك مَن بعده . ووالده هو أبو قحـافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم . وأمّه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ و جـ ١٤ ص ٦٣

Marfat.com

أم الخير ، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأم أبيه أبى قحافة « قَيْلة » (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبى بكر الصدّيق اسمها « قُتيلة » (بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العُزّى . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذّبون فى الله منهم بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائما " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن تبع منكم اليوم جنازة " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن أطعم منكم اليوم مسكينا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن عاد منكم اليوم مريضا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتمعن فى آمرئ إلا دخل الجنة " .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أى آجعل ذريتى صالحين . قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده و بناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبد الله : المعنى اجعلهم لى خَلَف صِدق ، ولك عبيد حق . وقال أبو عثمان : اجعلهم أبرارا لى مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفقهم بصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن على : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا . وقال مالك بن مِغْوَل : اشتكى أبو معشر آبنَه إلى طَلْحة بن مُصَرِّف؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذى كنت عليه . ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى المخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ « يَتَقَبَّلُ ، وَيَتَجَاوَزُ » بفتح الياء ؛ والضمير فيهما يرجع لله عز وجل . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما ؛ أى نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشىء إذا لم تقف عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التى قبلها « ووصينا الإنسان » إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى « نتقبل عنهم » أى نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم — ويحكيه مرفوعا — : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضى الثواب من الطاعات ، وليس فى الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ « فى » بمعنى مع ؛ أى مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك فى جميع أهل البلد ، أى مع جميعهم . ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله ؛ أى وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق . وهو من باب إضافة الشىء إلى نفسه ؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذى وعده الله ؛ وهو كقوله تعالى : « حَقُّ الْيَقِينِ »(١) . وهذا عند الكوفيين ، فأما عند البصريين فتقديره : وعد الكلام الصدق أو الكتاب الصدق ، فحذف الموصوف . وقد مضى هذا فى غير موضع(٢) . ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٥٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى أن أبعث . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما « أُفٍّ » مكسور منون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم « أفَّ » بالفتح من غير تنوين . الباقون بالكسر غير منون؛ وكلها لغات، وقد مضى فى « بنى إسرائيل »(١) . وقراءة العامة « أتعدانِنِى » بنونين مخففتين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقون . وقرأ أبو حَيْوَة والمغيرة وهشام « أتعدانّى » بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام . والعامة على ضم الألف وفتح الراء من « أن أُخرج » . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عباس والسُّدِّى وأبو العالية ومجاهد : نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام و يعدانه بالبعث؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه . و روى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت أن تكون نزلت فى عبد الرحمن . وقال الحسن وقتادة أيضا : هى نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ » أى العذاب، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيح أنها نزلت فى عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه . وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان ابن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّة(٢)، أتبايعون لأبنائكم! فقال مروان : هو الذى يقول الله فيه «والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما» الآية . فقال : والله ما هو به، ولو شئت لسمّيت، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه، فأنت فَضَضٌ(٣) من لعنة الله . قال المهدوِىّ : ومن جعل الآية فى عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك « أولئك الذين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٢ .

(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

(٣) كل ما انقطع من شىء أو تفرق فهو فضض ؛ أراد أنك قطعة وطائفة منها .

Marfat.com

حَقّ عليهم القول» يراد به من اعتقد ما تقدّم ذكره؛ فأول الآية خاص وآخرها عام . وقيل : إن عبد الرحمن لما قال « وقد خلت القرون من قبلى » قال مع ذلك : فأين عبد الله آبن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون . فقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبى بكر فى سورة « الأنعام » عند قوله « له أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُدَى »(1) ما يدل على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » . ﴿ وَهُمَا ﴾ يعنى والديه . ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى يدعوان الله له بالهداية . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء ؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفرّاء : أجاب الله دعاءه وغُوَاثه . ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أى صدّق بالبعث . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى صدْق لا خلف فيه . ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا ﴾ أى ما يقوله والداه . ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعنى الذين أشار إليهم آبن أبى بكر فى قوله أحْيُوا لى مشايخ قريش ، وهم المعنيّون بقوله « وقد خلت القرون من قبلى » . فأما آبن أبى بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه فى قوله « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» على ما تقدّم . ومعنى «حَقّ عليهم القولُ» أى وجب عليهم العذاب، وهى كلمة الله : "هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى" . ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أى مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدمت ومضت . ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أى ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سِفالا، ودرج أهل الجنة عُلُوًّا . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو و يعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إنّ وعد الله حقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » وهو اختيار أبى عبيد . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أى ذكّرهم يا محمد يوم يعرض . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم ؛ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير « أأذهبتم » بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حَيْوة وهشام « آذهبتم » بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام . الباقون بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبّخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدّم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبى عمرو وحمزة والكسائى، مع من وافقهم شيبة والزهرى وابن محيصن والمغيرة بن أبى شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلّة الناس . وترك الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ؛ يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ؛ يُوَبِّخ ويقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

Marfat.com

« أذهبتم طَيِّبَاتِكم » أى تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعنى المعاصى .
﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى عذاب الخزى والفضيحة. قال مجاهد : الهون الهوان.
قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق .
﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فى أفعالكم بغيًا وظلمًا . وقيل : « أذهبتم طيباتكم » أى أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوة؛ مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه؛ أى شبابه وقوته . قال الماوردىّ : ووجدت الضحاك قاله أيضا .

قلت : القول الأوّل أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاءً وصِنابا وصَلائِق، ولكنى استبقى حسناتى ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » وقال أبو عبيد فى حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة . وفى بعض الحديث : وأفلاذ. قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء؛ سُمِّى بذلك لأنه يُصْلَى بالنار . والصِّلاء أيضا : صلاء النار؛ فإن فتحت الصاد قصرت وقلت : صَلَى النار . والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب . قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبِرْذَوْن : صِنابِىّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك . قال : والسلائق (بالسين) هو مايسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هى الصلائق بالصاد؛ قال جرير :

تُكَلِّفُنِي معيشةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالصَّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »(١) .
وأما الكراكر فكراكر الإبل، واحدتها كِركِرة وهى معروفة ؛ هذا قول أبى عبيد .
وفى الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير، وهى إحدى الثفنات الخمس . والكِركِرة أيضا الجماعة من

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩٨

Marfat.com

الناس . وأبو مالك عمرو بن كِركِرة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهى القطعة من الكَبِد . قال أعشى باهلة :

تَكْفِيــهِ حُــزَّةُ فِلْذٍ إن ألَمّ بهــا * من الشِّــواء ويُرْوِى شُرْبَهُ الغُمَرُ (١)

وقال قتادة : ذكر لنا أن عمر رضى الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى للآخرة . ولما قدم عمر الشام صُنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ! فقال خالد آبن الوليد : لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام ، وذهبوا هم فى حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيدا . وفى صحيح مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى مَشْرُبته (٢) حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يردّ البصر إلا أهبًا (٣) جلودا معطونة قد سطع ريحها، فقلت : يارسول الله، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كِسرى وقَيصر فى الدِّيباج والحرير ؟ قال : فآستوى جالسا وقال : "أفى شَكٍّ أنت يابن الخطاب . أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا" فقلت : استغفر لى ! فقال : "اللّهمّ آغفر له" . وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخبز والزيت ، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقَديد، وأقلّ ذلك اللحم الغريض (٤) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كلّه ؛ فجىء بخبز متفلع (٥) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا، فجعلنا لا نأكل، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا، فقال : يابن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أن لو أمرتُ بعَناق (٦) سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تُخرج مَصْلِيّة (٧) كأنها كذا وكذا ،

---

(١) الغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير .
(٢) المشربة (بفتح الميم والراء) : الموضع الذى يشرب منه الناس . (وبضم الراء وفتحها) : الغرفة .
(٣) بضم الهمزة والهاء، وبفتحهما على غير قياس؛ جمع إهاب؛ وهو الجلد . (٤) الغريض : الطرى .
(٥) فى نسخة من الأصل : « متقلع » بالقاف . والمتفلع : المشقق . (٦) العناق : الأنثى من ولد المعز؛ والجمع أعنق وعنوق . (٧) الصلاء (بالكسر) : الشواء .

Marfat.com

أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشُنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل(١) ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم فى العيش! ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : « أذهبتم طيّباتِكم فِى حياتِكم الدنيا واستمتعتم بِها ». ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله . ﴿ وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله . وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ؛ فقال : أوكلما اشتهى أحدكم شيئا جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الآية . قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيّبا كان أو قَفارا(٢) ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسّر؛ ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دَيْدَنا . ومعيشة النبىّ صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهَب الإخلاص ، ويُعين على الخلاص برحمته . وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : «أجاد» .

(٢) القفار (بالفتح) : الطعام بلا أدم .

Marfat.com

تناول الطيب الحلال مأذون فيـه ، فإذا ترك الشكر عليـه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليـه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين . ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ أى آذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود ليقتدى به ، ويهون عليـه تكذيب قومه له . والأحقاف : ديار عاد ، وهى الرمال العظام ؛ فى قول الخليـل وغيره . وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم . والأحقاف جمع حِقْف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم وآعوج ولم يبـلغ أنِ يكون جبلا ، والجمـع حِقاف وأحقاف [وحقوف] . وآحقوقف الرمل والهلال أى آعوج . وقيل : الحقف جمع حِقاف . والأحقاف جمع الجمع . ويقال : حِقْفٌ أحقف . قال الأعشى :

* بات إلى أرطـاة حِقف أحْقَفَا (١) *

أى رمل مستطيل مشرف . والفعل منه آحقوقف . قال العجاج :

طـىَّ الليـالى زُلَفًا فزلفـا * سَماوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أى انحنى واستدار . وقال امرؤ القيس :

كحِقف النقا (٢) يمشى الوليـدَانِ فوقه * بمـا احتسبا من لِين مَسٍّ وتَسْهالِ

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيه . فقال ابن زيد : هى رمال مشرفة مسـتطيلة كهيئة الجبـال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ؛ وشاهـده ما ذكرناه . وقال قتادة : هى جبال

(١) هذا الرجز نسبه الطبرى فى تفسـيره الى العجاج ؛ ولم نعثر عليـه فى شعر الأعشى ولا فى أراجيز العجاج . والأرطاة : جمعه أرطى ، وهو شجر من شجر الرمل .   (٢) النقا : الكثيب من الرمل .

Marfat.com

مشرفة بالشَّحْر، والشِّحْرُ قريب من عدن؛ يقال : شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن . وعنه أيضا : ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن ، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشّحْر . وقال مجاهد : هى أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف . وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها . قال النابغة :

فأصبح عاقلًا بجبال حِسْمَى * دُقاقَ التُّرْب مُحْتَزِمَ القَتامِ[1]

قاله الجوهرى . وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام . وعن ابن عباس أيضا : وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بواد يقال له مهرة، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيّة[2]؛ فيقال : إبل مَهْرِيّة ومَهارِى . وكانوا أهل عُمُدٍ سيّارة فى الربيع فإذا هاجَ[3] العود رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نَضب عنه الماء زمان الغرق ، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره . وروى الطُّفيل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : خيرُ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بمكة ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند . وشرُّ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار . وخير بئر فى الناس بئر زمزم . وشر بئر فى الناس بئر بَرَهُوت، وهو فى ذلك الوادى الذى بحضرموت . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أى مضت الرسل . ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى من قبل هود . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى ومن بعده ؛ قاله الفرّاء . وفى قراءة ابن مسعود « من بين يديه ومن بعده » . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذا من قول المرسل ، فهو كلام معترض . ثم قال هود ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل «ألا تعبدوا إلا الله» من كلام هود ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

(١) قال ابن برّى : «أى حسمى قد أحاط به القتام كالحزام له» . (٢) فى معجم البلدان لياقوت وكتب اللغة أن الإبل المهرية تنسب الى مهرة بن حيدان أبو قبيلة . (٣) هاج البقل : إذا أخذ فى اليبس .

مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لتزيلنا عن عبادتها بالإفك. الثاني — لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع؛ قاله الضحاك . قال عُرْوة بن أُذَيْنة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ * فُـوكًا ففى آخرين قـد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أنك نبى. ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجيء العذاب. ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ لا عندى. ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ عن ربكم. ﴿ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى سؤالكم استعجال العذاب. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ قال المبرد: الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير مذكور؛ وبيّنه قـولُه : « عَارِضًا » فالضمير يعود إلى السحاب ؛ أى فلما رأوا السحاب عارضا . و« عارضا » نصب على التكرير؛ سُمِّى بذلك لأنه يبـدو فى عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قـوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم ، وكان المطر قـد أبطأ عنهم ، فلما رأوه « مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » استبشروا . وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهرى : والعارض السحاب يعترض فى الأفق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أى ممطر لنا؛ لأنه معرفة لا يجـوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا فى الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير :

يارُبَّ غابِطِنا لوكان يطلبكم * لاقَى مباعدةً منـكم وحِرْمَانَا

ولا يجـوز أن يقال : هـذا رجل غلامنا . وقال أعرابى بعد الفطر : رُبَّ صائمـة لن تصومه وقائمة لن تقومه؛ فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

Marfat.com

قلت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحويين ، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأول تعريفا، بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتا على النكرة . هـذا قول النحويين في الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رُبّ » لا تدخل إلا على النكرة . ﴿ بَلْ هُـوَ ﴾ أي قال هُودٌ لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هـو » وقرئ « قل بل ما استعجلتم به هي ريح » أي قال الله قل بل هو ما استعجلتم به؛ يعني قولهم : «فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا» ثم بيّن ما هو فقال : ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التي عُذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هـود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظّعينة(١) فترفعها كأنها جرادة، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أول ما رأو العارض قاموا فمـدّوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهـم الريح ما بين السماء والأرض مثـل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهـم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما(٢)، ولهم أنين؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر؛ فهي التي قال الله تعـالى فيها : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها . قال ابن عباس : أي كل شيء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك . وكذلك الدّمار . وقرئ « يَدْمُرُ كُلُّ شيء » من دَمَر دمارًا . يقال : دمّره تدميرا ودمارا ودمّر عليه بمعنًى . ودَمَرَ يَدْمُرُ دُمورا دخل بغير إذن . وفي الحديث : "من سبق طَرْفُهُ استئذانه فقد دَمَر" مخفّف الميم . وتَدْمُر : بلد بالشام . ويَرْبُوع تَدْمُرِيّ إذا كان صغيرا قصيرا . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها . وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لَهَوَاتِهِ(٣) إنما كان يتبسّم . قالت : وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا

---

(١) الظعينة : الجمل يظعن عليه . والهودج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة في الشر .
(٣) جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

Marfat.com

عُرِف في وجهه. قالت: يارسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِف في وجهك الكراهية؟ فقال: "ياعائشة، مايؤمِّنني أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارِضٌ مُمطِرُنا" خرّجه مسلم والترمذيّ، وقال فيه: حديث حسن. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نُصِرت بالصَّبا[1] وأهلكت عادٌ بالدبور". وذكر الماورديّ أن القائل «هذا عارِضٌ مُمطِرُنا» من قوم عاد: بكر بن معاوية؛ ولما رأى السحاب قال: إني لأرى سحابا مرمدا، لا تدع من عاد أحدا[2]. فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم. قال ابن إسحاق: واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يُلين أعلى ثيابهم. وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا. وحكى الكلبيّ أن شاعرهم قال في ذلك:

فدعا هود عليهم * دعوةً أضحَوْا همودا
عصفت ريح عليهم * تركت عادًا خمودا
سُخّرت سبع ليال * لم تدع في الأرض عودا

وعمر هود في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة «لا يرى إلا مساكنهم» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ «ترى» بالتاء. وقد روى ذلك عن أبي بكر عن عاصم. الباقون «تَرَى» بتاء مفتوحة. «مساكنهم» بالنصب؛ أي لا ترى يا محمد إلا مساكنهم. قال المهدويّ: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة؛ وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر. وقال أبو حاتم: لا يستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول في الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز لا ترى إلا زينب.

(١) الصبا (بالفتح): ريح الشمال. والدبور: ريح الجنوب.

(٢) في نهاية ابن الأثير واللسان مادة (رمد) وتاريخ الطبري: «خذها رمادا رمددا، لا تذر من عاد أحدا» والرمدد (بالكسر): المتناهي في الاحتراق والدقة.

Marfat.com

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة . قال الكسائيّ : معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهو محمول على المعنى؛ كما تقول : ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفرّاء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة . ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ قيل : إن « إنْ » زائدة ؛ تقديره ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القُتَبيّ .

وأنشد الأخفش :

يُرجِّى المرءُ ما إن لا يراه * وتعرِض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودَوْلةُ آخرينا[1]

وقيل : إن « ما » بمعنى الذى . و « إن » بمعنى ما ؛ والتقدير ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّد . وقيل : شرطية وجوابها مُضمر محذوف؛ والتقدير ولقد مكناهم فى ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ ؛ وتمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يعنى قلوبا يفقهون بها . ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ من عذاب الله . ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ يكفرون . ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادى . والطب : الشأن والعادة والشهوة والإرادة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ يريد حِجْر ثمود وقُرَى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾ يعنى الحجج والدلالات وأنواع البيِّنات والعِظات ؛ أى بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يرجعوا . وقيل : أى صرفنا آيات القرآن فى الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ «لولا» بمعنى هَلّا ؛ أى هلّا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : «هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»(١) ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكِسائىّ : القُرْبان كلُّ ما يُتقرّب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسِيكة ؛ والجمع قرابين ؛ كالرهبان والرهابين . وأحد مفعولى اتخذ الراجع(٢) إلى الذين المحذوف ، والثانى « آلهةً » . و « قُرْبَانًا » حال ، ولا يصح أن يكون « قربانا » مفعولا ثانيا . و « آلهة » بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشرىّ . وقرئ «قُرُبانا» بضم الراء . ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أى هلكوا عنهم . وقيل : « بل ضلوا عنهم » أى ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هى جماد . وقيل : ضلوا عنهم ؛ أى تركوا الأصنام وتبرءوا منها . ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أى والآلهة التى ضلّت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زُلْفَى . وقراءة العامة « إِفْكُهُمْ » بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أى كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأفيكة ، والجمع الأفائك . ورجل أفاك أى كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير «وذلك أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) الضمير الراجع .

Marfat.com

والفاء والكاف، على الفعل؛ أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد. والأَفْكُ (بالفتح) مصدر قولك: أَفَكه يأْفِكه أَفْكا؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء. وقرأ عكرمة «أَفَّكهم» بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم: يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم. وذكر المهدوى عن ابن عباس أيضا «آفِكهم» بالمد وكسر الفاء؛ بمعنى صارفهم. وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه «آفَكهم» بالمدّ؛ فجاز أن يكون أفعلهم، أى أصارهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلهم كخادعهم. ودليل قراءة العامة «إفكُهم» قوله ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى يكذبون. وقيل «إفْكُهم» مثل «أَفَكُهم». الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر؛ قاله المهدوى.

قوله تعالى: وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ هذا توبيخ لمشركى قريش؛ أى إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصرّون على الكفر. ومعنى «صَرَفنا» وجهنا اليك وبعثنا. وذلك أنهم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهب — على ما يأتى — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرفوا عنه إلا عند مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لما مات أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثَقيف النُّصْرة فقصد عَبْد يالِيل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بنى جُمَح؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم: هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدا؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام، وإن كنت تكذب فما ينبغى لى أن أكلمك. ثم أغْرَوْا به سفهاءهم

---

(١) يمرط: ينزع.

Marfat.com

وعبيدهم يسبّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعُتْبة وشَـيْبة ابني ربيعة . فقال للجُمَحِيّة : "ماذا لقِينا من أحمائك" ؟ ثم قال : "اللّهُمّ إنى أشكو إليك ضَعْف قوّتى وقِلّة حِيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّى ؛ لِمن تَكِلُنى ! إلى عبد(1) يَتَجَهَّمُنى(2) ، أو إلى عدوّ ملّكته أمرى ! إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلا بك" . فرحمه ٱبنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانىّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفًا من العنب وضعه فى هذا الطبق ثم ضعه بين يدى هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم "بٱسم الله" ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من أىّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك" ؟ قال : أنا نصرانى من أهل نِينَوَى . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى" ؟ فقال : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال : "ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبىّ" فٱنكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النبي صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا ! ؟ فقال : يا سَيِّدَىَّ ما فى الأرض خير من هذا ، أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبىّ . ثم ٱنصرف النبىّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلى فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبِين . وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترِقون السمع ، فلما حُرِست السماء ورُمُوا بالشهب قال إبليس : إن هـذا الذى حدث فى السماء لِشىء حدث فى الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أوّلهم رَكْب نَصِيبين وهم أشراف الجنّ إلى تِهامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبىّ صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فٱستمعوا له وقالوا : أنصتوا . وقالت طائفة : بل أمِر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر

---

(1) فى سيرة ابن هشام : «بعيد» . (2) أى يلقانى بالغلظة والوجه الكريه .

Marfat.com

الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ؛ فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجنّ من نِينَوَى وجمعهم له ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعنى" ؟ فأطرقوا ، ثم قال الثانية فأطرقوا ، ثم قال الثالثة فأطرقوا ؛ فقال ابن مسعود : أنا يا رسول الله ؛ قال ابن مسعود : ولم يحضر معه أحد غيرى ؛ فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْبًا يقال له « شِعْب الحَجُون » وخطّ لى خطا وأمرنى أن أجلس فيه وقال : "لا تخرج منه حتى أعود إليك" . ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن ، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها ، وسمعت لَغَطًا وغَمْغَمَةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وغَشِيته أَسْوِدة(١) كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم طَفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، ففرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الفجر فقال : "أنمت" ؟ قلت : لا والله ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا ؛ فقال : "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم" ثم قال : "هل رأيت شيئا" ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، رأيت رجالا سُودًا مُسْتَثْفِرِى(٢) ثيابا بيضًا ؛ فقال : "أولئك جنّ نَصِيبِين سألونى المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل(٣) ورَوْثة وبعرة" . فقالوا : يا رسول الله يَقْذَرها الناس علينا . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث . قلت : يا نبيّ الله ، وما يغنى ذلك عنهم ! قال : "إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل ، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبّها يوم أُكِل" فقلت : يا رسول الله ، لقد سمعت لغطا شديدا ؟ فقال : "إن الجنّ تدارأت(٤) فى قَتيل بينهم فتحاكموا إلىّ فقضيت بينهم بالحق" . ثم تبرز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتانى فقال : "هل معك ماء" ؟ فقلت يا نبيّ الله ، معى إداوة(٥) فيها شىء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال : "تمرة طيّبة وماء طهور" . روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضا عن ابن مسعود . وليس

---

(١) أسودة (جمع السواد) والسواد والأسودات والأساود : جماعة الناس . وقيل هم الضروب المتفرّقون .
(٢) الاستثفار : أن يدخل الانسان إزاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه . (٣) العظم الحائل : المتغير ؛ قد غيره البلى . (٤) تدارأ : اختلف . (٥) الإداوة : إناء صغير من جلد .

Marfat.com

في حديث معمر ذكر نبيذ التمر . وروى عن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن ابن مسعود أبصر زُطًّا(1) فقال: ما هؤلاء؟ قال : هؤلاء الزُّطّ . قال : ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ فكانوا مستفزّين يتبع بعضهم بعضا . وذكر الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن لَهِيعة حدّثني قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ بنبيذ فتوضأ به وقال : "شراب وطهور" . ابنُ لَهِيعة لا يحتج به . وبهذا السند عن ابن مسعود أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمعك ماء يابن مسعود" ؟ فقال : معي نبيذ في إداوة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صُبّ عليّ منه" . فتوضأ وقال : "هو شراب وطهور" تفرّد به ابن لَهِيعة وهو ضعيف الحديث . قال الدارقطني : وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ . كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال : ما شهدت ليلة الجنّ . حدّثنا أبو محمد بن صاعد حدّثنا أبو الأشعث حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا داود بن أبي هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعي الجنّ ؟ قال لا . قال الدارقطني : هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة راويه . وعن عمرو بن مُرّة قال قلت لأبي عبيدة : حضر عبدالله بن مسعود ليلة الجنّ ؟ فقال لا . قال ابن عباس : كان الجنّ سبعة نفر من جنّ نَصِيبين فجعلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم رسلا إلى قومهم . وقال زِرّ بن حُبيش : كانوا تسعةً أحدهم زَوْبعة . وقال قتادة : إنهم من أهل نِينَوَى . وقال مجاهد : من أهل حران . وقال عكرمة : من جزيرة الموصل . وقيل : إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين . وروى ابن أبي الدنيا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في هذا الحديث وذكر فيه نصيبين فقال : "رفعت إليّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغْزِر نهرها" . وقال السهيلي : ويقال كانوا سبعة ، وكانوا يهودا فأسلموا؛ ولذلك قالوا « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وقيل في أسمائهم : شاصر(2) وماصر ومنشى

(1) الزط : جيل أسود من السند . وقيل : إعراب « جَتّ » بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .
(2) في كتب اللغة : « شصار » ككتاب .

Marfat.com

وماشي والأحقب ؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دُرَيد . ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حَيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها؛ فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيّكم دفن عمرو بن جابر؟ فقلنا : ما ندري من عمرو بن جابر! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه ، إن فَسَقة الجنّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ، وهو الحيّة التي رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم وَلَّوا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذي كفّنه هو صفوان بن المُعَطَّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال : وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنا في سفر فرأينا حية متشحّطة في دمائها، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا : أيّكم دفن عَمْرًا ؟ قلنا : وما عمرو! قالوا الحية التي دفنتم في مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حَيَّيْن من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقتل . ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حَضَرَ الدفن؛ والله أعلم . وذكر ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سمّاه : أن حية دخلت عليه في خِبائه تَلْهَث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها، فأتي من الليل فسلّم عليه وشكر ، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جنّ نَصِيبِين اسمه زوبعة . قال السُّهَيْليّ : وبلغنا في فضائل عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه مما حدّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : ياسرق، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح " . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات . وقد قتلت

Marfat.com

عائشة رضى الله عنها حية رأتها فى حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت فى المنام فقيل لها : إنك قتلت رجلا مؤمنا من الجنّ الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمنا ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة ، وما جاء إلا ليستمع الذكر . فأصبحت عائشة فزعة ، وآشترت رقابا فأعتقتهم . قال السهيلى : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنّ ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس بآسم علم ؛ فإن الأسماء التى ذكرناها آنفا ثمانية بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ آبن عساكر فى تاريخه : هامة بن الهيم[1] بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمنى الجنّ وممن لقى النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلّمه سورة «إذا وقعت الواقعة» و «المرسلات» و«عمّ يتساءلون» و«إذا الشمس كُوّرت» و«الحمد» و«المعوّذتين» . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك فى دمه وهو غلام ابن أعوام ، وأنه لقى نُوحًا وتاب على يديه ، وهودًا وصالحا ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام . وقد ذكر الماوردىّ أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماضر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدّثنا محمد آبن البراء قال حدّثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبى لهب يُسَمّى جِنّ نَصِيبِين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأخر والأرد وأنيان[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أى حضروا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لما حضروا القرآن وآستماعه . ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض اسكتوا لآستماع القرآن . قال آبن مسعود : هبطوا على النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) فى بعض الأصول : «الأهيم» .
(٢) لم نوفق لتحقيق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التى بين أيدينا مضطربة فيها .

Marfat.com

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، . فلما سمعوه « قالوا أنصتوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة ؛ فأنزل الله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » الآية إلى قوله : « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقيل : « أنصتوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ وقرأ لاحق بن حميد وخبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قَضَى » بفتح القاف والضاد ؛ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاءوا وادي نخلة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الفجر ، وكانوا سبعة ، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعلم بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرا من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قولهم : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولولا ذلك لما أنذروا قومهم . وقد تقدّم عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلة الجنّ ليلتان، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وفي صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتي بيانه في « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » . وفي صحيح مسلم عن معْن قال : سمعت أبي قال سألت مسروقا من آذن[1] النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثني أبوك — يعني ابن مسعود — أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

(١) آذن : أعلم .

Marfat.com

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى القرآن ؛ وكانوا مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ؛ ولذلك قالوا : « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وعن ابن عباس أن الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى ، فلذلك قالت : « أُنْزِل من بعد موسى » . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى ما قبله من التوراة . ﴿ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ ﴾ دين الحق . ﴿ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم . ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا يدل على أنه كان مبعوثًا إلى الجنّ والإنس . قال مُقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلى كان كل نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى كلّ أحمرَ وأسْوَدَ وأحِلّت لِيَ الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلى وجُعلت لِيَ الأرض طيّبةً طهورا ومسجدًا فأيّما رجلٍ أدركته الصلاة صلّى حيث كان ونُصِرْتُ بالرُّعْب بين يَدَىْ مَسِيرةِ شَهْرٍ وأُعْطِيتُ الشفاعةَ" . قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجنّ والإنس . وفى رواية من حديث أبى هريرة "وبُعثت إلى الخلق كافّةً وخُتم بى النبيّون" . ﴿وآمِنُوا بِهِ﴾ أى بالداعى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أى بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا ؛ فرجعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء ؛ فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مسألة — هذه الآى تدلّ على أن الجنّ كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الجنّ إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون

Marfat.com

فى الإساءة يجازَوْن فى الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك والشافعىّ وابن أبى ليلى ، وقد قال الضحاك : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيرىّ : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »(١) يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة؛ لأنه قال فى أوّل الآية : «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ(٢) أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي — إلى أن قال — وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » . والله أعلم؛ وسيأتى لهذا فى سورة « الرحمن » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله . ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم . و « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ احتجاج على منكرى البعث . ومعنى « لَمْ يَعْيَ » يعجِز ويضعُف عن إبداعهنّ . يقال : عيّ بأمره وعَيِي إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر . وتقول فى الجمع عَيُوا ، مخففا ، وعيّوا أيضا بالتشديد . قال :

(١) آية ١٣٢ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة الأنعام .

Marfat.com

عَيُّوا بأمرهمُ كما * عَيَّتْ ببيضتها الحمامهْ[1]

وعَيِيت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه . وأعيانى هو . وقرأ الحسن « ولم يَعِى » بكسر العين وإسكان اليـاء ؛ وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا فى أسماء قليلة ؛ نحو غاية وآية . ولم يأت فى الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكةٌ * تمشِى بِسُـدّة بَيْتها فتُـعِيِى[2]

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء فى قوله : « وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدا » ، وقوله : « تَنْبُتُ بالدُّهْنِ »[3] . وقال الكسائىّ والفرّاء والزجاج : الباء فيـه خَلَف الاستفهام والجحد فى أوّل الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيدا بقـائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أنّ » للتوكيد . والتقـدير : أليس الله بقادر؛ كقوله تعـالى : « أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ »[4] . وقرأ ابن مسعود والأعرج والجَحْدرِىّ وابن أبى إسحاق ويعقوب « يَقْدِر » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول البـاء فى خبر « أنّ » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة؛ لأنها فى قراءة عبد الله « خَلَقَ السّمواتِ والأرض قَادِرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفركم .

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص .
(٢) السدّة : الفناء .
(٣) آية ٢٠ سورة المؤمنون .
(٤) آية ٨١ سورة يس .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح ، وهود ، وإبراهيم . فأمر الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال السدّى : هم ستة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق فى سورة « الأعراف والشعراء » . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدّة . وإبراهيم صبر على النار . وإسحاق صبر على الذبح . ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر . ويوسف صبر على البئر والسجن . وأيوب صبر على الضرّ . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبيّ والكلبيّ ومجاهد أيضا : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة . وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة « الأنعام » وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . واختاره الحسن بن الفضل لقوله فى عقبه : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(1) . وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره علىّ بن مهدى الطبرىّ ، قال : وإنما دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البزّ وأكسية من الخزّ . أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متّى ؛ ألا ترى أن

(1) آية ٩٠ سورة الأنعام .

Marfat.com

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخفّة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضِباً لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده فأكله ، وسلط عليه الحُوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولو العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنى مرسل عذابى إلى عصاة بنى إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العذاب ببنى إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى الله بنى إسرائيل ؛ فأنجى الله بنى إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فمنهم من نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرّق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين »(١) ثم ٱبتلِيَ فى ماله وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقا وافيًا فى جميع ما ابتلى به . وأما موسى فعزمه حين قال له قومه : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »(٢) . وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبه عليها ، فأقام يبكى أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجرة ، فقعد تحت ظلها . وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : " إنها مَعْبر فٱعبروها ولا تعمروها " . فكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أى كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقًا بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهدا فى الدنيا مثل زهد عيسى . ثم قيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : مُحْكَمَة ؛ والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية . وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتًا له . والله أعلم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء

(١) آية ١٣١ سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة الشعراء .

Marfat.com

عليهم . وقيل : فى إحلال العذاب بهم ، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة . ومفعول الاستعجال محذوف ، وهو العذاب . ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال يحيى : من العذاب . النقاش : من الآخرة . ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ أى فى الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : فى قبورهم حتى بعثوا للحساب . ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ يعنى فى جنب يوم القيامة . وقيل : نسّاهم هَوْل ماعاينوا من العذاب طول لبثهم فى الدنيا . ثم قال : ﴿بَلَاغٌ﴾ أى هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن . فـ « بلاغ » رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »(١) ، وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ »(٢) . والبلاغ بمعنى التبليغ . وقيل : أى إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على « بلاغ » وعلى « نهار » . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على « وَلَا تَسْتَعْجِلْ » ثم ابتدأ « لهم » على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، ــ وهى رافعة ــ بشىء ليس منهما . ويجوز فى العربيــة : بلاغا و بلاغٍ ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغا ؛ على المصدر أو على النعت للساعة . والخفض على معنى من نهارٍ بلاغٍ . وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القــرّاء « بَلِّغْ » على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على « من نهار » ثم يبتدئ « بلغ » . ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى الخارجون عن أمر الله ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقرأ ابن مُحَيْصِن « فهل يَهْلِك إلا القوم » على إسناد الفعل إلى القــوم . وقال ابن عباس : إذا عَسُر على المــرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين فى صحيفة ثم تغسل وتسقى منها ؛ وهى : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »(٣) . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » صدق الله العظيم . وعن قتادة : لا يهلك إلا هالك مشرك(٤) . وقيل : هذه أقوى آية فى الرجاء . والله أعلم .

(١) آخر سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٦ سورة الأنبياء . (٣) آخر سورة النازعات .
(٤) فى تفسير الطبرى : « تعلموا ما يهلك على الله إلا هالك ولّى الإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله » .

Marfat.com

سورة القتال، وهى سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنيـة فى قول ابن عباس؛ ذكره النحاس . وقال الماوردىّ : فى قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعـد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه؛ فنزل عليه « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ »[1] . وقال الثعلبىّ : إنها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد ابن جُبَير . وهى تسع وثلاثون . وقيل ثمان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهـل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدّوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه؛ وقاله السدّى . وقال الضحاك : « عن سَبِيلِ اللهِ » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطل كيدهم ومكرهم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت فى المُطْعِمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل، والحارث ابن هشام، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبَىّ وأميّـة ابنا خلف، ومُنبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

(١) آية ١٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصة فى ناس من قريش . وقيل : هما عامّتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قال إنهم الأنصار فهى المواساة فى مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهى الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التى ترضى الله تعالى . ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه فى شىء ؛ قاله سفيان الثَّوْرِىّ . وقيل : صدّقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم . وقيل : أى إن القرآن هو الحق من ربهم ، نسخ به ما قبله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان . ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أى شأنهم ؛ عن مجاهد وغيره . وقال قتادة : حالهم . ابن عباس : أمورهم . والثلاثة متقاربة وهى متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم ؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبِلى بالودّ أقبل بمثله * وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم . « والبال » كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . المبرد : قد يكون البال فى موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالى ؛ أى على قلبى . الجوهرى : والبال رخاء النفس ؛ يقال فلان رَخِىّ البال . والبال : الحال ؛ يقال ما بالك . وقولهم : ليس هذا من بالى ؛ أى مما أباليه . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ؛ وليس بعربى . والبالة : وعاء الطِّيب ؛ فارسى معرب ؛ وأصله بالفارسية پيلة . قال أبو ذؤيب :

كأنّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً (١) * لها من خلال الدَّأْيَتَيْنِ أريجُ

---

(١) اللطمية : العنبرة التى لطمت بالمسك ففتقت به حتى نشبت رائحتها . والدأى : فقر الكاهل والظهر .

Marfat.com

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (٣)

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع؛ أى الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق . والباطلُ: الشركُ . والحقُّ: التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى كهذا البيان الذى بُيِّن يُبَيِّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أَمْثَالَهُمْ » يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٤)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة؛ ذكره الماوَرْدِىّ . وآختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه؛ « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » مصدر . قال الزجاج أى فاضربوا الرقاب ضربا . وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيل : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يانفسُ صبراً . وقيل : التقدير

Marfat.com

اقصدوا ضرب الرقاب. وقال: «فضرب الرقاب» ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن فى العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه.

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أى أكثرتم القتل. وقد مضى فى «الأنفال» عند قوله تعالى: «حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ»(١). ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أى إذا أسرتموهم. والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا؛ يقال: أوثقته إيثاقا ووثاقا. وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذى يوثق به كالرِّباط؛ قاله القشيرى. وقال الجوهرى: وأوثقه فى الوثاق أى شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثاق». والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيه. وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يُفلِتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾. ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدّم من القتل فى صدر الكلام، و«مَنًّا» و«فِداءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء؛ أى فإما أن تمنّوا عليهم منًّا، وإما أن تفادوهم فداءً. روى عن بعضهم أنه قال: كنت واقفا على رأس الحجاج حين أُتِىَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِنْدة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال «فإذا لقيتُم الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْـدُ وَإِمّا فِدَاءً» فى حق الذين كفروا؛ فوالله! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الأعناق حِمْلُ المغارم

فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَف! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام!؟ خَلُّوا سبيل من بقى. فخُلِّىَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها.

Marfat.com

الثالثة — واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول — أنها منسوخة ، وهى فى أهل الأوثان ، لا يجوز أن يُفادوا ولا يُمَنّ عليهم . والناسخ لها عندهم قوله تعالى: « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(١) وقوله : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »(٢) وقوله : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً »(٣) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدى وابن جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الجَوْزِيّ : كُتب إلى أبي بكر فى أسير أُسر، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال : اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا .

الثانى — أنها فى الكفار جميعا، وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد قالوا : إذا أُسر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه ، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادَى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تقتل . والناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية . وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْبًا للمسلمين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِدَاء » قال نسخها « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » . وقال مجاهد : نسخها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وهو قول الحكم .

الثالث — أنها ناسخة ؛ قاله الضحاك وغيره . روى الثَّوْرى عن جُوَيْبِر عن الضحاك « فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » قال نسخها « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداءً » . وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداءً » فلا يقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفَادى ؛ كما قال الله عز وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلو « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداء » . وقال الحسن أيضا : فى الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فَضَرْبَ الرِّقاب حتى تضع الحرب أوزارها . ثم قال : « حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » .

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) آية ٥٧ سورة الأنفال . (٣) آية ٣٦ سورة التوبة .

Marfat.com

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير فى يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار فى ثلاثة منازل : إما أن يَمُنّ، أو يفادى ، أو يسترق .

الرابــع — قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعـالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »[1] . فإذا أسر بعد ذلك فالإمام أن يحكم بمـا رآه من قتل أو غيره .

الخامس — أن الآية محكمة ، والإمام مخيّر فى كل حال؛ رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ،وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ،وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيـد وغيرهم . وهو الاختيار ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك؛ قَتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عُقْبَةَ بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْرًا ، وفادى سائر أسارى بدر، ومَنّ على ثُمَـامة بن أُثَال الحنفى وهو أسير فى يده، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين،وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم،وقد منّ على سَبْيِ هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقد مضى جميعه فى (الأنفال[2]) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنمـا يكون لشىء قاطع ، فإذا أمكن العمـل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسـخ ، إذا كان يجوز أن يقـع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسـترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيـه الصلاح للمسـلمين . وهـذا القول يروى عن أهل المدينـة والشافعى وأبى عبيد ، وحكاه الطحاوى مذهبًا عن أبى حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عز وجل التوفيق .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السـلام . وعن مجاهـد أيضا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسـلام ؛ فيُسْـلِم كلّ يهودىّ ونصرانى وصاحب مِلّة ، وتأمن الشاة من الذئب . ونحـوه

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال . (٢) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

Marfat.com

عن الحسن والكلبي والفراء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق . وقال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدِّين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب، أى الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . ويقال للكراع أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورا
ومن نَسْج داود يحدى بها * على أثر الحىّ عِيرًا فعيرا (١)

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى أثقالها . والوِزْر الثِّقْل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال . وأثقالها السلاح لثقل حملها . قال ابن العربى : « قال الحسن وعطاء : فى الآية تقديم وتأخير؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أَمَرَنا الله ؛ وقرأ « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس فى تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله فى الزنى حكم الجلد ، وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم حكم الرجم؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على ما تقدّم ؛ أى الأمر ذلك الذى ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ؛ المعنى ذلك حكم الكفار . وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام؛ وهو كما قال تعالى : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » (٢) . أى هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا . ومعنى « لانتصر منهم » أى أهلكهم بغير قتال . وقال

(١) هذه رواية البيت فى الأصول . وروايته فى كتاب « الأعشين » :

ومن نسج داود موضونة * تساق مع الحى عيرا فعيرا

والموضونة : الدرع المنسوجة . وفى شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ...

(٢) آية ٥٥ سورة ص .

Marfat.com

ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين ؛ كما فى السورة نفسها . ﴿ والَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قراءة العامة « قاتلوا » وهى اختيار أبى عبيد . وقرأ أبو عمرو وحفص « قُتِلوا » بضم القاف وكسر التـاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شـدّد التاء على التكثير . وقرأ الجَحْدرِى وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة « قَتَلُوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعنى الذين قتلوا المشركين . قال قتادة : ذكر لنـا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل ، وقـد نادى المشركون : اعْلُ هُبَـلُ . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يومٌ بيوم بَدْر والحـرب سِجال . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " قولوا لا ســواء . قتلانا أحياء عند ربهـم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون " . فقال المشركون : إن لنـا العُزَّى ولا عُزَّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم . وقد تقدّم ذكر ذلك فى (آل عمران[(١)]) .

قوله تعـالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ ﴾

قال القشيرى : قراءة أبى عمرو « قُتِلوا » بعيدة ؛ لقوله تعالى : « سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ » والمقتول لا يوصف بهذا . قال غيره : يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة ، أو سيهدى من بقى منهـم ؛ أى يحقق لهم الهداية . وقال ابن زياد : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير فى القبر . قال أبو المعـالى : وقد ترد الهداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنـان والطرق المُفضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » . ومنه قوله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ[(٢)] » معناه فاسلكوا بهم إليها .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٤ (٢) آية ٢٣ سورة الصافات .

Marfat.com

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهـد وأكثر المفسرين . وفى البخارى ما يدل على صحـة هـذا القول عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالم] كانت بينهم فى الدنيا] (١) حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذِن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة [منه] (١) بمـنزله فى الدنيـا " . وقيل : « عرَّفها لهـم » أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال . قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف ؛ أى عَرَّف طرقها ومساكنها و بيوتها لهم ؛ فحـذف المضاف . وقيل : هذا التعريف بدليل ، وهو المَلَك الموكّل بعمل العبد يمشى بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتى العبد منزله ، و يعرّفه المَلَك جميع ما جعل له فى الجنة . وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ يردّه . وقال ابن عباس « عرّفها لهـم » أى طيّبها لهـم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعام مُعَرَّف أى مطيَّب ؛ تقول العرب : عرّفت القدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار . وقال الشاعر يخاطب رجلا و يمدحه :

* عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللّطائم (٢) *

يقول : كما عَرُف الإتْب ، وهو البَقِير والبَقِيرة ، وهو قميص لا كُمّين له تلبسه النساء . وقيـل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته ؛ يقال : حرير معرّف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس . وقيـل : « عرفهـا لهم » أى وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل : عرّف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها . وقيل : عرف المطيعين أنها لهم .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

(١) زيادة عن صحيح البخارى .　　(٢) اللطائم (جمع لطيمة) : قطعة مسك .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ »(١) وقد تقدّم . وقال قُطْرُب : إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله؛ والمعنى واحد . ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أى عند القتال . وقيل على الإسلام . وقيل على الصراط . وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب . وقد مضى في « الأنفال »(٢) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا »(٢) فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ »(٣) ثم نفاها بقوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »(٤) . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »(٥) ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسّره « فَتَعْسًا لَهُمْ » كأنه قال : أتعس الذين كفروا . و « تعسًا لهم » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفرّاء، مثل سَقْيًا له ورَعْيًا . وهو نقيض لَعًا(٦) له . قال الأعشى :

* فالتَّعْسُ أولى لها من أن أقول لَعَا(٧) *

وفيه عشرة أقوال : الأوّل — بُعْدًا لهم؛ قاله ابن عباس وابن جُرَيج . الثاني — حزنًا لهم؛ قاله السدي . الثالث — شقاء لهم؛ قاله ابن زيد . الرابع — شَتْمًا لهم من الله؛ قاله الحسن . الخامس — هلاكا لهم ؛ قاله ثعلب . السادس — خَيْبَةً لهم؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع — قبحا لهم؛ حكاه النقاش . الثامن — رغما لهم؛ قاله الضحاك أيضا . التاسع —

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٣) آية ١١ سورة السجدة .
(٤) آية ٤٠ سورة الروم . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع . (٧) في اللسان وكتاب الأعشين : «أدنى» بدل «أولى» . وصدره :

* بذات لوث عفرناة إذا عثرت *

واللوث (بالفتح) : القوة » . وعفرناة : قوية

شرًّا لهم؛ قاله ثعلب أيضا . العاشر – شِقْوة لهم؛ قاله أبو العالية . وقيل : إن التَّعْس الانحطاط والعِثار . قال ابن السِّكِّيت : التعس أن يَخِر على وجهه . والنُّكْس أن يَخِرّ على رأسه . قال: والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهري : وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش . وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْسًا، وأتعسه الله . قال مُجَمِّع بن هلال :

تقول وقد أفردتُها من خَليلها * تَعِسْتَ كما أَتْعَسْتَنِي يا مُجَمِّعُ

يقال : تعسًا لفلان؛ أي ألزمه الله هلاكا . قال القُشَيْرِيّ : وجوّز قوم تَعِس (بكسر العين).

قلت : ومنه حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَعِس عَبْد الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطي رَضِيَ وإن لم يُعْطَ لم يرض" خرّجه البخاري . في بعض طرق هذا الحديث "تعس وٱنتكس وإذا شِيك فلا ٱنتقش[2]" خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان . ودخلت الفاء في قوله « فتعسًا » لأجل الإبهام الذي في « الذين »، وجاء « وأضل أعمالهم » على الخبر حملا على لفظ الذين؛ لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حَمْلًا على المعنى، وأضل حملا على اللفظ .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس ؛ لأنهم ﴿كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع . ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي مالهم من صور الخيرات ، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقْبَل الله العمل إلا من مؤمن . وقيل : أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾

(١) القطيفة : دثار . والخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط .
(٢) قوله « شيك » أي أصابته شوكة . و « فلا انتقش » أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

Marfat.com

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمـان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أى ألم يسر هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . يقال : دمّره تدميرا، ودمّر عليه بمعنًى . ثم تواعد مشركى مكة فقال ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعنى التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبـة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

أى وليّهـم وناصرهم . وفى حرف ابن مسعود « ذلك بأن الله ولِىّ الذين آمنـوا » .

فالمولى : الناصر هاهنا؛ قاله ابن عباس وغيره . قال :

فغدت كِلَا الفَرْجَيْنِ تحسب أنه * مَوْلَى المخافـة خَلْفُهـا وأمامُهـا [(١)]

قال قتادة : نزلت يوم أُحُد والنبىّ صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب، إذ صاح المشركون : يومٌ بيوم ، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " وقد تقدّم [(٢)] . ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾

---

(١) البيت من معلقة لبيـد . ويروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أى البقـرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر المخوف، وهو موضع المخافة .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقدّم فى غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما فى غدهم . وقيل : المؤمن فى الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع . ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى مقام ومنزل .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام فى « كأين » فى (آل عمران)[(1)] . وهى هاهنا بمعنى كم ؛ أى وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة * ومفتاحِ قَيْدٍ للاسير المكبل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية . ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أى أخرجك أهلها . ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إلىّ ولولا المشركون أهلُكِ أخرجونى لما خرجت منك " . فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير . ومعنى « على بينة » أى على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة : الوَحْى . ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨

Marfat.com

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى ما اشتهوا . وهذا التزيين من جهة الله خلقا . ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة . ويجوز أن يكون من الكافر؛ أى زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر . وقال « سُوء » على لفظ « مَن » « واتبعوا » على معناه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزوجل : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » وصف تلك الجنات ؛ أى صفة الجنة المعدّة للتقين . وقد مضى الكلام فى هذا فى «الرعد»(١) . وقرأ علىّ بن أبى طالب «مِثال الجنة التى وعِد المتقون» . ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أى غير متغيّر الرائحة . والآسِن من الماء مثلُ الآجِن . وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن [أسْنًا و] أُسُونا إذا تغيّرت رائحته . وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْنًا وأُجونًا . ويقال بالكسر فيهما : أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أسَنًا وأجَنًا ؛ قاله اليزيدى . وأسِن الرجل أيضا يأسَن (بالكسر لا غير)(٢) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغُشِى عليه أو دار رأسُه . قال زُهير :

قد أترك القِرن مُصْفَرًّا أناملُه(٣) * يَميد فى الرُّمح مَيد المائح الأسِن

ويروى « الوسن » . وتأسّن الماء تغيّر . أبو زيد : تأسّن علىّ تأسُّنا اعتلّ وأبطأ . أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال اللِّحيانى : إذا نزع إليه فى الشبه . وقراءة العامة « آسن » بالمدّ . وقرأ ابن كثير وحُميد « أسن » بالقصر ، وهما لغتان ؛ مثل حاذر وحذر . وقال الأخفش : أسن للحال ، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ (٢) أى فى الماضى . (٣) وفيه رواية أخرى : «يغادر القرن» .

Marfat.com

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) أى لم يحمّض بطول المقام كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة. (وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) أى لم تدنسها الأرجل ولم ترنّقها[1] الأيدى كخمر الدنيا؛ فهى لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون . يقال : شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى . واستلذه عدّه لذيذا.

(وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) العسل ما يسيل من لُعاب النحل . « مُصَفًّى » أى من الشمع والقذَى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل. وفى الترمذى عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعدُ " . قال : حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة " . وقال كعب : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سَيْحان نهر عسلهم . وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر. والعسل : يذكر ويؤنث . وقال ابن عباس : «من عَسَلٍ مُصَفًّى» أى لم يخرج من بطون النحل . (وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) « مِن » زائدة للتأكيد . (وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) أى لذنوبهم . (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) قال الفرّاء : المعنى أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار. وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيّن له سوء عمله وهو خالد فى النار . فقوله « كمن » بدل من قوله « أفمن زين له سوء عمله » . وقال ابن كيسان : مثل هذه الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم . ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم . (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا) أى حارا شديد الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء : جمع مِعًى، والتثنية مِعيان، وهو جميع ما فى البطن من الحوايا .

---

(١) رنّق الماء : كدره .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أى من هؤلاء الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام، وزُين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أُبَىّ ٱبن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت[(١)] والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشُم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أى إذا فارقوا مجلسك . ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال ٱبن عباس : كنت ممن يُسأل ، أى كنت من الذين أوتوا العلم . وفى رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود . وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى الآن على جهة الاستهزاء . أى أنا لم ألتفت إلى قوله . و « آنفا » يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : استأنفت الشيء إذا ابتدأت به . ومنه أَمْرٌ أُنُف ، ورَوْضة أُنف؛ أى لم يرعها أحد . وكأس أنف : إذا لم يُشرب منها شيء ؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر[(٢)] :

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنفَ القِصاع

(١) كذا فى الأصول . وفى سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوربا : « اللُّصَيت » بالتاء المثناة من فوق . وفى تاريخ الطبرى (طبع أوربا قسم أول ص ١٦٩٩) : « اللصيب » بالباء الموحدة . (٢) هو الحطيئة .

Marfat.com

وقال آخر[(١)]:

إن الشِّواء والنَّشيل والرُّغُف * والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

* للطاعنين الخيل والخيل قُطُفْ[(٢)] *

وقال امرؤ القيس:

* قد غَدَا يحملنى فى أنفه[(٣)] *

أى فى أوّله. وأَنْفُ كلّ شىء أوّله. وقال قتادة فى هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فى الكفر. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ أى للإيمان زادهم الله هدى. وقيل: زادهم النبىّ صلى الله عليه وسلم هدى. وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدى؛ أى يتضاعف يقينهم. وقال الفرّاء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى. وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل: أحدها — زادهم علما؛ قاله الربيع بن أنس. الثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا؛ قاله الضحاك. الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقا لنبيهم؛ قاله الكلبىّ. الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى ألهمهم إياها. وقيل: فيه خمسة أوجه: أحدها — آتاهم الخشية؛ قاله الربيع. الثانى — ثواب تقواهم فى الآخرة؛ قاله السدىّ. الثالث — وفقهم للعمل الذى فرض عليهم؛ قاله مقاتل. الرابع — بيّن لهم ما يتقون؛ قاله ابن زياد والسدّىّ أيضا. الخامس — أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ؛ قاله عطية. الماوردىّ: ويحتمل. سادسا —

(١) هو لقيط بن زرارة. والنشيل: ما طبخ من اللحم بغير تابل. والرغف جمع رغيف. ويقال: أرغفة ورغفان.

(٢) فى الأصول: «حنف» والتصويب عن اللسان مادة «قطف». وقد ورد هذا الشطر فى اللسان مادة «نشل»: «للضاربين الهام والخيل قطف». وقطفت الدابة: أساءت السير وأبطأت.

(٣) تمامه: * لاحق الأيطل محبوك ممر *

Marfat.com

أنه ترك الرخص والأخذ بالعـزائم . وقرئ « وأعطاهم » بدل « وآتاهم » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعـالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَهَـلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . وهذا وعيد للكفار . ﴿ فَقَـدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أماراتها وعلاماتهـا . وكانوا قد قرءوا فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ؛ فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها ؛ قاله الضحاك والحسن . وفى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضمّ السبابة والوسطى ؛ لفظ مسـلم . وخرّجه البخارىّ والترمذىّ وابن ماجه . ويروى " بعثت والساعة كَفَرَسَىْ رِهان " . وقيل : أشراط الساعة أسبابُها التى هى دون معظمها . ومنه يقال للدُّون من الناس : الشَّرَط . وقيل : يعنى علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ؛ قاله الحسن أيضا . وعن الكلبى : كثرة المـال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا البـاب فى كتاب « التـذكرة » مستوفًى والحمد لله . وواحد الأشراط شَرَط ؛ وأصله الأعلام . ومنه قيل الشُّرَط ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها . ومنه الشَّرْط فى البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزْمَعتِ بالصُّرْم بيننا * فقـد جعلت أشراط أوّله تبـدو

و يقـال : أشرط فلان نفسه فى عمـل كذا أى أعلمها وجعلها له . قال أوْس بن حَجَر يصف رجلا تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَة(١) يقطعها ليتّخذ منها قوْسًا :

فأشْرَط نفسَـه فيهـا وهو مُعْصِمٌ * وألْـقَى بأسبابٍ له وتوَكّـلا

---

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القِسِىّ .

Marfat.com

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ «أن» بدل اشتمال من «الساعة»؛ نحو قوله : « أَنْ تَطَئُوهُمْ » من قوله : «رِجَالٌ مؤمنون ونِساءٌ مؤمناتٌ»[(١)] . وقرئ « بَغَتَّـة » بوزن جَرَبَّة[(٢)] ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها؛ وهي مَرْوِية عن أبي عمرو . الزمخشري : وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو ، وأن يكون الصواب « بَغَتَة » بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة « إِنْ تَأْتِهِم بغتة » . قال المهدوي : ومن قرأ « إن تأتِهم بغتة » كان الوقف على « الساعة » ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ، كأنه قال : إن شكّوا في مجيئها « فقد جاء أشراطها » .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ «ذِكراهم» ابتداء و«أَنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في « جاءتهم » للساعة؛ التقدير : فمن أين لهم التـذكر إذا جاءتهم الساعة؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيـل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفي الذكرى وجهان : أحدهمـا — تذكيرهم بمـا عملوه من خير أو شر . الثاني — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا ؛ روى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك" ذكره المـاوَرْدِي .

قوله تعـالى : فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ قال المـاوردي : وفيه — وإن كان الرسول عالمـا بالله — ثلاثة أوجه : يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثـاني — ما علمتَه استدلالا فاعلمه خبرا يقينا . الثالث — يعني فاذكر أن لا إله إلا الله؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطيع من حُمُر الوحش . وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين : جربة .

Marfat.com

لحدوثه عنه . وعن سفيان بن عُيَيْنة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فٱعلم أنه لا إله إلا الله واستغفِرْ لذنبك » فأمر بالعمل بعد العلم وقال : « ٱعلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ — إلى قوله — سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » [١] وقال : « وَٱعلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » [٢] . ثم قال بعدُ : « فَٱحْذَرُوهُمْ » [٣] . وقال تعالى : « وَٱعلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » [٤] . ثم أمر بالعمل بعدُ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثاني — استغفر الله ليعصمك من الذنوب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية . أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي ولذنوبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجِس المخزومي قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبيّ صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية « واستغفِرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، جُمْعًا [٥] [عليه] [٦] خِيلان كأنه الثآليل .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها — يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم . الثاني — « متقلبكم » في أعمالكم نهارا « ومثواكم » في ليلكم نياما . وقيل

(١) آية ٢٠ سورة الحديد . (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال . (٣) في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » آية ١٤ سورة التغابن . (٤) آية ٤١ سورة الأنفال . (٥) يريد مثل جُمع الكف ، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها . (٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : جمع خال ، وهو الشامة في الجسد . والثآليل : جمع ثؤلول ، وهي حبيبات تعلو الجسد .

Marfat.com

«متقلبكم» في الدنيا . «ومثواكم» في الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : «متقلبكم» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . «ومثواكم» مقامكم في الأرض . وقال ابن كَيْسان : «متقلبكم» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . «ومثواكم» في القبـــور .

قلت : والعموم يأتي على هـذا كله ، فلا يخفى عليـه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم ، وكذا و جميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أُولَى وأُخْرَى . سبحانه ! لا إله إلا هو .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي المؤمنون المخلصون . ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوحي وحرصا على الجهاد وثوابه . ومعنى «لولا» هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسـخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشـد القرآن على المنافقين . وفي قراءة عبد الله « فإذا أنزلت سورة مُحْدَثَة » أي محدثة النزول . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أي فرض فيهـا الجهاد . وقرئ « فإذا أنزِلت سـورة وذَكر فِيها القِتالَ » على البناء للفاعل ونصب القتال . ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِـمْ مَرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْـهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يَشْخَص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا ، ولميلهم في السر إلى الكفار .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ « فأَوْلَى لهم » قال الجوهري : وقولهم : أَوْلَى لك ، تَهدُّد ووعيد . قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهل للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

Marfat.com

قال الأصمعى : معناه قارَبَه ما يُهلكه ؛ أى نزل به . وأنشد :

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها * وأَوْلَى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد فى « أَوْلى » أحسن مما قال الأصمعى . وقال المبرد : يقال لمن هَمّ بالعَطَب ثم أفْلَت : أَوْلى لك ؛ أى قاربت العطب . كما روى أن أعرابيا كان يوالى رَمْىَ الصيد فيُفْلِت منه فيقول : أَوْلى لك . ثم رمى صيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال :

فلو كان أَوْلَى يُطعِم القومَ صِدْتُهم * ولكنّ أَوْلَى يَتْرُكُ القومَ جُوّعَا

وقيل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أىّ شىء فاتك ! وقال الجُرْجَانِىّ : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل ، ولكن فيه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام . وقد تم الكلام على قوله : « فأَوْلى لهم » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أَوْلَى لهم . وقيل : أى وَلِيَهم المكروه . ثم قال : « طاعة وقول معروف » أى طاعة وقول معروف أمثل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل . وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ فحذف المبتدأ فيوقف على « فأَوْلَى لهم » . وكذا من قدّر يقولون منا طاعة . وقيل : إن الآية الثانية متصلة بالأولى . واللام فى قوله « لهم » بمعنى الباء ؛ أى الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله . وهى قراءة أُبَىّ « يقولون طاعة » . وقيل : إن « طاعة » نعت لـ « سورة » ؛ على تقدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على « فأَوْلى لهم » . وقال ابن عباس : إن قولهم « طاعة » إخبار من الله عز وجل عن المنافقين . والمعنى لهم طاعة وقول معروف قيل وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها . فيوقف على هذا على « فأَوْلَى » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جدّ القتال ، أو وجب فرض القتال ، كرهوه . فكرهوه جواب « إذا » وهو محذوف . وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر . ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى الإيمان والجهاد . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة .

Marfat.com

قوله تعالى : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف فى معنى « إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » فقيل : هو من الولاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاما أن تفسدوا فى الأرض بأخذ الرُّشَا . وقال الكلبيّ : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا فى الأرض بالمعاصى وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطّعوا أرحامكم . وقيل : « فهل عسيتم » أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا فى الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفًى[(1)] . وقال بكر المزنى : إنها نزلت فى الحَرُورِيّة والخوارج ؛ وفيه بُعْدٌ . والأظهر أنه إنما عنى بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيب بن شريك والفرّاء ، قالا : نزلت فى بنى أمية وبنى هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض » — ثم قال — هم هذا الحيّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم " . وقرأ علىّ بن أبى طالب « إن تُوُلِّيتم أن تفسدوا فى الأرض » بضم التاء والواو وكسر اللام . وهى قراءة ابن أبى إسحاق ، ورواها رُوَيْس عن

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٤٤

Marfat.com

يعقوب . يقول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم فى الفتنة وحاربتموهم . ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغى والظلم والقتل . وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم « وتَقْطَعوا » بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتبارا بقوله تعالى « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »[1] . وروى هذه القراءة هارون عن أبى عمرو . وقرأ الحسن « وتَقَطَّعوا » مفتوحة الحروف مشدّدة؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ »[2] . الباقون « وتُقَطِّعوا » بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير؛ وهو اختيار أبى عبيد . وتقدّم ذكر « عسيتم » فى (البقرة)[3] . وقال الزجاج فى قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز «عَسِى» بالكسر . قال الجوهرى : ويقال عَسِيت أن أفعل ذلك، وعَسَيت بالكسر . وقرئ «فهل عَسِيتم » بالكسر .

قلت : ويدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه فى « البقرة »[3] مستوفى .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته . ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحق . ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ أى قلوبهم عن الخير. فاتبع الأخبارَ بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه؛ فجعله كالبهيمة التى لا تعقل . وقال : « فهل عسيتم » ثم قال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » فرجع من الخطاب إلى الغَيْبة على عادة العرب فى ذلك .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام . ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون . وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبهم . وفى حديث مرفوع أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها" . وأصل القَفْل اليُبْس والصلابة . ويقال لما يبس من الشجر : القَفْل . والقفيل مثله . والقفيل أيضا نبت . والقفيل : الصوت . قال الراجز :

لما أتاك يابسا قِرْشَبّا * قمت إليه بالقفيل ضربا

* كيف قَرَيْتَ شَيْخَكَ الأَزَبّا[4] *

---

(١) آية ٢٧ سورة البقرة . (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء . (٣) جـ ٣ ص ٢٤٤
(٤) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر .

Marfat.com

القِرْشَبّ (بكسر القاف): المسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم أي أيبسه؛ قاله القشيري والجوهري. فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «على قلوبٍ» لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها.

الثالثة — في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وَصلكِ وأقطع مَن قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اقرءوا إن شئتم «فهل عَسَيتم إن تَولّيتم أن تُفسِدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها»". وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن. فالرحِم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان، التي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوة»[(1)]. وعلى قول الفراء أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية؛ والمراد من أضمر منهم نفاقا؛ فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك يوجب القتال. وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة؛ فالعامة رَحِم الدِّين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم. وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرف الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم،

(1) آية ١٠ سورة الحجرات.

Marfat.com

وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب . وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التى تجب صلتها هى كل رَحِم مَحْرَم ، وعليه فلا تجب فى بنى الأعمام و بنى الأخوال . وقيل : بل هذا فى كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام فى المواريث، مَحْرَمًا كان أو غير محرم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التى لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله و يعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ؛ على ما ذكرناه أولا والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسى فى مسنده قال : حدّثنا شعبة قال أخبرنى محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا ربّ أُسيء إلىّ فيجيبها ربّها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " . وفى صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبى عمر قال سفيان : يعنى قاطع رَحِم . ورواه البخارى .

الرابعــة — قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدّم[(1)] . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى : « هـذا خَلْقُ الله »[(2)] أى مخلوقه . ومعنى " فرغ منهـم " كمل خلقهم . لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة ؛ تعالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرّحم فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما — أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها و يكتب ثواب مَن وصلها ووزر مَن قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين ، و بمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما —

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ (٢) آية ١١ سورة لقمان .

Marfat.com

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء . فكأنه قال : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ — ثم قال — وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[1] . وقوله : " فقالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة " مقصود هـذا الكلام الإخبار بتأكّد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلهـا بمنزلة من ٱستجار به فأجاره ، وأدخله فى ذمتـه وخِفارته[2] . و إذا كان كذلك فجارُ الله غير مخذول وعهـدُه غير منقوض . ولذلك قال مخاطبا للرّحِم : " أما تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك " . وهذا كما قال عليه السـلام : " ومن صلى الصبح فهو فى ذمة الله تعـالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء فإنه من يطلبه بذمته بشىء يدركه ثم يكُبّه فى النار على وجهه " .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

قال قتادة : هم كفار أهـل الكتاب ، كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعـد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدى : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه فى القرآن . ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أى زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ أى مَدّ لهم الشيطان فى الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضا . وقال : إن الذى أملى لهم فى الأمل ومدّ فى آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفرّاء والمفضـل . وقال الكلْبيّ ومُقاتل : إن معنى « أملى لهم » أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أملَى لهم بالإمهال فى عذابهم . وقرأ أبو عمرو وٱبن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة « وَأُمْلِيَ لهم » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح اليـاء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدَرى ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملى لهم . واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) آية ٢١ سورة الحشر . (٢) الخفارة (بالضم والكسر) : الذمام .

Marfat.com

يملى لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهـدوى : ومن قرأ « وأُمْلِى لهم » فالفاعل اسم الله تعالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : « لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ »[١] ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقير والتعزير على اسم الرسول .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ أى ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا فى الكفر بأنهم قالوا ؛ يعنى المنافقين واليهود . ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى فى مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره فى السر . وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه . وقراءة العامة « أسرارهم » بفتح الهمزة ، جمع سِرّ ؛ وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « إسرارهم » بكسر الهمزة على المصدر ؛ نحو قوله تعالى : « وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا »[٢] . جمع لاختلاف ضروب السرّ .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أى فكيف تكون حالهم . ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ ﴾ أى ضاربين ؛ فهو فى موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أى إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر . وقد مضى فى « الأنفال والنحل »[٣] . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نُصْرةً لرسول الله

(١) آية ٩ سورة الفتح . (٢) آية ٩ سورة نوح . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ٩٩

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب . وقيل : ذلك في القيامة عند سوقهم إلى النار .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك جزاؤهم . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر . ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ يعني الإيمان . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدم .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق وشك ؛ يعني المنافقين . ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه . واختلف في معناه ؛ فقال السدى : غشهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قطرب : عداوتهم . وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق * ساء الصديق وشيد الأضغانا

وقيل : أحقادهم . واحدها ضغن . قال :

* وذى ضغن كففت النفس عنه *

وقد تقدم . وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو * عليك ويخرج الداء الدفينا

Marfat.com

قال الجوهري : الضغن والضغينة : الحقد . وقد ضغِن عليه (بالكسر) ضِغْناً . وتضاغن القوم واضْطَغَنُوا أبطنوا على الأحقاد . واضْطَغَنت الصبيّ إذا أخذته تحت حضنك . وأنشد الأحمر :

* كأنه مُضْطَغِنٌ صَبِيًّا *

أي حامله في حجره . وقال ابن مُقْبل :

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضها * ومِرْفَقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا (١)

وفرس ضاغنٌ لا يعطى ما عنده من الجَرْي إلا بالضرب . والمعنى : أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لعرّفناكهم . قال ابن عباس : وقد عرّفه إياهم في سورة « براءة » (٢) . تقول العرب : سأريك ما أصنع ؛ أي سأعلمك ؛ ومنه قوله تعالى : « بما أراكَ الله » (٣) أي بما أعلمك . ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بعلاماتهم . قال أنس : ما خفي على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؛ كان يعرفهم بسيماهم . وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فِيهِم (٤) الناس ، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم . وقال ابن زيد : قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأبَوْا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله ، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها . ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أي في فحواه ومعناه . ومنه قول الشاعر :

* وخير الكلام ما كان لحناً *

أي ما عُرِف بالمعنى ولم يُصَرَّح به . مأخوذ من اللحن في الإعراب ، وهو الذهاب عن الصواب ، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" أي أذهب بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام . أبو زيد :

(١) المغرض : جانب البطن أسفل الأضلاع . و « رئاس السيف » : مقبضه . و « الشاسف » : اليابس من الضمر والهزال .   (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٦ .   (٣) آية ١٠٥ سورة النساء .

(٤) في نسخ الأصل : « يشكونهم » .

Marfat.com

لَحَنْتُ له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْنًا إذا قُلْتَ له قَوْلًا يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره . ولَحِنَه هو عَنّى (بالكسر) يلحنه لحنا أى فهمه . وألحنته أنا إياه، ولاحنت الناس فاطنتهم؛ قال الفَزارِىّ :

وحديثٍ أَلَذُّه هـو مما * يَنْعَت الناعِتُون يُوزَن وَزْنَا
منطقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا * نًا وخيرُ الحديث ما كان لَحنَا

يريد أنها تتكلم [بشىء] وهى تريد غيره ، وتُعَـرِّض فى حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها . وقد قال تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » . وقال القَتّال الكِلَابِىّ :

ولقد وَحَيْتُ (١) لكم لكيما تفهموا * ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمـرتاب

وقال مرار الأسدى :

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابنى * صدودُكِ تُرْضين الوشاةَ الأعادِيَا

قال الكلبى : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبىّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه . وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبى صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عَرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء منها .

قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور . وقيل : لنعاملنكم معاملة المختبرين . ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ عليه . قال ابن عباس : « حَتَّى نَعْـلَمَ » حتى نميز . وقال علىّ رضى الله عنه . « حتى نعلم » حتى نرى . وقـد مضى

(١) فى اللسان : « لحنت » .

Marfat.com

فى « البقرة ».(١) وقراءة العامة بالنون فى « نَبْلُوَنَّكُمْ » و « نعلم » « ونَبْلُوَ ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ . وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من « نبلو » على القطع مما قبل . ونصب الباقون ردًّا على قوله : « حَتَّى نَعْلَمَ » . وهذا العلم هو العلم الذى يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ نختبرها ونظهرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضَيل بن عِيَاض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللّهمّ لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » الآية.(٢) ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ أى عادوه وخالفوه . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى علموا أنه نبىّ بالحجج والآيات . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ بكفرهم . ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة فى أوامره والرسول فى سننه . ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى حسناتكم بالمعاصى؛ قاله الحسن . وقال الزُّهْرى : بالكبائر. ابن جُريج : بالرياء والسمعة .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية. (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال .

Marfat.com

وقال مقاتل والثُّمَالِيّ : بالمَنّ ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسلامه . وكلّه متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان .

الثانيــة — احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع — صلاةً كان أو صوما — بعد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه . وقال من أجاز ذلك — وهو الإمام الشافعيّ وغيره — : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأمّا ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس واجبا عليه . فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوع ، والتطوع يقتضى تخييرا . وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود فى النار . وقد مضى فى « البقرة » (١) الكلام فيه . وقيل : إن المراد بالآية أصحابُ القَليب (٢) . وحكمها عام .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أى تضعفوا عن القتال . والوَهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسانُ ووَهَنَه غيره ، يتعدّى ولا يتعدّى . قال :

* إنني لست بموهونٍ فَقِر (٣) *

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ (٢) المراد به قليب بدر . (٣) هذا عجز بيت لطرفة ، وصدره :
* وإذا تلسنني ألسنها *

Marfat.com

ووهِن أيضا (بالكسر) وَهْنًا أى ضعف، وقرئ « فما وهُنوا » بضم الهاء وكسرها . وقد مضى فى (آل عمران)(١) .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى الصلح . ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أى وأنتم أعلم بالله منهم . وقيل : وأنتم الأعلون فى الحجة . وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال . وقال قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثـــة — واختلف العلمـاء فى حكمها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقـوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَـا »(٢) ؛ لأن الله تعـالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح . وقيل : منسوخة بقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَـا » . وقيل : هى محكمة . والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال . وقيل : إن قوله « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَـا » مخصوص فى قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هـذا المعنى مستوفى(٢) . ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ أى بالنصر والمعونة ؛ مثل « وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »(٣) . ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لن ينقصكم؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه الموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه؛ تقول منه : وتَره يَتِره وَتْرًا وتِرَةً . ومنه قوله عليه السلام : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله" أى ذهب بهما . وكذلك وَتَره حقّه أى نقصه . وقوله تعالى : « ولَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » أى لن ينتقصكم فى أعمالكم؛ كما تقول : دخلت البيت؛ وأنت تريد فى البيت؛ قاله الجوهرى . الفرّاء : « ولن يَتِرَكُمْ » هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٠

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال . راجع جـ ٨ ص ٣٩

(٣) ٦٩ سورة العنكبوت .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تقدّم فى « الأنعام »[1] . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا يأمركم بإخراج جميعها فى الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عُيينة وغيره . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق فى سبيله ليرجع ثوابه إليكم . وقيل : « لا يَسألكم أموالَكم » إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة . نظيره «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»[2] الآية . ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحْفَى بالمسئلة وألحف وألحّ بمعنًى واحد . والحَفِيّ المستقصِى فى السؤال ؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء فى الكلام والمنازعة . ومنه أحفى شاربه أى استقصى فى أخذه . ﴿ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى يخرج البخل أضغانكم ، قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن وحُمَيد « وتَخْرُج » بتاء مفتوحة وراء مضمومة . « أضغانُكم » بالرفع لكونه الفاعل . وروى الوليد عن يعقوب الحضرمىّ « ونخرج » بالنون . وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبى عمرو « ويخرجُ » بالرفع فى الجيم على القطع والاستئناف . والمشهور عنه « ويُخرِج » كسائر القرّاء ، عطف على ما تقدّم .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ (٢) آية ٥٧ سورة الفرقان .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿هَأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ﴾ أى هأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدْعَوْن ﴿لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى فى الجهاد وطريق الخير . ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى على نفسه ، أى يمنعها الأجر والثواب . ﴿وَاللَّهُ الْغَنِىُّ﴾ أى إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم . ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ إليها . ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى أطوع لله منكم . روى الترمذى عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » قالوا : ومن يُستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْكِب سَلْمان ثم قال : "هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب فى إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد على بن المدينى أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولّينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه . والذى نفسى بيده لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناوله رجال من فارس" . وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبى : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِيناً ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ قال الطبرى : أى فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله . وحكى عن أبى موسى الأشعرى أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هى أحبّ إلىّ من الدنيا " . والله أعلم .

Marfat.com

ســـورة الفتـــح

مدنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية.
روى محمد بن إسحاق عن الزهري عن عُرْوة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِيَة من أولها إلى آخرها. وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه؛ فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمّ عمر، نَزَرْتَ(1) رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نَشِبْتُ(2) أن سمعت صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه؛ فقال: "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — «إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا»". لفظ البخاري. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: لما نزلت «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا. لِيغفِر لك اللهُ ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخر ويُتِمّ نِعمته عليك ويهديك صِراطا مستقِيما — إلى قوله — فوزا عظِيما» مَرْجِعَه من الحُدَيْبِية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهَدْيَ بالحديبية؛ فقال: "لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعا". وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: «إنا فَتَحْنَا لك فَتْحًا مُبِينًا لِيغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخر». ونحوه قال مقاتل

(1) أي ألحت عليه وبالغت في السؤال.
(2) أي ما لبثت وما تعلقت بشيء.

Marfat.com

ابن سليمان : لمـا نزل قوله تعـالى : « وما أدرى ما يُفعَلُ بِي ولا بِكُم »(١) فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؛ فنزلت بعـد ما رجع من الحديبية « إنَّا فتحنا لك فتحًا مُبينًا » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآيةُ تلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "لقد أنزلت على سورة ما يَسُرُّنى بها حُمْرُ النَّعم" . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سـورة الفتح فى أول ليـلة من رمضان فى صـلاة التطوع حفظه الله ذلك العام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

اختلف فى هذا الفتح ما هو؟ ففى البخارىّ حدّثنى محمد بن بشار قال حدّثنا غُنْدَر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » قال : الحُدَيْبِيَة . وقال جابر : ما كنّا نَعُدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية . وقال الفرّاء(٢) : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نَعُدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنّا نُعَدّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة(٣) ، والحديبية بئر . وقال الضحاك : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمجّ فيها فدرّت بالمـاء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هـذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح و يسألوكم القضية و يرغبوا إليكم فى الأمان وقـد رأوا منكم ما كرهوا" . وقال الشعبيّ فى قوله تعالى « إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا » قال : هو فتح الحديبية، لقد أصاب فيها ما لم يُصب فى غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، و بويع بيعة الرضوان ،

(١) آية ٩ سورة الأحقاف . (٢) فى تفسير الطبرى : « البراء » .
(٣) فى تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

Marfat.com

وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْىُ مَحِلَّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضا والعوْفى : هو فتح خَيْبر . والأول أكثر؛ وخَيْبرُ إنما كانت وعدًا وُعدوه، على ما يأتى بيانه فى قوله تعالى : « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ »[1]، وقوله «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ »[2] . وقال مُجَمِّع بن جارية — وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن — : شهدنا الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِف[3] فوجدنا نبي الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَميم[4] ، فلما اجتمع الناس قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، والذى نفسى بيده إنه لفتح". فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية . وقيل : إن قوله تعالى « فَتْحًا » يدل على أن مكة فتحت عنوة[5]؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على مافتح عَنْوةً . هذا هو حقيقة الاسم . وقد يقال: فُتح البلد صُلْحاً ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح ، فصار الفتح فى الصلح مجازا . والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فيها[6] ، ويأتى .

قوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

---

(١) آية ١٥ من هذه السورة. (٢) آية ٢٠ من هذه السورة. (٣) الإيجاف : سرعة السير.
(٤) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة . (٥) أى فتحت بالقتال ، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها . (٦) راجع جـ ٨ ص ٢

Marfat.com

قال ابن الأنبارى : «فَتْحًا مُبِينًا» غير تام؛ لأن قوله « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ » متعلق بالفتح . كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرّ به عينك فى الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السجستانى : هى لام القَسَم . وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال : يسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك ليجمع لك عِزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ سببا للغفران والثواب . وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » مَرْجِعَه من الحديبية ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزلت علىّ آية أحبّ إلى مما على وجه الأرض " . ثم قرأها النبىّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك ؛ فماذا يُفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيمًا » قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مُجمع ابن جارية . واختلف أهل التأويل فى معنى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فقيل : « ما تقدّم من ذنبك » قبل الرسالة . « وما تأخر » بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسفيان الثورى ، قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح — إلى قوله — توابا » . « لِيَغفِرَ لك اللهُ ماتقدم مِن ذنبِك » قبل الرسالة « وَمَا تَأَخَّرَ » إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ » ماعملته فى الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . « وَمَا تَأَخَّرَ » كل شىء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام فى جريان الصغائر على الأنبياء فى سورة « البقرة »[(1)] ؛ فهذا قول . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

« ما تقدّم » قبل الفتح . « وما تأخّر » بعد الفتح . وقيل : « ما تقدّم » قبل نزول هـذه الآية . « وما تأخّر » بعـدها . وقال عطاء الخُراسانيّ : « ما تقـدّم من ذنبك » يعنى من ذنب أبو يك آدم وحَوّاء . « وما تأخّر » من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . « وما تأخّر » من ذنوب النبيين . وقيل : « ما تقدّم » من ذنب يوم بَدْر . « وما تأخر » من ذنب يوم حُنَين . وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو ويقول : " اللّهُمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبد فى الأرض أبدا " وجعل يردّد هـذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه من أين تعلم أنى لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا؛ فكان هذا الذنب المتقدّم . وأما الذنب المتأخرفيوم حُنين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبى سفيان : " ناولانى كَفًّا من حَصْباء الوادى " فناولاه فأخذه بيده ورمى به فى وجوه المشركين وقال : "شاهت الوجوه . حَم . لا ينصرون " فآنهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . ثم نادى فى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : " لو لم أرمهم لم ينهزموا " فأنزل الله عز وجل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ » (١) فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو على الرُّوذَبَارِىّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : فى الجنـة . وقيـل : بالنبوّة والحكمة . وقيـل : بفتح مكة والطائف وخيبر . وقيـل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه . ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى غالبًا منيعًا لا يتبعه ذل .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

(١) آية ١٧ سورة الأنفال .

Marfat.com

« السكينة » : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة إلا التى فى « البقرة »(١) . وتقدّم معنى زيادة الإيمان فى « آل عمران »(٢) . وقال ابن عباس : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى تصديقًا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينامع يقينهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام فى «لِيدخِل» يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله : « لِيَغفر لك الله ». ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . ﴿ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى نجاةً من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه « لِيَغفِر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر » قالوا : هنيئا لك يا رسول الله، فماذا لنا ؟ فنزل « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات » ولما قرأ « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك » قالوا : هنيئا لك ؛ فنزلت « وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي »(٣) فلما قرأ «وَيَهْدِيَكَ صِراطا مستقيما» نزل فى حق الأمة « وَيَهْدِيَكُمْ صراطًا مستقيمًا »(٤) . ولما قال « وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠
(٣) آية ٣ سورة المائدة . (٤) آية ٢٠ من هذه السورة .

Marfat.com

المؤمنين»(١) . وهو كقوله تعالى: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما»(٢) . ثم قال : «هو الذي يصلي عليكم»(٣) ذكره القشيري .

قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ أى بإيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبي عليه السلام قتلا وأسرا واسترقاقا. ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ يعنى ظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : «بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا» . وقال الخليل وسيبويه : «السوء» هنا الفساد . ﴿عليهم دائرة السوء﴾ فى الدنيا بالقتل والسبي والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السوء» بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهرى : ساءه يسوءه سوءا (بالفتح) ومساءة ومسائية ، نقيض سره، والاسم السوء (بالضم). وقرئ «عليهم دائرة السوء» يعنى الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . ﴿وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما﴾ . تقدم فى غير موضع جميعه ، والحمد لله . وقيل : لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه

(١) آية ٤٧ سورة الروم .   (٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب .
(٣) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

Marfat.com

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « ولله جنود السموات » الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون. وأعاد لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيامة . فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة . وقد مضى فى «النساء» عن سعيد بن جبير[1] هذا المعنى مبينا . ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة . ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى فى « البقرة »[2] اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما . وانتصب « شاهدا ومبشرا ونذيرا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة . وعلى هذا تقول : رأيت عمرا قائما غدا . ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو « ليؤمنوا » بالياء ، وكذلك « يعزروه ويُوَقِّروه ويُسَبِّحُوه » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله « ليدخل » وأما بعده فقوله « إن الذين يبايعونك » الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أى تعظموه وتفخموه ؛ قاله الحسن والكلبي . والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . ومنه التعزير فى الحد ؛ لأنه مانع . قال القَطَامِيّ :

---

(١) يلاحظ أن الذى مضى فى سورة النساء هو : سعيد بن المسيب . راجع جـ ٥ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

ألا بَكَرَتْ مَىٌّ بغـير سَفَاهـةٍ * تُعاتِبُ والمَوْدُودُ ينفعه العَزْر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معـه بالسيف . وقال بعض أهـل اللغة : تطيعـوه . ﴿وتُوَقِّرُوهُ﴾ أى تسوّدوه؛ قاله السدى . وقيل تعظموه . والتوقير : التعظيم والتَّرْزِين أيضا . والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وهنا وقف تام، ثم تبتدئ « وتسبحوه » أى تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وأَصِـيلًا﴾ أى عَشِيًّا . وقيـل : الضمائركلّها لله تعالى ؛ فعلى هـذا يكون تأويل « تعزروه وتوقروه » أى تثبتوا له صحـة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك . وآختار هذا القول القشيرى . والأوّل قول الضحاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله سبحانه وتعالى وهو « وتسبّحوه » من غير خلاف . وبعضه راجعا إلى رسـوله صلى الله عليه وسلم وهو «وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ» أى تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة . وفى «تسبحوه» وجهان : أحدهما — تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح . والثانى — هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح . « بُكْرَةً وأَصِيلًا » أى غُدْوة وعشيًّا . وقد مضى القول فيه (١) . وقال الشاعر :

لَعَمْرِى لأنت البيتُ أُكْرِمُ أهْلَهُ * وأجلس فى أفيـائه بالأصائل (٢)

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَـا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِـمْ فَمَن نَّـكَثَ فَإِنَّمَـا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِـهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَـا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحُدَيْبِيَة يا محمد . ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ بيّن أن بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسـلم إنما هى بيعة الله ؛ كما قال تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَـدْ أَطَاعَ اللَّهَ (٣) » . وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان؛ على ما يأتى بيانها فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، ويده فى المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة . وقال الكلبىّ : معناه نعمة الله عليهـم فوق ما صنعوا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٨　(٢) البيت لأبى ذؤيب .　(٣) آية ٨٠ سورة النساء .

Marfat.com

من البَيعة . وقال ابن كَيْسان : قــوّة الله ونُصرته فوق قوّتهــم ونصرتهم . ﴿ فَمَن نَكَثَ ﴾ بعد البيعة . ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أى يرجع ضرر النّكْث عليه ؛ لأنه حَرَم نفسَه الثواب وألزمها العقاب . ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ قيل فى البيعة . وقيل فى إيمانه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعنى فى الجنة . وقرأ حفص والزهرىّ « عليهُ » بضم الهاء . وجرّها الباقون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فسنؤتيه » بالنون . واختاره الفرّاء وأبو معاذ . وقرأ الباقون بالياء . وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقرب اسم الله منه .

قوله تعالى : سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد وابن عباس : يعنى أعراب غِفَار ومُزَينة وجُهينة وأسلم وأشْجع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حَذَرًا من قريش ، وأحرم بعُمْرة وساق معه الهَدْى ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل؛ فنزلت . وإنما قال : « المخلفون » لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه . والمخلَّف المتروك . وقد مضى فى « براءة »(1) . ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما . ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهــذا هو النفاق المحض . ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ قرأ حمــزة والكسائى « ضُرًّا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمرًا يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة .

(1) راجع جـ ٨ ص ٢١٦

Marfat.com

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا . و بالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤدّى عن المرّة وأكثر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضر . وقيل : هما لغتان بمعنًى ؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى نصرًا وغَنِيمة . وهذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع .

قوله تعالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلة[1] رأس لا يرجعون . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أى النفاق . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وهذا التزيين من الشيطان ؛ أو يخلق الله ذلك فى قلوبهم . ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أن الله لاينصر رسوله . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هَلْكَى ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير . قال الجَوْهَرِىّ : البُور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِىّ :

يا رسـول المليك إن لسانى * راتـق ما فَتَقْتُ إذ أنا بـور

وامرأة بُور أيضا ؛ حكاه أبو عبيد . وقوم بُورٌ هَلْكَى . قال تعالى : «وكنتم قوما بورا» وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحُول . وقد بار فلان أى هلك . وأباره الله أى أهلكه . وقيل : « بورا » أشرارًا ؛ قاله ابن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد * يهـدى الإله سبيـل المَعْشَر البـور[2]

أى الهالك .

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت فى الأصول محرّفا .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٤﴾

أى هو غنيّ عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكاليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى.

قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾

قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانم خيبر؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحُدَيْبِيَة فتح خَيْبَر، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر . ولم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولّى للقسمة بخيبر جبّار بن صخر الأنصارى من بنى ... ، وزيد بن ثابت من بنى النجار؛ كانا حاسبين قاسمين . ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أى دعونا . تقول : ذَرْه ، أى دعه . وهو يَذَرُه ؛ أى يَدَعُه . وأصله وذِرَه يَذَرُه مثال وَسِعه يَسَعُه . وقد أُميت صدره[1] ، لا يقال : وذره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهرى . وعبارة اللسان : «والعرب قد أماتت المصدر من «يذر» والفعل الماضى ، فلا يقال . ... » الخ .

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أى يغيّروا . قال ابن زيد : هو قوله تعالى « فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » (١) الآية . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغيّروا وعد الله الذى وعد لأهل الحُدَيْبِيَة ؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبرى وعليه عامة أهل التأويل . وقرأ حمزة والكسائى « كَلِمَ » بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سَلِمة وسَلِم . الباقون « كلام » على المصدر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله « إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » (٢) . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير . والكَلِم لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نَبِقة ونَبِق . ولهذا قال سيبويه : « هذا بابُ عِلْمِ ما الكَلِمُ من العربية » ولم يقل ما الكلام؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الأسم والفعل والحرف ؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة . وتَمِيمٌ تقول : هى كِلْمة ، بكسر الكاف، وقد مضى فى « براءة » القول فيها (٣) . ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة . ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم . وقيل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم “ . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى «فسيقولون بل تحسدوننا» فقال الله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدِّين إلا قليلا ؛ وهو ترك القتال .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .
(٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٦)

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وآبن أبى لَيْلَى وعطاء الخراسانى : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن آبن أبى ليــلى : الروم . وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال آبن جُبير : هوازن وثقيف . وقال عكرمــة : هوازن . وقال قتادة : هــوازن وغَطَفان يوم حُنين . وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة . وقال رافع بن خَديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى « سَتُدْعَوْن إلى قومٍ أُولِي بأسٍ شديدٍ » فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردّه .

الثانيــة — فى هــذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قــول عكرمة وقتادة إن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليــه السلام ؛ لأنه قال « لن تخرجوا معِىَ أبدًا ولن تقاتِلوا معِىَ عدوّا »[(١)] فدلّ على أن المراد بالداعى غير النبى صلى الله عليه وســلم . ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعــد النبى صلى الله عليــه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . الزمخشرى : فإن صحّ ذلك عن قتــادة فالمعنى لن تخرجوا معى أبدا ما دمتم على ما أنتم عليــه من مرض القلوب والاضطراب فى الدِّين .

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .

Marfat.com

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهـم لا يتبعون رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم فى المغنم .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْـلِمُونَ ﴾ هـذا حُكْمُ من لا تؤخذ منهـم الجـزْية ، وهو معطوف على « تقاتلونهـم » أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتـلة و إما الإسلام؛ لا ثالث لها . وفى حرف أُبَىّ « أو يُسْـلِموا » بمعنى حتى يُسلِموا؛ كما تقول : كُلْ أو تشبع؛ أى حتى تشبع . قال :

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُك إنمـا　＊　نحاوِل مُلْكاً أو نموت فنُعْذَرا[1]

وقال الزجاج : قال « أو يسلمون » لأن المعنى أو هـم يسلِمون من غير قتال . وهــذا فى قتال المشركين لا فى أهل الكتاب .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِـكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الغنيمة والنصر فى الدنيـا ، والجنـة فى الآخرة . ﴿ و إنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْـلُ ﴾ عامَ الحُدَيْبِيـة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعـالى : لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لمـا نزلت « وإنْ تتولَّوا كما توليتم من قبل يُعَذِّبْكُمْ عذابًا أليمًا » قال أهل الزَّمانة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت « ليس على الأعْمى حَرَجٌ ولا على الأعْرَج حَرَجٌ ولا على المرَيض حَرَجٌ » أى لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد لعماهـم وزمانتهم وضعفهم . وقد مضى فى « براءة » وغيرها الكلام فيــه مُبَيَّنًا[2] . والعرَج : آفة تعرض لرِجْل واحدة، و إذا كان ذلك مؤثّرا فللرِّجْلين أولى أن يؤثّر . وقال مقاتل : هم أهل الزمانة

(١) البيت لأمرئ القيس .　　(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ وجـ ١٢ ص ٣١٢

Marfat.com

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « ندخله » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدم اسم الله أولا . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ هذه بَيْعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غَزْوة بنى المُصْطَلِق فى شوّال ، وخرج فى ذى القعدة مُعْتَمِراً ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة . وقيل : ألف وخمسمائة . وقيل غير هذا ، على ما يأتى . وساق معه الهَدْىَ ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناسُ أنه لم يخرج لحرب، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدّموا خالد بن الوليد فى خيل إلى « كُرَاع الغَمِيم » فورَد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « بعُسْفان »(١) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكَعْبى ، فسلك طريقا يخرج به فى ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التى مع خالد ، جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك،

(١) عسفان (بضم أوله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة . (معجم البلدان) .

Marfat.com

فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خَلَأَتْ ! خَلَأَتْ(١) ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما خَلَأَتْ وما هو لها بِخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّة يسألونى فيها صِلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها" . ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ؛ فقيل : يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كِنانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَلِيب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرِّواء(٢) حتى كفى جميع الجيش . وقيل : إن الذى نزل بالسّهم فى القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمى وهو سائق بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ . وقيل : نزل بالسهم فى القَليب البَرَاء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سُهيل بن عمرو العامرى ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك ، فإذا كان منَ قابل أتى مُعْتَمِرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف فى قُرُبها فيقيم بها ثلاثا و يخرج ، وعلى أن يكون بينه و بينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس و يأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للسلمين فرجا ؛ فقال لأصحابه . "اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه" فأنِس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم ، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ! فلا بد أن تكتب : بآسمك اللّهمّ . فقال لعليّ وكان يكتب صحيفة الصلح : "امح يا عليّ ، واكتب بآسمك اللّهمّ" فأبَى عليّ أن يمحو بيده « محمد رسول الله » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اعرضه عليّ" فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن

(١) خلأت الناقة : حرنت و بركت من غير علة .	(٢) الرواء : الكثير .

Marfat.com

يكتب « من محمد بن عبـد الله » . وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئـذ بأثر كتاب الصلح وهو يَرْسُف فى قيوده، فردّه رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى أبيه ؛ فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل " أنّ الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا " .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا، فجاء خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوِى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألّا يفِرّوا . وهى بيعة الرضوان تحت الشجرة، التى أخبر الله تعـالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليـه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النـار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسـلم بيمينه على شماله لعثمان؛ فهو كمن شهدها . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى قال : أوّل من بايع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسـدى . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة؛ فبايعناه وعمرُ آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة(١)، وقال : بايعناه على ألّا نفِرّ ولم نبايعـه على الموت . وعنه أنه سمع جابرا يسأل : كم كانوا يوم الحديبيـة ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرَة ؛ فبايعناه ، غيرَ جَدّ بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعـيره . وعن سالم بن أبى الجَعْـد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألفٍ لكفانا ، كنا ألفا وخمسمائة . وفى رواية : كنا خمس عشرة مائة . وعن عبـد الله بن أبى أوْفَى قال : كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة، وكانت أسْلَم ثُمُن المهاجرين . وعن يزيد بن أبى عبيد قال قلت لسلمة: على أى شىء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت. وعن البراء بن عازب قال : كتب علىّ رضى الله عنه الصلح بين النبىّ صلى الله عليه وسلم و بين المشركين يوم الحديبيـة ؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

(١) السمرة : شجر الطلح .

Marfat.com

لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ: "امحُه". فقال: ما أنا بالذى أمحاه(١)؛ فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا، ولا يدخلها بسلاح الا جُلُبّان السلاح. [قلت لأبى إسحاق: وما جُلُبّان السلاح ؟ قال(٢) :] القِراب وما فيه . وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله(٣) ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهُمّ . فقال : " اكتب من محمد رسول الله " قالوا : لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اكتب من محمد بن عبد الله " فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله، أنكتب هذا! قال "نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا".

وعن أبى وائل قال : قام سهل بن حُنيف يوم صِفّين فقال يأيها الناس ، اتّهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ؛ وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال " بلى " قال . أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال " بلى " قال ففيم نعطى الدّنيّة فى ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال " يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يُضَيّعَنِي الله أبدا" قال : فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظًا فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى؛ قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال بلى . قال : فعلام نعطى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال : يابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى

(١) أمحاه : لغة فى أمحوه . (٢) زيادة عن مسلم . (٣) قوله : « أما باسم الله ... » أى فنحن ندريه . وأما البسملة التى تذكرها بتمامها فما ندريها .

Marfat.com

الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسـل إلى عمر فأقرأه إياه ؛ فقال : يا رسول الله ، أوَ فَتْحٌ هو ؟ قال "نعم" . فطابت نفسه ورجع .

قوله تعـالى : ﴿ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ؛ قاله الفراء . وقال ابن جُريج وقتادة : من الرضا بأمر البيْعة على ألا يفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت . ﴿ فأنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا . وقيل : « فعلم ما فى قلوبهم » من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذلك رؤيا منام" . وقال الصدّيق: لم يكن فيها الدخول فى هذا العام . والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد . وقيل الصبر . ﴿ وأثَابَهُمْ فَتْحاً قريباً ﴾ قال قتادة وآبن أبى ليلى: فتح خيبر. وقيل فتح مكة . وقرئ « وآتاهم » ﴿ ومَغَانِمَ كَثِيرَةً يأخُذُونَهَا ﴾ يعـنى أموال خيبر؛ وكانت خيـبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ « مَغَانِمَ » على هذا بدل من « فَتْحاً قريباً » والواو مُقْحَمة . وقيل : «ومغانم» فارس والروم .

قوله تعـالى : وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تأخُذُونَهَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد . إنها المغانم التى تكون إلى يوم القيامة . وقال ابن زيد : هى مغانم خيـبر . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾ أى خيـبر ؛ قاله مجاهد . وقال ابن عباس : عجّـل لكم صلح الحديبية . ﴿ وكَفَّ أيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يعنى أهل مكة ؛ كفّهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسـلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى؛ لأن كف أيدى المشركين بالحديبيـة مذكور فى قوله « وهـو الذى كف أيْدِيَهُمْ عنكم »[1] . وقال ابن

(١) آية ٢٤ من هذه السورة .

عباس : فى « كَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عنكم » يعنى عُيينة بن حِصْن الفَزَارِى وعوف بن مالك النَّصْرِى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبي صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألقى الله عز وجل فى قلوبهم الرعب وكَفَّهم عن المسلمين . ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للؤمنين ؛ فيعلموا أن الله يحرسهم فى مشهدهم ومَغيبهم . وقيل : أى ولتكون كف أيديهم عنكم آية للؤمنين . وقيل : أى ولتكون هذه التى عجلها لكم آية للؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها . والواو فى «ولتكون» مقحمة عند الكوفيين. وقال البصريون : عاطفة على مضمر ؛ أى وكف أيدى الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للؤمنين . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يزيدكم هُدًى ، أو يثبّتكم على الهداية .

قوله تعالى : وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ « أخرى » معطوفة على « هذه » ؛ أى فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى . وعن ابن عباس أيضا والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضا وقتادة : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حُنين ؛ لأنه قال « لم تَقْدِرُوا عليها » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب فى الحال كما كان فى مكة ؛ قاله القشيرى . وقال مجاهد : هى ما يكون إلى يوم القيامة . ومعنى « قد أحاط الله بها » أى أعدّها لكم ؛ فهى كالشىء الذى قد أحيط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فأنتم وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : « أحاط الله بها » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا »[1] . وقيل : حفظها الله عليكم ؛ ليكون فتحها لكم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(١) آية ١٢ سورة الطلاق .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة : يعنى كفار قريش فى الحُدَيْبِيَة . وقيل : « ولو قاتلكم » غَطَفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر؛ لكانت الدائرة عليهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ يعنى طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةَ » على المصدر . وقيل : « سنة الله » أى كسنة الله . والسنة الطريقة والسِّيرة . قال :

فلا تجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُنّةً من يَسيرها[1]

والسُّنة أيضا : ضرب من تمر المدينة . ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهى الحديبية . ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من جبل التَّنعيم[2] متسلحين يريدون غِرة[3] النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سَلْمًا[4]

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلى . (٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف .

(٣) الغرة (بالكسر) : الغفلة ، أى يريدون أن يصادفوا منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم .

(٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلما فاستحياهم » . وقوله « سلما » قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحه ، وهما لغتان فى الصلح ، وهو المراد فى الحديث على ما فسره الحميدى فى غريبه . وقال الخطابى : إنه السلم ، بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والإذعان ...... وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فإنهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا ... » .

Marfat.com

فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى «وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» . وقال عبد الله بن مغفّل المُزَنىّ : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل جئتم فى عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا" . قالوا : اللهم لا ؛ فخلّى سبيلهم . فأنزل الله تعالى : «وهو الذى كفّ أيديهم عنكم» الآية . وذكر ابن هشام عن وَكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْن العُتَقاء، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرًا، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة . وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زُنيم ، اطّلع الثَّنِيّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه؛ فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم خيلا فأتوا باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هل لكم علىّ ذمّة"؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبي : هم أهل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكفّ أيدى المسلمين عنهم . وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان فى خيل المشركين . قال القشيرى : فهذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت . وقد قال سلمة بن الأكوع : كانوا فى أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادى يسير بالرجال والسلاح ، قال : فجئت لستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عمر قال فى الطريق : يا رسول الله ، نأتى قوما حَرْبًا وليس معنا سلاح ولا كُرَاع ؟ فبعث

Marfat.com

رســول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيهـا ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبي جَهْل خرج إليـك في خمسمائة فارس؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : " هذا ابن عمك أتاك في خمسمائة " . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ؛ فيومئـذ سُمِّى بسيف الله ، فخرج ومعه خيـل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهـم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفُر(1) . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ؛ فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصِـير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبي صلى الله عليه وسـلم وقالوا : آضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل . وقيل : هَمَّت غَطَفان وأسـد منع المسلمين من يهود خَيْبر؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كفّ اليد . ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهمـا — يريد به مكة . الثاني — الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم . قال المـاوردى : وفي قوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِم » بفتح مكة . وتكون هـذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحا ؛ لقوله عز وجل : « كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهـل التأويل من الصحابة والتـابعين . وروى الترمذى قال : حدثنـا عبد بن حُميد قال حدثنى سـليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمـانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه؛ فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى : « وهو الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهـم » الآية . قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح ؛ وقد تقدّم . وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها إنمـا فُتحت عَنْوة؛ وقد مضى القول في ذلك في « الحج »(2) وغيرها . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

(1) الظفر (بالضم) : طرف القوس . (2) راجع جـ ١٢ ص ٣٣

Marfat.com

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة ، ومنعوا الهَدْىَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِيناً ؛ فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً ﴾ أى محبوسا . وقيل موقوفا.[1] وقال أبو عمرو ابن العلاء : مجموعا . الجوهرى : عكفه أى حبسه ووقفه ، يَعْكِفه و يَعْكُفه عَكْفًا ؛ ومنه قوله تعالى : « والهَدْىَ معكوفا » ؛ يقال : ما عكفك عن كذا . ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أى منحره ؛ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه : الحَرَم . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه : المُحْصَر مَحِلّ هَدْيه الحَرَم . والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشيء . (وبالفتح) : هو الموضع الذى يَحُله الناس . وكان الهَدْىُ سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلا . وقد اختلف العلماء فى هذا على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » عند قوله تعالى « فإن أحصرتم »[2] والصحيح ما ذكرناه . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر

(١) فى الأصول : « واقفا » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

Marfat.com

ابن عبـد الله قال : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البَـدَنةَ عن سبعة ، والبقَرة عن سبعة . وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعُمْرة كلُّ سبعة فى بَدَنة. فقال رجل لجابر : أيُشتَرَك فى البَدنة مايشترك فى الجَزُور؟ قال: ماهى إلا من البُدْن . وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة ، اشتركنا كل سبعة فى بدنة . وفى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين؛ فحـال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسـلم بدنة وحلق رأسه . قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خِرَاش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى،وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا و يحلّوا؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له أم سلمـة : لو نحرت لنحروا ؛ فنحر رسول الله صلى الله عليـه وسلم هَدْيه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثا وللمقصِّرين مرة . ورأى كعب بن عُجْرَة والقَمْل يسقط على وجهـه ؛ فقال : " أيؤذيك هـوامّك " ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحـلق وهو بالحديبيـة . خرّجه البخارى والدارقطنى . وقـد مضى فى « البقرة »(1) .

الثالثـة ـــ قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان. وقرئ «حتى يبلغ الهَدْىُ محلّه» بالتخفيف والتشديد ؛ الواحدة هَدْيَة . وقد مضى فى « البقرة »(2) أيضا . وهـو معطوف على الكاف والميم من « صدُّوكم » . و ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال،وموضع « أنْ » من قوله «أنْ يبلغ محلّه» نصب على تقدير الحمل على « صَدّوكم » أى صدّوكم وصدّوا الهَدْى عن أن يبلغ . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : وصَدُّوا الهَدْى كراهية أن يبلغ محله . أبو على : لا يصح حمله على العكف ؛ لأنّا لانعلم «عكف» جاء متعدّيا ، ومجىء « معكوفا » فى الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ كأنه لمـا كان حَبْسًا حُمِل المعنى على ذلك ، كما حُمِل الرَّفَث على معنى الإفضاء فعُدّىَ بإلى ؛ فإن حُمل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه ، وجرًّا على قياس

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٨٣ طبعة ثانية . (2) جـ ٢ ص ٣٧٨ .

Marfat.com

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهية أن يبلغ محله . ويجوز تقدير الجر في « أن » لأن عن تقدمت؛ فكأنه قال : وصدّوكم عن المسجد الحرام، وصدّوا الهَدْيَ « عن » أن يبلغ محــله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيدٍ وإن عمرٍو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة وأبي جَنْدل بن سهيل ، وأشباههم . ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أي تعرفوهم . وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون . ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطِئت القــوم ؛ أي أوقعت بهم . و « أن » يجوز أن يكون رفعاً على البدل من « رجالٌ، ونساءٌ » كأنه قال ولولا وطْؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات . ويجوز أن يكون نصبا على البدل من الهــاء والميم في « تعلموهم » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وطْأهم ؛ وهو في الوجهين بدل الاشتمال . « ولم تعلموهم » نعت لـ « رجالٌ » و « نساءٌ » . وجواب « لولا » محذوف ؛ والتقدير : ولو أن تطئوا رجالا مؤمنين ونســاءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة ، ولسلطكم عليهم؛ ولكنا صُنَّاً من كان فيها يكتم إيمانه خَوْفاً . وقال الضحاك : لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرّة العيب ، وهي مفعلة من العُرّ وهو الجَرَب ؛ أي يقول المشركون : قد قتلوا أهــل دينهم . وقيل : المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدِّية في قوله : « فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

Marfat.com

فى « النساء » القول فيه[(١)] . وقال ابن زيد : « معرة » إثم . وقال الجوهرى وابن إسحاق : غرم الدية . قطرب : شدة . وقيل غم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيل للصحابة و إخبار عن صفتهم الكريمه من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدى ؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام فى قولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[(٢)] » .

قوله تعالى : ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ؛ أى لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته . و يجوز أن تتعلق بالإيمان. ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون فى الرحمة . وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ؛ أى جنته .

الثانية — قوله تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى تميزوا ؛ قاله القتبى . وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبى . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال على رضى الله عنه : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » فقال : "هم المشركون من اجـ[illegible] الله ومن كان بعدهم وفى عصرهم كان فى أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أ[illegible]لاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليما" .

الثالثة — هذه الآية دليل على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذاية المؤمن . قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوما من المشركين فى حصن من حصونهم ، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى فى أيديهم ،

(١) راجع ٥ ص ٣٢٣ . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

Marfat.com

أيحرق هـذا الحصن أم لا ؟ قال : سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين فى مراكبهم أنرمى فى مراكبهم بالنـار ومعهم الأسارى فى مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا». وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميـه . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليـه الدية والكفارة . فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة . قال ابن العربى : « وقد قال جماعة إن معناه لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف ؛ لأن من فى الصلب أو فى البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرة . وهو سبحانه قد صرح فقال : «ولولا رِجالٌ مؤمنون ونِساءٌ مؤمِناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم» وذلك لا ينطلق على من فى بطن المرأة وصلب الرجال، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، وأبى جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينـة الروم فحبس عنهم المـاء ، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم المـاء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم المـاء بغير اختيارنا . وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثّورى الرّمىَ فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . ولو تترّس كافر بولد مسلم رمى المشرك، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دِية فيه ولا كفارة . وقال الثورى : فيه الكفارة ولا دِية . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيّما بروح المسلم؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت : قد يجوز قتل التُّرس ، ولا يكون فيـه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليـة قطعية . فمعنى كونها ضرورية ، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كليـة ، أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتـل الترس مصلحة كل المسلمين؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

Marfat.com

قطعية ، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ؛ فإما بأيدي العدو فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين . وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه ؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة — قراءة العامة « لَوْ تَزَيَّلُوا » إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ « تزايلوا » وهو مثل « تزيّلوا » في المعنى . والتزايل : التباين . و « تزيّلوا » تفعّلوا ، من زِلْت . وقيل : هي تَفَيْعَلُوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما — « لولا رجال » والثاني — « لو تزيلوا » . وقيل جواب « لولا » محذوف ؛ وقد تقدّم . « ولو تزيلوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

العامل في « إذ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الْحَمِيَّةَ ﴾ فعيلة وهي الأنفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيّة إذا أنِفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمّس :

ألا إنني منهم وعِرْضِي عِرْضُهم * كذي الأنف يحمي أنفه أن يُكَشَّما[1]

أي يمنع . قال الزهري : حَمِيّتهم أنفتهم من الإقرار للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالرسالة

---

(١) الكشم : قطع الأنف باستئصال .

Marfat.com

والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى امتنـع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رســول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدّم . وقال ابن بحــر : حميّتهم عصبيّتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حَمِيَّـةَ الجَاهِلِيَّةِ » إنهـم قالوا : قتلوا أبناءنا و إخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ؛ واللات والعزى لا يدخلها أبدا . ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى الطمأنينة والوقار ﴿ عَلَى رَسُــولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قيل لا إلٰه إلا الله . روى مرفوعا من حديث أُبَيّ بن كَعْب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو قول علىّ وابن عمر وابن عباس، وعمرو بن مَيْمُون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسـلمة بن كُهيل وعبيــد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف ، والربيع والسدى وابن زيد . وقاله عطاء الخراسانى، وزاد « محمد رسول الله » . وعن علىّ وابن عمر أيضا هى لا إلٰه إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضا : هى لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له المـلك وله الحمد وهو على كل شىء قـدير . وقال الزهرىّ : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى أن المشركين لم يُقِرّوا بهـذه الكلمة ؛ فخصّ الله بها المؤمنين . و « كلمــة التقوى » هى التى يتقّى بهـا من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كلمــة التقوى » الإخلاص . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من كفار مكة؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيّه . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

قوله تعـالى : لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنـام أنه يدخل مكة على هذه الصفة؛ فلما صالح قريشا بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رســول الله صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

إنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذي قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأن رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء . ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي في العام القابل ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في منامه ؛ خوطب في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ؛ تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[1] . وقيل : خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه ؛ كما قال « ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » . وقيل : استثنى فيما يَعلم ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون ؛ قاله ثعلب . وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ؛ قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمنين »؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إن شاء الله » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أي إن سهل الله . وقيل : « إن شاء الله » أي كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إنْ » بمعنى « إذ » ؛ أي إذ شاء الله؛ كقوله تعالى « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] أي إذ كنتم . وفيه بُعدٌ؛ لأن « إذ » في الماضي من الفعل ، و « إذا » في المستقبل ؛ وهذا الدخول في المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله في العام المقبل فأنزل الله « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق » . وإنما قيل له في المنام « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَام إن شاء الله » فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لتدخلن » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إن » بمعنى « إذ » . ﴿آمِنِينَ﴾ أي من العدو. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة .

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ والتحليق والتقصير جميعا للرجال ؛ ولذلك غلب المذكر على المؤنث . والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير . وقد مضى القول فى هـذا فى « البقرة »[(1)] . وفى الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبيّ صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بِمِشْقَص . وهذا كان فى العُمْرة لا فى الحج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق فى حجته . ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال من المحلّقين والمقصِّرين ؛ والتقـدير : غير خائفين . ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أى علم ما فى تأخير الدخول من الخـير والصلاح ما لم تعلموه أنتم . وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبَر فافتتحها ، و رجع بأموال خيبر وأخذ من العـدة والقوة أضعاف ما كان فيـه فى ذلك العام، وأقبـل إلى مكة على أهبـة وقوة وعدّة بأضعاف ذلك . وقال الكلبي : أى علم أن دخولها إلى سـنة ولم تعلموه أنتم . وقيل : علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم . ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أى من دون رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم فتح خيبر ؛ قاله ابن زيد والضحاك . وقيل فتح مكة . وقال مجاهد : هو صلح الحديبيـة ؛ وقاله أكثر المفسرين . قال الزهرى : ما فتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتـال حين تلتق الناس ، فلما كانت الهـدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن النـاس بعضهـم بعضا ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحـديث والمناظرة . فلم يكلَّم أحد بالإسـلام يعقل شيئا إلا دخل فيـه ؛ فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثـلُ ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستّ يوم الحديبيـة ألفا وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَـلَ رَسُولَهُ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليـه وسلم ﴿ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى يعليه على كل الأديان . فالدِّين اسم بمعنى المصدر ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨١ طبعة ثانية .

Marfat.com

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيه . وقيل : أى ليظهر رسوله على الدين كله؛ أى على الدين الذى هو شرعه بالحجة ثم باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه . ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شهيدا» نصب على التفسير، والباء زائدة؛ أى كفى الله شهيدا لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات . وقيل : «شهيدا» على ما أرسل به؛ لأن الكفار أبوا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

قوله تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ «محمد» مبتدأ و «رسول» خبره . وقيل : «محمد» ابتداء و «رسول الله» نعته . ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يوقف على هذا التقدير على «رسول الله» . وعلى الأول يوقف على «رسول الله»؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه؛ فيكون «محمد» ابتداء و «رسول الله» الخبر «والذين معه» ابتداء ثان . و «أشداء» خبره و «رحماء» خبر ثان . وكون الصفات فى جملة أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم هو الأشبه . قال ابن عباس : أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ «الذين معه» جميع المؤمنين . ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أى يرحم بعضهم بعضا . وقيل :

Marfat.com

متعاطفون متوادّون . وقرأ الحسن « أشداء على الكفار رحماء بينهم » بالنصب على الحال ؛ كأنه قال : والذين معه فى حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أى يطلبون الجنة ورضا الله تعالى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيا العلامة ، وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أى لاحت علامات التهجُّد بالليل وأمارات السهر . وفى سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمد الطلحى قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقال ابن العربى : ودسّه قوم فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقد روى ابن وهب عن مالك « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وَكَفَ[1] المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس ؛ قاله الزهرى . وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة ، وفيه : "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود" . وقال شَهْر بن حَوْشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السَّمْت الحسن . وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(١) أى قطر سقفه .

Marfat.com

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى « سيماهم فى وجوههم » أهو أثر يكون بين عينى الرجل؟ قال لا ، ربما يكون بين عينى الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُريج : هو الوقار والبهاء . وقال شِمْر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أما انه ليس بالنَّدْب فى وجوههم ولكنه الصفرة . وقال سفيان الثَّوْرِى : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم؛ بيانُه قوله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراسانى : دخل فى هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ ﴾ قال الفرّاء: فيه وجهان، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضا ، كمثلهم فى القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنجيل» و إن شئت قلت : تمام الكلام ذلك مثلهم فى التوراة، ثم ابتدأ فقال ومثلهم فى الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان، أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل؛ فيوقف على هذا على « التوراة » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعنى أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ؛ فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، و يوقف على « الإنجيل » ، ويبتدئ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع . و « شطأه » يعنى فراخه وأولاده؛ قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو نبت واحد؛ فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه . قال الجوهرى : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه ، والجمع أشطاء . وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه . قال الأخفش فى قوله « أخرج شطأه » أى طَرَفه . وحكاه الثعلبى عن الكسائى . وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئ إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج : أخرج شطأه أى نباته . وقيل : إن الشطء شوك السُّنْبُل، والعرب أيضا تسميه : السَّفَا ، وهو شَوْك البُهْمَى[1] ، قاله قُطْرُب . وقيل : إنه السنبل، فيخرج من الحبة

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر .

Marfat.com

عشر سنبلات وتسع وثمان؛ قاله الفراء ، حكاه الماوردي . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان « شَطَأَه » بفتح الطاء ؛ وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصرُ بن عاصم وابن وثّاب «شَطَاه» مثل عصاه . وقرأ الجحْدَرِيّ وابن أبي إسحاق « شَطَه » بغير همز؛ وكلها لغات فيها .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ؛ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِيَ أمره ؛ كالزرع يَبْدُو بعد البَذْر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه . فكان هذا من أصح مَثَل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أي قوّى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس؛ أي قوّى الزرعُ الشطءَ . وقراءة العامة « آزره » بالمدّ . وقرأ ابن ذكوان وأبو حَيْوَةَ وحُميد بن قيس « فَأَزَرَهُ » مقصورة ؛ مثل فَعَلَه . والمعروف المدّ . قال امرؤ القيس :

بمَحْنِيَةٍ(١) قد آزر الضَّالَ نَبْتُها * مَجَرّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقا له . والسُّوق : جمع الساق . ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي يعجب هذا الزرع زرّاعَه . وهو مَثَلٌ كما بيّنا ؛ فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم، والشَّطْءُ أصحابه ؛ كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ؛ قاله الضحاك وغيره . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ؛ أي فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد؛ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة . ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ أي ثوابًا لا ينقطع وهو الجنة . وليست « مِن » في قوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة

(١) المحنية (بالتخفيف) : واحدة المحاني، وهي معاطف الأودية . والضال (بتخفيف اللام) : شجرة السّدر .

Marfat.com

مجنّسة ؛ مثلُ قوله تعالى : « فاجتنبوا الرِّجْس من الأوثان »(١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ؛ أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتّى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ؛ فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » ؛ أى من هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة . ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم؛ أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلا لهم، و إن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفى الآية جواب آخر : وهو أن « من » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلّهم مغفرة وأجرا عظيما . فجرى مجرى [قول] العربى : قطعت من الثوب قميصا؛ يريد قطعت الثوب كلّه قميصا . و « مِن » لم يبعض شيئا . وشاهد هذا من القرآن «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ»(٢) معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصّا به بعضه دون بعض . على أن من اللغويين من يقول « من » مجنّسة؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن . قال زُهير :

* أمِن أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تكلّمِ(٣) *

أراد من ناحية أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة . وقال الآخر :

أخُو رغائبَ يعطيها و يسألها * يأبَى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ(٤)

و « من » لم تُبَعِّض شيئا ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرُ . والنَّوْفَل : الكثير العطاء . والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامسة — روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « محمد

---

(١) آية ٣٠ سورة الحج . (٢) آية ٨٢ سورة الإسراء . (٣) الدمنة : آثار الناس وما سودوا بالرماد . لم تكلم : لم تبين ؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره : تكلم ؛ أى ميز ، فصار بمنزلة المتكلم .

(٤) البيت لأعشى باهلة .

Marfat.com

رسولُ اللهِ والذين معه » حتى بلغ « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفارَ » . فقال مالك : مَن أصبح من الناس فى قلبه غَيْظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته فقد رَدّ على الله رَبِّ العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : « مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ » الآية . وقال : « لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » إلى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثناء عليهم ، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »(١) . وقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »(٢) ، ثم قال عَزّ من قائل : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ — إلى قوله — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٣) . وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الناس قَرْنِى ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبُّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه " خرجهما البخارى. وفى حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ؛ فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعُشْر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتّسع تَسِيع ، وللثّمن ثمين ، وللسّبع سَبيع ، وللسّدس سَديس ، وللربع رَبيع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفى البَزّار عن جابر مرفوعا صحيحا : " إن الله اختار أصحابى على العالمين سِوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى " . وقال " فى أصحابى كلّهم خير " . وروى عُوَيم بن ساعدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وجلّ اختارنى واختار لى أصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانًا وأصهارًا فمن سبّهم فعليه لعنة

---

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب .   (٢) آية ٨ سورة الحشر .   (٣) آية ٩ سورة الحشر .

Marfat.com

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منـه يوم القيامة صَرْفًا[١] ولا عَدْلًا " . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ؛ فحَذَارِ من الوقوع فى أحد منهم ، كما فعل مَن طعن فى الدين فقال : إن المُعَوِّذَتَين ليستا من القـرآن ، وما صحّ حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى تثبيتهما ودخولهما فى جمـلة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقـه غيره عليها ، فروايتـه مطّرحة . وهذا ردّ لمـا ذكرناه من الكتاب والسنة ، وإبطالٌ لمـا نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَنى ممن روى لنا الشريعة فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما ، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفـرة وأجرا عظيما . فمن نسـبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة ، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى أُلحِق واحد منهم تكذيبا فقـد سُبّ ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب ، وقد لعن رسـول الله صلى الله عليه وسلم مَن سَبّ أصحابه ؛ فالمكذِّب لأصغرهم — ولا صغير فيهم — داخلُ فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألزمها كلَّ مَن سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمـر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلَت أصواتهم ؛ فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن أبا هريرة مُتَّهَم فيما يرويه ، وصَرّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم وغيره ؛ فنظر إلىّ الرشـيد نظر مُغْضِب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيـل : صاحب البريد بالباب ؛ فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنّط وتكفّن! فقلت : اللّهمّ إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك ، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه ،

---

(١) الصرف : التوبة . وقيل النافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

Marfat.com

فسلّمني منه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النِّطع[1] ؛ فلما بصُرَ بي قال لي : يا عمر بن حبيب ما تلقّاني [أحد[2] من الرد والدفع [لقولي بمثل[2]] ما تلقيتني به ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الذي قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وعلى ما جاء به[2]] ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلّه مردود غير مقبول ؛ فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله ! وأمر لي بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هـذا مذهب أهل السُّنّة ، والذي عليه الجماعة من أئمة هـذه الأمة . وقد ذهبت شِرْذِمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ؛ فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم في بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العـدالة إذ ذاك ؛ ثم تغيّرت بهـم الأحوال فظهرت فيهم الحـروب وسفك الدماء ؛ فلا بُدّ من البحث . وهـذا مردود ؛ فإن خيـار الصحابة وفضلاءهم كعليّ وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنـة بقوله تعالى « مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . وخاصّة العشرة المقطوع لهم بالجنـة بإخبار الرسـول هم القُدْوَة مع علمهم بكثير من الفـتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مصيب . وسيأتي الكلام في تلك الأمور في سورة « الحجرات » مبيّنة إن شاء الله تعالى .

(١) النطع (بالكسر) : بساط من الأديم .

(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد في ترجمة عمر بن حبيب .

Marfat.com

تفسير سورة الحجرات

مدنية بإجماع . وهى ثمانى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء : كان فى العرب جفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتلقيبِ الناس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمىّ : « لا تَقَدَّمُوا » بفتح التاء والدال من التقدّم . الباقون « تُقَدِّمُوا » بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانيــة — واختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول — ما ذكره الواحدىّ من حديث ابن جُرَيج قال : حدّثنى ابن أبى مُلَيكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : أَمِّر القَعْقاع بن مَعْبَد . وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ؛

Marfat.com

فنزل في ذلك : « يأيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يَدَيِ الله ورسولِه — إلى قوله — ولَوْ أنَّهم صَبَرُوا حتَّى تَخْرُجَ إلَيْهِمْ » . رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره المهدَوِيّ أيضا .

الثانى — ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى إلى خَيْبَر ؛ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل « يأيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يَدَيِ الله ورسوله » . ذكره المهدوى أيضا .

الثالث — ما ذكره المَاوَرْدِيّ عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم ؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا (١) إلى المدينة ؛ فلقُوا رجلين من بنى سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بنى عامر، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ؛ فجاء نفر من بنى سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا و بينك عهدا ، وقد قتل منا رجلان ؛ فوداهما النبيّ صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل فىّ كذا ، لو أنزل فىّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . مجاهد : لا تفتاتوا (٢) على الله و رسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله ؛ ذكره البخارى أيضا . الحسن : نزلت فى قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جريج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى ، وسردها قبله الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .
(٢) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

Marfat.com

عليه كالصلاة والصوم والحج، وذلك بيّن . إلا[1] أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدّ خَلّة الفقير، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوع . وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة؛ وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير . وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير . فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة . فإما تقديم كلّي كما قاله أبو حنيفة والشافعيّ، وإما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في مرضه : " مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس " . فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : قولي له إن أبا بكر رجل أَسِيف[2] وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : " إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف[3] . مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " . فمعنى قوله " صواحب يوسف " الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز .

---

(١) في الأصول : « وذلك أن العلماء ... » والتصويب عن ابن العربي .

(٢) سريع البكاء والحزن . وقيل : هو الرقيق .

(٣) قال القسطلاني : « أي مثلهن في إظهار خلاف ما في الباطن ؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به . وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة وغرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته ؛ فعبر بالجمع في قوله « إنكن » والمراد عائشة فقط . وفي قوله « صواحب » والمراد زليخا كذلك » .

Marfat.com

وربما احتج بغاة القياس بهـذه الآية . وهو باطل منهـم ؛ فإن ما قامت دلالتـه فليس في فعله تقـديم بين يديه . وقـد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القـول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذًا تقدّم بين يديه . ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ يعني في التقدّم المنهى عنـه . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يأيُّهـا الذينَ آمَنُو لا تَرْفَعُوا أصواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ روى البخاري والترمذي عن ٱبن أبي مُليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدِم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عنـد النبي صلى الله عليه وسـلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يُسمع كلامه حتى يَستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعني أبا بكر . قال : هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ٱبن أبي مليكة مرسلا ، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخاري ، قال : عن ٱبن أبي مُليكة كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، رفعـا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قَدِم عليـه ركْب بني تَميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال : ما أردتُ خلافك . فارتفعت أصواتهما

Marfat.com

فى ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبى» الآية . فقال آبن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه . ولم يذكر ذلك عن أبيه[1] ؛ يعنى أبا بكر الصديق . وذكر المهدوىّ عن علىّ رضى الله عنه : نزل قوله « لا ترفعوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبىّ » فينا لما آرتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة ، نتنازع آبنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بها رسول صلى الله عليه وسلم لجعفر؛ لأن خالتها عنده . وقد تقدم هذا الحديث فى « آل عمران[2] » . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ ، فأتاه فوجده جالسا فى بيته مُنَكِّسًا رأسه؛ فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شَرٌّ ! كان[3] يرفع صوتَه فَوْقَ صوتِ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقد حبِط عمله وهو من أهل النار . فأتى الرجلُ النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى[4] : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ؛ فقال : "آذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة" . لفظ البخارى . وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى يُكْنَى أبا محمد بآبنه محمد . وقيل : أبا عبد الرحمن . قُتِل له يوم الحَرّة[5] ثلاثةٌ من الولد : محمد ، ويحيى ، وعبد الله . وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما قَدِم وَفْدُ تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فآفتخر ، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

---

(١) قوله « عن أبيه » يريد جدّه لأمه أسماء .

(٢) راجع ج ٤ ص ٨٨ .

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب ؛ والأصل : كنت أرفع صوتى .

(٤) هو ابن أنس ؛ أحد رجال سند الحديث .

(٥) الحرة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة ، تعرف بحرة واقم ، وبها كانت الوقعة فى سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين أنهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى .

Marfat.com

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عنـد ذكر المكارِم
وإنا رءوس الناس من كل مَعْشَر * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارِم
وإنّ لنـا المِرْباع فى كل غارة * تكـون بنجد أو بأرض التهائم (١)

فقام حسان فقال :

بَنى دارِمٍ لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكُمْ * يعود وَبَالًا عنـد ذكر المكارم
هَبِلتم علينا تفخرون وأنتمُ * لنـا خَوَلٌ مِن بين ظِئر وخادِم (٢)

فى أبيـات لهما .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعـالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول » . وقال عطاء الخراسانى : حدّثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لـما نزلت « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ » الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ؛ ففقَده النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليـه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شـديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حَبِط عملى . فقال عليه السـلام : "لستَ منهم بل تعيش بخـير وتموت بخير" . قال : ثم أنزل الله « إنّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٣) » فأغلق بابه وطَفِق يبكى ؛ ففَقَده النبيّ صلى الله عليه وسـلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسـود قومى . فقال : "لست منهم بل تعيش حَمِيدًا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة" . قالت : فلما كان يوم اليمـامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنّا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتـلا ؛ وعلى ثابت يومئـذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من

(١) فى سيرة ابن هشام : « ... أو بأرض الأعاجم » والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة .
(٢) هبلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .
(٣) آية ١٨ سورة لقمان .

Marfat.com

المسلمين فأخذها، فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلْم فتضيعه، إنى لما قُتلت أمس مَرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزلُه فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يَسْتَنّ(١) فى طِوَله، وقد كَفَأ على الدرع بُرْمَةً، وفوق البرمة رَحْل، فأْتِ خالدا فمُرْه أن يبعث إلى درعى فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى أبا بكر — فقل له : إن علىّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيق عتيق وفلان؛ فأتى الرجل خالدا فأخبره؛ فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيّته . قال : ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت، رحمه الله؛ ذكره أبو عمر فى الاستيعاب .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا تخاطبوه : يا محمد، ويا أحمد . ولكن : يا نبىّ الله، ويا رسول الله؛ توقيراً له . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ليقتدى بهم ضَعَفة المسلمين فنُهِىَ المسلمون عن ذلك . وقيل : « لا تجهروا له » أى لا تجهروا عليه، كما يقال : سقط لِفيه؛ أى على فيه . ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه فى محل النصب؛ أى لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة؛ أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أُبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلّت عن رتبتها . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى من أجل أن تحبط، أى تبطل؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثة — معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته؛ أى إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

(١) استن الفرس : قمص وعدا إقبالا وإدبارا . والطول والطيل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الآخر فى يد الفرس، ليدور فيه و يرعى ولا يذهب لوجهه .

Marfat.com

الذى يبلغه بصوته ، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم ، وجهرُه باهرًا لجهركم ؛ حتى تكون مزيّته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وآمتيازه عن جمهوركم كشيَةَ الأبلق . لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبهَروا منطقه بصخبكم . وفى قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم» . وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام . وكره بعض العلمـاء رفع الصوت فى مجالس العلماء تشريفا لهم ؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

الرابعـــة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثالُ كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ؛ كما كان يلزمه ذلك فى مجلســه عند تلفظه به . وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنـة بقوله تعـالى : « وإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »[1] . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحى ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معانى مستثناة ، بيانها فى كتب الفقه .

الخامســـة ــ وليس الغـرض برفع الصـوت ولا الجهر ما يقصـد به الاستخفاف والاستهانة ؛ لأن ذلك كفر والمخـاطبون مؤمنون . وإنمـا الغرض صوت هو فى نفســه والمسموع من جَرْسه[2] غيرُ مناسب لمـا يهاب به العظماء ويوقَّر الكبراء ، فيتكلف الغض منـه وردّه إلى حدٍّ يميل به الى ما يستبين فيــه المأمور به من التعزير والتوقير . ولم يتنـاول النهى أيضا رفع الصوت الذى يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك ؛ ففى الحديث أنه قال عليه السلام للعباس ٱبن عبد المطلب لمـا انهزم الناس يوم حُنين : " اصرخ بالناس " وكان العباس أجهر الناس صوتا ؛ يروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس : يا صباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدّة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .
(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها) : الصوت .

Marfat.com

زَجْرُ أبى عُرْوة[(١)] السباع إذا * أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه .

السادســة — قال الزجاج : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط ؛ أى فتحبط أعمالكم ، فاللام المقدرة لام الصيرورة، وليس قوله : « أَنْ تَحْبَطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون » بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ؛ فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو هريرة : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » قال أبو بكر رضى الله عنه : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار[(٢)] . وذكر سنيد قال : حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة قال : لما نزلت « لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ » قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخى السِّرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » ما حدث عمر عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ؛ فنزلت « إنّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أصواتهم عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أولئك الذين ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى » . قال الفراء : أى أخلصها للتقوى . وقال الأخفش : أى اختصها للتقوى . وقال ابن عباس : « آمتحن اللهُ قلوبَهُمْ للتقوى » طهّرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله

---

(١) أبو عروة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) : المسارّة ؛ أى كصاحب السرار، أو كمثل المساورة لخفض صوته ؛ والكاف صفة لمصدر محذوف .

Marfat.com

والتقوى . وقال عمر رضي الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته . فمعنى آمتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أى اختبرتها حتى خلصت . ففى الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا[1] باديًا كَلالها * قد محنت واضطربت آطالها

﴿ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قال مجاهد وغيره : نزلت فى أعراب بنى تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوْا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مَدْحَنا زَيْنٌ وذَمَّنا شَيْن . وكانوا سبعين رجلا قدّموا الفداءَ ذَرارِىَّ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة . وروى أن الذى نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِى زَيْنٌ وإنّ ذَمِّى شَيْن؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاك الله" . ذكره الترمذى عن البراء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس بِأتباعه ، وإن يكن مَلِكاً نَعِش فى جنابه[2] . فأتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته : يا محمد، يا محمد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بنى تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزِّبْرِقان بن بَدْر ، والأقْرَع بن حابس ، وسُوَيد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقَعْقاع بن مَعْبَد ، ووَكيع بن وكيع ، وعُيَيْنة بن حِصْن

(١) الرذايا : جمع رذية ، وهى الناقة المهزولة من السير . والكلال : الإعياء . والآطال : جمع إطل ؛ وهو الخاصرة .   (٢) فى الطبرى : « فى جناحه » .

Marfat.com

وهـو الأحمق المطاع ، وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة ، أى يتبعه . وكان اسمه حذيفة وسمى عُيَيْنة لشَتَر[1] كان فى عَيْنَيه . ذكر عبد الرزاق فى عُيينة هـذا أنه الذى نزل فيه « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا »[2] . وقد مضى فى آخر « الأعراف » من قوله لعمر رضى الله عنه ما فيه كفاية[3] ؛ ذكره البخارى . وروى أنهم وفدوا وقت الظّهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد ، اخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هم جُفاة بنى تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم " . والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظُّلُمات جمع ظُلْمة . وقيل : الحجرات جمع الحُجَر ، والحُجَر جمع حُجْرة ؛ فهو جمع الجمع . وفيه لغتان[4] : ضمّ الجيم وفتحها . قال :

ولما رأونا باديا رُكَباتنا * على موطن لا نخلط الجدّ بالهزل

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهى فُعْلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « الحُجَرَات » بفتح الجيم استثقالا للضمتين . وقرئ « الحُجْرات » بسكون الجيم تخفيفا . وأصل الكلمة المنع . وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه فى تلك الحالة

---

(١) الشتر (بفتحتين) : انقلاب فى جفن العين . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

Marfat.com

من سوء الأدب . وقيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم، وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ ⑥

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط . وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقا إلى بنى المُصْطَلِق؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — فى رواية : لإِحْنَة كانت بينه و بينهم —؛ فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام . فبعث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه؛ فعاد إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فنزلت هذه الآية؛ فكان يقول نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : "التأنّى من الله والعجلة من الشيطان" . وفى رواية : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بنى المُصْطَلِق بعد إسلامهم؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم . فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم؛ فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّى إليه ما قبلنا من الصدقة، فآستمر راجعا، و بلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسُمِّىَ الوليدُ فاسقًا أى كاذبا . قال

Marfat.com

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن[1] الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لا يستحى من الله . وقرأ حمزة والكسائى «فتثبتوا» من التثبت . الباقون « فتبينوا » من التبين ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أى لئلا تصيبوا ؛ فـ « أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . ﴿ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أى بخطأ . ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأنى .

الثانية — فى هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلًا ؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، و إثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . و إذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل فى مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا . وأما فى الإنشاء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون وليًا فى النكاح . وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وليًا ؛ لأنه يلى ما لها فيلى بُضْعَها . كالعدل ، وهو و إن كان فاسقا فى دينه إلا أن غيرته موفرة وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال و يصون الحرمة ؛ و إذا ولىَ المال فالنكاح أولى .

الثالثة — قال ابن العربى : ومن العَجَب أن يجوز الشافعى ونظراؤه إمامةَ الفاسق . ومن لا يؤتمن على حبة مال [كيف][2] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دَيْن . وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا اسْتُطيعت إزالتهم صُلِّىَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، و إذا أساءوا فاجتنب إساءتهم . ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيَّةً أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته . و بوجوب الإعادة أقول ؛

(١) فى بعض النسخ : « أبو الحسين » .
(٢) زيادة من ابن العربى .

Marfat.com

فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرًّا في نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعة — وأما أحكامه إن كان واليًا فينفذ منها ما وافق الحق ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال؛ ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر](١) أو قول يحكى؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

الخامسة — لا خلاف فى أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره فى قول يبلغه أو شيء يوصله ، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلّغ ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق فى هذه المعانى إلا العدول لم يحصل منها(٢) شيء لعدمهم فى ذلك . والله أعلم .

السادسة — وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم؛ فإن حَكم الحاكمُ قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعة — فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملا بجهالة ؛ كالقضاء بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجتهد . وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله . ذكر هذه المسألة القُشَيْرِى ، والذى قبلها المَهْدَوِى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى ابن العربى : « منهم » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعْلمه أنباءكم فتفتضحون. ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة و إثم ؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأ ، ولَعَنِتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه و بينهم . ومعنى طاعة الرسول لهم : الائتمارُ بما يأمر به فيما يبلّغونه عن الناس والسماع منهم . والعَنَت الإثم ؛ يقال : عَنِت الرجل . والعنت أيضا الفجور والزنى ؛ كما فى سورة « النساء »(١) . والعنت أيضا الوقوع فى أمر شاق ؛ وقد مضى فى آخر « براءة » القول فى « عَنِتُّم » بأكثر من هذا(٢) . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ هذا خطاب للؤمنين المخلصين الذين لايكذّبون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل ؛ أى جعل الإيمان أحبّ الأديان إليكم . ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى حسنه إليكم حتى اخترتموه . وفى هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم ؛ حسب ما تقدّم فى غير موضع . فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم ؛ لاشريك له . ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد . وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتق من فَسَقت الرُّطَبةُ خرجت من قشرها . والفارة من جُحْرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفى(٣) . والعصيان جمع المعاصى . ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعنى هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أى قبحه عندهم ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »(٤) . قال النابغة :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ

والرَّشَد الاستقامة على طريق الحق مع تَصَلُّب فيه ؛ من الرَّشادة وهى الصخرة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٢
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ (٤) آية ٣٩ سورة الروم .

Marfat.com

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وغير مُقَلَّد ومُوَشَّمات   صَلِين الضّوءَ من صُمِّ الرشاد(١)

﴿فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ أى فعل الله ذلك بكم فضلا ؛ أى الفضل والنعمة ، فهو مفعول له . ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ « عليم » بما يصلحكم « حكيم » فى تدبيركم .

قوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ روى المُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قلت : يا نبيّ الله ، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ؛ فلما أتاه النبى صلى الله عليه وسلم قال : إليك عنى ! فوالله لقد أذانى نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحًا منك . فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية . وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج . قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت الآية . ومثله عن سعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال

(١) فى شرح شواهد الكشاف للرحوم الأستاذ أبى عليان : « الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثافى المغير لونها بالنار . والوشم والتوشيم تغيير اللون ، أى التى احترقت بضوئها أى حرها . و «من صم الرشاد» بيان لها . والصم : جمع صماء ، أى صلبة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام ، وأنها غيرها أثر السير ، قوية بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

Marfat.com

بالسّعف والنعال ونحوه ؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم . وقال قتادة : نزلت فى رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة(١) فى حق بينهما؛ فقال أحدهما : لآخذن حق عنوة ؛ لكثرة عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال والسيوف ؛ فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت فى حرب سُمير وحاطب(٢)، وكان سُمير قتل حاطبا؛ فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السُّدّى : كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار ؛ فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها؛ فتدافعوا وتجالدوا(٣) بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وفى قراءة عبد الله « حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط » . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « اقتتلتا » على لفظ الطائفتين . وقد مضى فى آخر « براءة » القول فيه(٤) . وقال ابن عباس فى قوله عز وجل « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٥) » قال : الواحد فما فوقه ؛ والطائفة من الشىء القطعة منه . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه . والبغى : التطاول والفساد . ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى ترجع إلى كتابه . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى احملوهما على الإنصاف . ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا . قيل : أقسطوا أى اعدلوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى العادلين المحقين .

---

(١) تدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة ونحوها واختلفوا . (٢) راجع خبر حربهما فى كتاب الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩٤ (٥) آية ٢ سورة النور .

Marfat.com

الثانية — قال العلماء : لاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما؛ إما أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا أولا . فإن كان الأول فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى صير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثانى وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكف وتتوب؛ فإن فعلت أصلح بينها و بين المبغى عليها بالقسط والعدل . فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم .

الثالثة — فى هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين؛ واحتج بقوله عليه السلام : "قتال المؤمن كفر" . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر؛ تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصدّيق رضى الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهز على جريح؛ ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب فى الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لما أقيم حدّ ولا أُبطِل باطل ، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْى نسائهم وسفك دمائهم؛ بأن يتحزّبوا عليهم ، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم؛ وذلك مخالف لقوله عليه السلام : "خذوا على أيدى سفهائكم" .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة ، و إليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، و إياها عنى النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : "تَقتل عَمّارًا (١) الفئةُ الباغية" . وقوله عليه السلام فى شأن

(١) هو عمار بن ياسر ؛ (راجع خبره فى كتب الصحابة) .

Marfat.com

الخوارج : "يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" . والرواية الأولى أصح ؛ لقوله عليه السلام : " تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق " . وكان الذى قتلهم علىّ بن أبى طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدّين أن علياً رضى الله عنه كان إماما ، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفىء إلى الحق وينقاد إلى الصلح . لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة بُرآء من دمه ؛ لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أوّل مَن خَلَف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بالقتل ؛ فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى ؛ فعرضت على باقى الصحابة الذين ذكرهم [عمر](١) فى الشورى ، وتدافعوها ؛ وكان علىّ كرم الله وجهه أحق بها وأهلها ؛ فقبلها حَوْطة(٢) على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخرق أمرها إلى مالا يتحصل . فربما تغيّر الدّين وانقض عمود الإسلام . فلما بويع له طلب أهل الشام فى شرط البيعة التمكن من قَتَلة عثمان وأخذ القَوَد منهم ؛ فقال لهم علىّ رضى الله عنه : ادخلوا فى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه . فقالوا : لاتستحق بيعة وقَتَلَةُ عثمان معك تراهم صباحاً ومساء . فكان علىّ فى ذلك أسدّ رأيا وأصوبَ قِيلاً ؛ لأن عليـا لو تعاطى القَوَدَ منهم لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر(٣) وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم ؛ فيجرى القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه فى ديانة ؛ وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أوْلَى .

قلت : فهذا قول فى سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جِلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) الحوطة والحيطة : الاحتياط . (٣) فى ابن العربى : «الأمن» .

Marfat.com

وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدر طلحة والزبير؛ والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ . فتمّ لهم ذلك على ما دبّروه ، ونَشِبت الحرب؛ فكان كل فريق دافعاً لمكّرته عند نفسه ، ومانعا من الإشاطة[(١)] بدمه . وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل . وهذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالقتال . وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات؛ كسعد بن أبى وقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم . وصوّب ذلك علىّ بن أبى طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه . ويروى أن معاوية رضى الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعدًا على ما فعل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمتُ على تركى قتالَ الفئةِ الباغية . فتبيّن أنه ليس على الكل دَرْك[(٢)] فيما فعل ، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ ومن العدل فى صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال ؛ فإنه تلَف على تأويل . وفى طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء[(٣)] فى البغى . وهذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل ؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

(١) الإشاطة : الاهلاك . يقال : أشاط فلان دم فلان إذا عرضه للهلاك .
(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة . (٣) استشرى الرجل فى الأمر : لج . والأمور : تفاقمت وعظمت .

Marfat.com

السابعــة — إذا خرجت على الإمام العـدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية ، و يدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة ؛ فإن أَبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا . ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف(١) على جريحهـم ، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم . و إذا قتل العادلُ الباغي أو الباغي العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا . ولا يرث قاتلٌ عمدا على حال . وقيل : إنّ العادل يرث الباغي ؛ قياساً على القصاص .

الثامنــة — وما استهلكه البُغـاة والخـوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به . وقال أبو حنيفة : يضمنون . وللشافعي قولان . وجه قول أبي حنيفة أنه إتلاف بعُـدْوان فيلزم الضمان . والمعوّل في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذَفَّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ؛ وهم القُدْوة . وقال ابن عمـر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة" ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : "لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها" . فأما ما كان قائمـا ردّ بعينه . هذا كله فيمن خرج بتأويل يسـوغ له . وذكر الزَّمَخْشَري في تفسـيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعَة لها ضَمِنت بعـد الفيئة ما جنَت ، و إن كانت كثيرةً ذات منعة وشَوْكة لم تضمن ؛ إلا عنـد محمد بن الحسن رحمـه الله فإنه كان يُفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأما قبـل التجمّع والتجنّد أو حين تتفرق عنـد وضع الحرب أوزارها ، فـا جنته ضمنته عنـد الجميع . فَحَمْلُ الإصلاح بالعدل في قـوله « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالعَدْلِ » على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد . والذى ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . قال الزمخشري : فإن قلت : لم قُرن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه وتحرير قتله .

Marfat.com

فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يتجه . وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإن الضمان متجّه على الوجهين المذكورين .

التاسعة — ولو تغلّبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السنة أو الإجماع ؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة ؛ قاله مُطَرِّف وابن الماجِشون . وقال ابن القاسم : لا تجوز بحال . وروى عن أَصْبَغ أنه جائز . وروى عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْليته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضى الله عنهم، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح ، لم يعرضوا لأحد منهم فى حكم . قال ابن العربيّ : الذى عندى أن ذلك لا يصلح ؛ لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغى ، ولم يكن هناك من يعترضه . والله أعلم .

العاشرة — لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبّدنا بالكف عما شَجَر بينهم ، وألّا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن سبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا . وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ فى التأويل وتقصيرا فى الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل فى طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علىّ بأن قاتل الزبير فى النار . وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "بشّر قاتل ابن صفية بالنار" . وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير

Marfat.com

غير عاصيين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار . وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتهاد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم في الدِّين ، رضي الله عنهم . وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] . وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : تلك دماء قد طَهَّر الله منها يدي ؛ فلا أخْضِب بها لساني . يعني في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه . قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهمين في الدِّين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي في الدِّين والحُرْمة لا في النسب؛ ولهذا قيل : أخوّة الدين أثبت من أخوّة النسب ؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

(١) ١٣٤ سورة البقرة .

وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا(١) ". وفي رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلمُ أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذُله ولا يحقره . التقوى ها هنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسْبِ امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه" لفظ مسلم . وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدّم . وقال أبو عليّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية يرد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ »(٢) . وقال أبو عبيدة : أي أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجحدريّ ويعقوب « بين إخوتكم » بالتاء على الجمع . وقرأ الحسن « إخوانكم » . الباقون « أخويكم » بالياء على التثنية .

الثالثـــة — في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان ، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصِفّين : أمشركون هم ؟

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد في ثمن سلعة ولا رغبة لك في شرائها . وقيل : هو تحريض الغير على الشراء .   (٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

Marfat.com

قال : لا ، من الشِّرك فرّوا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ قيل عند الله . وقيل « خيرا منهم » أي معتقدا وأسلم باطنا . والسُّخْرِية الاستهزاء . سَخِرت منه أسخر سَخَرًا (بالتحريك) ومَسْخَرًا وسُخْرًا (بالضم) . وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش : سَخِرْت منه وسَخِرت به ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وهَزِئت به ؛ كُلٌّ يقال . والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِي ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا » (١) وقد تقدّم . وفلان سُخْرَة ؛ يتسخر في العمل . يقال : خادم سخرة . ورجل سخرة أيضا يسخر منه . وسُخَرَة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانيــة — واختلف في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر ؛ فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . راجع ص ٨٣ من هذا الجزء . و ج ١٢ ص ١٥٤ و ج ١٥ ص ٢٢٥

Marfat.com

فربّض كل رجل منهم بمجلسه ، وعضّوا[1] فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما ؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسّحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلسا فاجلس ! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا ؛ ثم قال : من هذا ؟ قالوا فلان ؛ فقال ثابت : ابن فلانة ! يعيره بها ؛ يعني أمًّا له في الجاهلية ؛ فاستحيا الرجل ، فنزلت . وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أول السورة » آستهزءوا بفقراء الصحابة ؛ مثل عمّار وخبّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم ؛ لما رأوا من رثاثة حالهم ؛ فنزلت في الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد : هو سخرية الغني من الفقير . وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ؛ فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة . وقيل : نزلت في عِكْرِمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلما ؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة . فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وبالجملة فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق[2] في محادثته ؛ فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته ؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبِيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أصنع مثل الذي صنع . وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوكّل بالقول ؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا . و« قوم » في اللغة للمذكّرين خاصة . قال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حِصْن أم نساء

وسُمّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد . وقيل : إنه جمع قائم ، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين . وقد يدخل في القوم النساء مجازا ، وقد مضى في « البقرة »[3] بيانه .

(١) عض فلان الشيء : لزمه واستمسك به . (٢) رجل لبق ولبيق : حاذق رفيق بكل عمل .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ »(١) فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت فى آمرأتين من أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم سَخِرتا من أمّ سلمة ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيها بسَبِيبة — وهو ثوب أبيض ، ومثلها السِّبّ — وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشــة لحفصة رضى الله عنهما : انظرى ! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم ، عيّرن أمّ سَلِمة بالقِصَر . وقيل : نزلت فى عائشة ، أشارت بيــدها إلى أم سلمة ، يانبىّ الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حُيَىّ بن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يُعيّرننى ، ويقلن لى يا يهودية بنت يهوديّين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هلّا قلت إن أبى هارون وإن عمى موسى وإن زوجى محمد " . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعــه — فى صحيح الترمذى عن عائشــة قالت : حَكَيت للنبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا ؛ فقال : " ما يسرنى أنى حَكَيت رجلا وأن لى كذا وكذا "(٢) . قالت فقلت : يارسول الله ، إن صــفية امرأة — وقالت بيــدها(٣) — هكذا ؛ يعنى أنها قصيرة . فقال : " لقــد مزجت بكلمة لو مُزج بها البحر لمزج " . وفى البُخارىّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس . وقال : "لِمَ يضربُ أحدكم آمرأته ضَرب الفَحْل ثم لعله يعانقها " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمــالكم " . وهذا حديث عظيم يترتب عليــه ألا يقطع بعيب أحد لمــا يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعــلم الله من قلبه وَصْفًا مذموما لا تصح

---

(١) أول ســورة نوح . (٢) حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله . (٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على المجاز والاتساع .

Marfat.com

معه تلك الأعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصيةً يعلم الله من قلبه وَصْفًا محمودا يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلوّ فى تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة . بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْزُ: العيب ، وقد مضى فى « براءة » عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ »(١) . وقال الطبرى : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة . والهَمْزُ لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية مثل قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) أى لا يقتل بعضكم بعضا ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتل أخيه قاتلُ نفسه . وكقوله تعالى : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ »(٣) يعنى يسلّم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يَطْعَن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضا . وقرئ : « ولا تَلْمُزُوا » بالضم . وفى قوله « أنفسكم » تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى" . وقال بكر بن عبد الله المزنى : إذا أردت أن تنظر العيوب جَمّة فتأمل عَيّابًا ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . وقال صلى الله عليه وسلم : "يبصر أحدُكم القَذاة(٤) فى عَين أخيه ويدع الجِذْع فى عينه" . وقيل : من سعادة المرء أن يَشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلا وَرِعًا * أشغَلَه عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيم المريض يُشغله * عن وجع الناس كلهم وَجَعُهْ

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٦　(٢) آية ٢٩ سورة النساء .　(٣) آية ٦١ سورة النور .
(٤) القذاة : هو ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

Marfat.com

وقال آخر :

لا تكشفن(١) مساوى الناس ما ستروا * فيهتك الله سترًا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب؛ والجمع الأنباز . والنبز (بالتسكين) المصدر؛ تقول : نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا؛ أى لقّبه . وفلان يُنَبِّزُ بالصبيان أى يلقبهم؛ شُدد للكثرة . ويقال النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء . وتنابزوا بالألقاب : أى لَقّب بعضُهم بعضا . وفى الترمذى عن أبى جُبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الآسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره؛ فنزلت هذه الآية «ولا تنابزوا بالألقاب» . قال : هذا حديث حسن . وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصارى . وأبو زيد(٢) سعيدُ بن الربيع صاحب الهَرَوِى ثقة . وفى مُصنّف أبى داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، فى بنى سلمة «ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ» قال : قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم؛ فنزلت هذه الآية «ولا تنابزوا بالألقاب» . فهذا قول . وقولٌ ثانٍ ــ قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهودىّ يا نصرانى؛ فنزلت . وروى عن قَتادة وأبى العالية وعِكْرِمة . وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق . وقاله مجاهد والحسن أيضا . ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته؛ قاله ابن زيد . وقيل : المعنى أن مَن لَقّب أخاه أو سخِر منه فهو فاسق . وفى الصحيح "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه" . فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهمز والنبز فذلك فسوق، وذلك لا يجوز . وقد روى أن أبا ذَرّ رضى الله عنه كان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فنازعه

(١) فى أدب الدنيا والدين : «ولا تلمس من مساوى» . (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث .

Marfat.com

وجل فقال له أبو ذرّ : يابن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ماترى ها هنا أحمر وأسود ماأنت بأفضل منه" يعني بالتقوى، ونزلت «ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ» . وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعيَّر بما سلف . يدلّ عليه ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من عيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقًّا على الله أن يَبتَلِيه به ويَفضَحَه فيه في الدنيا والآخرة" .

الثالثة — وقع من ذلك مستثنًى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل المِلّة . قال ابن العربيّ : وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جَزَرة (١) ؛ لأنه صحّف « خرزة » فلُقّب بها . وكذلك قولهم في محمد بن سليمان الحضرمي : مُطَيَّن ؛ لأنه وقع في طين . ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا في الدِّين . وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَباح المصريّ يقول : لا أجعل أحدا صغّر اسم أبي [في حلّ] ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذى يضبط هذا كُلّه ؛ أن كلّ ما يكرهه الإنسان إذا نودى به فلا يجوز لأجل الإذاية . والله أعلم .

قلت — وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله في (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح . في « باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل » قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو اليَدَيْن " قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذى النُّورين ، وخزيمة بذى الشهادتين ، وأبا هريرة بذى الشِّمالين وبذى اليدين ، في أشباه ذلك .

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي البغدادى الحافظ . روى الخطيب البغدادى بسنده ... سمعت صالحا — يعنى جزرة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدثكم جرير بن عثمان قال : كان لأبي أمامة خرزة يرقى بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » فقلت : كان لأبي أمامة « جزرة » وإنما هى « خرزة » . راجع تاريخ بغداد في المجلد التاسع ص ٣٢٢ في ترجمة صالح هذا .

Marfat.com

الزمخشري : « روى عن النبي صلى الله عليه وسلم " من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه " . ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن؛ قال عمر رضي الله عنه : أشيعوا الكنى فإنها منبهة ، ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها — من العرب والعجم — تجرى في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير » . قال الماوردي : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت — فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحميد الأعرج، ومروان الأصغر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجس قال : رأيت الأصلع — يعني عمر — يقبل الحجر . في رواية الأصيلع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ أي عن هذه الألقاب التي يتأذى بها السامعون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ قيل : إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبي صلى

Marfat.com

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسِرَيْن فيخدمهما . فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما ، فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبي صلى الله عليه وسلم طعاما وإداما ؛ فذهب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك " وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذهب إليه، فقال أسامة : ما عندى شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ؛ فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة[1] لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما " فقالا : يا نبي الله ، والله ما أكلنا فى يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : " ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة " فنزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ذكره الثعلبيّ . أى لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانيــة — ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسَّسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " لفظ البخارى . قال علماؤنا : فالظن هنا وفى الآية هو التُّهَمة . ومحل التحذير والنهى إنما هو تُهَمة لا سبب لها يوجبها ؛ كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التُّهَمة قوله تعالى : « ولا تجسسوا » وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصّر ويستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك . وإن شئت قلت : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب.

(1) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

Marfat.com

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأُونست منه الأمانة فى الظاهر، فظَنُّ الفساد به والخيانة محرم؛ بخلاف من آشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله حَرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء". وعن الحسن : كنا فى زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام، وأنت اليوم فى زمن اعمل وآسكُتْ وظُنّ فى الناس ما شئت.

الثالثــة — للظن حالتان : حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانيــة — أن يقــع فى النفس شىء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهــذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهى عنــه على ما قررناه آنفا . وقــد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجــواز العمل به؛ تحكمًا فى الدين ودعوى فى المعقول . وليس فى ذلك أصل يعوّل عليــه؛ فإن البارئ تعالى لم يذمّ جميعه، وإنمــا أورد الذمّ فى بعضه . وربمــا تعلّقوا بحــديث أبى هريرة "إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه؛ لأن الظن فى الشريعة قسمان : محمود ومذموم؛ فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم ضدّه؛ بدلالة قوله تعــالى : « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ »، وقولِه : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا »(١)، وقولِه : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا »(٢) وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكى على الله أحدا" . وقال : "إذا ظننت فلا تحقّق وإذا حسدت فــلا تبغ وإذا تطيّرت فآمض" خرّجه أبو داود . وأكثر العلمــاء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبح؛ قاله المَهْدَوِىّ .

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن بآختلاف وغيرهما « ولا تحسسوا » بالحاء . واختلِف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين؛ فقال الأخفش : ليس

(١) آية ١٢ سورة النور . (٢) آية ١٢ سورة الفتح .

Marfat.com

تبعـد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسّس البحثُ عما يُكتم عنك . والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيـل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقولٌ ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تَطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ؛ قاله ثعلب . والأوّل أعرف . جَسَست الأخبار وتجسّستها أى تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تَتَّبعوا عورات المسلمين؛ أى لا يبحث أحدكم عن عَيب أخيه حتى يطّلع عليه بعـد أن ستره الله . وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن ٱتبعت عورات النـاس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها . وعن المِقدام بن مَعْدِى كَرِب عن أبى أُمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إن الأمير إذا ٱبتغى الريبـة فى الناس أفسدهم " . وعن زيد بن وهب قال : أُتِىَ ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنـا شيء نأخذ به . وعن أبى بَرْزة الأسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمـان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفْضحه فى بيته ". وقال عبد الرحمن ابن عَوْف: حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج فى بيت بابُه مُجـافٌ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هـذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى !؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » وقـد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قـلابة : حُدِّث عمر ابن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفِي يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسـلم : خرج عمر وعبـد الرحمن يَعُسَّان ،

Marfat.com

إذ تبيّنت لها نار فاستأذنا ففتح الباب ؛ فإذا رجل وامرأة تغنّى وعلى يد الرجل قدح ؛ فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ! قال عمرَ : فمن هذه منك ؟ قال امرأتى؛ قال فما فى هذا القدح؟ قال ماء زُلال؛ فقال للمرأة: وما الذى تُغَنّين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل واسْودّ جانبُه وأرّقنى أن لا خليلَ ألاعبُهْ
فوالله لولا اللهُ أنى أراقبه لزُعزِع من هذا السرير جوانبه
ولكنّ عقلى والحياء يَكُفُّنِي وأُكرِم بَعْلِي أن تُنال مَراكبُهْ

ثم قال الرجل : ما بهذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » . قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل؛لأن عمر لا يقرّ على الزنى، وإنما غنّت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها فى مَغيبه عنها (١) . والله أعلم . وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها فماتت فدفنها. فكان هو الذى نزل فى قبرها، فسقط من كُمّه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختى إليه ؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا ، فجاء إلى أمه فقال : أخبرينى ما كان عمل أختى ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ! فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم، فتجسّس عليهم وتُخرج أسرارهم ؛ فقال : بهذا هلكت !

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة ، وهى أن تذكر الرجل بما فيه ،فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغيبة " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذكرك أخاك بما يكره " قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

(١) راجع هذه القصة فى جـ ٣ ص ١٠٨ من هذا الكتاب .

Marfat.com

قال : "إن كان فيه ما تقول فقد آغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته". يقال : اغتابه آغتيابا إذا وقع فيه ؛ والاسم الغيبة ، وهى ذكر العيب بظهر الغيب (١). قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان . فأما الغيبة فهو أن تقول فى أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال: قال لى معاوية — يعنى ابن قرة — : لو مر بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمى ماعزا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب؛ فسكت عنهما . ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : " أين فلان وفلان " ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله ؛ قال " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا : يا نبي الله ومن يأكل من هذا ! قال : " فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها " .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ مثّل الله الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من آغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية . قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم * وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا (٢)

---

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للمقنع الكندى ، واسمه محمد بن عميرة .

Marfat.com

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس » . فشبّه الوقيعة فى الناس بأكل لحومهم . فمن تنقّص مسلما أو ثَلَمَ عرضه فهو كالآكل لحمه حيًّا ، ومن ٱغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً . وفى كتاب أبى داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمُشُون وجوههم وصدورهم فقلت مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون فى أعراضهم » . وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثـله من جهنم ومن أقام برجل مقام سُمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » . وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين » . وقوله للرجلين : « مالى أرى خُضرة اللحم فى أفواهكما » . وقال أبو قلابة الرقاشى : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما فى الغيبة . وكان ميمون بن سِيـاه لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنـده ؛ ينهاه فإن انتهى و إلا قام . وذكر الثعلبى من حديث أبى هريرة قال : قام رجل من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فرأوا فى قيامه عجزا فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلانا ! فقال : « أكلتم لحـم أخيكم وٱغتبتموه » . وعن سفيان الثورى قال : أدنى الغيبة أن تقول إن فلانا جَعْدٌ قَطَطٌ [(١)] ؛ إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء . وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فـلان حتى رحمناك ؛ قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ! فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكّمك فى حسناتى .

---

(١) الجعد فى صفات الرجال يكون مدحا وذما ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوّة) والخلق . أو يكون جعد الشعر ، وهو ضدّ السبط .
وأما الذم فهو القصير المتردّد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضا ؛ يقال : رجل جعد اليدين . والقطط : القصير الجعد من الشعر .

Marfat.com

السابعة — ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخلقة والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا : لا تكون الغيبة إلا في الخلق والخلق والحسب . والغيبة في الخلق أشد ؛ لأن من عيب صنعة فإنما عيب صانعها . وهذا كله مردود . أما الأول فيرده حديث عائشة حين قالت في صفية : إنها امرأة قصيرة ؛ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته " . خرجه أبو داود . وقال فيه الترمذي : حديث حسن صحيح ، وما كان في معناه حسب ما تقدم . وإجماع العلماء قديما على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب . وأما الثاني فردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين ؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه . وكفى ردا لمن قال هذا القول قوله عليه السلام : " إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته ... " الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي صلى الله عليه وسلم نصا . وكفى بعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : " دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وذلك عام للدين والدنيا . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرضه أو ماله فليتحلله منه " . فعم كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شيئا دون شيء فقد عارض ما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة — لا خلاف أن الغيبة من الكبائر ، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل . وهل يستحل المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه . واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمظلمة يستحلها منه ، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن . وقالت فرقة : هي مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه . واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته . وقالت فرقة : هي مظلمة وعليه الاستحلال منها . واحتجت بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من كانت

Marfat.com

لأخيه عنده مَظْلَمَة فى عِرْض أو مال فليتحلله منه من قبـل أن يأتى يوم ليس هنـاك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته". خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبـل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" . وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ »[1] . وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلّيها . فدلت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها. وأما قول من قال : إنمـا الغيبة فى المـال والبدن ، فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه ، وذلك ليس فى البدن ولا فى المـال . ففى ذلك دليل على أن الظلم فى العِرض والبدن والمـال ، وقد قال الله تعالى فى القاذف : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ »[2] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بهت مؤمنا بمـا ليس فيه حبسه الله فى طِينة الخبال[3]" . وذلك كله فى غير المـال والبدن . وأما من قال : إنها مظلمة ، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ، فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها ، لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم ، فإذا ثبتت الظـلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بحجة ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت له عند أخيه مظلمة فى عِرْض أو مال فليتحللها منـه " . وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحل له ما حرّم الله عليه ، منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمنى . وقيل لابن سيرين : يا أبا بكر ، هـذا رجل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ . (٢) آية ١٣ سورة النور .

(٣) الخبال : الفساد ؛ و يكون فى الأفعال والأبدان والعقول . و « طينة الخبال » : عصارة أهل النار .

Marfat.com

سألك أن تحلله من مظلمة هى لك عنده ؛ فقال : إنى لم أحرمها عليه فأحلّها ، إنّ الله حرّم الغيبة عليـه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبدا . وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل ، وهو الحجة والمبيِّن . والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو ؛ وقد قال تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »(١) .

التاسـعة ـــ ليس من هـذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر ؛ فإن فى الخبر " من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له " . وقال صلى الله عليـه وسلم : " اذكروا الفاجر بمـا فيه كى يحذره النـاس " . فالغيبة إذًا فى المرء الذى يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر . وقال الحسن لمـا مات الحجاج : اللهم أنت أَمَتّه فاقطع عنا سنته ـــ وفى رواية شَيْنه ـــ فإنه أتانا أُخَيْفش أُعَيْمش ، يمدّ بيد قصيرة البنان ، والله ما عَرِق فيها غبار فى سبيل الله ، يُرَجِّل جُمّتـه ويَخْطِر فى مِشْيته ، ويَصْعَد المنبر فيَهْذِر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يَتَّقِى ، ولا من الناس يستحى ؛ فوقه الله وتحتـه مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاةَ أيها الرجل . ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البـدع غِيبة . وكذلك قولك للقاضى تستعين به على أخذ حقـك ممن ظلمك فتقول : فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفـنى أو أساء إلىّ ؛ ليس بغيبة . وعلمـاء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك : " لِصاحب الحق مقال " . وقال : " مَطْلُ الغنيّ ظلم " وقال : " لَيّ الواجد(٢) يُحِلّ عِرْضَه وعقُوبته " . ومن ذلك الاستفتاء ؛ كقول هنـد للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : إن أبا سـفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى ، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نعم فخذى " . فذكرته بالشُّحّ والظلم لها ولولدها ، ولم يرها مغتابة ؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لهـا . وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة ؛ كقوله صلى الله عليـه وسلم :

(١) آية ٤٠ سورة الشورى .		(٢) الواجد : القادر على قضاء دينه .

Marfat.com

"أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم[١] فلا يضع عصاه عن عاتقه" . فهـذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس[٢] بهما . قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشــرة — قوله تعـالى : ﴿مَيْتًا﴾ وقرئ « ميّتا » وهو نصب على الحال من اللحم . ويجـو ز أن ينصب على الأخ ، ولمـا قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عَقّب ذلك بقوله تعالى : ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ . وفيـه وجهان : أحدهما — فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة؛ رُوى معناه عن مجاهـد . الثانى — فكرهتم أن يغتابكم النـاس فاكرهوا غيبة الناس . وقال الفراء : أى فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر؛ أى اكرهوه . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف عليـه . وقيل : عطف على قوله : « اجتنبوا . ولا تجسسوا » . ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعنى آدم وحواء . ونزلت الآية فى أبى هنـد ؛ ذكره أبو داود فى (المراسيل) ؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثنى الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بَيَاضة أن يزوّجوا أبا هنـد آمرأة منهم ؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم : نزوّج

---

(١) هو ابن حذيفة بن غانم القرشى . وقوله : « لا يضع عصاه » أى أنه ضراب للنساء . وقيـل : هو كناية عن كثرة أسفاره؛ لأن المسافر يحمل عصاه فى سفره . (٢) هى أخت الضحاك بن قيس، كانت من المهاجرات الأول، وكانت ذات جمال وعقل وكمال، وكانت عند أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم، فاستشارت النبى عليه السلام فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته .

Marfat.com

بناتنا موالينا ؟ ! فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا » الآية . قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة . وقيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له : ابن فلانة؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من الذاكر فلانة" ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "انظر في وجوه القوم" فنظر؛ فقال : "ما رأيت" ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر؛ فقال : "فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى" فنزلت في ثابت هذه الآية . ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ »(1) الآية . قال ابن عباس : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن؛ فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره . وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . زجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء؛ فإن المدار على التقوى . أي الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى . وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : "يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تَقِيٌّ كريم على الله ، وفاجر شقيٌّ هيِّن على الله . والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » " . خرجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف ، ضعفه يحيى بن معين وغيره . وقد خرج الطبري في كتاب (آداب النفوس) وحدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا إسماعيل قال حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة قال : حدثني أو حدثنا من

(1) آية ١١ سورة المجادلة .

Marfat.com

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : " يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلّغت؟ قالوا نعم؛ قال — ليبلّغ الشاهدُ الغائب" . وفيه عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه و إنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم" .

ولعلىّ رضى الله عنه فى هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهــم آدمُ والأمّ حــواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلة ... وأعظمٌ خُلقت فيهــم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والمــاء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُــدى لمن استهدى أدلّاء
وقَدْرُ كلّ امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعــال سيمــاء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العــلم أعداء

الثانيــة — بيّن الله تعالى فى هــذه الآية أنه خلق الخلق من الذّكر والأنثى ، وكذلك فى أول سورة « النساء » (١) . ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين . وهــذا الجائز فى القدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منــه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه؛ فلعله هــذا القسم؛ قاله ابن العربى .

الثالثــة — خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التى قدّرها وهو أعلم بهــا ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدّ بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه،

(١) راجع جـ ٥ ص ١ وما بعدها .

Marfat.com

بقوله للعـربي : يا عجمي، وللعجمي : يا عربي ؛ ونحو ذلك ممـا يقع به النفي حقيقة . انتهى .

الرابعـة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنمـا يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربى في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيـه . واحتجوا بقوله تعـالى : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »[(١)] . وقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »[(٢)] . وقوله : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى »[(٣)] . فدلّ على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنمـا يكون من ماء الرجل والمرأة لهـذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل . وقوله تعالى: « خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »[(٤)] والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ، على ما يأتي بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعـالى ذكر خَلْق الإنسان من المـاء والسُّلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدل على أن المـاء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا . وبأن المرأة تمنى كما يمنى الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ، حسب ما تقدّم بيانه في آخر « الشورى »[(٥)] . وقد قال في قصة نوح « فَالْتَقَى الْمَـاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »[(٦)] وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينـكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » . وقوله تعالى : « أَلَـمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ويريد ماءين . والله أعلم .

الخامسـة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الشعوب رءوس القبائل ، مثل ربيعة ومُضَر والأوْس والخَزْرَج ، واحدها « شَعْب » بفتح الشين ، سُمُّوا به

(١) آية ٢٠ ، ٢١ سورة المرسلات .
(٢) آية ٨ سورة السجدة .
(٣) آية ٣٧ سورة القيامة .
(٤) آية ٦ ، ٧ سورة الطارق .
(٥) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .
(٦) آية ١٢ سورة القمر .

Marfat.com

لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة . والشَّعب من الأضداد ؛ يقال شعبته إذا جمعته، ومنه المِشعَب (بكسر الميم)، وهو الإشفَى؛ لأنه يجمع به ويشعب . قال :

فَكَابٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ * بمَدْرِيّةٍ كأنه ذَلْقُ مِشعَبِ [(١)]

وشَعَبته إذا فرقته ؛ ومنه سميت المنية شَعوبا لأنها مفرّقة . فأما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق فى الجبل ؛ والجمع الشعاب . قال الجوهرى : الشَّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب . والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم . وأما الذى فى الحديث أن رجلا من الشعوب أسلم [(٢)] ؛ فإنه يعنى من العجم . والشَّعب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذى ينسبون إليه ؛ أى يجمعهم ويضمهم . قال ابن عباس : الشعوب الجمهور [(٣)] ؛ مثل مضر . والقبائل الأفخاذ . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب ؛ والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسبَ الأقرب . وقاله قتادة . ذكر الأول عنه المَهْدوِى [(٤)] ، والثانى الماوردى . قال الشاعر :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة * فلم أر سعدًا مثل سعد بن مالك

وقال آخر :

قبائل من شعوب ليس فيهم * كريم قد يعدّ ولا نجيب

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قحْطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس فى رواية : إن الشعوب الموالى ، والقبائل العرب . قال القُشَيْرِى : وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجبل [(٥)] والترك ؛ والقبائل من العرب . الماوردى : ويحتمل أن

---

(١) قوله : « فكاب على حر الجبين » أى خار على وجهه . و « المدرية » : القرن ؛ وهى المدرى والمدراة ؛ والجمع مدار ومدارَى . و « ذلق » ذلق كل شىء : حده . و « مشعب » مثقب .

(٢) تمام الحديث كما فى اللسان : « فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه » .

(٣) هذا القول منسوب إلى ابن جبير . والمأثور عن ابن عباس أن « الشعوب الجماع » والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم) : مجتمع أصل كل شىء . أراد : منشأ النسب وأصل المولد . وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس .

(٤) هو طرفة بن العبد . (٥) الجبل : الأمة من الخلق والجماعة من الناس ؛ وفيه لغات كثيرة . راجع جـ ١٥ ص ٤٧ من هذا التفسير .

Marfat.com

الشعوب هم المضافون إلى النواحى والشعاب ، والقبائل هم المشتركون فى الأنساب . قال الشـاعر :

وتفرقوا شُعَبًا فكل جزيرة　*　فيهـا أمـير المؤمنين ومنـبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ . وقيـل : الشعب ثم القبيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ ثم الفَصيـلة ثم العَشيرة ، وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حَيّ　*　عـــددًا فى الحـواء ثم القبيله

ثم تتـلوها العِمـارة ثم الـ　*　ـبطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعــدها العشـيرة لكن　*　هى فى جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبيـلة قبلها شَعْب وبعدهما　*　عِمارة ثم بَطْنٌ تِلْوه فَخِـذُ

وليس يؤوى الفتى إلا فصيلته　*　ولا سـداد لِسَهْم ماله قُـذَذُ (١)

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إنّ أكرمكم عنـد الله أتقاكم ﴾ وقد تقدّم فى سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وإنّه لَذِكْرٌ لكَ ولِقومِك » (٢) . وفى هذه الاية ما يدلك على أن التقوى هى المراعى عند الله تعالى وعنــد رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أنّ » بالفتح . كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفى الترمذى عن سَمُرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "الحسب المـالُ والكرمُ التقوى". قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعـالى : « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» . وقد جاء منصوصا عنه عليه السلام : "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله". والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه . وقد مضى هذا فى غير موضع . وفى الخــبر من رواية أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الله تعـالى يقول يوم القيامة إنى جعلت نَسَبًا وجعلتم

(١) القذذ (جمع قذة) : ريش السهم .　　(٢) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

نَسَبًا بجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون ". وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا ". وأعْرَض فى كُلِّ عِطْفَيْه وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سِرٍّ يقول: " إن آلَ أبى ليسوا لى بأولياء إنما وَلِيِّيَ الله وصالح المؤمنين ". وعن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل: من أكرم الناس؟ فقال: " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " قالوا: ليس عن هذا نسألك؛ قال: فأكرمهم عند الله أتقاهم " فقالوا: ليس عن هذا نسألك؛ فقال: " عن معادن العرب؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " وأنشدوا فى ذلك:

ما يصنع العبد بعزّ الغنى * والعزُّ كلّ العزّ للمُتَّقِي

من عرف الله فلم تغنه * معرفةُ الله فذاك الشَّقِي

السابعة — ذكر الطبرى حدّثنى عمر (١) بن محمد قال حدّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدّثنا مندل بن على عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبى الجعد قال: تزوّج رجل من الأنصار آمرأة فطُعِن عليها فى حسبها؛ فقال الرجل: إنى لم أتزوّجها لحسبها إنما تزوّجتها لدينها وخُلُقِها؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة ". ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لَوْم على مسلم إنما اللَّوْم لَوْمُ الجاهلية ". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى. قال ابن العربى: وهذا الذى لحظ مالك فى الكفاءة فى النكاح. روى عبد الله عن مالك يتزوج المَوْلى العربية؛ واحتج بهذه الآية. وقال أبو حنيفة والشافعى:

(١) فى بعض النسخ: «عمرو».

Marfat.com

يراعى الحسب والمال . وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم — تبنّى سالما وأنكحه هندا (١) بنت أخيه الوليد بن عتبة ابن ربيعة، وهو مولى لأمرأة من الأنصار . وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المِقداد بن الأسود.

قلت : وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدلّ على جواز نكاح الموالى العربية ؛ وإنما تراعى الكفاءة فى الدِّين . والدليل عليه أيضا ما روى سهل بن سعد فى صحيح البخارى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ عليه رجل فقال : " ما تقولون فى هذا " ؟ فقالوا : حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع . قال : ثم سكت ؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : " ما تقولون فى هذا " قالوا : حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع ، وإن قال ألا يُسْمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا " . وقال صلى الله عليه وسلم : " تُنْكَح المرأة لمالها وجمالها ودينها — وفى رواية — ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " . وقد خطب سلمان إلى أبى بكر ٱبنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ٱبنته فالتوى عليه، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها؛ فقال بلال : يا رسول الله، ماذا لقيت من بنى البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعونى وآذونى؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم : أمرى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوّجوها . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى أبى هند حين حجمه : " أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه" . وهو مولى بنى بياضة . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوَة عن عائشة أن أبا هند مولى بنى بياضة كان حجاما فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى أبى هند". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " . قال القشيرى أبو نصر :

(١) وتسمى فاطمة .

Marfat.com

وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين فى الزهد والصلاح. والتقىّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب؛ فإن كانا تقيّين فحينئذ يقدّم النسيب منهما؛ كما يقدّم الشاب على الشيخ فى الصلاة إذا استويا فى التقوى .

قوله تعالى : قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السرّ . وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يمنّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى أعراب أرادوا أن يتسمّوا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا ؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين . وقال السدّى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنة وأسلم وغِفار والدِّيل وأشجع؛ قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا ؛ فنزلت . وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى . ومعنى « وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا » أى استسلمنا خوف القتل والسّبى ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم ، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب . وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الظاهر ، وذلك يحقن الدم . ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى إن أخلصوا الإيمان ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ أى لا ينقصكم . ﴿ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ لاته يليته ويلوته : نقصه . وقرأ أبو عمرو « لا يألتكم » بالهمزة ، من ألَت يألت

Marfat.com

ألَتًا ، وهو اختيار أبى حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ »[1]
قال الشاعر :

أبلغ بنى ثُعَلٍ عنّى مُغَلْغَلَةً * جَهْدَ الرِّسالة لا ألْتًا ولا كَذِبَا

واختار الأولى أبو عبيد . قال رُؤْبة :

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ * ولم يَلِتْنِى عن سُرَاها لَيْتُ

أى لم يمنعنى عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فَعَل وأفعل بمعنًى . ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا ؛ أى ما نقصه ؛ مثل ألَته ؛ قاله الفرّاء . وأنشد :

ويأكُلن ما أغْنَى الوَلِىُّ فلم يَلِتْ * كأن بحافات النِّهاء المَزَارِعا[2]

قوله : فلم « يَلِتْ » أى لم ينقص منه شيئا . و « أغْنَى » بمعنى أنبت ؛ يقال : ما أغنت الأرض شيئا ؛ أى ما أنبتت . و « الوَلِىّ » المطر بعد الوَسْمِىّ[3] ؛ سُمِّىَ وَلِيًّا لأنه يلى الوسمىّ . ولم يقل : لا يألتاكم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى إيمانهم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب . فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون فى السر

---

(١) آية ٢١ سورة الطور . (٢) البيت لعدى بن زيد .

(٣) الوسمى : مطر الربيع الأول ؛ سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات .

Marfat.com

والعلانية وكذبوا ؛ فنزلت . ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم ﴾ الذى أنتم عليه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال . و « أن » فى موضع نصب على تقدير لأن أسلموا . ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ أى بإسلامكم . ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ « أن » موضع نصب، تقديره بأن . وقيل : لأن . وفى مصحف عبد الله « إذ هداكم » . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنين . وقرأ عاصم « إن هداكم » بالكسر ؛ وفيه بُعْدٌ ؛ لقوله « إن كنتم صادقين » . ولا يقال : يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة « أن هداكم » . وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ؛ لأن تقدير الكلام : إن آمنتم فذلك منة الله عليكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر ؛ ردًّا على قوله : « قالت الأعراب » . الباقون بالتاء على الخطاب .

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر، وأوله :
" سـورة (قٓ) "

Marfat.com